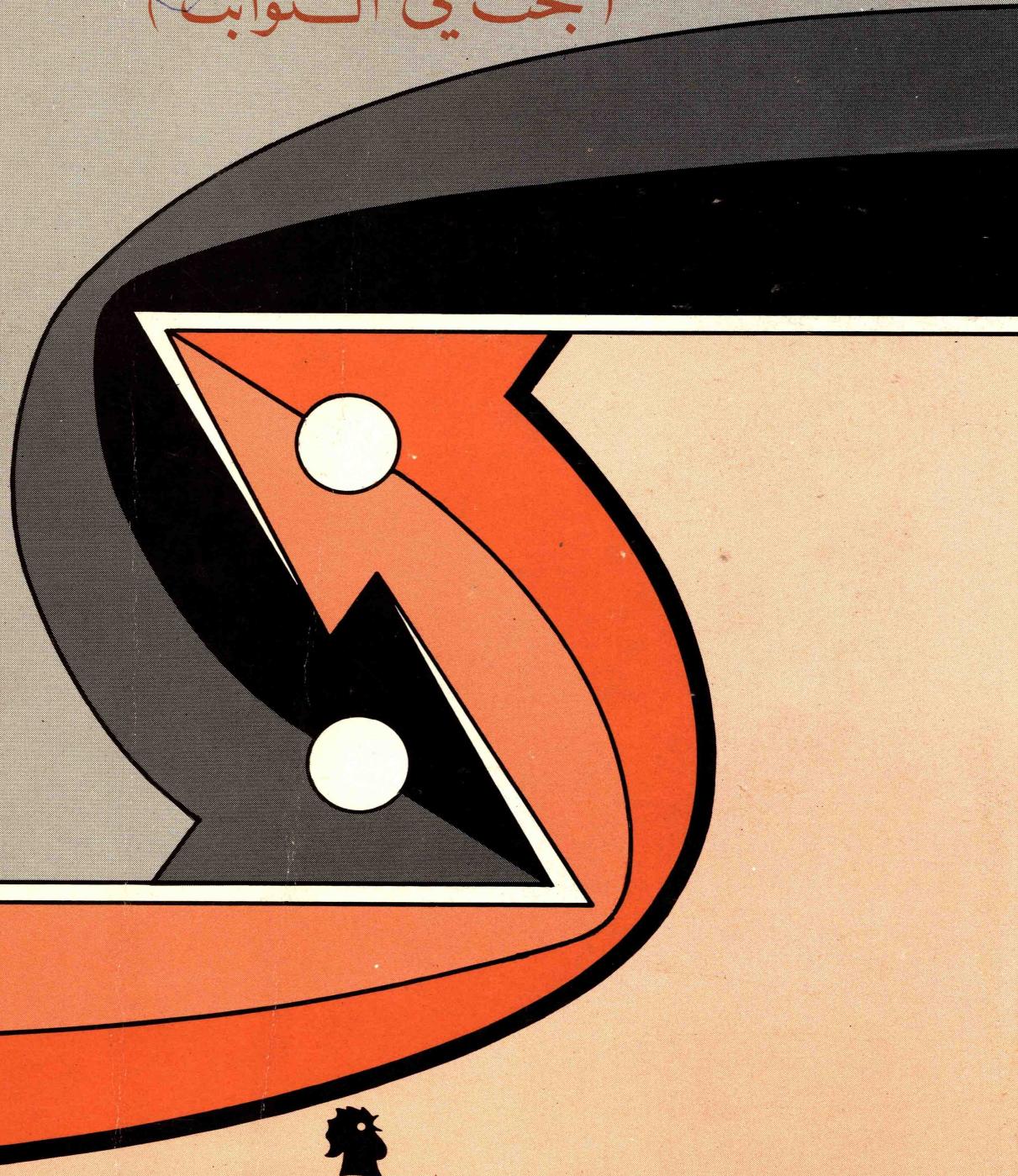


المقدم الرَّكْن  
دِيَاضْ تِيقَى الدِّين

نَافذَةُ  
عَلَى  
الْفَكَرِ الْعَسْكَرِيِّ  
(بَحْثٌ فِي التَّوَابَتِ)



هَادِ النَّهَارُ لِلنَّشْرِ



# **تَأْفِذَةٌ عَلَى الْفَكَرِ الْعَسْكَرِيِّ**



المقدّم الرّكن  
رياض تقي الدين

نَافذة  
عَلَى  
**الفَكْرُ الْعَسْكَرِي**  
( بَحْثٌ فِي التَّوَابَتْ )



هاد النهار للنشر  
بيروت — ١٩٨٦

جميع الحقوق محفوظة  
دار النهار للنشر  
١٩٨٦ — بيروت

إلى كل عسكري عراقي ،  
وألى كل من أحب الفن العسكري ،  
أهدى كتابي هذا .

رباص



## المقدمة

ترددت كثيراً قبل أن أقدم على خوض غمار الكتابة في الحقل العسكري، كون هذا الموضوع قد أشبع درساً على أيدي مفكرين كباراً. صحيح أنني عسكري محترف، ولكن خبرتي المتواضعة لا تمنحي الأهلية الكاملة في بحث من كتب من المفكرين ذوي الخبرة، الذين أفسحت لهم ظروفهم من خلال الأعمال الميدانية والمناصب المتبوأة القيام بالاختبارات العملية واكتناه جدوى النظريات والمبادئ والخروج بمحصلات ذاتية متفردة.

بيد أن ثقافي العسكرية ومطالعاتي المتنوعة، وملحوظاتي لسير الأحداث العالمية والإقليمية والمحلية، بالإضافة إلى دوافعي الذاتية، كونت عندي خيرة من الفكر العسكري وتصوراً معيناً في إطار هيكلية خاصة أعتبرها رصيداً متنامياً هاماً في هذا الحقل. من هذا النطلق أردت أن أسطر كتابي هذا متوكلاً على عدة أهداف.

أوها؛ إبداء وجهة نظر خاصة وعرض خبرة متواضعة ولو بطريقة غير مباشرة، وذلك بالقيام بجولة أفق عامة في فلك بعض ما كُتب في هذا المجال، مع العمل قدر الإمكان للتركيز على التنوع والتطرق لوجهات النظر المتعددة والمتباعدة، وإبقاء مجال الحوار العقلاني المتتطور مفتوحاً غير واقع تحت حتمية الجزم المتحجر.

ثانياً؛ البحث في الثوابت العسكرية وجمع أكبر قدر منها في كتاب واحد، وهذا ما تفتقر إليه المكتبة العسكرية العربية. صحيح أن لا ثوابت أبدية من الناحية النظرية والفلسفية للموضوع، فكل شيء قابل للتطور والتغير، ولكن الثوابت التي

قصدتها هي تلك التي تمتاز بالديمومة النسبية والتي على كل عامل في الحقل السياسي العسكري أن يلم بها ويخذلها بعين الاعتبار في مجرى تصرفاته ومارساته.

وثالثها؛ هو رغبي في أن أعالج موضوع الحرب الثورية التي أصبحت إحدى سمات العصر، وأعالجها في إطار مميز هو الإعفاء وحرب الضعفاء في نطاق الاستراتيجيتين الشاملة وغير المباشرة.

هذه الدوافع الثلاثة هي التي حدت بي للقيام بتسطير هذا الكتاب، وهي التي شكلت أمامي طريق الهدایة وهيكلية التوجه، فأؤمن أن أكون قد وفقت في غايتي.

و قبل أن أختتم مقدمتي لابد من التنويه بأنني لم أشر للمقتبسات في حاشية كل صفحة لكتثرتها، لذلك اكتفيت بأن أذكر المراجع العديدة في نهاية الكتاب توكياً للنتيجة العملية، فأرجو أن أكون قد نجحت، والله ولي القصد.

١٩٨٥/٧/١٠

رياض تقي الدين

نَافِذَةٌ  
عَلَى  
الْفَكَرِ الْعَسْكَرِيِّ

الصَّرَاعُ البَشَرِيِّ  
نَظُرِيَّةُ الْحَرَبِ  
مَبَادِئُ الْحَرَبِ  
التَّأْثِيرُ عَلَى الْمَعْرَكَةِ  
فَنُ الْحَرَبِ  
الْإِسْتَرَاتِيجِيَّةِ



# الصراع البشري

نظرة عامة في الصراع  
حل الصراعات



## نظرة عامة في الصراع

منذ فجر التاريخ، يوم كان العقل في رحم الغريزة، ولم يكن إلا إنساناً ناطقاً وكتلة مشاعر تعبّر عن تكوينه الفيسيولوجي وحاجات جسده المادية، وارتقاءً عبر معارج التطور الإنساني العملاق الطويلة، وحتى يومنا هذا. بدءاً بذلك الماضي السحيق الموجل في الزمن ووصولاً إلى عصر ارتياح الأجواء والفضاء الخارجي والإبداع العلمي المتتطور والحضارة المعقّدة، منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم واكب الصراع البشري العنيف. بفاهيمه ووجهه تطوير العقل والحضارة والأخلاقيات المكتسبة مؤكداً على أنه ظاهرة إنسانية دائمة.

وتعدد مناحي الصراع وتبين أساليبه مرده إلى وفرة العوامل الفاعلة وتشابكها ولكن ضمن نظام يتناسب طرداً مع التطور الحضاري والأخلاقيات البشرية المكتسبة.

في القدم كان الصراع فردياً غريزياً آنياً ومحصوراً جداً في إطار الزمان والمكان والصدفة. ثم تطور إلى صراع المجموعات الصغيرة (عائلة، قبيلة، عشيرة...، إلخ) فاحتل حيزاً في المكان والزمان، وأخذت تبرز فيه أهمية قيمة المصالح والأهداف والغايات أكثر فأكثر، فظهر دور التخطيط كعامل فعال في تحقيق النتائج، فتشعبت بالتالي أنواع الصراع وكثُرت وجوهه ومظاهره من اغتيالات إلى استدرجات خداع وأفخاخ أو غزوارات وكمائن... إلخ.

ومع تطور الزمن ظهرت أنواع الحروب المعقّدة التي تختلف تسمياتها حسب غاياتها وأساليب إدارتها وشمومها ومستوى مدريتها وجغرافية مسارحها، من حروب تقليدية كلاسيكية إلى حروب أهلية أو حروب أنصار أو تحرير شعبية، فحروب محدودة أو نووية أو حروب تدخل وحروب باردة، وما إلى هنالك من سلسلة التسميات بما في ذلك الإرهاب المنظم.

من الواضح إذاً، أن المظاهر الحربية قد تطورت بشكل يتلاءم مع تطور إنسان كقيمة عقلية وطاقة اقتصادية واجتماعية وحضارية، وبالتالي مع تطور تعريفنا للإنسان ومفهومنا له من حيوان ناطق إلى كائن عاقل فعضو اجتماعي ثم مخلوق حضاري، بحيث يرتكز كل تعريف على الصفة المميزة والأهم في نظرتنا للإنسان من خلال منظار الزمان والمكان والقيم الاجتماعية والعقلية السائدة، مع التأكيد بأن أي تعريف لا يلغى مفهوم التعريف الذي

سبقه بل يستبطنه ويغنيه بتحديد جديد يسهم في توضيح صورته وأبعاد طاقاته وتفاعلاته في محیطه حسب قواعد العصر.

ولا بد أن نلاحظ هنا أن الإنسان قد انتبه لظاهرة الصراع هذه فحاول خلال تطوره أن يدرسها من عدة وجوه حسب حاجته لاستنباط قاعدة يلجأ إليها في تفسيراته أو تبريراته إرضاء هاتف استقصائي داخلي وحاجة راهنة، لكن الدراسة تطورت مع الزمن من البساطة المسطحة إلى التعقيد المجسم مستلهمة مؤشرات وثوابت مسيرة الحضارة وسُنته، فكثُرت القواعد وتشعبت النظريات وتناقضت الأفكار، ولكن هذا التناقض لم يُلغِ فكرة حتمية الصراع بل جاء يُشرع النوافذ والأبواب أمامَ معتقداتها مسهلاً لهم سبيل الحجة والجدل والقول بأن ما يخالف هذه الفكرة ما هو إلا الشواذ الذي يؤكد القاعدة.

جاءت أولاً نظرية الأمان الفردي الغريزي لتحل معضلة مفهوم الصراع عند الإنسان وتشكل الرد الكافي على تساؤلاته. ومع انتقال الإنسان إلى المجتمع القبلي حلّت فكرة العصبية مكان نظرية الأمان الغريزي. وبعد ذلك وعند ظهور الدعوات الدينية وانتشارها، سيطر المفهوم الإلهي الأخلاقي للمسألة، وأخذت أسباب الصراعات تفسر من خلال إرادة الله والقدر ووجوب الدعوة والجهاد المقدس. ومع التقدم في مسار الزمن تتالت النظريات الأخرى التي تبحث في مجال علوم الجغرافيا السياسية والعلوم الاجتماعية.

لقد حل «داروين» معضلة الصراع البشري من خلال مجئه بنظرية النشوء والارتقاء والصراع لبقاء الأفضل. تعرض للمشكلة من الناحية الفيسيولوجية ومن جهة التأقلم مع البيئة وردات الفعل المستجيبة للحاجات، واضعاً إياها في إطار صراع ديناميكي مستمر هو ناموس الحياة وإطار عملها.

أما «مالتوس» فقد ركز على القول بأن الحرب هي العامل الأساسي في تصحيح الخلل الاقتصادي والزيادة العددية في المجتمعات البشرية. بذلك جعل الحرب ضرورة اجتماعية وفردية وأيد بالتألي نظرية داروين بالنظر للمعضلة من زاوية أخرى يسود فيها الطابع المجتمعي أو التجمعي على الطابع الفردي.

أما الراهب «أمريك كروسيه» فيحدد في كتابه «Le Nouveau Cynée» بواطن الحرب وأسبابها فيرى أنها تعود لرغبة بعض الدول في إظهار شجاعتها وإنخافتها غيرها، بالإضافة لمحاولة بعض الحكام استرداد ما فقدوا من أقاليم. هذا ويضيف إلى ذلك رغبة بعض الملوك في تدريب جيوشهم لئلا يسيطر عليها الجن فتنقلب الطمأنينة إلى خمول همة. ولا ينسى أخيراً كراهية الشعوب لبعضها البعض بسبب التعصب الديني، أو بسبب جهل كل منها لنظم الأخرى وتقاليدها وأساليب حياتها.

من الواضح أن هذه الأفكار لا تتجه إلى لب الموضوع بل تدور في إطاره الخارجي ومظاهره، وهي لا تلائم مع عصرنا وبالتالي لا يمكن اعتمادها قاعدة صالحة للتعريم فهي ذات طابع محدود بالزمان والمكان وربما العيّنة البشرية التي اختيرت للدرس. إن أهم نقطة في هذه الأفكار هي كراهية الشعوب لبعضها التي يجب أن لا تحصر بمفهوم الكراهةية الصرف وفي نطاق الصراع الديني والجهل، بل يمكن صياغتها في قالب الصراع بين المفاهيم والنظم المختلفة من ناحية القيم والأخلاقيات، وعندما قد تأخذ بعض الملامح من نظرية داروين وتتقارب مع الصراع الطبقي حسب المفهوم الشيوعي الذي سنأتي على ذكره.

أما الراهب الأميركي «وليم بن» فقد أخذ عن المفكّرين الإنكليزيين «هوبرز» و«لوك» فكرة العقد الاجتماعي التي جراه فيها «جان جاك روسو». يقول بن بأن الإنسان عاش حياة حرية وطمأنينة تخضع للقانون الطبيعي في حالة الفطرة. لكن تعدد المصالح فيها بعد وتزايد السكان والتنافس الاجتماعي والتضارب، بسبب الفوائد المادية وحب السيطرة، أدى إلى الانتقال من حياة الفطرة إلى الحياة الاجتماعية وذلك بإبرام عقد اجتماعي بينهم أسفر عن تكوين مجتمع سياسي وإقامة توازن مصالح.

إن المهم في هذا الطرح رغم صحته، هو التفتيش عن السبب الأساسي الكامن في الإنسان نفسه، وهو ما عبر عنه «بن» بحب السيطرة وتعدد المصالح وتضاربها لأن هذا هو الجوهر المحرك للقضايا الفردية والاجتماعية، وأما بقية الأمور فهي مظاهر وإجابات على متطلبات هذا الجوهر.

ويجيب الفيلسوف «كانط» على السؤال الذي يدور حول معضلة الصراع، فيقول إن الحرب صراع بين قوتين هما الخير والشر والغلبة في النهاية ستكون للخير فيعم السلام. وهذا الصراع يتمظهر في نزاع الفرد ومجتمعه كأسلوب تطور إنساني يحكمه الطموح والتنافس. هذا ويعتقد «كانت» كما «هوبرز» بأن الحرب هي الحالة الطبيعية للمجتمع وأن السلام لا يمكن أن يسود إلا بعمل إرادي واعٍ وأخلاقي لأن لا مكان للحرب في حيز وجود أخلاقية الإنسان. إن الإنسان خلوق مجتمعي بحكم تكوينه وبالتالي فهو يتوزع للسلام مع الآخرين لتكونين الجماعة، لكنه فردي أناني بالفطرة يتتصارع في داخله تياراً الأنانية والاجتماعية، ولذلك يبقى الإنسان في صراع دائم مع مجتمعه. إن حال الدول شبيهة بحال الأفراد لديها النزعة الأنانية كما لديها روح الدخول في المجتمعات أكبر وأشمل، وتنطبق قوانين الصراع الفردي عليها بشكل طبيعي وملائم.

إن هذا التصور قريب من نظرية الأديان للمشكلة التي تتمحور حول الصراع بين الخير

والشر، كما أن قربه للإسلام يظهر واضحاً من خلال نظرية الجُبْرية ومن النظر للدنيا بأنها دائمًا دار حربٍ ودار سلام.

هذا ولم يعلن الفكر الإسلامي ويقر إقراراً ناجزاً بحتمية الصدام والصراع البشري، مع أن نشر الدين في مراحله الأولية جاء عن طريق الحملات العسكرية. لقد تأثر مفكرون مسلمون في هذا الموضوع بآراء خارجة عن نطاق الدين، فأقرَّ الفارابي مثلاً، بأن الإنسان مخلوقٌ مجتمعي، آخذًا عن أساطين الفكر اليوناني كأرسطو وأفلاطون. ولكن مفهومه للتجمع أقى عن طريق السلام لا الحرب فحلم بجمهورية فاضلة تسودها العدالة وينتفي فيها الصراع. أما ابن خلدون فقد نظر إلى المجتمع بواقعية أكبر وتلمّس أسباب الصدام والصراع فيه، ورأى أن المجتمع كالفرد له حياة تتسم بمحطات معينة هي الحداثة والشباب والكهولة والشيخوخة، وبالتالي فالمجتمع المترنح لا يمكن أن يجدد شبابه بل يسير إلى الاندثار. إن قوانين ابن خلدون في التجمع تلحظ نهجاً معيناً من حتمية الصراع لاستكمال دورة حياة المجتمع كما تظهر روحية الانعزal لدى الطبقات، لأن الطبقة الأعلى في سلم الرقي الاجتماعي لا تقبل أن تترعرع مع الطبقات الأدنى إلا إذا تمكنت الطبقة الدنيا من الارتفاع إلى مصاف العلية، وهذا ما عبرت عنه نظرية الاستتباع.

لقد نظر جمال الدين الأفغاني إلى أمور التكوين الاجتماعي من ناحية قومية ودينية، فرأى أن القومية والتبلور الوطني ثمرة لخمس خواص ومؤثرات وعناصر، أربع منها نابعة من الطبيعة والواقع والظروف المادية، وهي اللسان والأخلاق والعوائد والإقليم، أما الخاصة الخامسة فهي طارئة من خارج الواقع المادي وهي الدين. إن هذه المؤثرات هي التي تطبع الأقوام بميزات خاصة فتتأصل فيهم محبة البقاء على مألفهم والذود عنه واعتبار من خالقه خارجاً عن القطيع، وهو غير بمفهوم الغيرية المطلقة. إن لكل لغة من اللغات آدابها، وهذه الآداب منبع أخلاق المتحدثين بهذه اللغة. والآداب ليست مرآة للخلق فحسب بل مصدرًا لتكوين الأخلاق وبلورتها. إن هذه النظرة للمجتمع من ناحية قومية ودينية ترتكز على التمايز وتشير إلى أسباب الصراعات بين المجتمعات، وهي بذلك تقف في صف القائلين باحتمالية الصراع وبأرجحيته على السلام في المفهوم التعميمي للتعبير.

أما الأب تيار دي شرдан والعالم جولييان هكسلي والكسيس كاريل فقد طوروا نظرية «كانط» القائلة بأن الإنسان مخلوق اجتماعي ينزع إلى التجمع، وتعزز عندهم الاعتقاد بأن الإنسان كسائر الأنواع الحية عندما تتعدد وتتكاثر أفرادها تنزع بطبيعة الحال إلى التجمع ضمن وحدات عضوية أوسع فأوسع. لقد آمن كمال جنبلاط بهذه النظرية ورأى أن المجتمعات عندما يصبح لها بعض الكثافة المعقّدة تزداد نزعتها وفق سنن السلالات الحية إلى

التجمع بنسبة طردية، وظاهرة التجمع هذه هي إحدى الظواهر الأساسية للاتجاهات التطورية الخامسة للجيل الحاضر. عبر كمال جنبلاط عن هذا التفكير بنظرية التطور الذي يندفع فيها الكائن البشري دائمًا من النطاق الخارجي للخلية الاجتماعية إلى المركز حيث توجد بؤرة المجتمع. والإنسان في نزوعه هذا يناضل لتحقيق أهدافه في الانتقال إلى الداخل، وهنا يمكن مجال الصراع البشري أثناء البحث عن الذات التجمعية خلافاً لمفهوم الصراع الطبقي الماركسي. من هنا لا يمكن فصل أمر القومية عن البحث عن الوحدة. لقد باشر أهل القرى كما يقول ديجوبيت بهدم مؤسسات الأجيال الوسطى في أوروبا وبashروا عهد الديموقراطية السياسية تلبية لنداء «تحيا الوحدة». ولا غرو فالوحدة أو الاتحاد يشكلان نداء الكائن العفوي، نداء كل كائن.

إن تيار «تيار دي شرдан» — جنبلاط يقر باحتمالية الصراع كشيء أو حدثٍ واجب الوجود تحكمه حركة التکرر الطاردة المرتكزة على نزعـة داخلية ونداء يصدر عن أعمـق كل كائن، نداء عفوي يهـتف للجمـاعة.

هذا وينظر كثيرون إلى الحرب باعتبارها درجة من درجات الصراع البشري بمناظير مختلفة. يرى البعض فيها عمل مجازفة يفرز رجالات عظاماً، تنفجر بحـدة ووضـوح وتـنتهي فجـأة بـحـدة، حيث تنطلق مسـيرة الـوـاقـق لتـصل إـلـى مرـتبـة التـحـالـف بينـ المـتـحـارـيـنـ. إنـ هـذـاـ فيـ الـوـاقـعـ بـتـرـ للـحـربـ عـنـ الـمـسـيـبـاتـ وـالـجـذـورـ وـيـعـيـدـ عـنـ الـمـنـطـقـ التـصـاعـديـ، فـالـحـربـ تـتوـبـعـ لـلـصـرـاعـاتـ وـلـيـسـ اـبـنـةـ الصـدـفـةـ وـالـلـحـظـةـ. أماـ لـجـهـةـ التـقـارـبـ الـذـيـ يـولـدـ بـيـنـ الدـوـلـ بـعـدـ الـحـربـ فـهـوـ أـمـرـ وـاقـعـ تـشـهـدـ لـهـ عـلـاقـاتـ أـلـمـانـيـاـ بـالـغـربـ، وـالـيـابـانـ بـالـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ بـعـدـ الـحـربـ الـعـالـمـيـةـ الـثـانـيـةـ، وـيـقـولـ عـنـهـ تـشـرـشـلـ بـأـنـ الـعـشـبـ يـنـبـتـ فـيـ سـاحـاتـ الـقـتـالـ وـلـيـسـ عـلـىـ سـقـالـاتـ الـبـنـاءـ.

ويقول آخرون بأن هناك تصوريـن راسخـين لـدىـ الإـنـسـانـ مـنـ الـقـدـمـ وـهـماـ كـراـهـيـةـ الـحـربـ وـالـخـوفـ مـنـهـ، وـرـغـمـ ذـلـكـ يـلـجـأـ إـلـيـهـ دـائـمـاـ كـحـلـ لـعـضـلـاتـهـ. أماـ أـفـلاـطـونـ فـيـرـىـ أنـ لـاـ مـفـرـ لـجـمـهـورـيـتـهـ الـفـاضـلـةـ مـنـ الـلـجوـءـ إـلـىـ الـحـربـ معـ جـيـرـانـهـ لـتـدـافـعـ عـنـ نـفـسـهـ، بـيـنـماـ يـعـارـضـ ذـلـكـ أـرـخـيمـيدـسـ مـلـكـ إـسـبـارـاطـةـ وـيـعـتـقـدـ أـنـ مـنـ شـارـكـ فـيـ الـحـربـ يـصـبـعـ غـيرـ مـسـتـعدـ بـحـكـمـ خـبـرـتـهـ لـخـوضـهاـ ثـانـيـةـ وـلـاـ يـرـىـ فـيـهـ عـمـلاـ جـيـداـ أـوـ مـنـقـذـاـ.

أماـ بـلـيـنيـ فقدـ وـجـدـ بـأـنـ أـمـجـادـ الـقـبـائـلـ الـقـدـيـمةـ قـائـمةـ عـلـىـ مـآـسـيـ إـلـيـانـيـةـ الـتـيـ سـيـبـتهاـ الـحـربـ. وـقـالـ جـونـ مـيـلتـونـ بـأـنـ الـحـربـ وـلـيـدـةـ الـبـغـضـاءـ وـرـبـيـةـ الشـيـطـانـ، لـذـلـكـ فـالـخـوفـ لـيـسـ مـنـ وـجـودـ السـلـاحـ بـلـ فـيـ رـغـبةـ حـامـلـيـهـ فـيـ اـسـعـمـالـهـ. وـيـضـيـفـ آخـرـونـ بـأـنـ الـحـربـ هـيـ وـلـيـدـةـ عـبـادـةـ الـمـجـدـ الـتـيـ تـجـلـتـ فـيـ فـرـنـسـاـ يـوـمـاـ فـيـ النـابـوليـونـيـةـ. وـيـؤـكـدـ فـوـنـ بـرـنـهـارـدـيـ بـأـنـ الـحـربـ

ضرورة بيولوجية والسلام ليس إلا حلمًا جميلاً. ويرى مايكل هوارد بأن السياسيين مجرد سعادة لمنع الحرب مثلهم مثل رجال الأعمال.

ولم يبق الموضوع في الإطار النفسي والأخلاقيات بل تعداده إلى المموس المادي فقال روينز بان ما من حرب إلا وهناك سبب اقتصادي وراءها. أما الجنرال سمولي بطرفيقول بأن الأعلام تتبع الدراهم والجنود يتبعون الأعلام. كذلك أكد كثيرون بأن شعارات الحفاظ على شرف الأمة ما هي إلا ملازمات ثانوية للمصالح الاقتصادية لأن التلامس تام بين الاقتصاد والسياسة، فالمجموعات الرأسمالية في الغرب هي التي تدير عمليات الصراع فعلاً تأميناً لمصالحها العالمية وتحقيقاً لرغباتها، وأظهر دليل على ذلك الدور الذي تلعبه مجموعة الشركات العالمية الكبرى والتي توصف بمتعددة الجنسيات. إن شرف الأمة وكرامتها هو ظل قوتها المادية على الأرض.

هذا التوجه يقترب إلى حد بعيد من الماركسية ومفهومها المادي، لكننا على أية حال يجب أن لا نغفل العامل النفسي أبداً. علينا أن لا نهمل النظرية القائلة بأن الشعب هو الذي يدفع حكومته إلى الحرب لأسباب ذاتية منها تكويني ومنها بسبب مركب المجد. كذلك علينا أن لا نهمل رأي فرويد الذي وجد نفسه عاجزاً عن تحليل التوجه البشري نحو الحرب الذي يرتكز على رغبة التملك لما تشتهي النفس، كذلك فالدولة تمنع الأفراد من ارتكاب الحماقات ليس رغبة في ذلك بل رغبة في احتكارها.

كانت هذه نظريات وأفكار تشير إلى الصراع البشري أو تدور حوله، منها ما أقرّ باحتميته ومنها ما نفى هذه الحتمية، ومنها ما اختار الطريق الوسط فكان منزلة بين المترفين محدداً شرطياً لانطلاق الصراع ولاستمراره. إن هذه النظريات في جملها تأخذ الطابع الفردي ما عدا التوجهات الدينية، وهي لم تكن الوحيدة التي دخلت مجال التفكير والتنظير للصراع إن مباشرة أو بصورة غير مباشرة. لقد عالجت مدارس علم الجغرافيا السياسية هذا الموضوع من نواحي مختلفة عندما انتقل مفهوم الصراع الإنساني من دائرة الفرد إلى نطاق الجماعة وتشعبت المعالجات وتناقضت لكنها انتهت في النتيجة إلى أربعة تيارات كبرى وانتظمت في أربع مجموعات من النظريات هي: نظريات الحتمية البيئية، ونظريات الحتمية القومية، ونظريات الموقع الجغرافي والنظريات الاحتمالية.

لقد ولدت نظريات الحتمية البيئية مع ازدهار الفكر اليوناني القديم، فهي سقيقة الجذور في خزائن التراث العالمي، وقد سجلت في ذلك العصر الذهبي مع أرسسطو، في كتابه الشهير «السياسة»، دراسة عن الأعراق البشرية وطبائعها رابطة تلك الصفات بالبيئة الجغرافية، فكان لأهل البلاد الباردة مواهبهم وهناتهم وأهل البلاد الحارة طبائعهم

ونقائصهم، أما أهل البلاد المتوسطة فيجمعون حسنات الشعوب الأخرى. كذلك لم يهمل أرسطو طبيعة الأرض وتضاريسها فرأى أن الأمة التي تريد الازدهار عليها أن تكون محمية بالتلال لصد أي هجوم خارجي محتمل وقريبة من ميناء جيد للاستفادة من التجارة البحرية. جاء بعد ذلك العالم اليوناني ستاربو بين عامي ٦٣ و٢٤ قبل الميلاد فقيئاً وضع الإمبراطورية الرومانية الجغرافي واستنتج بأن الوحدات السياسية الكبيرة تتطلب حكومة مركزية قوية، وقد رد ذلك لأسباب الموقع والمناخ والمصادر التي تؤهل الدولة لأن تكون عظيمة.

وفي بداية القرن السادس عشر جاء بودين ومونتسكيو ليؤكدوا على تأثير المناخ على الطبيعة العدوانية والمهارات التنظيمية للبشر، فقدموا قوانين لنمو وأضمحلال مختلف الحضارات الجماعية. رد هذان الباحثان طبيعة تصرفات الإنسان إلى محيطه الطبيعي وأكدوا على القول بأن أفعال المرء والتغيرات الاجتماعية وطبائعه العدوانية هي ثمرة عوامل لا سلطة للإنسان عليها.

وفي القرن التاسع عشر طور بعض العلماء ومنهم كارل رتر الألماني نظرية تتعلق بتأثير المحيط على الثقافة والحضارة وربط نظريته بأفكار داروين وقوانينه المرتكزة على تنازع البقاء، وخرج بالقول بأن الحضارات تشبه النباتات والحيوانات تولد وتنمو وتذبل وتموت، وهي تتأقلم في نطاق محيطها وفقاً لقوانين التعايش والملاءمة والتطابق. هذا وتعتبر عناصر القوة والنشاط في الحضارة عوامل ذات أهمية بالغة لاستمرارية وجودها في عالم يتسابق على السيطرة، ولا يمكن العيش فيه إلا بالقتال من أجل المساحة وعدم الاستسلام حيث يجب سحق العناصر الضعيفة والتخلص منها لإفساح المجال أمام العناصر القوية.

كان هذا التوجه حلقة الوصل وجسر العبور بين نظريات الحتمية البيئية وبين نظريات الحتمية القومية التي اعتمقتها ألمانيا وشيدت على قواعدها إمبراطورية هتلر التي، لحسن الحظ، لم تصمد نازيتها أمام التيارات المناوئة لها.

كانت خلاصة نظريات الحتمية البيئية التركيز على دور المناخ والتضاريس الأرضية واتساع رقعة البلد في بناء الإنسان وطاقاته الفكرية والعلمية، وإمكاناته من حيث الذكاء والإنتاج وتكوين طباعه وحتمية تصرفاته، فضلاً عن وجود قواعد ثابتة لولادة الحضارات ونموها وأضمحلالها حسب قواعد للبيئة صارمة لا يمكن كسرها.

إن هذه النظريات ترمز إلى نوع من الجبرية في مفهوم الصراع البشري طالما أنها تُبقي الطياع والعدوانية خارج نطاق سيطرة الإرادة. إن حتمية الصراع هذه ليست بالضرورة شمولية بل جزئية أو شطيرية المفهوم ترتبط بالبيئة وعناصرها من مناخية وجغرافية، ولكن

المهم فيها الإقرار ببدأ الحتمية أو وجوب الوجود.

بعد الحتمية البيئية ننتقل إلى نظريات الحتمية القومية التي ولدت مع طفرة الأفكار القومية التي سادت القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في أوروبا. إن أهم هذه الأفكار هو ما جاء على لسان الأستاذ «فريديريك راتزل» الذي يقول بأن البلد كائن حي مجرّد على صراع لا ينتهي في مجاله الحيوي لتأمين مكان له تحت الشمس يوفر فسحة العيش والتنفس وذلك عملاً بسنة تنازع البقاء وانتصار الأقوى. لقد أكد هذا المفكر على وجوب اهتمام المواطنين بمتطلبات بلدتهم التوسعية، وبشر باحتمالية الصراع بين الأقاليم والدول لكي تتبلّغ الكبّرى منها الدول الصغرى، وذلك في مسيرة تهدف إلى ولادة دول جبارة تسيطر على العالم.

أيد السويدي «رودلف جيلين» مقولة راتزل وزميله «رتز» وأعلن تصوّره بأن الدولة ليست كائناً حياً فقط، ولكنها كائن واع مجّهز بقدرات فكرية ومعنوية، أما الهدف النهائي للتطور كل بلد فهو الحصول على القوة التي لا تحتاج إلى اتباع القوانين البسيطة لتحقيق التوسيع الإقليمي. إن تحسين استخدام الحضارة والأساليب النفسية والاجتماعية تؤمن القوة القادرة على اختبار الحدود الطبيعية خارجياً مع تأكيد التماسك الوحدوي داخلياً. إن هذا المفهوم هو الذي تعمل به إسرائيل منذ نشأتها، فلا حدود ثابتة لديها ولا وجود لأية مُسلمة إلا مسلمة القوة التي يمكن ترجمة نتائجها إلى حقوق في مختلف المجالات.

إن نظرية الحتمية القومية تؤمن باحتمالية الصراع البشري بين المجموعات لبقاء الأقوى كما آمنت نظرية داروين باحتمالية الصدام بين الكائنات الحية إفرادياً. لقد آمن هتلر بهذه الأفكار وشغف بها وحاول السير في هدّيها لبناء امبراطوريته، ولذلك كان يقول بأن الكفاح هو الوسيلة المثلث لتقوية النوع وهو شرط أولى لتقدير البشر وتطورهم. كذلك فالقوى مدعوا للسيطرة على الضعيف لا إلى الذوبان فيه مضحياً بعظمته. هذا ولا ينسى هتلر القول بأن العوز ينشئ الحق للاستيلاء على أراضي الغير، كما يقول بشرعية حذف الغير لصالح النفس حيث يمثل العالم بسفينة تضيق ذرعاً بالشعوب الضعيفة. كذلك يرى أن اقتتال الأجناس البشرية مبعثه الحب والجوع وليس الكراهة المتبادلة. إن غريزة حب البقاء وحق النوع وراء كل حدث من أحداث التاريخ. هذه المفاهيم عند هتلر تقرّبه من داروين وتنقل الصراع من موقعه الاختياري أو الشبه اختياري أو من كونه حركة تاريخية، إلى نطاق الغريزة الفردية والتيار الغريزي الجماعي، هذا ويعزز هذه المقوله إيان ماكيافيلي باحتمالية الصراع الدامي وقوله بأن الحروب التي منعت قد أُجل موعد انفجارها، والتأجيل أحياناً يكون سبباً للأسوأ. هنا تظهر شمولية التعميم باحتمالية الصراع البشري بين المجموعات خلافاً للشطريّة التي قالت بها الحتمية البيئية، ولكن القاسم المشترك بين النظريتين يبقى وجوب وجود الصراع.

أما نظريات الموقع الجغرافي فيمكن تصنيفها كتفريع عن أفكار الختمية البيئية، ولكنها ازدهرت مع تطور المواصلات العالمية والسير قدماً في معارج الحضارة الاقتصادية وارتباط صالح الشعوب بسلسلة من التعقيدات والروابط المشابكة، ومع بروز قوى عالمية أخذت على عاتقها التدخل على امتداد وجه الكرة الأرضية. لقد جاءت الترجمة لهذه النظرية بارتباط صالح الشعوب في منظومات اقتصادية وسياسية وعسكرية مختلفة كحلف الأطلسي وحلف وارسو والسوق الأوروبية المشتركة وما إلى هنالك من تحالفات ومنظومات وقواعد عسكرية. أبرز هذا التوجه أهمية الموقع الجغرافي بصورة أكيدة رغم أنها لم تكن مغفلة في الماضي. إن النظر إلى هذه الأفكار من وجهة نظر الصراع البشري يؤكد لنا أنها تفتح الباب مشرعاً أمام احتمالي الصراع والسلام في آن معاً، وهي تقول بجواز الصراع بوجود مسبباته وبوعائه كما تقول بجواز السلام بوجود جوامع صالح بين الشعوب المتحالفه. هذا يعني أن النظرية تعتمد على الجدلية القائمة بين الصراع والوفاق، وخوف السلام من العدوانية، وإلا لما قامت الأحلاف العسكرية أصلاً.

ولم تسيطر نظريات الموقع الجغرافي وحدها على الأفكار السائدة في نهاية القرن التاسع عشر بل شاركتها في ذلك مدرسة أخرى قادها بعض المفكرين الفرنسيين أمثال جين بروتيز والبرت ديانجو الذين وقفوا على طرف مناقض لفكرة الختمية القومية التي نادى بها رتر وراتزيل ونادوا بالنظرية الاحتمالية التي تؤكد بأن البلد ليس وحدة سياسية وقوة متلاحمة فقط وإنما وحدة قومية ثقافية توجه نشاطات شعبها بالوعي الجماعي والشعور القومي. إن البيئة الطبيعية لا تختتم مصير البلد بل تفتح أمام مواطنه عدداً من الخيارات للتطور تاركة لهم حرية الانتقاء والتوجه. إن هذا الاتجاه الإنساني يرفض مبدأ الوجود القومي والتجمع على أساس الصراع والقتال للتوسيع. إن هذه المدرسة لا تؤمن بحتمية الصراع التي قال بها الآخرون بل تعتبر السلوك البشري اختياراً واعياً من خلال توظيف الطاقات وال موجودات البيئية والقومية. إن هذا المعتقد يفتح أمام المجتمعات الاجتماعية والأوطان مقتربات التطور وخيارات التوجه الحر الذي يؤمن بالعقلانية رائداً ويضع العوامل الأخرى من تراثية وفسيولوجية ونفسية في موقع متراجع ويجعل من الصراع البشري اختياراً له حاكمه المنطقية ومعطياته المادية يطلق ويُكتب بإرادة حرة واعية.

لقد تفاعلت جميع الأفكار والنظريات حول مفهوم الصراع البشري بجهة حتميته وجوديه، أو احتمال وجوده أو كونه اختياراً حرّاً، تفاعلت حتى مداخل القرن العشرين والأربعينات منه لتألف داخل نظريتين تهتمان بأمر الجماعة أكثر من الاهتمام بسلوك الفرد. هاتان النظريتان هما: السلام المستحيل وال الحرب المستحيلة. قد نكرر في بحثنا للنظريتين

الأفكار التي أوردناها متباشرة على ألسنة بعض المفكرين، لكن جمعها متكاملة في نظرية واحدة يوضح أبعادها بشكل أفضل ويقدم الإفاده المرجوة منها بصورة أبرز، ويحدد بالتالي معالم التيار الفكري السائد.

إن نظرية السلام المستحيل ترتكز على دعامتين، واحدة فردية نفسية وأخرى جماعية تراثية لها من التربية والترااث الإنساني والمصالح دوافعها وحواجزها. وال الحرب في طبيعتها ظاهرة اجتماعية خارجة عن إرادة الإنسان الكلية وليس في يده أمر إطلاقها أو إيقافها، لكن الطبيعة البشرية تؤكد على وجود علاقات وثيقة بين القلق والتزعة العدوانية عند الفرد والجماعة على حد سواء. وتحت تأثير الخوف يفقد العقل قدرته على العمل والتوجيه فتنطلق العواطف من عقلاها حيث لا تأخذ المصالح في الحسبان عند ثورتها. إن التجارب على مر العصور تؤكد على أن الإنسان ما يزال حيواناً له شعائره ومسلّماته، فعبادة الوطن ديانة لها عناصرها وطقوسها عند البعض، بينما لا تعني ذلك عند آخرين. هناك شعوب تشتهر بالوطنية وشعوب أخرى تحكمها اللامبالاة. على أية حال إن السلوك الإنساني في مجال الصراع وال الحرب لا يمكن تفسيره إلا بالبحث عن الدوافع غير العقلانية التي تبعث من أعماق اللاوعي. إن أفعال الفرد في هذا الحقل لا تحدد بإراداته ووفقاً للمعايير والمقاييس التي تحكمها. العقل إلا نادراً، لأن العقل يتدخل عموماً بعد الفعل لتبريره وليس للأمر بإجرائه. وهنا نواجه مقولتين غير متطابقتين؛ الأولى وؤمن بها هيغل، تقول بأن الحرب ليست ضرورية فقط وإنما هي عمل يشرف الإنسان. أما الثانية فتؤكد بأن الاعتقاد بوجود حتمية جبرية تقود بصورة قطعية إلى الحرب بسبب سلسلة من التغييرات في البنى المادية والفكرية للمجتمعات قول غير مقبول. لكن البعض يضيف بأن أي سلام بعد الحرب يحمل في طياته بنور حرب جديدة. إن هذا التناقض في التفكير يدعونا إلى التروي ودرس ظاهرة الصراع بوجهها الحربي درساً واعياً كونها مظهر من مظاهر الجريمة الجماعية، فهل هي عارضة تمثل الجانب المتفجر والظاهري لبعض التغييرات في البنى الاجتماعية، أم هي أصلية دائمة. يجب تفهم الأسباب الكامنة وراء قيام جماعة منظمة في وقت محدد بعينه بشن هجوم على جماعة أخرى رغم مجازفتها بتدمير نفسها. قد يكون السبب في قرار الحرب الشعور بالتفوق والقوة والطمع في القيام بحرب محدودة قليلة التكاليف إذا ما قورنت بردود النتائج. وقد يكون أيضاً بسبب تلاقي مجموعة من المشاعر والواقع تنتهي إلى خلق حالة يشعر فيها أحد الخصمين بأنها غير محتملة ولا بد من الحرب كحل وحيد ينهي هذا الواقع.

هذا ومع عدم إهمال جميع الأفكار المعروضة، فنظرية السلام المستحيل تقول بأن للحرب وظيفة اجتماعية تسهم في الحفاظ على النظام الاجتماعي لجماعة إنسانية معينة. إنه

من غير الممكن إيجاد بدائل مقبولة لجمعية الوظائف الاجتماعية التي تقوم بها الحرب، وعلى الأنصار وظيفتها السياسية، لأن غايتها سياسية بالدرجة الأولى وهي أسلوب من أساليب تحقيق أهدافها.

أما نظرية الحرب المستحيلة فهي ترکز على عامل الخوف من الخسارة بسبب عدم ضمان النتائج مسبقاً. وهذا الخوف يدفع للت�탥يش عن البدائل ولعدم التشدد والتساهل في المطالب كما يحدّ من غلواء الأطماع ويقدم طروحات سلمية ترکز على الأخلاقيات الطوباوية، من إرادة طيبة وعواطف نبيلة ونوايا حسنة وسلوك مرتبط بالتوجهات الدينية. لقد أثبتت التجارب أن هذه النظرية بقيت تهيم في ضبابية الأحلام بعيدة عن الواقع المر الدامي التي تعيشه الأمم في حلبات الصراع المتسرعة. لقد خبا بريق هذا التوجه الفكري إلى حين ولكنه عاد وأخذ مكانه المرموق مع تطور السلاح النووي فبرزت فكرة السلام بالخوف في أجل مظاهرها من خلال نظرية الردع النووي. ورأى «رولينغ» أن أقل ما تفعله الأسلحة النووية هو خلق عالم أصبحت فيه الحركة الدولية حالة خطيرة جداً. إن هذا الواقع يجعل من الحرب حالة عَرضية محدودة في إطار المكان والأهداف. لقد غَيَّبَ هذا الواقع الأهداف الطموحة للصراع وضيق أمامها هوامش المناورة. إن هذا التوجه دفع بعض المفكرين إلى القول بأن التطور السريع في تسليح الفضاء وحرب النجوم والكواكب سيفرض السلام قسراً وتصبح الحرب معه مستحيلة. كما أن أول دولة ستتمكن من تركيز قاعدة عسكرية على سطح القمر وتسيطر على الفضاء ستفرض سلامها الخاص على العالم. على أية حال فإن نظرية الحرب المستحيلة لا تنفي وجود الصراع بشكل قاطع بل تنقله من مجال الحرب إلى نطاق السلام العدائي وال الحرب الباردة والتنافر الاقتصادي وما إلى. ما هنالك من أساليب قد يصحّ فيها القول بأنها الحرب بأساليب أخرى كما قيل في الحرب أنها السياسة بواسائر أخرى.

والآن، وبعد أن قمنا بجولة عامة في مجال النظريات والأفكار، نرى أن الصراع في العصر الحاضر تحكمه نظريتان عامتان: الرأسمالية الليبرالية، والشيوعية بمفهومها الماركسي الجدلية المرتكز على المادية التاريخية واحتمالية صراع الطبقات. أخذت الليبرالية بالنظرية الاحتمالية والحرية الوعائية في اتخاذ الاختيارات، واعتمدت قاعدة العرض والطلب، الوفرة والندرة، ومدى الحاجة والنفع في كل سلوك ومذهب. أما المادية التاريخية فقد اعتمدت الاحتمالية التاريخية التي تقول بنوع من الجبرية، والتي تؤمن بجوهرها في توافر الظروف الموضوعية لإمكانية تحقيق أهداف الأمة أو الشعب. إن التاريخ في طبيعته هو إطار الحركة الإنسانية للفرد والجماعة التي تندفع في الفعل التاريخي ضمن هامش تحرك معين تمارس فيه حرية الاختيار الإنساني. هذا ويرى البعض أن الاحتمالية ليست قَدْرَاً أو قانوناً مطلقاً يؤدي

دوره الميكانيكي أو الروتيني، بل يجب أن توفر المناخات الموضوعية لإمكانية تحقيق أي هدف لأن التحقيق التلقائي غير ممكن. إن تحقيق الأهداف يحتاج بالإضافة إلى توفر المناخ إلى اللحظة أو الظرف التاريخي وإلى القيادة التاريخية القادرة. إن اللحظة التاريخية أو الظرف شيء مهم في حياة الشعوب تدفع بعجلة التاريخ إلى التسارع في حال استثمارها، ولكنها تضيع هباءً في حال إهمالها. أما القيادة التاريخية القادرة فهي التي تتفاعل مع المناخ والظرف لتحقيق الأمان والأهداف الكبيرة. لقد اختلف المفكرون حول دور الفرد في التاريخ، فمنهم من قال بأن المناخ والأجواء واللحظات التاريخية هي التي تخلق الفرد التاريخي، ومنهم من قال بأن الفرد هو الذي يخلق الظروف، ومنهم من رأى أن الزعيم يجب أن ينبع ليكون زعيماً ولا زعامة تخلقها الضرورة والأحداث. إن هذا الجدل لا يمكن حسمه في هذه العجلة، ولكن الأفضل في نظرنا هو القول بالحل الوسط والتكامل المتفاعل بين القائد والظروف.

كل هذه القوانين أو النواميس لم تأت في أحد وجوهها إلا كإجابة أو تفسير لتساؤلات الإنسان الداخلية الملحة حول تقنين ظاهرة الصراع ومنطق أسبابها ومسار مظاهرها ونتائجها. وهنا لا بد من الإسراع في المبادرة لاستدراك القول بأننا لسنا في صدد مناقشة هذه النظريات بإسهاب لتفنيدها وتحديد مدى صحتها ومطابقتها التامة للواقع لسبعين: أولها إن لكل نظرية معطياتها المستفيضة والمتنوعة والمتکاملة وحججها الراهنة والمنتشرة على طول الكره الأرضية وعرضها والضاربة في عمق التاريخ، وهي بذلك تتعدى نطاق موضوعنا إلى مواضيع أخرى لست في معرض دراستها، كما أني أعجز في هذه العجلة عن إيفائها حقها. وثانية إن الغاية من هذا العرض الشمولي هو تلمس ذلك الخيط الرفيع الذي يجمع سبعة ظاهرة الصراع البشري عبر الأجيال ويكون القاسم المشترك فيها للاهتماء إلى مبادئ أساسية دائمة تشكل الهيكل العممي لكل عمل عسكري بحيث تصبح جميع الأمور الأخرى تفاصيل كاللحم الذي تتغير نسبة تكتسه على الهيكل من شخص إلى آخر وفي الشخص نفسه حسب الظروف الجسدية.

هذا الخيط الذي نفترض عنه عبر الأجيال والعصور نلمسه في غدر قabil لأخيه هابيل بسبب مكسب أثافي فردي، ونلمحه في اغتيال يوحنا المعمدان يُلِبس الأنانية لباس الحقد والتشفى، ونتحسسنه في قصة يوسف الصديق غيره وطمعاً. وفي مسارنا عبر العصور نشاهد تارة يرتدي ثياب النزاع على الأرض وطوراً ثياب حرية العبور إلى أماكن معينة (المياه الدافئة) أو الاستئثار بموارد اقتصادية (بتروـل - معادن...، إلخ) أو السباق لامتلاك المستقبل الذي قد يكون مجهولاً، ومع ذلك فهو حافز مهم في مجال حب التفوق (غزو الفضاء الخارجي). خلاصة ذلك أرى أن هذا الخيط الرفيع يرتكز إلى نقطتين نفسيتين أساسيتين، أكان

ذلك على صعيد الفرد أو الجماعة، وهم تشكيلاً قطبي تناقض وتجاذب لمحور واحد، هذان القطبان هما الأمان والأنانية. فالأمن كان مبدأً غريزياً في العصور البدائية الغابرة قبل أن يتطور الإنسان في معراجه الحضاري ثم تطور بأسلوب عقلاني مخطط مع تطور الإنسان في ارتقائه الفكري. أما الأنانية فتبرز في المجتمعات البدائية فردية من خلال الاستئثار وحب السيادة أو التسلط والجشع، ثم تتطور من الفردية إلى الجماعية مع تطور الإنسان وتشابك مع مؤثرات أخرى من جغرافية إلى اقتصادية أو اجتماعية . . . ، إلخ. إن الأنانية الفردية التي تحكمت بالإنسان في ماضيه السحيق طغت عليها – وإن لم تقض عليها نهائياً – أنانية الجماعة لدى الإنسان المتطور.

والذي يجب ملاحظته أخيراً هو أن الأمان والأنانية قطبان متعارضان في توجههما، فأنانية الفرد تتعارض مع أمن خصمه، وأمنه يتناقض مع أنانية ذلك الخصم. أما الوجه الآخر للأمن والأنانية في المجال العملي فهو توأماً المحافظة على النفس وإفناه العدو اللذان يملكان خصائص القطبية المتعارضة نفسها.

## حل الصراعات

ما لا شك فيه أن أساليب حل الصراعات البشرية قد تبدلت وتطورت مواكبةً لتطور الإنسان والمجتمعات البشرية، فبعد أن كانت فردية آنية بسيطة وغير دائمة مرتبطة إلى حد بعيد بالجغرافيا (المكان)، وبلحظات زمنية محددة يسودها قانون تناوبية التوتر والارتخاء غير المنتظم غالباً، أخذت تلتزم مساراتها بمعالم المفاهيم السائدة في كل عصر مروراً بالفردية إلى القبلية وصولاً حتى يومنا الحاضر، عصر الصراعات الدولية، ملبياً بذلك متطلبات كل مرحلة وراسمة شيئاً فشيئاً الخطوط العريضة الأساسية للحلول الممكنة التي تبقى محدودة رغم كثرة تفاصيلها وجزئياتها واستحالة حصر تلك الجزئيات والتفاصيل كونها مرتبطة بانفتاح العقل البشري الخالق المتتطور أبداً الدهر.

كان حل الصراعات في الماضي بسيطاً لبساطة الصراع نفسه. كانت تحكم أي نزاع معادلة بسيطة ثلاثة الجوانب أركانها خصمان وسبب. وكان من السهل على أي جانب حل عقدة الصراع من جهة واحدة لبساطة السبب وعدم تعقيده، إذ يكفي أن يتخلَّ أحد الطرفين عن حقه في موضوع النزاع حتى تسقط مقومات الصراع. مطلب واحد أو مادة نزاع واحدة مع مُطالب واحد له ملء الحرية والإرادة الناجزة لاتخاذ القرار بهذا الشأن. كان يكفي في الأيام الغابرة أن يكون الحل بالابتعاد عن لقاء الغريم أو بالتخلي له عن رقعة جغرافية أو حاجة حتى تخمد جذوة الصراع، كما أن تلك الصراعات القديمة كانت محصورة جداً في حيزِيَّ المكان والزمان. أما الآن فقد كثرت التعقيدات وتعددت أطراف الصراع وتشابكت المصالح والأهداف وتدخلت الارتباطات والتحالفات وتقيدت الإرادات والرغبات بأكثر من قيد وقيد. لقد تنوَّعت مظاهر الصراع وأشكاله وأصبحت صعبة الإحصاء والتحديد. أخذت المناحي الاقتصادية والثقافية والأيديولوجية والاجتماعية والدعائية والتكنولوجية وما إلى هنالك من حقول كما سلكت طريق الحرب الباردة، وتتجوَّل بالحرب الحقيقة الساخنة. حاول البعض أن يفصل ظاهرة الصراع عن الحرب ليقيِّدها في إطارها البارد معتبراً الحرب تصادماً فعلياً بوسيلة العنف المسلح حسماً لتناقضات جذرية لم يعد يجدِي معها استخدام الأساليب

الأكثر ليناً أو الأقل تطرفاً. ورغم صحة هذا التحديد للحرب ومطابقته للواقع إلى حد بعيد، فليس ب صحيح أن الحرب تم بأسلوب واحد وعلى صورة واحدة، ولكنها أصبحت الآن تدار بأساليب متعددة، وسائلتها العنف المسلح ولها نفس شعارات مناحي الصراع الأخرى. لذلك من الأفضل اعتبار الحرب داخل سلسلة وجوه الصراع بحيث تكون نقطة النهاية في هذا المعراج فتشكل قمة الهرم والتتويج الحق لشدة التزاع وحدّته.

وبتنوع مظاهر الصراع تنوعت أدواته وتدرجت في مراقي العنف والتشدد لتلبية حاجات ومتطلبات كل مظهر. وكما كان من الصعب حصر المظاهر، كذلك من الصعب أيضاً حصر الأدوات والأساليب والسبيل. قد تكون ضغطاً أو احتواء أو تهديداً أو عزلأً أو تضييقاً أو معاقبة أو إرهاباً أو انقلاباً، كما قد تأخذ الوجه الآخر من العملة فتسلك سبيلاً الترغيب والتنازل والمساومة وتزيين تقديم الحاجة المتغيرة من وراء الصراع. لقد انحسر دور الصراع الفردي وصراعات الجماعات الصغيرة ليسيطر عهد الصراعات الدولية على المستوى العالمي، وصراعات الجماعات الكبرى على المستوى القطري، فارتسمت المسالك والقوانين وتحددت المركبات التي تحكم مسارات الحرب والسلم والنزاع والتي تعمل بهذه المؤسسات الدولية والإقليمية.

لقد تحدثنا في الفصل السابق عن النظريات التي تحكم ظاهرة الصراع البشري وعن آراء بعض المفكرين فيها، ولا بد لنا الآن من العودة إلى وضع تلك النظريات في إطار شمولي يسهل علينا طرح أساليب الحل الممكنة ويشكل مقدمة منطقية لها تسهل علينا ولوج الداخل. إن دراسة الأمر من هذه الزاوية وتلخيصه باقتضاب يسمح لنا بوضع النظريات التي تتناول الصراع الدولي في الخانات المحددة التالية:

### النظرية الجيوسياسية:

وترکز على ارتباط السكان بالأرض بطريقة عضوية وبعادلة طردية تجعل من الدولة كائناً حياً يحتاج الشعب فيه إلى المساحة الملائمة للنمو والحياة. إن هذه العادلة الطردية في النمو والتوسيع تؤكد على أن عامل القوة هو المركز الأهم للدولة وهو يستند إلى عنصري الشعب والأرض. إن هذا المنطق يسمح بالتفكير بمشروعية التزاعات على الحدود والاستيلاء على أرض الغير بالقوة مع اعتبار القوة أهم من القانون لأنها هي التي تؤمن تنفيذه. هذا فضلاً عن القول باحتمالية الصراع ووجوب الإعداد له.

### **النظرية السياسية :**

وتقول مبدأ التوازن الدولي الذي يؤمن الاستقرار من خلال تحالف المجموعات ذات المصالح المشتركة وتجانس توجهاتها. لقد كانت التكتلات في الماضي تتمحور حول المصالح الاقتصادية وعوامل القوة بشكل عام، لكنها أخذت في الوقت الحاضر تتمظهر بظهور الوفاق الأيديولوجي وتنتظم في مجموعات عقائدية دولية تتمحور حول قوة كبرى أو دولة عظمى. وهذا هو الحال الآن في الصراع بين المعسكر الاشتراكي والمعسكر الرأسمالي. إن الركيزة الأساسية للسلام في هذه النظرية هي التوازن في القوى بين الطرفين، وخير مثال على ذلك هو التوازن بين الجبارين. إن كل خلل في ميزان القوى يخلق التوتر ويولّد نوعاً من السباق في حقول التسلح والتكنولوجيا لا يستقر له قرار ولا يرتاح فيهibal إلا بعودة التوازن من جديد.

### **نظرية طبيعة النظام الداخلي :**

وهي ترتكز على المفهوم الأيديولوجي الماركسي القائل باحتمالية صراع الطبقات ونظرية المادية التاريخية التي تحدد مسار النزاع في إطار حتمية تهدف إلى سيطرة البروليتاريا في النهاية بعد مرور المجتمعات بسلسلة صراعات وتناقضات في النظم تدرج في تسلسل زمني محتم إلى حد بعيد، يحكمه مبدأ ولادة الطبقات وازدهار حكمها ثم تراجعها أمام تطور الطبقات التي تليها في سلم الصراع الزمني.

### **النظرية الأيديولوجية :**

وتعتمد هذه النظرية على التناقض الأيديولوجي بين الشيوعية والرأسمالية وما بينهما من نظم اشتراكية. وتهتملي بالطبيعة العدائية في كلا النظيرتين للنظام الآخر ومحاولته حصره وتقييم دوره في الساحة العالمية بما يتبع ذلك من صراع مصالح في وجوه شتى من اقتصادية واجتماعية وثقافية.

### **النظرية السيكولوجية :**

إن هذه النظرية تعتمد على العامل النفسي الذي يخلق دوافع الصراع على المستوى الفردي وعلى مستوى الجماعات والدول. هذا العنصر يتبلور في الأنانية الذاتية وحب التسلط والسيطرة والانتقام والتملك والمغامرة. لذلك نرى أن مجالات الصراع والحرروب هي المناخات المثلث لإرضاء هذه الغرائز والرغبات. يضاف إلى ذلك عامل الإخفاق الذي يولّد الإحباط النفسي الذي يبلغ ذروته في الأزمات. إن الدول التي تحقق في تحقيق خططاتها

القومية تعتبر الأكثر تعرضاً لهذا النوع من الإحباط، بينما تميز الدول ذات المخططات الناجحة بالاستقرار النفسي وتلاشي التوتر. هذا من ناحية نفسية الفرد والجماعة التي تتأثر بالعوامل الخارجية والرغبات الداخلية الأمر الذي ينطبق على كل الأمم والشعوب بقدر متساوٍ. يبقى هناك ناحية أخرى وهي الطبيعة العدائية في الأفراد أو الشعوب والتي يعبر عنها بالشخصية القومية. هذه الشخصية التي تميز فئة عن أخرى ومجموعة عن غيرها في مجال الفعل وردات الفعل وفي مجال القيم والمعتقدات. إن الطبيعة العدائية في شعب ما تجعله يتصرف بوحي هذه الطبيعة في احتكاكه بالشعوب والأمم الأخرى، الأمر الذي دفع بعض المفكرين للقول بوجوب حصر الشعوب العدوانية وعزّلها لتفادي تفجير الصراعات الدولية بشكل يصعب حصره والسيطرة عليه.

### **نظريّة المصالح القوميّة:**

وتتركز هذه النظرية على القول بأن المصلحة القوميّة هي مرادف للقوّة. والدافع الغريزي يحرك الإنسان دوماً للصراع على اكتساب القوّة من أجل البقاء ومقابلة التحدّي وإثبات الذات. قال بهذه النظرية كثيرون منهم نيتشيه وهوبيز ومورجانتو. إن الانطلاق من هذا المدخل يؤدي إلى الافتراض بأن المحرّك الرئيسي لسياسات الدول الخارجية يتمثل بالسعى الحثيث والمستمر لحماية المصالح القوميّة وتنميّتها. إن التحدّي الكبير الذي يواجه الدول هو كيفية تأمين حماية مصالحها القوميّة في جو تناقض المصالح والوصول إلى الدرجة القصوى في تحقيق الحماية في ظروف الحاضر والمستقبل في إطار تنفيذ السياسة الخارجيّة.

### **نظريّة طبيعة النظام السياسي الدولي:**

تأخذ هذه النظرية شرعيتها من المفهوم القائل بوجود الفوضى الدوليّة الناتجة عن تناقض السيادات القوميّة التي تعتبر ركيزة النظام الدولي. وهي تعارض مقولات الصراع الناتجة عن الطبيعة البشرية، وتشدد على عدم أهلية النظام الدولي الذي يرعى علاقات الدول فيما بينها والذي يتمثل بالأمم المتحدة وملحقاتها من المؤسسات الدوليّة. إن هذا الاعتقاد يدعى إلى نوع من الدولة العالميّة التي تحكم جميع مناطق العالم وتدير شؤون كل الشعوب كحل جذري لفوضى الصراع الدولي.

### **نظريّة الاختلافات بسبب تزايد عدد الدول المستقلة:**

وتقول هذه النظرية بأن ازدياد عدد الدول المستقلة ودخولها إلى المجتمع الدولي يؤدي إلى مزيد من التكتلات وال تحالفات وينخلق مجموعات جديدة إن قليمية أو دولية، تتजانس

مفاهيمها وتتلاقى مصالحها في إطار الأسرة الدولية بحيث تؤدي الولادات الجديدة إلى المساس بمصالح جموعات أخرى وإلى الحد من نفوذ بعض الأطراف وتقزيم أدوار مؤسساتهم. إن هذه الولادات تؤدي حتماً إلى اشتداد سعير الصراع الدولي.

### **نظريه محاور المصالح :**

ومنها المحور الصناعي العسكري الذي تحفظه نفس الدوافع لتصعيد الصراع بغية تحقيق مكاسب مادية وسلطوية. لا تكون المكاسب بالضرورة ذات نوعية واحدة بل تنوع وجوهها، ولكن حافزها المصدر هو واحد. إن مجموعة المصالح المختلفة التي تستفيد من ظروف الصراع هي التي تهدد السلام العالمي وتشكل قوة ضاغطة على مراكز القرار داخل النظم السياسية. إن المجموعات التقنية المختلفة وتحالفاتها داخل المجتمع المتحضر تعتبر الترجمة العملية لهذه النظرية.

### **النظريات الديموغرافية :**

وهي تركز على الطبيعة البيولوجية للإنسان والمجتمع، ولذلك فهي ترى بأن الحرب ضرورة يتناسب عنفها طرداً مع حجم الفائض البشري الذي يمثل القوة الضاغطة الرئيسية في اتجاه إشعال نار الحرب. إن النمو السكاني لأي مجتمع يتبع دورة ديمografية ذات مراحل ثلاث، هي مرحلة النمو الطبيعي، ومرحلة الانفجار ثم مرحلة الاستقرار. تعتبر مرحلة الانفجار مرحلة انتقالية بين النمو الطبيعي والاستقرار. وباعتبار أن معدل النمو السكاني يكون عالياً في المرحلتين الثانية والثالثة يتكون فائض بشري كبير يشكل ضغطاً سكانياً يدفع بالدول إلى الاتجاه نحو الحروب العدوانية لحل مشكلة التفجير أو التضخم السكاني. هذه هي حقيقة النظرة البيولوجية للمجتمع، وقد قال بها مالتوس وتشابكت مفاهيمها مع النظرية الجيوسياسية.

### **نظريه سباق التسلح :**

إن سباق التسلح يؤدي بالدول إلى الدخول في دوامة الخوف المتبادل وعدم الثيق، نظراً لطبيعة السباق السرية والتكتم على المعلومات العسكرية. أضف إلى ذلك أن تفوق أية دولة بسلاحها على الآخرين يسمح لها بعرض عضلاتها واستعراض قواها من حين إلى آخر، وفي كل مناسبة دولية مندفعه بعامل الثقة بالنفس وحب المظاهر الأمر الذي يسهم في ازدياد التوتر ويعجج سعير الصراع.

بعد أن عرضنا نظريات الصراع الجماعي من منطلق دولي لا بد لنا أن نعرف بأن لكل صراع مقوماته وأركانه، بحيث يصبح معضلة عميزة لها حدودها وأبعادها ومسار تطورها ومقربات حلها. وقد تتشابك معضلة بأخرى وقد تتدخل بأكثر من مشكلة، ولكنها تبقى حاملة سماتها المميزة وهويتها الخاصة. إن رصد مسار أية مشكلة دولية بغية تحديد مسارها المستقبلي يتطلب دراستها بدقة بالعودة إلى جذورها لمعرفة الأصول ومراحل النمو ثم الإمام بجميع تفاصيل ما وصلت إليه. بعد ذلك ينبغي التحديد المفصل لكل الأطراف الداخلة في صنع القرار، بما في ذلك القوى المحلية والدولية، كما ينبغي القيام بدراسة عميقة للتكوين الفكري والسياسي والنفسي والطبيقي للقيادات المقررة. وهنا لا بد من الاهتمام بالأهداف القرية والبعيدة لكل طرف بما في ذلك الأهداف المكتومة والمعلنة. بعد ذلك لا بد من النظر لمجالات المناورة المتوفرة ودراسة موازين القوى عسكرياً واقتصادياً وسياسياً. وأخيراً يجب رصد إطار المناخ الدولي والإقليمي والم المحلي لمعرفة سلم الأولويات في المشاكل، على أن لا ننسى المناخ الإعلامي العام.

بهذا الأسلوب يمكن التنبؤ مستقبلاً للمعطلات الدولية ضمن حدود منطقية ومعقولة تقينا الانزلاق في الشطط الكبير وتبقينا على مسافة معقولة من واقع ما سيحدث. هذا لجهة تطور المشاكل وحياتها في المستقبل، أما إذا أردنا النظر لأساليب حلها فلا بد من النظر بهمجة علمية لكل معضلة على حدة ودراسة معطياتها. إن المعطلات بشكل عام تقسم إلى نوعين: معطلات معرفة ومعطلات عمل. وما يهمنا الآن هو معضلة العمل التي يمكن تقسيمها إلى فئتين أيضاً هما المعضلة التنفيذية والمعضلة غير التنفيذية. إن البحث والاستقصاء هو الذي يحدد طبيعة المشكلة أهي تنفيذية أم لا، وهو الذي يفتح أمام الباحث سبل العمل وخياراته. فالمعطلة غير التنفيذية تدار دون التعامل مع إرادة الخصم وتحلل تمهيداً لحلها بوضعها في سياق الإطار والمدف والوضع. أما المعضلة التنفيذية فلا بد من تحليلها وإدارتها بالارتباط مع إرادة الخصم ووضعها في إطار الوضع العام للنزاع والإرادات العدوانية ومناخ الصعوبات العام للخروج بالخيارات الممكنة ومعابر الاقتراب.

إن صعوبة حل أي نزاع أو سهولته يعتمد على عوامل عده، هي: عدد الجهات المرتبطة بالنزاع أو المتأثرة به، أهمية النزاع وحدّة تأثيره، حدّة التناقض الدولي بشأنه، طبيعة المتخاصمين أنفسهم، عمر الأزمة، وأخيراً مجال المناورة. إن صعوبة الحل تتناسب طرداً مع تنامي هذه العوامل وكبرها ما عدا عامل عمر الأزمة وحدة التناقض الدولي، فقد يعلم أن أحياناً في الاتجاه الإيجابي وأحياناً أخرى في الاتجاه السلبي حسب معطيات ذاتية، ولذلك يمكن جمعهما في عامل متغير واحد كما يلي:

$$M = U \times H \times A \times G \times C \times T$$

لذلك يجب دراسة الأمر بدقة لاختيار الصيغة المناسبة لتحديد الـ «M». أما لتحديد المعادلة النهائية فيمكن استخدام الرموز كما هو أدناه:

M : عامل متغير.

U : عمر الأزمة.

H : حدة التناقض الدولي.

G : عدد الجهات المرتبطة بالنزاع.

A : أهمية النزاع وحدّة تأثيره.

T : طبيعة المتخاصمين.

N : مجالات المناورة.

C : صعوبة الحل.

لذلك فالمعادلة النهائية هي:

$$C = G \times H \times T \times N \times M$$

أي:

$$C = N \cdot G \cdot H \cdot T \cdot M$$

على أية حال، إن حلّ الصراعات الدولية، منها صعبت أو سهلت ومهمها كان مسار تطور معضلاتها، لا بد أن تسترشد معالم أساسية أرستها الأعراف والقواعد الدولية فأخرجت أساليب محددة تسير عليها الأمم في اختيار الحلول. قد تتطور هذه الأساليب أو تتبدل في المستقبل ولكن في الوقت الحاضر يمكن حصرها في الآتي:

### استعمال القوة والعنف:

تلجأ إلى هذا الأسلوب المجتمعات والدول التي تأنس في نفسها الطاقة للجسم وتتوفر لديها المقومات المادية لذلك فضلاً عن توفر الظروف الإقليمية والدولية. قد يؤدي هذا الأمر إلى تحقيق حسم نهائي للموضوع أو خلق أمر واقع جديد أو تجميد القضية وتأجيل حلها لفترة ما بسبب ظروف دولية. إن قضية الحسم النهائي أصبحت أمراً مشكوكاً به في الوقت الحاضر لأن الضوابط الدولية تحول غالباً دون وصول الحرب إلى مداها وتحقيق غاياتها النهائية. لكن مسألة التجميد وخلق الأمر الواقع والتأجيل تبقى الأكثر احتمالاً في هذا

العصر، والأمثلة على ذلك كثيرة في تاريخ الحروب الدولية كبيرة كانت أم محدودة، ونخوض منها بالذكر هنا الحروب العربية الإسرائيلية كدليل حيّ قريب نعايشه وننفعل به، أو حروب التحرير العربية الأخرى مثل حروب الصومال والأوغادين وتحرير أريتيريا. لقد مضى عصر مقولة ماك آرثر أن لا بديل للنصر وأصبح رأي ريمون آرون أقرب إلى الواقع. يرى آرون أن تاريخ القرن العشرين كافٍ للتذكير بأن هناك سبلاً عدة للخروج من المعارك متتصرين، والنصر النهائي ليس بالضرورة حليف من يملي شروط السلام أو من يتمتع بالقوة العسكرية.

### **الخضوع للقوة:**

هذا الحل هو اختيار واعٍ يسيطر فيه المختار على مشاعره ورغباته وإرادته نتيجة حسابات عقلانية لا تتأثر بالعاطفة والقيم المعنوية، فيوازن بين الخسائر والأرباح ويختار المحصلة النهائية الملائمة. هذا الحل هو الوجه الآخر لاستعمال القوة لأنه اختيار الطرف الأضعف الذي تُمارس عليه القوة والعنف. الأمثل على ذلك كثيرة، وخير مثال فيها هو استسلام دول المحور في الحرب العالمية الثانية دون قيد أو شرط.

### **تجنب المواجهة:**

وهو تأجيل لمواجهة المعضلة وابتعاد اختباري عن الصدام. قد يأتي التأجيل من طرف واحد كنوع من الخضوع الموقت للقوة، أو قد يكون من الطرفين لأسباب مختلفة. وفي كلتا الحالين ربما جاء التجنب تأجيلاً مؤقتاً بانتظار تحقيق ظروف ملائمة أو تخلياً نهائياً عن الموضوع دون متابعة محاولة حلها، كما فعلت الصين الشعبية عندما آثرت عدم استخدام القوة لضم فورموزا التي تعتبرها جزءاً من التراب الصيني.

إن الحل بتجنب المواجهة أصبح طابع الزمن النووي الذي أضاع معطيات القياس لدى الدول ومفاؤضيها وعطل الطاقات الفكرية والكافاءات فلم يعد من الممكن التشريع والتقنين لحدود استعمال السلاح وتسخير نتائجه في الاتجاه الصحيح. ويقول أينشتين في هذا المجال بأن مسألة التشريع للقنبلة الذرية هي مهمة تفوق طاقات البشر والحل الوحيد لها هو نزع السلاح تماماً وإلا جاءت النتائج كارثة إنسانية.

### **التحكيم أو اللجوء إلى طرف ثالث:**

وهو أمر اللجوء إلى المؤسسات الدولية كمحكمة العدل والمنظمات الدولية والإقليمية وبعثات الوساطة وتدخل دول معينة. إن الأمثلة على ذلك كثيرة منها الصراع في قبرص والنزاعات العربية الداخلية مثل الصراع بين اليهود واللبنانيين والنزاع اللبناني الفلسطيني.

### التسوية غير المستقرة :

وهي عمل سلبي يقوم على القبول بالأمر الواقع موقتاً كما فعل علي بوتو الباكستاني مع الهند بعد استقلال بنغلادش، أو كما فعل جمال عبدالناصر بعد قيام الحركة الانفصالية في سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة. إن هذا الخيار بطبيعته غير مستقر لأن الأبواب تبقى مشرعة. أمام المعضلة فيمكنها أن تسلك طريق استمرار الصراع وتطويره كما يمكنها الانتقال إلى أحد أساليب الحل الأخرى التي جئنا على ذكرها آنفاً وأخصّها أمر الخضوع للقوة أو تجنب المواجهة. على أية حال إن عدم الاستقرار يجعل الأمر غير نهائي وظيفي يتتطور ويتحول بغير الأحوال وتطورها.

### المساومة على حل وسط :

وهو الدخول في مفاوضات تعطي للطرفين، وتأخذ منها بحيث لا ينال كل منها مبتغاه الكامل. إن هذا الأسلوب في الحلول هو سهل إذا قام بين شركاء في مشروع واحد أو رفاق طريق كما حدث في أزمة تقسيم برلين، لكن الصعوبة في الأمر تكمن في وقوع المساومة بين خصمين.

إن أسلوب المفاوضات هو أسلوب العصر لحل أزمات الصراع الدولي نتيجة تعاظم أهمية أسلحة الردع النووية التي فرضت على الدول خوض صراعاتها والتعامل مع أندادها من خلال اعتماد أسلوب الرد المرن والردع المتدرج، وهذا ما تبنته الولايات المتحدة الأمريكية، والذي يمكن تسميته باستراتيجية ماكسويل تايلور. كذلك فاستراتيجية الترابط بين المشاكل العالمية التي قال بها كيسنجر والتي تطبق عملياً على صعيد الجبارين، تعمل لصالح أسلوب المفاوضات في حل المعارض وتقلل من أهمية الأساليب الأخرى.

يقول كيسنجر بأن علينا أن نفهم بأن معظم الصراعات الكبرى ليس لها حلول حاسمة ولا حلول سياسية وإنما لها حلول تاريخية. إنه الحرب والتزاعات تنشأ عن دواعي حقيقة ومصالح لدى الأطراف ولا علاقة لها بسوء النية ونوازع السيطرة الفردية. يجب الاقتناع بحقيقة بدائية هي أن كل مشكلة لها وجهتي نظر ويجب التخلص تماماً عن فكرة التفوق في هذا العصر، لأن التفوق في العصر النووي خرافة بعيدة المنال، والسعى للتفوق ما هو إلا نوع من أنواع السباق على التسلح. لهذه الأسباب يجب استبعاد الحلول القيصرية في الصراعات الدولية والتجوء إلى الوفاق والضمادات المتبادلة والأسلحة الرادعة كعامل استقرار وتوازن. إن القتال والمفاوضات هما وجهان من وجوه الصراع بين القوى. تتصادم المصالح وتناقض ضرورات الأمن فترجم موازين القوة عسكرياً بالقتال ودبلوماسياً بالتفاوض. إن أفضل

أسلوب في المفاوضات هو إثارة الخوف والأمل في أن واحد واستثمار السوانح التي لا يمكن اختزانها أو عودتها لأن التاريخ لا يعيد نفسه، والذين لا يدرسون التاريخ هم الذين يحكم عليهم بتكراره. وهذا ما قال به ماركس أيضاً.

لقد آمن كيسنجر بالمفاوضات الساخنة في أتون الحرب وآمن غيره بالمناخات الباردة. كل وجهة نظر لها مؤيدوها وربما لكل أسلوب ظروفه. قال كيسنجر باستخدام القوة تعزيزاً للدور الدبلوماسي، وصاغ معادلة السلام على أساس توازن القوى بحيث لا يتحقق أي من الطرفين أهدافه. كذلك رأى بأن المفاوضات وال الحرب يجب أن تسيرا معاً وعلى توقيع واحد، لأن العمل السياسي والقوة يكملان أحدهما الآخر ولا يلغيه، وأفضل أسلوب للمفاوضات هو الذي يرى السلام عبر دخان الحرب. إن القوة، عنصر واحد من عناصر الأمن، والسياسة دون قوة عمل عقيم فلا دبلوماسية قادرة على أن تحل مكان قوة ردع كافية.

يقول كيسنجر بأن المفاوضات هي البديل للحرب على أن لا يكون موضوعها السبب الحقيقي للحرب نفسها. إن من يقود المفاوضات عليه أن يُري خصميه حجم إرادته السياسية ومن ثم يريه حجم قوته، لأن المفاوضات ليست مبارزة بالنصوص بين أذكياء ولكنها تعبير عن قوى حقيقة لا بد من التوفيق بين مصالحها. ولا وجود لمفاوضات ترضي كل الأطراف بل يجب أن يشعر كل طرف بقسط من عدم الرضى على أن لا يصل ذلك إلى درجة الغضب يؤدي إلى الخروج من حلبة المفاوضات عند أول صدمة. إن هدف المفاوضات في النهاية إقرار تأمين اتفاق طوعي لإنشاء شرعية جديدة للتعامل في إطار حدوده.

جميع هذه الأفكار صاغها كيسنجر في نظرية ذات أربعة بنود، هي :

- أكثر العصور بحثاً عن السلام هي أكثرها تعرضاً للقلق فالمجتمع الذي يصبح تحت سيطرة العنف هو الذي يتшوق للسلام.
- يأتي الاستقرار الذي يصنع السلام نتيجة الرضى بشرعية دولية مقبولة تصونها ترتيبات عملية واتفاق على الوسائل والأهداف المسموح بها في السياسة الدولية.
- لا يوجد انفصال بين الدبلوماسية والقوة المسلحة بل هناك زواج وحوار مصالح متعارضة تستند إلى رادع حقيقي يحميها ويفتح الطرق أمامها.
- القوة المسلحة هي النقطة المركزية في نظرية صنع السلام.

وبهذا يتلقى كيسنجر مع هتلر الذي يؤمن بأن السلم بأى ثمن مرفوض ، والسلم العالمي يجب أن يستند إلى سيف مظفر، إن صنع السيف المتقدم أو المحرر هو مهمة السياسة الداخلية للحكومة، أما السياسة الخارجية فعليها تمكين صانع السيف من العمل في جو تسوده الطمأنينة ومن تبعية رفاق السلاح.

وهكذا نرى أن كيسنجر يؤمن بما آمن به فخرالدين المعنى اللبناني قبله بقرون حيث أرسل إلى أهله في الوطن من توسكانا يقول «إن المفاوضة بين فريقين غير متساوين من حيث القوة ضرب من الاستجداء وعليه، فإني أشور عليكم أن تعتمدوا على أنفسكم أولاً إذا أردتم أن تناولوا استقلالاً محترماً ومركزاً مرموقاً بين الشعوب».

لم يؤمن كيسنجر بالحلول النهائية بمعنى الإنجاز التام الذي يغلق ملف المشكلة أو الصراع إلى الأبد، ولكنه آمن بالحلول الوسطية وبأن العمل يجب أن يجري في النطاق الفاصل بين آمال السلام وأخطار الفناء خلق الانفراجات. إن السلام الذي يتصوره هو سلام الانفراجات الدولية المحكومة بإدارة الجبارين، وبذلك يتفق مع محمد حسين هيكل الذي يقول بأن الصراعات المزعولة عن اهتمام أو تأثير العاملين هي مأسى لأنها غير ساخنة ولا تؤدي إلى نتائج.

# نظريّة الحرب

الحرب في المنظار النظري  
عدالة الحرب



## الحرب في المنظار النظري

لاحظنا سابقاً أن الصراع ظاهرة فردية وجماعية، وهي في أساسها نزعة بشرية ترتكز على دعامتين إنسانيتين أساسيتين هما في المفهوم البسيط للمعضلة للأمن والأنانية. أما وجههما العملي فهو المحافظة على النفس وإفناء العدو. هذا هو المنظور البسيط للقضية، ولكن واقع الصراع الآن أصبح أعقد كثيراً وأوسع تشعبات ولم يعد وجه العنف فيه هو الوجه الأوحد، وإنما أضحت الصدام العنيف أعلى درجات سلم التدرج والحلقة الأخيرة من مروحة الاختيارات الأخرى. على أية حال، فالحرب قمة الصراع الدولي وهي ظاهرة صراع جماعي وأمر واقع في المجتمع البشري لا تلغيه ولا تكرسه كثرة النظريات حول حتمية وجوده أو وجوب وجوده أو اختيارية حدوثه. وإذا أخذنا جناح الصراع العنيف الذي يعتبر في جذوره أب الحرب الجماعية وأساسها، نلاحظ بالتفاتنا للتاريخ بأن الصراع كان في البدء صداماً فردياً ظرفيأ ثم تطور إلى مبارزة يحكمها شيء من العلم والمهارة، ثم أصبح حرباً عندما ارتدى الطابع الجماعي. هذا ولا بد من الإشارة هنا إلى أن كل ذلك سار مواكباً للإنسان في معراجه التطوري في جميع نواحي الحياة إن علمياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً.

### تعريف الحرب:

كون الحرب التي هي أعلى درجات الصراع ظاهرة راسخة في القدم ومستمرة، فقد حاول مفكرون كثيرون دراسة أسلوبها العملي ومنهجية خوضها وأنماط مسيرتها، فخرجوا بتحديداً وتعريف للحرب مرتبطة بالنواحي التي أهتمتهم درس هذا الموضوع، ومرتكزة على الزوايا التي نظروا منها إليه. منهم من وضعها في إطار فلسفي شمولي فقال بأنها وجه من وجوه صراع البقاء، ومنهم من تناولها على مستويات معينة مرتبطة بالغاية من التعرض للموضوع. لذا، فإن من المفيد جداً عرض شمية من التعريف المتعددة إسهاماً في توضيح الصورة وتجسيدها أمام أعيننا.

عرف صن تزو الحرب بقوله: الحرب في معناها العام عمل عظيم للدولة، هي تربة الحياة والموت، هي طريق البقاء والفناء، أما أهم هدف للحرب فهو الهجوم على استراتيجية العدو.

يقول كلاوزفيتز بأن الحرب مجرد استمرار للسياسة بطريقة أخرى عنفية، هي تابع من توابعها وأداة من أدواتها، وهي، من منطلق الهدف الفوري المباشر وفي إطار تخيل المأربة بين قوتين، عمل من أعمال العنف المتصف بالشراسة يستهدف إكراه الخصم على تنفيذ إرادتنا، ولتحقيق هذا الأمر يجب نزع سلاح العدو. لذلك فإن نزع السلاح يعتبر الهدف المباشر للعمليات العسكرية. أما التعامل السياسي مع العدو فهو يشعل الحرب ولا يوقفها، وكثيراً ما كانت محاولات التهدئة سبباً لاشتداد أوارها.

ويرى آخرون بأن الحرب عملية صدام وحشى وقتل جماعي يحطم فيها البشر بعضهم بعضاً بقصد تحقيق أهداف محدودة. وهي تعني التدمير بطيش ورعونة يذهب الأبراء ضحيته. كذلك تأخذ الحرب أحد مسلكين: القتال للربح أو القتال لأهداف سياسية. ومسألة القتال للربح فقط قد ولّ زمانها لأنها مرتبطة بمفهوم الإبادة والاجتثاث الذي رافق العصور البدائية وعصر الدولة المدينة أو الدولة الجيش. أما الآن فلم يعد من الممكن أو من الجائز دولياً اجتثاث شعب بأكمله أو إزالة دولة من عالم الوجود والقضاء على جذورها التاريخية ومقوماتها البشرية.

أما قاموس ويستر فيرى أن الحرب هي حالة من النزاعات المسلحة بين مجموعات سياسية وخلافات بين قوى عقلية أو مادية أو اجتماعية أو غير ذلك.

ويقول ليدل هارت أن الحرب هي السياسة خلال التنفيذ. أما أندريه بوفر فيقول بأن جوهر الحرب المحدودة في عصرنا الحديث هو أن الحرب صراع إرادات، ولم يعد المهم فرض الإرادة كاملة بالسلاح على الفريق الآخر، لأن ذلك مفهوم فات أوانه في العصر النووي. إن مجرد أن يتمكن فريق من منع فريق آخر من فرض إرادته عليه يعني ذلك أنه انتصر. قبل هارت وبوف قال الماريشال فوش بأن الغالب هو الذي يعتقد أنه الغالب لأن المعركة صراع بين إرادتين والانتصار هو تفوق أدبي عند الغالب.

أما الإمام علي، كرم الله وجهه، فقد سبق الجميع إلى دخول عمق معضلة الحرب من ناحية الربح والخسارة إذ قال: كنت أحمل على الفارس فأعتقدُ أني أنا قاتله ويعتقد هو أيضاً أني قاتله فنصير أنا وهو عليه وبهذا يتم لي النصر.

وترى كلية الحرب الصينية الوطنية بأن الحرب عمل من أعمال النزاع المنظم بين مجموعات سياسية تهدف لإجبار الخصم على القيام بالعمل حسب إرادتك السياسية.

ما من شك بأن الحرب عمل يحقق التغيير الاجتماعي باستخدام العنف المنظم الذي ينشأ نتيجة عدم قبول أطراف الصراع بشروط وإرادات بعضها. إنه في الواقع مرتبط بالسياسة الأمر الذي يذكر مقوله كلاوزفيتز ويدفعنا إلى اكتناه مفهوم السياسة وتحديدها في

السياق الذي يسير فيه موضوعنا العسكري لمعرفة هذه الجدلية وتوضيح هذه الروابط. لقد حدد البعض السياسة بأنها إدارة شؤون الجماعة. وقال عنها آخرون بأنها أرقى ممارسات الحرية والإرادة. ورأى فيها كمال جنبلات كما رأى كلاسيكيو العرب القدماء تدبيراً للشؤون المادية أو المعنوية للجماعة، وهي الغطاء الذي يحكم جدلية السلطة القائمة بين الحاكم والجمهور المحكوم.

أما محمد حسين هيكل فيرى أنّ السياسة مسألة إدارة متناقضات متعارضة.

ويرى البعض أنها فعل إرادي واع وخلق لإدارة شؤون المجتمع وضبطها ووسيلة صنع الناس لتاريخهم ضمن إطار المعطيات المتوفرة.

أما لينين فيقول بأن السياسة محاولة للمطابقة بين الحقيقة التاريخية للعصر والحقيقة الملمسة الراهنة في المكان والزمان. إنها علم وفن في آن معاً، وهي أقرب إلى علم الجبر من علم الحساب وأشبه ما تكون بالرياضيات العالية.

ويرى أرسطو أن السياسة والفلسفة وجهان لعادلة ديناميكية واحدة، فالسياسة هي الوجه التطبيقي العملي والفاعل للمعادلة بينما تبقى الفلسفة وجهها النظري الفكري المجرد. أما أينشتين فيرى في السياسة لعبة خطرة وصعبة وهي أشد تعقيداً من الفيزياء.

إن جميع وجهات التناظر تبين بأن السياسة هي أرقى ممارسات الإرادة الحرة لإدارة تناقضات وصيغ مصالح المجتمعات البشرية وعلاقاتها الداخلية والخارجية ضمن إطارها التاريخي. هذا يظهر بجلاء أن الحرب نوع من أنواع الإدارة وأسلوب من أساليبها، وبالتالي فهي تابعة للسياسة وأداة من أدواتها. أما تعميم القول بأن الحرب استمرار للسياسة بوسائل أخرى وإطلاق هذا التعميم فقد أضحي غير عملي إلى حد بعيد في ظل الرعب النووي، ولكن فاعليته تبقى عملية في إطار الحرب المحدودة. إن ظروف التطور ومتطلبات العصر جعلت من الحرب أسلوب ممارسة اجتماعي متتطور للصراع وأصبح تعريفها الأفضل هو: إنها عمل إكراهي شرس عنيف، وأسلوب إدارة متتطور للصراعات تعبيراً عن مصالح المجتمعات البشرية، تتحكم فيه نزعات الأمن والأمنية ويهدف إلى فرض إرادة أحد المتصارعين.

هذا ولا بد هنا من التذكير بأن الحرب ليست إلا أحد أساليب حل الصراعات الدولية التي نوهنا بها سابقاً، ولكنها تبقى حلاً مميزاً من ناحية الكلفة والمروود والتفاعلات. إن الحرب في ظل المظلة النووية في الوقت الحاضر أصبحت، بسبب محدوديتها والتطور التكنولوجي للأسلحة وفعالية تدميرها، تتوجه إلى عدم الجسم والطول وإلى ارتفاع التكاليف في المجالين المادي والبشري. إن هذا المنحى يتوجه من مرتبة الإنهاك المتبادل إلى مرتبة التدمير المتبادل، حسب ما رأى كلاوزفيتز، الأمر الذي يدعو إلى التفكير الجدي في عقم اعتماد الحرب كأسلوب حل للصراع،

وبالتالي التأكيد على رأي كيسنجر في أن المفاوضات هي الطريقة الفضلى لإدارة النزاعات وحلها. إن أفضل دليل على النهايات المدمرة هو ما تتجه إليه الحرب العراقية الإيرانية الآن بعد أن دخلت سنتها الخامسة حيث لم يتزعزع اقتصاد المتحاربين فقط بل اهتز وضع الخليج العربي بأكمله. على أية حال بقي أن نضيف بأن من الملائم القول بأن الحرب هي ابنة السياسة، والسياسة وريثة الحرب، لأن عجلة الزمان لا يمكن أن تتوقف عند حدث معين بل تستمر في سياقها التاريخي بعده ولذلك فالسياسة استمرار لإدارة الشؤون بينما الحرب عارض طارئ في الزمان والمكان.

### ديناميكية الحرب :

إن الحرب بطبيعتها عمل دائم الحركة والتحول، فهي في تبدل ديناميكي مستمر إن من ناحية الأهداف الآنية والمرحلة المباشرة، أو من ناحية الأفعال والردود عليها. إن من يريد أن يدرس هذه الظاهرة الديناميكية عليه إنعام النظر والتركيز على وجهين للحرب هما الوجه النظري والوجه العملي. إن استخلاص العبر في هذا المجال ضرورة تساعدنا في متابعة درس هذا الموضوع الشائك وتطبيق القواعد العقلانية على أمور قد تبدو أحياناً منطقية عقلانية وأحياناً كثيرة خارجة عن مقاييس العقل والمنطق. ومع كل ذلك ورغم جنونية الحرب وبعد وثيرتها عن العقل غالباً، فلا بد من اللجوء إلى أداة قياس وتحكّم وأسلوب تقرب إذا كانا نريد اتباع طريق الدراسة التحليلية العلمية في منهج تقصّينا للحقيقة الأمر الذي يوصلنا إلى نتيجة ذات قيمة. إن حقل الدراسة كما قلنا، يرتكز على وجهي الحرب النظري والعملي.

أ - الوجه النظري للحرب : ويعني هذا الأمر دراسة الحرب كجسم مستقل عما حوله والنظر إليه كصدام بين قوتين معزولتين عن أي اتصال خارجي وأي تأثير بمعطيات الظروف والمكان والزمان. من خلال هذا المنظار تبدو لنا الحرب عملاً متبادلاً وتفاعلًا تصاعدياً تشبه إلى حد بعيد التفاعل النووي. الأمور تتتصعد دائمًا إلى حدودها القصوى، تحكمها قاعدة الفعل وردات الفعل بحيث يسهم كل فريق في صنع قوانين خصمه. وتتداعى الأحداث في سلسلة متواتية من الأعمال المتبدلة التي ترتكز على أربع دعائم، هي :

● العمل المتبدال الأول : وهو تصعيد الحرب من كلا الطرفين لإيصالها إلى حدتها الأقصى واستعمال جميع الطاقات والوسائل من مادية وبشرية. إنها عملية اندفاع نحو الإفان المتبادل ينقلب الهدف فيها إلى غاية واحدة هي التدمير والاجتثاث. لقد آمن بهذا المنطق كثيرون من القادة العظام ورأوا أن الهدف الأول في أية حرب هو تحطيم جيش الخصم. كذلك آمنت دول بهذا المفهوم كالاتحاد السوفيatic مثلًا، فحوّلته إلى مبدأ من مبادئ الحرب الدائمة لديها.

● العمل المتبدال الثاني : وهو سلوك إملاء الإرادة المتبدال. هذا يعني أن المحارب ليس سيد نفسه، بل تحكم به رغبة القضاء على خصمه قبل أن يقضي عليه ذلك الخصم. ليست هذه

القاعدة أمراً فردياً بل تنطبق على الجماعة أيضاً لتصل إلى مستوى الجيوش بأكملها. إن كون فريقاً الصراع قادرٌ على أن يضغط كل منها على خصميه لإملاء إرادته تجعلهما مرتبطين في ثنائية من الفعل ورد الفعل ومن الاستدراج والتلبية أو الاستجابة. هذا الارتباط يحد من حرية الطرفين ويغلّ الإرادة في مرمي الخصم شريك خصميه في توجه إرادته وإدارة تصرفاته. لقد وعى المفكرون العسكريون هذه الظاهرة وخرجوا منها بتحديد للحرب يقول بأنها صراع إرادات تهدف إلى إملاء إرادة كل فريق على خصميه.

● العمل المتبادل الثالث: وهو الاندفاع في سباق لتحقيق التفوق في الإمكانيات. إن هذا الاندفاع ضرورة لا لبس فيها ما دامت مقاومة الخصم ترتكز على عاملين هامين هما: الإرادة التي تشكل مصلحة تفاعل وجود القضية وأحقيتها وعدالتها بالمعنيات، ومن ثم وفرة الإمكانيات التي تترجم في مجالات العديد والعتاد والتدريب. إن الاندفاع في سباق التفوق محكم بعاملين؛ أولهما نفسي ينشد الاطمئنان إلى الهدف والمصير وثانيهما عقلي مرهون بالمحاكمة المنطقية العقلانية لمقارنة القوى في إطار حسابي مادي بحث. إن هذا العمل هو الذي يحكم الآن عملية سباق التسلح الجارية الآن بين الدول الكبرى وعلى الأخص الجبارين في مجالات السلاح التقليدي والنووي وفي ميدان عسکرة الفضاء.

● العمل المتبادل الرابع: وهو الإفباء بحد ذاته، ويعني تصاعد عملية الإنهاك المتبادل بمرور الزمن مع تصاعد اندفاع الحرب إلى حدتها الأقصى وفي نفس الاتجاه. إن المردود قد مختلف كثيراً في النهاية بين الرابح والخاسر، كما أن تأثيرات الإنهاك على القوى الصغيرة تختلف عن تلك التي تصيب القوى الكبيرة. غير أن الواقع المادي يؤكّد أن الخسارة تصيب الطرفين معاً، لكن المتصرّ يصبح قادراً على تغطية خسارته مستقبلاً من خلال استثمار هدف الحرب الذي كسبه. إن النتائج المادية والمعنية في أية حرب لا تعكس بأمانة الصورة الحقيقة لكميات الخسائر في النهاية لدى الطرفين. بالإضافة إلى الأعمال المتبادلة الأربع يضاف في المجال النظري للحرب مبدأ القطبية في العمل الذي يعني أنه لا يمكن أن تلتقي مصالح الخصميين في عمل واحد ضمن إطار الزمان والمكان، وإنما انتفي سبب وجود الحرب كمؤشر من مظاهر الصراع بانتفاء وجود الصراع نفسه. إن ديناميكية المعركة تقضي بأن تكون مصالح فئة في غزو واتساع بينما تكون مصالح خصمها في تناقض وانخفاض، وعندما تتعطل هذه الديناميكية وتفقد المصالح ميزة التحرك المتوجه، تصل المعركة إلى نقطة العطالة. إن فهم مبدأ القطبية هذا لا يكون إلا من خلال وحدة الغرض أو الهدف، فإذا لم يكن الغرض واحداً طبق مبدأ القطبية على الجامع المشترك بين الغرضين. أما إذا تباعد الغرضان ولم يكن هناك قاسم مشترك بين أهداف النزاع فعندها ينفرط عقد معادلة جدلية الحرب لتصبح حربين، أو ليتنافى قيام الحرب ذاتها. إن تعريف الحرب من هذه الزاوية هي

نزاع مسلح بين فريقين على هدف واحد، فإذا اختلفت الأهداف انتفى وجود عقد صيغة النزاع. هذا وغني عن البيان أن مبدأ القطبية لا ينطبق على التناقض الواقع بين الهجوم والدفاع. فإذا كان الظرف مواتياً للقيام بالهجوم مثلاً فلا يعني ذلك بالضرورة أن الدفاع غير مواتٍ. إن القطبية بطبيعة كونها قاعدة جدلية ترتبط بالجسم الذي يكمن وراء الدفاع والهجوم معاً وهي تتعدى التفاصيل لتصل إلى المبدأ.

إن ما يزيد من شدة الحرب هو غلو الروح العدوانية لدى أطراف النزاع والتي من مسبباتها الإحباط والقلق وروح ردع المعتدي ، فضلاً عن الصفات القومية للشعب المرتبطة بالأرض والقيم والتوجه الجماعي العدوانى والقومية المتعالية الباحثة عن تحقيق ذاتها في خصوص الآخرين .

ب - الوجه العملي للحرب : بعد أن تناولنا الحرب من الناحية النظرية بمعزل عن أي عامل مؤثر أو معدّل في منحي صداماتها وشدة تلك الصدامات بأسلوب تحريري بعيد عن الواقع ملتتصق بالمبادئ والحدليات ، لا بد من المبادرة إلى القول أن الواقع غير ذلك ، وأن المعركة لا تدار في فراغ ، فهناك عوامل عده تؤثر في حدتها وتعدل تلك الحدة . كما أن هنالك عوامل أخرى تؤثر على المردود أو تقلب موازين التائج . إن تصنيف هذه المؤثرات العملية والموضوعية يمكن أن تصاغ فيما يأقى :

● المؤثرات التاريخية والجغرافية والأيديولوجية : هذه المؤثرات هي التي تصوغ علاقات الدول والشعوب فيما بينها ، وترتؤر على حدة تلك العلاقات وتنظم أنماط تطورها ، واتجاهات مساراتها . وهي لا تولد مع الحرب فقط ، ولكنها هي التي تفعل فيها أولاً وتخزن مردودها ثانياً ، لتعود فتفعل تلك التائج المخزونة من جديد في الظرف الملائم ، سيما إذا تباعدت المفاهيم الأيديولوجية . إن الحرب باعتبارها أعلى درجات الصراع ينطبق عليها ما ينطبق على مختلف وجوهه من قواعد . وإن كانت الخصوصية تحكم بعض النواحي فهي تأتي كشاهد لصالح القاعدة وليس ضدها . لذلك فالحرب كمظهر من مظاهر الصراع محكمة في الواقع بعاملين تحريريين هما : الشعور بالعداء التاريخي والبنية العدوانية .

إن الشعور بالعداء يتجلّر بالتراكمات المخزونة نتيجة لصراعات المصالح المرتبطة ، كالصراع الألماني الفرنسي أو الصراع العربي الإسرائيلي مثلاً . إن تراكمية التناقضات تعقد مسألة إيجاد الحلول وتغذّي الشعور العدائي ، كما يفعل عامل الزمن فعله فيحول الشعور إلى حقائق وثوابت تتربي عليها الأجيال وتتحول وبالتالي إلى مفاهيم وأيديولوجيات .

إن الشعور التاريخي يمتد بتراث الأمم ويصبح ميزة من ميزات شعورها وسمة من سماتها الأخلاقية ويتحول إلى طابع عرقي أو إثنى .

أما البنية العدوانية فهي ترتبط بالأيديولوجية والقيم الأخلاقية والدينية . هي ميزة في الشعب .

نتيجة اتحاده بتراثه وخرافاته وأيديولوجياته وجغرافية أرضه. هي نتيجة احتكاكه بالطبيعة وبجيشه. هذه البنية هي امتداد للشعور وتحول له وللقيم. إن البنية العدوانية تتغذى عادة من المشاعر التي تخلقها ظروف البيئة ويزكيها الذكاء المرتبط بالمصالح عند القيادات التي ترسم الأيديولوجيات وتحرض الشعب على الالتفاف حولها. إن خير شاهد على عملية البناء العدوانية هو النازية والفاشية وجميع تلك النظريات التي تتلبّس مسوح المصلحة الوطنية أو القومية وتتحرّك مصالح الآخرين على مذابح شهوتها.

إن عامل الشعور التاريخي بالعداء والبنية العدوانية يعتبران من أهم العوامل التي تخلق الشراسة في الفرد والجماعة ويؤلفان الثابت الذي يعود لكل جماعة أو عرق أو بيئة. إن معادلة الشراسة يمكن أن توضع في الصيغة الآتية:

$$\boxed{\text{ش} = \frac{\text{خ}}{\text{ع}} \cdot \text{ظ. ث}}$$

ش: تعني عامل الشراسة.

خ: تعني عامل الخوف المتأتي من معطيات الواقع الذي تفرضه الأحداث.

ع: تعني عديد المجموعة التي تطبق عليها المعادلة والتي كلما قلّ عددها زادت شراستها بسبب الشعور الداخلي بالخوف على مصيرها.

ظ: ويعني الظروف العامة التي تفرضها المعضلة من إقليمية أو دولية. قد تختلف هذه الظروف الاطمئنان وتقدم الضمانات أو قد تكون غامضة غير معروفة أو قد تضغط بمعطياتها باتجاه التهديد والخوف.

ث: وهي العامل الثابت الذي يرتكز على الشعور التاريخي والبنية العدوانية.

● المؤثرات التحضيرية (الإعدادية): ويقصد بها تلك المؤثرات التي تعرقل عملية الكمال في التحضير المادي والمعنوي والتنظيمي وتحد من القدرات في تأمينها نتيجة ظروف مادية أو سياسية أو تقديرية أو إدارية. إن الأسباب التي تؤثر على العمل التحضيري كثيرة ومتشعبة ولا يمكن حصرها لأنها ترتبط بالظروف الموضوعية والمعطيات المادية والبشر أنفسهم هذه العوامل المتغيرة من معضلة إلى أخرى ومن وقت إلى آخر.

إن الحرب عمل غير منعزل عن التاريخ والجغرافيا والسياسة والاقتصاد والمفاهيم الأيديولوجية والمصالح والتحالفات ولقاء المنافع، ونهج صانعي القرار في التفكير والتصريف فضلاً عن الأمان والمقاصد والرغبات. جميع هذه الأمور تؤثر في مناخ التحضير العسكري عند الفريقين وتدفعه إلى أعلى درجات الاستعداد أو تحد من اندفاعه في مستوى معين. إن

هذه المعطيات بطبعتها هي عوامل تصعيد بقدر ما هي كوابح إبطاء من الناحية النظرية، ولكن محصلة مردودها النهائي، لو نظرنا إليها في المطلق، لا بد أن نعتبرها عناصر إبطاء طالما أنها تبعدنا عن مرتبة الكمال غالباً.

وكما أنتا لا يمكن أن نعزل الحرب عن المؤثرات المتعلقة بالمحيط كذلك لا يمكن تصورها ضربة واحدة غير خاضعة لعامل الزمان. إنه من غير الواقعي حتى من الناحية النظرية أن نبحث عن نتيجة حاسمة واحدة أو عدة نتائج حاسمة في آن واحد دون أن نعمل في حين زمني معين، فضلاً عن تعذر حشد جميع الطاقات إلى الحد الأقصى واستعمالها في آن واحد بمعزل عن عنصر الزمان، سيما وأن الطاقات الحربية متنوعة وكثيرة لا تختص من قوى عسكرية إلى أعدة وأرض وحلفاء.

إن الواقعية تفرض على طرف الصراع في العمل المتبادل أن يتوقفا قبل بلوغ الذروة في وضع المجهود الأقصى. أحد الفريقين سيتوقف عن الاندفاع بسبب الوهن والضعف الذي يعانيه، أما خصمه فسيتقاعس طبيعياً بسبب ضعف خصمه الأمر الذي يخفف من حدة التصعيد وبلغ المدى الأقصى. إن هذه الدعوة والاستجابة تفرضها طبيعة الواقع والأشياء وتكرسها الممارسة العملية والتركيبة البشرية والمادية للحرب.

● المؤثرات الموضوعية: ليست الحرب في الواقع عملاً تجريدياً، وإنما ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالواقع الحياتي الذي يبعدها عن حدتها الأقصى المطلق، ويربطها بالغاية السياسية، كونها وسيلة تخدم تلك الغاية، وبالتالي فلا يمكن أن تتضارب الغاية والوسيلة، ولا يمكن أن تصبح الوسيلة مشروعًا مستبداً متجرراً، لا يراعي طبيعة الطاقات التي يملكتها، لذلك لا بد من الالتفات إلى عدة نواحي موضوعية تحكم نمط الحرب وحدتها.

إن مدى اختلاف الحروب عن بعضها يعود إلى طبيعة دوافعها، والظروف التي تولدها. فبقدر ما يكون الهدف السياسي للحرب كبيراً ومهماً، بقدر ما تكون دوافع التوتر والعنف كبيرة. هذا يعني أن العنف يزداد بشكل مطرد مع ازدياد قيمة الدافع السياسي. نضطر لممارسة دفع معنوي أكبر للقوات العاملة على تحقيق هدف سياسي متواضع. الأمر نفسي وقيمة الهدف مؤثرة منها كان نوع الهدف اقتصادياً أو اجتماعياً أو أيديولوجياً. هنا يظهر جلياً أن الفاعلية القصوى للقوى لا تمت إلى الوسيلة بصلة ولكنها ترتقي بالغاية. ومع أن الهدف العمالي الدائم للحرب كما أسلفنا هو تدمير العدو وتحطيم إرادته القتالية، فهو يعد وسيلة من الوسائل التي تؤدي إلى غاية الحرب النهائية. وكلما اشتد أوار الحرب وكثرت أعداد القوى المتصارعة كلما ابتعدنا عن الوصول إلى الغاية النهائية، وتغدو الأهداف العماليّة عندها وسائل لتحقيق أهداف عماليّة أكبر ومحطات على طول المسار الذي يتطاول باطراد. وتطول

سلسلة الأهداف الوسائل في الطريق إلى الغاية المشودة مع تعاظم حجم القوى والطاقات المتصارعة. هذا هو منطق الحرب في مجالها التقليدي، أما في نطاقها النووي فينتقل الأمر إلى مرتبة أخرى من مراتب الصراع غير الساخن، ويسير في معارج سباق التسلح وال الحرب الباردة. هذا ورغم إيمان كلاوزفيتز بأن الحل الدامي هو الابن الشرعي للحرب، فإن الطبيعة البشرية والمنطق يدفعان الإنسان لتبني الحل الأقل كلفة، والأقل خطورة في حال الفشل، سيما إذا كان الهدف السياسي قليل الشأن، والد الواقع ضعيفة، وتواتر القوى محدوداً. لا شك أن القائد الماهر هو الذي يتمكن من شق طريقه إلى الهدف والسلام بأقل كلفة ممكنة، ودون الوقوع في خيار الحل العنيف الحاسم، إلا إذا فرض عليه عدوه هذا الحل بسلوك طريق التصعيد العسكري العنيف الذي يضطره لمجاراته. إن الظروف المعقدة للحرب أصبحت تلزم قمة القيادة بهذا المفهوم، ولم يعد القائد العسكري إلا واحداً من طاقمها يشغل زاوية من زوايا نشاطها، ولا تمكنه طاقاته الإنسانية من إدارة كل شيء، وبالتالي تحدّى تركيبة المجموعة من طموح الأفراد في الاندفاع إلى الحد الأقصى للتصعيد بسبب التمايز في أنماط التفكير والرغبات، ولكون التفكير الجماعي أقرب إلى الواقعية والمنطق من التزوات الفردية.

إن ظروف الحياة العملية تضطر القوى المهزومة للقبول بالأمر الواقع كثُرّ موقت لا بد منه، على أمل تحسين الظروف الموضوعية وانتظار الوقت الملائم لتغيير هذا الأمر. إن هذا الخيار في الواقع أسلوب عقلي من أساليب الحلول الموقته للأزمات وتأجيلها لالتقاط الأنفاس والعمل على تغيير موازين القوى والظروف. هناك أمثلة كثيرة على هذا الأمر كسلوك الأرجنتين حيال بريطانيا بعد حرب الفوكلاند (المالويين)، أو كقبول الدول العربية بالقرار ٢٤٢ ، بعد هزيمة ١٩٦٧ . إن هذا الأسلوب من الاختيار يعني عدم الاندفاع إرادياً بالحرب والعنف إلى الحد الأقصى وتوفير الجهد والطاقات لظرف مناسب أفضل. إن سياسة تحديد الخسائر تقع في إطار هذا الباب أيضاً، وما من أمة دخلت حرباً خاسرة إلا وبخلاف إلى سياسة تحديد الخسائر، وإن كانت مستويات النجاح تختلف بين ظرف وآخر.

من المؤكد أنه يجب عدم إضاعة الوقت خلال الأعمال الحربية، بل يفترض البقاء في إطار المهلة الزمنية، واللجوء إلى الاقتصاد في الوقت ما أمكن. إن الظروف قد تفرض على المترافقين أو أحدهما انتظار فرصة أكثر ملاءمة للعمل. هذا مرهون بالواقع العسكري للمترافقين الذين قد يكونون في أحد وضعين: الأول هو أن مصلحة أحد الطرفين هي عدم الانتظار بل الإسراع في الحسم. عندها تكون مصلحة خصمه في التريث والتأجيل في انتظار تحسين أوضاعه. تتواءم المصالح المتعاكسة في هذه الصيغة وتعمل في اتجاه التخفيف من حدة الصدام، وهذا ما حصل مراراً في الحرب العراقية الإيرانية الدائرة الآن، وما حصل خلال

الحربين العالميتين. أما الوضع الثاني فهو التعادل في جميع المعطيات من قوى ودفاع، وهذا يقود إلى أحد أمرين: إما تغليب السلم عندما تزيد التضحيات عن قيمة الأهداف ويقلل الأمل في إمكانية الإخلال بالتوازنات، أو يؤدي الأمر إلى انعدام الاستقرار والسباق في التسلح واللجوء إلى الحرب الباردة ومحاولة التحضير إلى الحد الأقصى على أمل قلب موازين القوى، وهذا ما هو معروف بحالة اللاحرب واللاسلم. قد ينشأ بين حدي التعادل، ومصلحة أحد الخصوم في عدم الانتصار، وضع مركب فيه مروحة كبيرة من الحسنات والسيئات لطريق النزاع فتأخذ المعضلة عندها وضعاً مركباً يصبّ بالتأكيد في خانة التخفيف من التصعيد والابتعاد عن ذروة الحدود القصوى والاقتراب من الحلول الوسط العملية.

إن ظروف المدننة ومبرراتها تعود لتلاقي رغبة الخصميين في الحصول على فترة معينة للتخفيف من حدة التوتر ولضعف دوافع العمل لأسباب قد تكون متحققة في جوهرها أو خادعة في الجوهر معقولة في المظاهر. إنها في الواقع تلاقٍ لمصالح، فربما تلتقي مصلحة ميزة العمل الحاسم المؤجل من جهة مع مصلحة ميزة الدفاع من جهة أخرى، أو تلتقي مصلحتنا ميزة الدفاع لكلا الطرفين أو الحسم المؤجل تحت تأثير خطأ التقدير أو ضبابية المعلومات ونفيتها. إن هذا التلاقي هو الذي يخلق المدننة، أما المؤشرات الأخرى التي تؤثر عليها فيمكن تحديدها في النقاط التالية:

- كلما كان التوتر كبيراً كلما قلت فترات العطالة.
- كلما زادت طاقات القوات المتصارعة كلما قلت فترات العطالة.
- إن عامل الزمن يزيد من وسائل إعادة التوازن، لذلك فهو يعمل لمصلحة زيادة فترات المدننة.

● إن ضبابية المعلومات عن وضع الخصم تدفع بالقائد إلى الخدر وعدم المبادأة.

● إن الخطأ الشائع في المبالغة في تقدير قوة العدو تدفع القائد إلى تأجيل العمل العسكري.

هذا مع التأكيد بأن كثرة المدننات تتلاع姆 مع مسار العمل العسكري البطيء الذي يبعد القائد عن الأخطاء الكبرى القاتلة، ويبقيه في مجال الواقعية التي تحددها الظروف. إن هذا الأسلوب يدفع الدول إلى المسير في نفق الاستنزاف الذي تصعب رؤية نهايته. هنا تجدر الإشارة إلى نقطة هامة هي أن المدننة قد تقلب موازين أحياناً كما حدث عام ١٩٤٨ في الحرب العربية الإسرائيلية، أو تسهم في ازدياد الفوارق بين قدرات الدول، إذا تمكّن أحد الطرفين من استغلال الوقت لصالحه، في مجال السياسة الدولية، الأمر الذي يساعد في تعزيز قدراته العسكرية واستقطاب حلفاء جدداً أو تحديد أعداء محتملين، أو تغذية التناقضات التي تحكم بلحمة قوات أعدائه، سيما إذا كان يواجه عدداً مؤلفاً من عدة دول كما حدث

أثناء الحرب العالمية الثانية بين هتلر والخلفاء.

● المؤثرات الذاتية: هذه المؤثرات تتعلق بطبيعة الحرب ذاتها، وما يرتبط بها من أخطار وتطورات غير متوقعة ومتناقضية، ومن صُدَفٍ ولعَاتٍ حظ وغموض في المعلومات. كل هذه الأمور تفرض على الحرب نوعاً من التردد والمرأحة في إطار موقف واحد والخذر من الانتقال من المعلوم إلى المجهول والعمل بقاعدة «عاطل تعرفه أفضل من جديد تتعرف إليه». هذه الظاهرة تحد من اندفاع العنف إلى مداه الأقصى وتشكل كابحًا له. هنا لا بد من الإشارة إلى عاملين هامين هما: الواقع العملي للحرب والعامل الإنساني. فالحرب ليست في مجال الواقع تصعيدياً إلى الحد الأقصى يتراخي توتراها في نهاية المطاف مرة واحدة، بل هي خفقان للعنف غير منتظم تتفاوت سرعته استجابة لتواتره ونف قواه وتستمر توجاته تحت تأثير ذكاء موجه، ويحكمه قانون ديناميكية الحرب الذي يتمظهر بوجهه التوتر والراحة. الحال دائمًا إما في توتر أو في توازن ينزع للراحة أما التوتر فيزيد الاحتكاك والصدام ويدفع الأمور للاقتراب من النتائج الخامسة عملاً ببدأ الفعل وردات الفعل. إن كل حركة لا بد من أن تولد حركة جديدة ضمن سلسلة من التفاعلات والاستجابات، التي قد تقلب أحياناً اتجاه الحركة، أو تحور في مسارها حسب الصعوبات والمفاجآت الطارئة، بينما تميل حالة التوازن إلى الاسترخاء وتؤدي إما للهدنة أو للسلام. إن الترجمة العملية لهذا الأمر هي الإعداد للصدام وتنفيذه، فالإعداد يعبر عن فترة الاسترخاء في مجال العنف، حيث يكون هم القوى الإسراع في حشد الطاقات البشرية والمادية وتأمين التدريب والإمداد في المعدات والذخائر والمؤمن تمهيداً لاستئناف القتال في الوقت الملائم. كذلك فترة الاسترخاء هي تعبير عن الشعور بالتعب وال الحاجة لالتقاط الأنفاس لأن الجسم البشري غير قادر على الاستمرار في العيش تحت ظروف قاسية جداً لفترة طويلة، بل يحتاج من وقت إلى آخر لمرحلة استجمام يستعيد فيها نشاطه وحيويته. إن الجيوش الحديثة تسعى حل هذه المشكلة عن طريق إيجاد معسكرات للترفيه في أماكن خلفية، إما في مناطق المواصلات أو عمق الوطن. جميع هذه الأمور تؤثر على نمط خفقان التوتر والعنف وعلى شدته وتحوله لنوع من الاهتزازات غير المنتظمة إن في شدة العنف أو في التوقيت.

بعد هذا يبقى أن نلتفت للعامل الإنساني الذي تتعاظم أهميته خلال الحرب. إن جو الخطر المتفاقم واتسامه بالمفاجآت وضبابية المعلومات يجعل من العامل الإنساني مفتاح المعنيات التي هي العنصر الأهم في أية حرب لأنها المحرك الأساسي للإرادة. إن إرادة الإنسان في القتال واقتناعه في خوض غماره أهم في مجال التقييم العسكري من المعدات والتفوق التكنولوجي والأعداد المتنامية من الجنود، لقد أثبتت العلم أن هناك مقاييس يمكن

استعمالها لتحديد القيمة المادية والكمية للتفوق في العديد والعتاد، ولكنه عجز عن تحديد قيمة الطاقة المعنوية التي يخترقها الإنسان في صدره. إنها سلاح المستضعفين والفقراء في الأرض وإكسير كل حرب ثورية، بها تقلب الموازين وبها يستمر زخم الإرادة في الاندفاع إلى ما لا نهاية. إن العامل الإنساني في الحرب يتحكم بجميع المقاتلين دون استثناء ويفعل فيهم، ولكن أهمية تأثيره تظهر في صفوف القادة حيث يؤثر على القرار في مجالات التوقيت والاتجاه والمضمون، وبالتالي في المردود النهائي للحرب.

### د الواقع السلم:

تبين لنا من خلال درسنا لنظرية الصراع البشري أن جميع الصراعات تعود بالأصل إلى قطبي الأمان والأمانة الإنسانيين. ورأينا أن الحرب هي أسلوب إدارة متتطور للصراعات يحكمها موجهان: الأول نظري قوامه تبادل التفاعل التصاعدي والقطبية في العمل، والثاني تطبيقي قوامه مجموعة مؤشرات معدلة للحدة، تتكيف بتأثيراتها العوامل النظرية لتعطي للحرب نمطها العملي، وتحدد مسارها الواقعي. وغني عن القول أن الحرب صراع مدمر يحكمه منطقان: منطق الأمل بالفوز لدى الطرفين، وواقع الخسارة المادية والإنهاك المستمر في قوتיהם. والطريق الغريب في الأمر هو تفاعل هذا التناقض الدائم بين أمل التقدم وسرابه وبين الخسارة المتفاقمة والقبول بها على أمل كسب الجولة النهائية. إن الواقع يحتم عمل الظروف لمصلحة أحد الطرفين، فيقدم على الهجوم لتطوير نجاحاته واستغلالها، بينما يتحصن الطرف الآخر بالدفاع والصمود والصبر، أو يلجأ إلى التراجع على أمل تغير المناخات والموازين. من هنا تظهر لنا ندرة تشابه الظروف، وإذا ما تشابهت أو غشت المعلومات غير الدقيقة أي طرف أو كليهما معاً، فصاحب الهدف العدواني أو الغاية الكبيرة هو الذي يتحرك أولًا حاولًا التقدم يحثه على ذلك قيمة هدفه وإغراءات نجاحاته. أما الوجه الآخر للموضوع فهو اللجوء إلى المدننة والتوقف عن العمل بانتظار حدوث التغييرات. هذا الأمر في الواقع العملي هو الحال الطبيعية التي يرغب فيها أي جيش نفسيًا على الأقل، أما القتال المستمر فهو الاستثناء المحكوم بالأوامر الفوقيه ويعد ذلك لأسباب واقعية ونفسية، هي: الميل المستمر للراحة، ومحبة تفادي الخطر الذي يواكب العمل العسكري، وضبابية المعلومات أو نقصها أو خطأها، فضلاً عن القناعة الراسخة بتفوق الدفاع على الهجوم.

لذلك ترانا في سياق التطور الفعلي للحرب نواجه وقائع واحتمالات متعددة ومتتشابكة، ترجع بأساليبها لكثرة المؤشرات العملية، من ذاتية موضوعية، وتحضيرية وتاريخية أو أيديولوجية، إلى ما هنالك من عوامل يصعب حصرها.

وفي هذا المجال يجب أن لا يغرب عن بالنا دافع الميل إلى السلام كمعدّل إنساني فعال لشدة اتقاد جذوة الحرب إن سلباً أو إيجاباً، حسب المحاكمة العقلانية التي يُنظر إلى الأمر من خلاها، للإسراع في الانتهاء من الحرب، أكان ذلك بالجسم الدامي أو بأسلوب آخر أكثر ليونة.

والدافع الإنساني للسلام عامل بشري يعود بجذوره السحرية إلى تركيب الإنسان من حيث كونه مخلوق مركب على ثنائية الخير والشر، ونazu السلم فيه هو مظهر وجه الخير في أحد تجلياته، هذا فضلاً عن أهمية قطب الأمان الذي جئنا على ذكره في الحديث عن الصراع. وما دامت الحرب مصدراً أساسياً للمخاطر التي تمس صميم وجود الإنسان وتهدد غريزة أمنه فلا بد إذاً من أن تعمل نوازعه الداخلية طبيعياً للاتجاه به إلى ميناء السلام والأمان. ولو نظرنا إلى الموضوع من ناحية إنسانية صرفة نلاحظ أن الكائن البشري مفطور على أمرين: أولهما التوق إلى السعادة كهدف إنساني، تلك السعادة المبنية على الاطمئنان والرفاهية والراحة. وغني عن القول بأن الحرب بعيدة كل البعد عن الاطمئنان وعن الرفاهية، بل هي القلق وشظف العيش بعينه. وثانيهما حب الاستقرار، وهو ميل بشري دائم يظهر في الحنين إلى الماضي والرغبة في العيش على نمط لا تسوده المفاجآت المتواترة التي تعيشها الحرب والنفور من التغيير والرغبة في السكون. وما أروع المتنبي في وصفه لتلك النزعة الإنسانية حين يقول:

**خُلِقْتُ أَلْوَفًا، لَوْ رَجَعْتُ إِلَى الصَّبَى  
لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجَعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا**

إن النزعة الفردية للسلام تظهر في مفهوم اللاعنف الذي قاد لواهه في يوم من الأيام غاندي، كما تبرز في ظاهرة رفض المشاركة في الحرب التي تجلّت بوضوح داخل صفوف الشعب الأميركي إبان حرب فيتنام، كذلك تظهر في الاتجاه إلى تبني الدفاع المدني كنرج للاشتراك في تدارك ويلات الحرب. أما النزعة الجماعية للسلام فتتمظهر في الركض وراء شروط السلام الدولي من معاهدات ومؤتمرات لنزع السلاح إلى الحلم الواهم في الحكومة العالمية الواحدة الذي نادى به البرت أينشتين مطالباً بتحويل الأمم المتحدة إلى تلك الحكومة نتيجة اختراع السلاح النووي الذي لا يمكن معرفة حدود تأثيراته وأضراره، فهو صاعق مدمّر قد ينهي الوجود الإنساني إذا ما انطلق من عقاله. وكما حلم البعض بالدولة الاتحادية العالمية حلّ التناقضات الوطنية بين الدول، حلم آخرون بنزع السلاح الشامل وإلغاء الجيوش واعتماد الحوار الأخوي حل النزاعات والمعاضل. جميع هذه الأفكار طوباوية حالمه تنسى أن

قوة الإنسان سبقت يقظة ضميره، وعضلاته جاءت قبل نحو تفكيره وعقله، كما تنسى معطيات الوطنية الضيقة المبنية على محدودية المكان الجغرافي الذي يصعب عليه تلبية حاجات الشعوب المادية بسبب الاختناق المساخي.

إن ميدان نزعة السلام التي تحدثنا عنها ليس ساحة منعزلة عن التأثيرات الخارجية، وإن سيطر عنصر السلم واستقر وترجعت نزعة الحرب والصراع. إن تيار السلام يقع تحت تأثير ثلاثة مراكز جذب تهيمن على مساره وتعده اتجاهاته وهي التالية:

**أ - العنف:** وقد درسنا كيفية اتجاهه إلى حدوده القصوى نظرياً في سلسلة من الفعل ورد الفعل كنوع من الطلب والاستجابة الطبيعية للطلب. كذلك تعرفنا على أهمية عنصري الأمن والأمانة في خلق تيار العنف، ودرسنا ظاهرة العنف الناتجة عن الإحباط والفشل والحسد. إن دراسة ظاهرة العنف في إطار المجال الشعبي تدفعنا إلى الالتفات إلى أمور كثيرة كالحقد والعنصرية والغضب وكلها أمور ترتبط جذورها بالأمانة، هذا فضلاً عن العدوانية والشراسة اللتان ترتبطان بنظام القيم والتربية والتراث الديني والتربوي والأخلاقي.

**ب - الاحتمالات والصدفة:** هذا المجال يلعب فيه العامل النفسي دوراً كبيراً الأهمية، فما من نتيجة ملموسة في النطاق العملي إلا وله تأثيرات قد تفوق غالباً قيمتها الحقيقة في المجال النفسي، سيما وأن العاطفة تكره علم الحساب. إن احتمالات النجاح والخسارة وحدوث الصدف السعيدة أو المشؤومة في الحرب أمر طبيعي جداً وهو القاعدة وليس الاستثناء في كل صراع. فتطور العلم في مجال التقييم والتحليل والدراسة لم يتمكن من إلغاء الاحتمالات والصدفة، هذه النتائج العملية الملموسة التي لا بد أن يكون لها ردات فعل نفسية عند القادة والمحاربين. إن ردات الفعل النفسية ليست محكومة بقواعد منطقية ومعادلات رياضية. قد تعمل إيجابياً في اتجاه السلام أحياناً وقد تعمل خلافاً لكل توقع في الاتجاه المعاكس تماماً، لأن النفس البشرية ابنة لثلاثة عوامل ذات تركيب معقد. هذه العوامل هي البناء الفيسيولوجي والغريزي، البناء الأيديولوجي والعقائدي والبيئة الجغرافية والمحيط الطبيعي.

**ج - كون الحرب أداة سياسية:** يجعل هذا الأمر من الحرب عملاً حكومياً منظماً يخضع لحساب المنطق والعقل والعلم والإرادة الوعائية. إن جميع الحسابات تخضع وتهتم بالمؤثرات الخارجية والإرادة الدولية ومناخ الصراع الدولي. كذلك تهتم بالمصادر التموينية والإمداد والتمويل. إن هذه المعدلات المادية عناصر أساسية في تحديد مستوى حدة الصراع وفي خلق توجهات السلام، وهي التي تحكم النتائج النهائية للحرب في عصر طفت عليه

المادة وسيطرت التكنولوجيا على السلاح والعتاد والذخائر.

لقد بحثنا الموضوع حتى الآن من زاوية المفاتيح التي تؤثر بنزعة السلام الإنسانية وتأثيرها، ولا بد الآن من الالتفات إلى جو الممارسة العملية لنلاحظ أن الحرب تضغط دائمًا على ثلاثة عناصر للتأثير عليها وإحداث تغييرات فيها تمهيداً لتحقيق الهدف النهائي والخامس. هذه العناصر هي القوى المسلحة والأرض وإرادة العدو.

فضغط الحرب على القوات المسلحة تهدف إلى وضعها في موقف عاجز يمنعها من متابعة القتال بالتدمير أو بنزع السلاح، الأمر الذي يغذي نزعة السلام فيها ومن ثم يزيّن لها الاستسلام. إن هذا الحدث عمل مادي يراد منه تحقيق هدف نفسي يعطل المادة ويلغي دورها. إن كل هزيمة تحرك في داخل كل مقاتل محكمة الذات بحثاً عن رسم البناء المنطقي للحدث من وجهاً نظر تبريرية لإيجاد السبب ووضع اللوم على المسبّب. إنها عملية لتبرير النفس وإلصاق التهمة بالآخرين من ناحية، واستنهاض لاسترجاع ما فقد بتحديد الوسائل الكفيلة بإصلاح الأخطاء وإقالة العترة. إن الوصول في هذه المحاكمة الداخلية إلى قناعة استحالة تصحيح الموازين واستقامة الأمور هو الذي يدمّر المعنيات وينخلق التيارات الإسلامية ويغذي نزعة التوق إلى السلام ويدكي أوارها، فتتعطل المعدات والأدوات المتبقية وتصبح القوات كقطيع من النعاج.

أما العنصر الثاني الذي تضغط عليه الحرب فهو الأرض. إن احتلال أية بقعة من الأرض قد تقدم للمحتل ميزة هامة وتنزع من خصميه مميزات أخرى (السيطرة على أرض حاكمة أو نقاط حيوية واستراتيجية أو قطع خطوط للمواصلات) الأمر الذي يغذي نزعة السلام أحياناً عند الرابع والخاسر معاً، إذا كان الهدف الذي يبغي الرابع تحقيقه متواضعاً وكانت التكاليف باهظة، أو إذا وقع الخاسر في مأزق يجد فيه السلام أفضل من متابعة الحرب.

ويبقى العنصر الثالث وهو الإرادة. إن إرادة العدو هي العنصر الأهم في الأمر والقطب المتفاعل أبداً، تتأثر بالعنصرتين الأولين، القوات والأرض، فتفعل بها وتنفعل، وتخرج بمحصلة نهائية هي الهدف الذي يتوجه إليه كل قتال في النهاية. إن ربع الحرب وخسارتها لا يتقرر في نجاح المعارك وتحطيم الأسلحة والمعدات، فهي وسائل وليس غایات، ولكن الغاية الأساسية هي احتلال إرادة الخصم والتحكم بها، وبذلك يتحقق الجسم والنصر النهائي. إن احتلال الإرادة نهائياً لا يمكن أن يتم من الناحية النظرية بالجسم العسكري فقط بل يجب أن يرافقه جسم اجتماعي وفكري وحضاري، وإن كان مرحلة قبول موقف بأمر واقع غير مرغوب فيه وهدنة مزعزعة الأركان. إن ما يتحكم بالإرادة دائمًا عاملان أحدهما

مادي والآخر معنوي، وهم اللذان يخلقان القناعات الفكرية التي تؤدي إلى اتخاذ القرارات الخربية أو السلمية. وهنا يجب الانتباه إلى أن النوايا السياسية تتبدل باستمرار، وقد تغدو مختلفة تماماً عما كانت عليه في البداية، كونها تتحدد جزئياً بالنجاحات والتائج المحتملة وتتأثر كلياً بالظروف والمناخات. في النهاية يمكن الاستنتاج أن قرارات السلام أو الحرب تتأثر بثلاثة ضوابط هي:

- الغايات والد الواقع.
- الوسائل والأثمان.
- الاحتمالات والصدف.

## عَدْلَةُ الْحَرْبِ

يرجع أمر مفهوم العدالة في الحرب في جذوره السحرية إلى الإنسان البدائي وقضية الصراع البشري. كانت الحرب في شكلها البسيط في ذلك الحين تأخذ طريق الحفاظ على الأمان الذاتي أو تأمين المصالح الفردية وهذا ما أشرنا إليه سابقاً تحت اسم قطبي الأمان والأمانية. لقد كانت العدالة في هذا الزمان تنبع من مفهوم دفاعي أصلاً، فالوقوف بوجه الغير ومنعه من إلحاق الأذى بنا هو دفاع عن النفس، والعمل على كسب لقمة العيش والتنافس مع الآخرين بشأنها تأميناً للحفاظ على الحياة هو دفاع عن النفس أيضاً. لقد تطور هذا المفهوم وأصبح أمر انتزاع وسائل العيش الكريم بالقوة مشروعًا لدى كل الأمم، لذلك قال أبوذر الغفارى: عجبت من لا يجد القوت في بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه. بهذا المنظار الإنساني ومن منطلق توفير الأمان الذاتي نظر الحقوقى الكبير شيشرون للأمر فقال بنظرية الدفاع المشروع التي لا تزال معتمدة في القوانين الوضعية حتى الآن، وهي ترى أن الدفاع المشروع هو رد القوة بالقوة.

تطور مفهوم عدالة الحرب مع الزمن عبر المدارس الجيوپوليتية، حتى وصل إلى المدرسة الألمانية، مدرسة هتلر التي وجدت أن الاستيلاء على أراضي الغير أمر عادل ما زال ينفذ في سبيل رفاه وإعلاء شأن الشعب الألماني حتى لو جاء ذلك عبر حرب ضروس كثيرة الضحايا والتكليف.

على أية حال إن مسألة عدالة الحرب كمعضلة فكرية قد طرحت منذ القدم وعوبلت من منطلق فتوى عرقى انعزالي. قال اليونان بأن الحرب ضد البربرة مسألة مبررة دائمًا ما زالت تخاض لحماية العرق اليوناني ضد عرق آخر يهدده. أما الرومان فرأوا أن للشكليات الدينية أهمية كبيرة في تحقيق العدالة، ف مجرد اللجوء إلى الحرب مع تطبيق طقوس دينية معينة ومراعاة الشكليات المتعارف عليها يحقق صفة العدالة للحرب من الناحية الرومانية. غير أن العبرانيين لم يكتفوا بتحديد إطار معين لوضع مسألة العدل داخله بل عمموا القاعدة بعنصرية لتشمل كل النزاعات التي تقوم بها الأمة العبرانية ضد الآخرين، فأى حرب يشنها

اليهودي لصالح أمته هي حرب عادلة. حمل اليهود معهم هذه القاعدة إلى دولتهم المستحدثة إسرائيل وأصبحت أساساً لكل حروبهم مع العرب.

أما الكنيسة المسيحية فقد انقسمت على نفسها في البداية بين مؤيد لإمكانية وجود حرب عادلة وبين رافض لهذه الفكرة رفضاً قاطعاً. أيد البعض اللاعنف بشكل مطلق ووجد آخرون مشروعية في الحرب التي تقام ضد من يتنهك السلام انتهاكاً ظالماً، أما الحرب التي يحركها الطمع وحب السيطرة فهي لصوصية كبرى. إن مفهوم الحرب العادلة يجب أن يرتكز على المنطق الداعي، فحماية المرء لبلاده ضد هجوم معادي غير مبرر هي مفتاح العدالة في الموضوع وحجر الزاوية فيه. هذا ويجب أن لا يغرب عن البال أن هناك عنصراً آخر هاماً في الموضوع ألا وهو وجوب استنفاد جميع الوسائل السلمية لتفادي تحول النزاع إلى حرب قبل خوض تلك الحرب، أي يجب أن يكون اللجوء إليها آخر الخيارات وتحت طابع اضطراري. ويرى القديس أوغسطينوس أنه يجب التفريق بين الحرب العادلة وغير العادلة، وإن كانت الحرب بحد ذاتها معاقبةً للإنسان على الآثام التي اقترفها بإرادة من الله. وأخذت الحرب طابع العدالة المقدسة مع الحروب الصليبية في القرون الوسطى، فاعتبرت أوروبا كلّها غزو الشرق العربي أمراً واجباً لتخلص الأرض المقدسة من أيدي المسلمين وحمايتها ورأت في ذلك كل العدل والحق. لكن روبرت آدمز رأى أن الحرب ليست عملاً إلهياً، إنما خطأ إنسان مجنون يمكن القضاء عليه في مجتمع تسوده العدالة والحق. ويقول إيراسموس بأن الإنسانية ليست بحاجة إلى بركات الله بقدر ما هي بحاجة لأن ترحم نفسها. أما جون كولت فيعلن بأن السلام غير العادل أفضل من الحرب العادلة بينما يرى روبرت بويل أن الحرب والخطيئة يتولدان من بعضهما البعض كالماء والجليد.

وأخذت نظرية عدالة الحرب في المسيحية تتطور فأدرج الراهب «غراتيان» ثلاثة أسباب لتأمين الشرعية هي: انتهاك الأعداء للحدود واستعادة الأموال والانتقام من الظالم. لقد ميز غراتيان بين الحرب الدفاعية التي تهدف لرد الظلم وبين الحرب الهجومية التي ترمي لفرض العقاب. رغم هذا التمييز بقي المنطق للاثنين واحداً، والسبب بوجه العموم واحد وهو أن الحرب العادلة تبقى في نظره رد فعل لفعل مرتكب.

إن مفهوم العدالة في هذا الإطار يبقى غامضاً ونبيضاً، فما يراه البعض عدلاً ينكره البعض الآخر، وما تراه فئة ضروريًا وملحاً ترى فئة أخرى إمكانية تأجيله ومتابعة معالجته بأسلوب جديد. البعض تقفل أبواب المعالجة السلمية في وجهه بسرعة والبعض الآخر تفتح أمامه أبواب كلما انغلقت نوافذ. هذا ولا يغرب عن البال أن كلاً الخصمين يؤمن غالباً بعدالة قضيته ويسعى إلى تعبئة طاقاته المعنوية إلى حدتها الأقصى بالارتباك على مفهوم

العدالة ولا حلول وسطى في هذا المجال، ففي أي صفة يقف العدل إذا؟ إنه سؤال تصعب الإجابة عليه طالما بقي الطرح الأساسي يدور في إطار العموميات والأخلاقيات.

ولم يقتصر أمر بحث موضوع الحرب العادلة على الفكر المسيحي فقط بل تناوله الإسلام أيضاً، فرأى أن عدالة الحرب مرهونة بنصرة الدين الإسلامي وإعلاء شأنه، لذلك حثّ على القتال وتحقيق الفتوحات الإسلامية تحت شعار الجهاد في سبيل الله، وجعلَ معادًّا من يستشهد الجنة، الأمر الذي دفع بأفواج المؤمنين إلى التزاحم على طلب الاستشهاد مرضيًّا لله عز وجل. غير أن الإسلام لم يطلق هذه القاعدة كمرجع وحيد وأداة قياس منفردة بل عدّها ووضعُ أمرها بضمون الآية الكريمة «وَإِن جَنَحُوا لِلسلْمِ فَاجْنِحْ هُنَّا». في هذا التقى الإسلام والمسيحية، على وجوب اللجوء إلى الخيارات السلمية واستنفاد أغراضها قبل الاحتكام للسيف.

وعى الفكر المسيحي أن معضلة العدالة في الحرب لم تحل بعد بالنظريات الغير واضحة الحدود والمعالم، فرأى «سانت توماس داكان» في القرن الثالث عشر وجوب الاتجاه إلى التفصيل، لذلك حدد ثلاثة شروط لعدالة الحرب هي: السلطة والسبب العادل والقصد الشرييف. إن السلطة هي المسئولة عن رعاية شؤون البلاد والعباد، وهي التي تعرف المصلحة الوطنية والشعبية وهي المؤهلة في أعلى مستوياتها لصنع قرار الحرب والسلام في إطار تحقيق مصلحة الرعية. إن الأمير أو الرئيس رئيس الهرم في السلطة، هو المسئول عن هذا القرار التاريخي ولا دخل لعامة الناس فيه. ولا يكفي وجود القرار السلطوي لتحقيق عدالة الحرب بل يجب توفر السبب العادل أيضاً، والذي يتمثل في ضرورة العاقبة على الخطيئة وفي أن يأتي العقاب مناسباً لقيمة الذنب المفترض. فإذا كان الجرم يستحق عقاب الحرب كانت للحرب مسوغاتها، وإنّا وجب عدم اللجوء إليها. ولا يكفي شرطاً السلطة، وعدالة العقاب لتأمين عدالة الحرب، بل حدود الأخلاقيات والشرف، كما يجب أن تخاض الحرب في سبيل المصلحة العامة الشاملة وليس في سبيل مصالح جزئية.

وجاء العصر الحديث فلم تعد قواعد الأخلاقية المسيحية تكفي لمعالجة مسألة عدالة الحرب منها نظرًّا لتلك المعضلة طالما بقي الإطار إنسانياً أخلاقياً دينياً. لقد سلكت العدالة الآن سبيل القانون الوضعي وأخذت تستمد مشروعيتها من قواعد أربعة هي: السيادة والشكليات والعدالة والنظام الدولي. إن مقومات السيادة حسب القانون الدولي هي حق توقيع المعاهدات وحق إرسال واستقبال السفراء وحق إقامة الحرب. إذن فعمل فعل الحرب أصبح مقومًّا أساسية من مقومات السيادة وربما هو العنصر الأساسي فيها. إن هذا الإقرار الدولي بالأمر قضية خطيرة تترتب عليها نتائج خطيرة تعاني منها الأمم المتحدة كثيراً. لقد

أصبح استعمال حق السيادة ومراعاة الشكليات واستخدام حق الفيتو من قبل الدول الكبرى، أداة تعطل مبدأ العدالة، وأخذت جميع الحروب ترتدي طابع العدالة ما دامت الإرادة هي التي أمست تحدد صفاتها.

أما الشرط الشكلي للحرب فهو وجوب إعلانها وتحديد تاريخ بدئها وتسمية العدو أو الأعداء فيها وتحديد المناطق الجغرافية التي تخاض فيها، وأحياناً الأهداف التي ستضرب عند ارتباط الأمر بدول أخرى. هناك ثلاثة أمثلة قريبة العهد في هذا المجال هي الحرب اللبنانية الإسرائيلية عام ١٩٨٢ حيث أعلنت حكومة إسرائيل عن تكليف جيشها بالقيام بعملاً إخراج مستوطنات الجليل من مدى نار الفدائيين المتمركزين في لبنان. كذلك أعلنت اسم العملية «سلامة الجليل» وأكملت أنها خلال التنفيذ لن تهاجم الجيش السوري، إلا إذا هاجم قواتها، كما أنها تواصل التطلع إلى توقيع اتفاق سلام مع لبنان المستقل من خلال المحافظة على سلامه أراضيه. جميع هذه الأفكار نقضها التنفيذ العملي فضربت القوات السورية في البقاع وقصف المدنيون الفلسطينيين ولبنانيين ولم يحافظ لا على سيادة لبنان ولا على سلامه أراضيه، وبذلك تكون إسرائيل قد نقضت عملياً البند الشكلي لإعلان الحرب والذي يكسبها العدالة الشكلية. أما المثل الثاني فهو حرب الفوكلاند حيث أعلنت بريطانيا عن نواياها قبل فترة طويلة وحددت زمان بدء الحصار على جزر المالويين، كما حددت النطاق الجغرافي لمنطقة الحرب براً وبحراً. كذلك فعل العراق قبل مبادرته في ضرب ناقلات البترول المتوجهة إلى ميناء خرج فحدد تاريخ بدء تطبيق الحصار كما أعلن مراراً ومبيناً عن مواعيد ضربه للمدن الإيرانية مستغلًا الإجراءات القانونية في إطار العمل النفسي. هذا ويمكن أن تدخل في هذا الباب شكليات القوات النظامية من لباس وشارات وإمرة وتراتبية التي تعتبر ضرورية لتطبيق القوانين الدولية لأسرى الحرب على المقاتلين.

أما مسألة العدالة فتبقى في مجال الفكر الأخلاقي إلى حد بعيد ويمكن تحديدها في النقاط الآتية:

- رد اعتداء الغاشم.
- الدفاع ضد عدو أعلن الحرب عدواناً.
- الحفاظ على الأرض ومقومات البلد.
- الحفاظ على النظام من أي اعتداء خارجي.
- استرداد ما أخذ بالظلم.
- حروب التحرير الشعبية.

وتبقى مسألة النظام الدولي الذي يجيز استعمال القوات الأجنبية في خدمة المؤسسات

الدولية والإقليمية. لقد طُور هذا المفهوم في الحرب الكورية في الخمسينات كما كُرس في استخدام القوات الإقليمية في الحفاظ على الأنظمة وتحقيق الاستقرار في الدول، وخير مثل حي على ذلك استعمال القوات العربية في حل الأزمة اللبنانية. تطور هذا المفهوم لتلبية حاجتين أساسيتين هما:

- الحفاظ على الحقوق الدولية والإقليمية والسلام الدولي.
- تلبية حاجات الأمم المتحدة والمنظمات الإقليمية في تطبيق قراراتها من خلال قوات الردع أو السلام الدولي.

إن هذا الاتجاه الدولي قد يتتطور في المستقبل إلى مجالات أخرى كحماية المياه الدولية مثلاً، فتعود بعدها العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ إلى نطاق التقييم والتأييد من من جديد.



# مبادئ الحرب

أفكار تمهيدية  
المبادئ



أفكار تمهيدية

منذ فجر التاريخ حتى اليوم تعددت الحروب بوسائلها وغاياتها ومسارحها واتساعها ومددها الزمنية ونتائجها وبرز قادة عظام أسهموا في صنع التاريخ وكانوا علامات عميزة على مفارق العصور ومنارات هداية في مجال الفكر العسكري ، يقتدي القادة بسيرهم ويتعلمون على أفكارهم وتجاربهم . وإذا ألقينا نظرة فاحصة على التاريخ وحاولنا التفتيش بالدراسة على أسباب نجاح بعض القادة وأسباب فشل آخرين ، نجد أن مسببات النجاح في مفهومها العام تكاد تكون محصورة وأسباب المزائم محدودة أيضاً . هذا بالطبع إذا لم نغرق في متفاصيل والجزئيات التي ترجع عند الفحص والتحليل إلى المسببات الأهم الرئيسية . في هذا الدرس نكتشف أن القادة الكبار قد طبقوا نفس المسلمات والبدويات في أسلوب القيادة والتحرك والاشتباك وإن اختلف الزمان . هذه المسلمات هي المبادئ وهي موحدة في جواهرها وإن كانت تلبس زى العصر الذى طبقة فيه .

من البديري القول أن المعركة في الحرب هي ذلك الصدام العنيف الذي يحاول فيه كل طرف تدمير قوات خصمه والمحافظة على قواته بتقديم أقل قدر ممكن من الخسائر مستفيداً من جميع الوسائل المادية من بشرية وأرضية وعتاد وتجهيزات، فضلاً عن استغلال جميع المؤثرات المعنوية والفنية كالمفاجأة والتركيز والمناورة والمحاتلة. جميع هذه المفاتيح الهاامة هي حبّات عقد المبادئ العسكرية يجمعها خيط فكر القائد الخلاق في سياحة منسجمة متناسقة.

لقد قال البعض بأن مبادىء الحرب حقائق أساسية تؤثر على التنفيذ، وقال آخرون بأنها دليل عقلي قابل للتطبيق في جميع الأعمال العسكرية وعلى كل المستويات ، ورأى مفكرون أن المبدأ دليل عسكري أساسى يزيد فرص الحصول على نتائج أفضل إذا طبق بصورة صحيحة وفي الوقت المناسب.

لم يكن البحث عن المبادئ العسكرية في الماضي أمراً ملحاً للقائد في التشكيلات الوسيطة بل كان وجودها في منطق القائد العام وفي عقله الباطن بالسلبية والخبرة مفتاح النصر السحري والت Kavanaugh العبرية والفن عنده وفأله الحظ الذي لا يخيب.

كان أمر الحرب بسيطاً في الماضي، وإن أخذ عند المصريين والفرس واليونان والرومان والعرب المسلمين أبعاداً استراتيجية اهتمت بالتغيير الاجتماعي والديني والسياسي كهدف للحرب، والتفتت إلى طرق المواصلات والتحضير للمعركة بقدر الاهتمام بالمعركة نفسها. كذلك لم يبق العرب المسلمون في هذا النطاق فقط بل استقوا مبادئهم العسكرية إلى حد بعيد من آيات القرآن الكريم ومن سنة الرسول الكريم عليه السلام. لقد زاوجوا بين العقلانية الوضعية والسلفية الإيمانية من حيث كان هدف الحرب عندهم غاية دينية ورسالة سماوية. وربطوا في فهم العربي بين مسلمات عقلية وإيمانية، أهمها:

- الاسترشاد بالخبرة البشرية التقليدية والعقل.
- مفهوم الجهاد في سبيل الله.
- الإيمان بالأية الكريمة ﴿إِن يَنْصُرَكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُم﴾.
- الاعتقاد بقدرة المؤمن على التغلب على عشرة من أخصامه بإذن الله.
- الإيمان بالأية الكريمة ﴿وَإِن جَنَحُوا إِلَى السُّلْطَنِ فَاجْنُحْهُ إِلَيْهِ﴾.

على أية حال لم تتعذر الحرب في العصور القديمة والمتوسطة إطار الاشتباك، أما كل ما هو خارجه فلم يكن منهاً. لكن تطور السلاح وولادة المدفعية والآليات والأعتدة المتطورة عقّد المفاهيم العسكرية ولم يعد الاحتراف العادي والتعليم العسكري البدائي يكفي المقاتلين، بل تطور التكتيک إثر تطور التقنية والتكنولوجيا، وبرزت أهمية التخصص والتعقّم في الفكر العسكري على جميع مستويات القيادة. لقد كان عصر نابليون فاتحة لهذا التطور الجديد بعد أن قام بثورة في مجال التحرك العسكري، حيث أخذت قواته تسير بمجموعات متباينة وتقاتل مجتمعة. إن هذا الأسلوب في العمل فرض نوعاً من التعادل والتكامل بين المركزية واللامركزية في التخطيط والعمل، وأوجب على القيادات الوسيطة الاهتمام بالتفكير للمعركة، ومن هنا أتت الضرورة للتعمق في المبادئ العسكرية لتلقينها لسلسلة القيادة تحسيناً للقيمة العسكرية وتحصيناً أمام التهور والمنزلقات الخطيرة.

هذا لا يعني أن التاريخ السحيق لم يفتّش عن المبادئ العسكرية إطلاقاً، بل بحث كثيرون فيها وإن لم يكن على صعيد فكري تحريدي. لقد كان التفتيش على مستوى الممارسة العملية واكتناف الخبرات والاتعاظ بالعبر فلumen هنبيعل وبرزت شعوب الشرق القديم واليونان والرومان والعرب. لكن أهم من برع في هذا المجال هو القائد الصيني الشهير صن تزو.

عاش صن تزو في حوالي السنة ٥٠٠ قبل الميلاد وكان مستشاراً لملك الصين ما بين عامي ٥١٤ ق.م و ٤٩٥ ق.م. ذاع صيته كقائد عسكري ناجح رغم أنه لم يتوفّر له قيادة أكثر من ٣٠ ألف جندي. مع ذلك لم يتمكّن أحد من الوقوف في وجهه. نظر هذا القائد إلى

الموضوع العسكري بمنظار العمل غير المباشر وطرح أفكاراً حية في فن الحرب لا تزال تتمتع بقيمتها حتى الآن. سجل خلاصة الفكر الاستراتيجي الصيني الذي لم يهرم والذي لا تزال آثاره تلقي بظلالها على الفكر العسكري الحديث في كل من الصين والاتحاد السوفيافي واليابان وفيتنام وبرهن أنه أب المبادئ العسكرية والاستراتيجية، وهنا عينة من فكره.

● هناك خمسة عناصر تؤثر على إدارة الحرب هي : الطريق والسماء والأرض والقائد والقانون. إن الطريق تعني وحدة القيادة والشعب، عندما تتفق وجهات نظر الشعب والسلطة وعندما يكون الشعب على استعداد للموت أو للحياة مع حكame، وعندما لا يعرف الشك أو الخوف. أما السماء فهي ترمز إلى حساب الوقت ومقوماتها الضوء والظلم والبرد والحر. والأرض هي البعد والقرب والافتتاح والضيق والموت والحياة لأن المعركة ستتعرض عليها. أما القائد فهو العقل المفكر والفنان الذي يتحكم بمستقبل الشعب ويكون من كتلة مشاعر هي الإنسانية والإخلاص والرجولة والحزم. وأما القانون، فهو المذهب القتالي، هو الانضباط والتنظيم والقيادة والتوجيه والإمداد.

● أفضل الأعمال هي تحطيم مقاومة العدو دون قتال (أي بالتفيت الاستراتيجي والتكتيكي).

● إن من أتقن فن الخداع يتصر لأنه فن المناورة.  
● أحسن طريقة للحرب هي تدمير فكرة العدو، وإذا لم تنجح فتدمير حلفائه أو إبعادهم عنه، وإذا لم تنجح فتدمير قواته أخيراً.  
● السرعة روح الحرب. استفيدوا من عدم استعداد العدو، واستخدموا طرقة غير متوقعة وهاجموا الواقع التي لا تتحرس.

● إن النصر والهزيمة يتوقفان على التنبؤ المسبق بالموقف وتقديره تقديرأً سليماً.  
● التكتيك العسكري كالماء يخضع لجريه الطبيعي إذ يتسرب منحدراً من الأماكن المرتفعة نحو المنخفضات. والأمر مشابه في الحرب إذ تتجنب الموقع القوي بالهجوم على الموقع الضعيف. فالماء يكيف جراه حسب الأرض التي ينساب عليها ويؤمن العسكري النصر بطرق تتلاءم مع قوة العدو الذي يواجهه.

● إن استخدام الطريق الطويل المترعرع بعد إخراج العدو عن خط سيره وبلغ الهدف قبله رغم الانطلاق بعده دليل على التمتع بحسن الحيلة والقدرة على المخاتلة.

● إن الفن في استخدام القوات يكمن في محاصرة العدو عندما تكون نسبة قواتك لقواته عشرة إلى واحد، ومهاجمته عندما تكون النسبة خمسة إلى واحد. وإذا كانت النسبة اثنين إلى واحد إقسى قواته. وإذا تعادلت القوى يمكن الاشتباك معه. أما إذا كانت قواتك أقل عدداً

فيجب التمكّن من الانسحاب ، وإذا كان التعادل مفقوداً في أي وجه من الوجوه وجب تأمين القدرة على تجنبه .

لقد صبّ صن تزو عصارة فكره ورصيد معرفته العسكرية في ثلاثة عشر مبدأً اعتبرها خلاصة الفن العسكري . وهي تدور في مجملها حول التفصيل والخداع والمفاجأة والاحتراس والسرعة والمرونة والتقدير السليم ، وبذلك أثبت أنه الوالد الفعلي للفكر العسكري .

بعد مرحلة طويلة جاء العصر النابليوني وظهرت الحاجة للتفتيش عن إكسير الفكر الحربي . ودخل بونابرت مجال التفتيش عن المبادئ فأمعن في التفصيل مورداً مئة وخمسة عشر مبدأً (١١٥) ضمن أقوال مأثورة متفرقة ، منها :

- قد أضيع في المستقبل معركة ولكنني لن أضيع دقيقة واحدة .
- إن مبادئ الحرب في المعركة العادية ماثلة لمبادئ الحرب في الحصار . يجب تركيز النار على نقطة واحدة ، وما أن تنفتح الثغرة حتى ينهار التوازن ، وما بقي بعد ذلك غير مهم .
- فن الحرب عبارة عن دفاع مدروس وحذر جداً يعقبه هجوم سريع وجريء .
- وإذا نظرنا إلى نجاحات نابليون في معاركه الشهرية نجد أنها في مجملها ترتكز على المبادئ التي نادى بها والتي يمكن تلخيص أهمها فيما يأتي :
  - الحركة والمفاجأة .
  - تأثير الكتل البشرية في تنظيمات وجموعات .
  - السير بقوى متفرقة والقتال بها مجتمعة .
  - التوفيق بين الغايات والوسائل .
  - المناورة على المؤخرات .
  - التركيز على قوة النار (الإسناد المدفعي) .

بعد نابليون حاول بعض المفكرين والقادة الكبار دراسة مبادئ الحرب دراسة فلسفية وعلمية أمثال كلاوزفيتز وجوميني وفولر وفوش وليدل هارت ، وذلك من خلال تحليلهم للمعارك عبر التاريخ وإعادة تركيب الأحداث ذهنياً ، فخرج كل منهم بعدد معين من المبادئ حسب أسلوب التحليل وهيكليّة الموضوع والزاوية التي انطلق منها للمعالجة مركزاً على بعض المبادئ ومهماً إلى حد ما أهمية البعض الآخر . كل ذلك جاء من منطلق تأثيرات العصر وعوامل الخبرة الشخصية والطبع الإنساني والثقافة الفكرية والحضارة الاجتماعية . هذا مع التوكيد بأن اختلاف صيغ المعالجة قد جعل بعض المنظرين يعتبر أحد المبادئ فرعاً من أصل أكبر ، بينما سمح آخر لنفسه بأن يرى في الفرع أصلًا وفي الأصل فرعاً . ومع هذا التضارب في التصنيف فقد سجل الفكر إيجابية هامة وهي التمكّن من حصر المبادئ بعدد

قليل فيما لو قورنت بالعدد الذي جاء به بونابرت. هذا الاختصار هو خير دليل على التفاعل بين شتى المبادئ وترابطها وتناقض بعضها في آن معاً، مع وجود مبدأ السببية كجامع مشترك فيها بينها، فكأننا بالحقيقة الحربية عقدة مرور إجباري واستقطاب، أما المبادئ فأبواب تلك العقدة ومنافذها، وعلى المحلل العسكري أو القائد كي يعبر بنجاح أن يسلك المعبر الذي يلائمه وينخرج من الباب الذي يناسبه شرط أن لا يحاول الالتفاف حول تلك العقدة لأن بذلك فشله.

هذا وتجدر الإشارة أن كل التركيبات المتعددة التي خرج بها المفكرون للمبادئ العسكرية قد جاءت تتنظم في مجال حدين: الأول هو المفهوم المباشر للعمل، والثاني هو المفهوم غير المباشر. أما اختلاف الترتيبات وتنوع مضمونها فقد جاء باختلاف اقتراها أو بعدها من أحد الحدين.

هذه هي محصلة محاولة التفتيش عن المبادئ في تلك الحقبة، وسنعطي أمثلة عن النتيجة عند كل من كلاوزفيتز وليدل هارت وفوش. لقد توصل كلاوزفيتز، في إطار انتصاره المتشدد للعمل المباشر، إلى حصر مبادئ الحرب في سبعة هي:

- التفوق العددي. وهو قاعدة ثبتت مصداقيتها على مر الأيام، والخطأ في إعطائها حق قدرها ذنب لا يرحم، كذلك فالتفوق قد يكون مطلقاً وهذا هو الوضع المفضل، أو يكون مرتبطاً بالنقطة الخامسة حيث يأخذ عاماً الزمان والمكان أهمية بالغة.
- الخدعة. وهي تهدف لتحقيق المفاجأة بالحيلة والتضليل الذي يعتمد التظاهر والإخفاء، باستدرج الخصم لتوجه قواه وأفكاره نحو الزاوية الخاطئة تغطية للحدث المصمم وتمهيداً لأن يأتي صاعقاً مفاجئاً.

- تجميع القوى. ويقصد بتجميع القوى حشدتها في الزمان والمكان وتركيزها على نقطة واحدة لتحقيق الخلل في توازن الخصم.

- المفاجأة. وهي كعامل منفصل عن الخديعة ترتكز على السرية والسرعة في العمل بحيث تبقي العدو في حيرة من أمره غير قادر على ممارسة الفعل، يركض لاهثاً وراء رdas الفعل التي غالباً ما تجعلها السرعة ونقص المعلومات متأخرة وغير ملائمة وفي غير محلها.

- الاقتصاد بالقوى. وهو التركيز على حسن استخدام القوات وعدم التبذير. إنه مبدأ ينافي التجميع للقوى، لذلك وجب التوصل إلى معرفة نقطة الجدوى الملائمة في مزاوجة هذين المبدأين.

- العامل الهندسي. وهو يتعلق بشكل توزيع القوى والتحصينات والمنشآت، وطريقة العمل والتنقل والمناورة من التفاف إلى ضرب للمؤخرات أو عمل على الخطوط الداخلية

أو الخارجية. إن هذا العامل مرهون بالتنظيم والتجميع للواجب والشكيل فضلاً عن استعمال الأرض، وهو بطبيعته أسلوب ممارسة أقرب إلى التكتيک والتقنية منه إلى الفنون العليا.

● وجود الاحتياط. وهو لاستدراك أية حاجة مفاجئة والتدخل في المكان والزمان الملائمين. إن استعمال الاحتياط يأتي في أدق الظروف فيساهم في تعزيز الجبهات المهددة كما يؤمن استغلال النجاح في الهجوم وتحطيم هجمات العدو الناجحة من احتلال الأرض أو الاختراق. إن سر الاستخدام الناجح للاحتياط هو أن يكون في المكان والزمان الخاسمين وبالقوة الملائمة.

أما ليدل هارت، المت指控 للعمل غير المباشر والذي يعكس صورة الفكر الإنكليزي، فقد حدد ثمانية مبادئ للحرب معتبراً إياها جوهر الاستراتيجية والتكتيک في آن معاً، وهي :

● مطابقة الهدف والإمكانات. وهذا الأمر يركز على معرفة حدود الطاقة والإمكانات المتوفرة من بشرية ومادية ومقارنتها مع الأهداف المرجوة لتحديد الهدف الممكن تحقيقه بالوسائل المتيسرة. إن الحكمة العسكرية ترتكز على رؤية ما هو ممكن دون الإفراط في الثقة بالنفس واستهلاكها. أما الركض وراء الطموحات والأحلام الكبيرة فأمر لا يمكن تحقيقه بالإمكانات المتواضعة إطلاقاً لأن قاعدة التناسب المادي صارمة لا تخادع ولا ترحم.

● الاحتفاظ بالهدف دائمًا ماثلاً أمام العين. إن تحديد الهدف النهائي بوضوح وجعله ماثلاً باستمرار أمام القادة والجنود أمر حيوى في جميع مراحل التحضير والتخطيط والقتال. إن من يفقد هدفه يضيع اتجاهه ويختبط في ظلام دامس وتردد قاتل عند مواجهته للأحداث والخيارات العسكرية المختلفة، لا يعرف ما يلائمه ولا يقدر على اختيار الطريق المناسب ما دامت الغاية ضائعة والتوجه حائراً والهدف النهائي مفقوداً. إن تحديد نهاية المطاف لا يُعفي العسكري من تحديد الأهداف الوسيطة التي تعتبر معالم هداية على طريق الغاية النهاية. فالتحديد واجب وضرورة لرسم حدود الطريق، لكنه يجب الاقتناع دائمًا بأن هناك أكثر من طريق للوصول إلى الهدف، والقائد الناجح هو من يكيف خططاته حسب الظروف والإمكانات.

● اختيار الخط الأقل توقياً. إن هذا التصرف يرمي إلى تحقيق المفاجأة واستغلال نقاط الضعف والمناطق غير المحسنة في جهاز العدو الدفاعي وتحاشي الاصطدام بالعظيم من قواته ومنعه من استثمار طاقاته القصوى في المعركة. إن تحقيق هذا الأمر يتأنى باعتماد التفكير

بأسلوب العدو ووضع النفس مكانه لمعرفة ما يمكن أن يتوقعه ولا يتوقعه، ما يمكن أن يحضر له وما يمكن أن يهمله. إنها لعبة حرب وسيناريو ذاتي تداعى فيه الموقف الممكنته في سلسلة متراقبة من الأفعال المفترضة وردات الفعل المقدرة لتكتمل الصورة بجميع أوجهها وتشعباتها. هناك حقيقة واقعة في العمل العسكري وهي أن كل موقف له ثلاثة خيارات من الحلول الممكنته، ولكن النجاح يكمن في الخيار الرابع، إنه الخيار غير المتوقع، والقائد الناجح هو من يعثر على هذا الخيار ويسلك طريقه.

● استثمار خط المقاومة الأضعف. إنه مبدأ متلازم مع المبدأ السابق، فالضعف غالباً ينبع عن عدم التوقع كما ينبع عن مسبيات أخرى، واستثمار نقطة الضعف هو مفتاح الجسم العسكري عادة. إن اختيار الأهداف الوسيطة بشكل يؤمن فتح الطريق المؤدي إلى الهدف النهائي بالدرج يدخل ضمن هذه السياسة لأنها يخلق خطوط المقاومة الأضعف ويفتش عن المغطاة منها. إن هذا المبدأ قابل التطبيق في التكتيك والاستراتيجية في آن معاً، وهو ينطبق على استعمال الاحتياط واستثمار النجاح في كل من الدفاع والهجوم.

● اختيار خط عمليات يؤدي إلى أهداف متناوبة. إن هذا الأسلوب في العمل يربك العدو ويضيعه في حيرة تامة وينعه من تركيز قواه ويسمح بـالمفاجأة باختيار الهدف الأقل حماية والأقل تنبهاً. إنها مسألة متعلقة بـتأمين حرية العمل والتضييق على حرية العدو لأنها تضر布 عصفورين بحجر واحد، عصفور التناوب المحير وعصفور تسهيل العمليات المستقبلية، باعتبار أن كل هدف بديل أو مناوب يصلح لأن يكون هدفاً وسيطاً جديداً.

● المرونة. وهي الأمر الذي يجب مراعاته في التخطيط بحيث يأتي أمر اختيار البدائل في كل حين سهلاً وواعياً غير مكلف. كذلك يجب أخذه بعين الاعتبار في عمليات التشكيل (الترتيبيات) بحيث تتلاءم مع الوضع والظروف وتأخذ التوقعات المستقبلية بعين الاعتبار في حالي النجاح والفشل في آن معاً. إن المرونة في التخطيط والتجمع للواجب والتشكيل تسهل عمل القائد وتحضر للعمليات المستقبلية وتنع حدوث المفاجأة، فهي ركن أساسي من مقومات حرية العمل.

● عدم إلقاء كامل الثقل في عمل ما إذا كان العدو محترساً. هذا عمل من أعمال الحيطة والتبصر وعدم الانزلاق في المخاطر غير المحسوبة. إن الاحتراس واجب عسكري أساسى مفروض على كل قائد. وعدم وضع البيض كله في سلة واحدة أثناء الخطر تدبر حكيم يظهر دائماً في عمليات جس النبض والاحتفاظ الدائم باحتياط مؤثر. فيما من قائد عاقل يقبل القيام بهجوم حقيقى على عدو متمركز محترس قبل أن يتتأكد من شكل مقاومته الذي يظهر بفقدان النظام في صفوفه أو تحطم معنوياته.

● عدم تجديد الهجوم على نفس الخط أو بنفس الشكل. إن أي هجوم يجب أن لا يتكرر في حال فشله، إن في مجال المكان أو في مجال الأسلوب لأن العدو سيتبهه حتىًّا لموقع الهجوم فيعززه ويصلح الأخطاء التي ارتكبها في العملية ويكشف آفاق التخطيط وحدوده. كذلك فالفشل يؤثر على معنويات القوات الصديقة ويرفع من معنويات العدو في تلك الناحية، الأمر الذي يجعل إعادة الكرة مقرونة بالفشل بشكل شبه حتمي.

إن خلاصة مبادئ ليدل هارت تدور حول الاحتراس والحذر وحرية العمل والمرونة وتناسب الطموحات والوسائل، فضلاً عن التركيز على تفتيت قوات العدو قبل العمل الحاسم، أي زعزعة جهاز العدو تمهيداً لضربه، وليس ضربه تمهيداً لزعزعته. إنها نفس فكرة سان تزو تتجدد في مبادئه من جديد.

ونأتي الآن إلى المدرسة الفرنسية مدرسة فوش. تلك المدرسة التي أحسست بأن نابليون بونابرت قد تمادى كثيراً في تفصيل المبادئ الحربية فحاولت تخفيض عددها إلى الحد الأدنى مرکزة على إطلاق التعبير ذات المفهوم الشمولي الدائم والتي تجمع تحت لوائها أكثر من مبدأ. قالت هذه المدرسة بوجود ثلاثة مبادئ هي : تناسب الغايات والوسائل وحرية العمل وتحقيق المردود الأقصى .

● تناسب الغايات والوسائل. لقد جاء هذا المبدأ عند كل من نابليون وليدل هارت، وهو أمر يفرض على القائد المعرفة التامة بقدراته وقدرات عدوه، لذا وجب عليه التمتع بحسن القياس وضرورة الدقة في الاستعلام وعقلانية في الحكم ومنطقية بعيدة عن العاطفة في التفكير والقياس والتحليل.

● حرية العمل. وهي أمر حيوي تسمح للقائد بانتقاء عدة حلول والماضلة فيما بينها كما تسمح له بالتحول من خيار إلى آخر حسب ما تملية الظروف الطارئة. إن تحقيق حرية العمل يتم بتجميع القوى وتوحيدها، والحفاظ على حرمة خطوط المواصلات والتأمين وبالخطة أثناء التحرك والتركيز والتصريف، بالإضافة إلى إخفاء النوايا عن العدو إن بالسرية أو بالخدعة. إن حرية العمل أمر متشابك مع المرونة فكلاهما يكمل الآخر ويعمل على تحقيقه .

● تحقيق المردود الأقصى. وهذا يعني استثمار الوسائل المتوفرة بحيث تتحقق أكبر قدر من النتائج . إن هذا المبدأ يعتمد على تجميع القوى إلى أقصى حد مع الاحتفاظ بالاحتياط الملائم للتدخل في المكان والزمان المناسبين. يضاف إلى ذلك التركيز على الحدة القصوى في العمل واستعمال السلاح اللازم للأهداف بالعدد الكافى دون تبذير. هذا فضلاً عن وجوب اللجوء إلى المفاجأة والاهتمام بالتعاون والتنسيق بين القوى، واعتماد السرعة في التنفيذ

والتركيز على حسن اختيار الوقت، والدؤام والاستمرار في العمل. هذا المبدأ يوجب الاقتصاد بالقوى وعدم التبذير لكي تعطي كل وسيلة مردودها الأفضل.

هذه جولة أفق تمهدية في أجواء مبادئ الحرب قبل أن تستقر نهائياً على ما هي عليه الآن، ومن المهم التأكيد على متانة الرابطة فيما بينها وتلازمها وتكاملها في مجالات كثيرة، فضلاً عن تناقض بعضها، كالتعارض بين الحشد والاقتصاد بالقوى مثلاً. يجب التنبه إلى أنه لا يمكن تطبيق جميع مبادئ الحرب في آن واحد وفي معركة واحدة لاستحالة التوفيق بين المتناقضات ولعدم التمكن من تلبية مستلزمات غالبية المبادئ في نفس الوقت بسبب النقص الدائم الذي يلازم كل حرب. إن تطبيق المبادئ لا يؤمن النصر بالضرورة، ولكن عدم التطبيق يؤدي إلى الفشل المحتم. إن القائد الناجح هو من تمكن أن يستخدم المبدأ الملائم لكل معركة على حدة، ففي كل ظرف هناك مبدأ أو أكثر يعتبر حاكماً ومفتاحاً للنصر، وبالتالي التمكن من اكتشافه واستخدامه تكمن عبقرية القائد.

## المبادئ

بعد أن عرضنا لمراحل التفكير العسكري في التفتيش عن مبادئ الحرب نصل إلى العصر الحديث حيث استقر التفكير في الاعتراف في معين مدرستين كبيرتين هما المدرسة المباشرة لكاوازفيتز والمدرسة غير المباشرة لصن تزو. إن جميع الأفكار السائدة الآن هي تركيب توفيقي بين هذين الحدين بشكل يتلاءم مع واقع كل بلد من الناحية الأخلاقية والفكرية والأيديولوجية والأهداف والطلعات القومية والترااث ومعطيات الجغرافيا السياسية فضلاً عن التجارب والخبرات العسكرية السابقة. على أية حال يمكن التمييز الآن بين مدرستين كبيرتين هما المدرسة الغربية والمدرسة الشرقية. إن المدرسة الغربية الكبرى رغم تشعب مدارسها الصغرى وفروعها تتميز بقربها من الحدالكاوازفيزي، أما المدرسة الشرقية فهي رغم تفرعاتها أيضاً تغترف من معين صن تزو. هذا لا يعني أن المعلم واضححة في هوية كل مدرسة من حيث الانتهاء الكامل إلى كوازفيتز أو صن تزو لأن جميع التيارات الآن هي مركب هجين يعيش بين طرفي هذين القطبين.

بعد هذا التوضيح البسيط نبدأ الآن بعرض مبادئ الحرب الحالية.

### تحديد الهدف والمحافظة على القصد:

ما من دولة خاضت حرباً إلا وحددت قصدها من هذه الحرب قبل أن تخوضها. إن هدف الحرب عادة يولد من السبب الذي أشعل تلك الحرب. واستخلاص الهدف عادة يأتي على مستوى الاستراتيجية القومية التي تهدف إلى خدمة الأهداف الوطنية العليا، لذلك وجب تحقيق الانسجام بين القصد من الحرب ومقومات البلد الجغرافية والفكرية والاجتماعية والحضارية، بالإضافة إلى القدرات البشرية والاقتصادية. إن هذا التوافق هو اللبنة الأولى في بناء النصر المرتقب. لقد حاول البعض تسمية هذا المبدأ وحدة العمل تدليلاً على ضرورة توارد الأفعال والقوى بالتركيز على هدف واحد للحصول على المردود الأقصى مع تنسيق كامل للنشاطات على المستويات والرعائل كافة.

شدد المنظرون الإنكليز كفولر وباليت على أهمية هذا المبدأ واعتبروه أساساً للحرب وتبينوا أن وجود هدف نهائي عام لا يعفي الدول والجيوش من تحديد أهداف وسيطة على طريق الوصول إلى الهدف العام الأخير. هذا ومع أن القصد لكل عملية عسكرية في مطلق الأحوال يتضمن كبسنأساسي تدمير القوات المعادية وتحطيم إرادة العدو على القتال، فاختيار الأهداف المرحلية يجب أن توفر فيه شروط هامة هي أن يكون لكل مرحلة قصد واضح مباشر وبسيط يمكن التحقيق وأكثر تحديداً من الهدف النهائي مع الاهتمام الدائم بأن تكون الأهداف المرحلية دائمةً في خدمة هذا الهدف النهائي. إن هذه المراتب في سلسلة الأهداف الوسيطة تأخذ في ميكانيكية تحديدها مرتبتين من القرار والعمل نزواً من القمة حتى أدنى المستويات القيادية. فتحديد الهدف عادة يقع على عاتق القيادة العليا، أما خطة التنفيذ فهي من صلاحيات القائد المنفذ. إن تغيير الهدف من قبل رعائط التنفيذ غير جائز إطلاقاً في هذا العصر نظراً لضخامة الجيوش المتنازعة وكثرة الوسائل القتالية واللوجستية واتساع مسارح العمليات وال حاجات الضخمة لوسائل النقل والاتصال والإمداد والتمويل والهندسة. إن تغيير الهدف من قبل المنفذ كارثة تدمر خطة الرعيل الأعلى وتحرف مسار الحرب عن خطها. لقد مضى العهد الذي كان يجوز فيه التحويل لاغتنام فرصة لم تكن متوقعة أو لتفادي كارثة حقيقة لم تكن منظورة، وأصبح التغيير يوجب موافقة القيادة العليا ليقى منسجماً مع خططاتها. إن هذا المحظور يحد من المرونة وبالتالي يخالف ضرورة هامة من ضرورات الحرب، ولكن التنسيق التام والمرن بين القيادة العليا ورعيل التنفيذ وحرية تصرف المنفذ في تغيير الخطة تعيد للمرونة روحها بالقدر الكافي لإبقاء مسيرة العمليات العسكرية سلمية.

هذا ومن الواجب التنبيه بأنه في حروب العصابات وعمليات الغوار وحروب التحرير الشعبية يجوز للمنفذ تغيير أهدافه تفادياً لخطر مدمر أو اقتناصاً لفرصة دسمة لأن حرية العمل تكون على أوسع نطاقها في هذه العمليات واللامركزية هي سيدة الموقف. هذا ما أكدته خبرة محمد شيخو وأنور خوجا في البانيا.

إن القائد الناجح هو الذي يجيد تحديد أهدافه النهائية والمرحلية ببراعة معتمداً على التقدير السليم والصفاء الذهني والمعلومات الصادقة والعقلانية البعيدة عن العاطفة والخيال. إن اختيار الأهداف ليس بالأمر السهل، إذ يجب أن تتوجه كل عملية إلى هدف واضح محدد وحاصل يمكن الوصول إليه، وعلى كل قائد أن لا ينسى أن غاية كل عملية هي الاتجاه إلى تحقيق الهدف العام وال دائم بحيث يشكل الاستيلاء على الهدف المرحلي خطوة مباشرة وهادفة تسهم في الإسراع في تحقيق الغاية العملية والاقتصاد بالقوى. إن اختيار أي هدف مع التركيز على نقاط التوجه العام التي أسلفناها يجب أن يأخذ بعين الاعتبار عدة اعتبارات، هي:

- قوة العدو.
- العوامل الجغرافية لمنطقة العمليات من أرض ومناخ وطقس ومزروعات وطرق مواصلات ... ، إلخ.
- الوسائل المتوفرة والقدرات الاقتصادية والإمكانات البشرية ونظام التسليح والاتصالات والنقل.
- النظام الاجتماعي والمعتقدات ومستوى التدريب والعقائد الاستراتيجية والتعبوية والتنظيم.

إن هذا المبدأ غالباً ما يعامل كصاحب صدارة بين مختلف المبادئ الأخرى، لأن انتخاب الهدف هو الخطوة الأولى للحرب ولأن التأكيد على توحيد ضرورة ملحمة تسهم في تفادي الضياع وهدر الطاقات وهذا ما يفرض الزامية وحدة القيادة.

### العمل التعرضي :

إن العمل الهجومي يعني تحريك القوات ودفعها للأمام إلى المناطق التي يسيطر عليها العدو لضربه، ومن ثم استثمار النجاحات المحققة إلى أقصى الحدود. هذا في المجال التقليدي للحرب، أما في مجال الحرب النووية والحروب الثورية فالامر مختلف وإن كانت جميع الأعمال نابعة من التصميم على تدمير العدو. هذا الأمر يدعونا للتفكير في الحالة التعرضية التي هي مناخ عام تعشه الجيوش المتحاربة باستمرار، وهي حالة ذهنية تتمثل في التصميم على اغتنام أية فرصة لتدمير العدو. إن انتفاء وجود هذه الحالة عند أي جيش تعني انتهاءه وشطبته من خارطة الصراع وبالتالي انتفاء وجود حالة الحرب ذاتها.

إن من البديهي القول أن تحقيق النصر لا يتم إلا بالعمل التعرضي ولا يمكن الحصول إلا بالهجوم، أما تحقيق الهدف العسكري فغالباً ما يؤمنه التعرض وإن كان هذا الأمر لم يعد ضرورياً بشكل دائم على المستوى الاستراتيجي في الوقت الحاضر، بل أخذت الأهداف تتؤمن بوسائل أخرى وذلك وفقاً لطبيعة تلك الأهداف والمناخ الدولي المسيطر. هذا لا ينفي حتمية الحالة التعرضية الواجبة الوجود في كل جيش والتي يمكن أن تكون روح العمل التعرضي.

لقد اختلف القادة عبر التاريخ في تقدير أهمية الهجوم بالنسبة للدفاع وأفضلية أحدهما على الآخر، فقال صن تزو بفكرة تفتتت العدو قبل مهاجمه واضعاً الهجوم في المرتبة الثانية، وقال كلاوزفيتز بأن الدفاع هو الشكل الأقوى للحرب ولكنه أقرّ بأن أعظم نقطة عبرية في

الدفاع هي التحول السريع الزاحم إلى الهجوم. والامتحان الحقيقي لعصرية القائد يكمن في قدرته على اكتشاف نقطة التحول الكيفي هذه. أما نابليون بونابرت فاعتبر بأن فن الحرب يكمن في الدفاع المدروس المحسوب في كل جوانبه الذي يتبعه هجوم سريع جسور. بذلك أيد نابليون كلاوزفيتز وهذا ما أكدته الممارسة العملية في الحرب العالمية الأولى، لكن مدرسة فوش خالفت هذا الرأي ورأت بأن اللجوء إلى الهجوم خيار واجب دائمًا إن على المستوى الاستراتيجي أو التكتيكي منها كانت الظروف وموازين القوى. كذلك رأى بعض القادة السوفيت في الحرب العالمية الثانية معتمدين أفكار ماركس القائلة بأن الهجوم يجب أن لا يتوقف عندما تندلع الثورة لأن من الدفاع دمار تلك الثورة وموتها.

أما ما وتسى توونغ فقد فضل الدفاع الاستراتيجي على الهجوم ورأى بأنه يمكن تعبئة الشعب كله في القضية الداعية العادلة، وهذا ما يؤتجج أوار المعنويات ويسمهم في اللحمة السياسية بينما يؤثر على معنويات العدو في الاتجاه السلبي. لم يرفض ما وفكرة الهجوم في المطلق وإن كان اختيار نهج الحرب الثورية التي تأخذ ببدأ الدفاع استراتيجياً والهجوم تكتيكياً، ولكنه حدد ستة شروط للتحول من الدفاع إلى الهجوم، هي :

- تأمين التأييد الشعبي القوي للجيش.
- ملاءمة الأرض للعمليات.
- تركيز جميع القوى الرئيسية في الجيش الأحمر.
- وجود العدو في وضع منهك ومعنويات محطمة.
- كشف الثغرات ونقاط الضعف عند العدو.
- مداومة إغراء العدو لارتكاب الأخطاء.

مهما قيل في هذا الباب في محاولة المفاضلة بين الدفاع والهجوم فالعلاقة بينها تبقى علاقة جدلية تكاملية، وأي فصل حازم تعسفي هو خطأ مدمّر. إن النقطة المفصلية في الموضوع هي أنه في كل حرب تقع بين طرفين فلا بد أن يقوم أحدهما بالهجوم لامتلاكه القدرة بينما يلجأ الطرف الآخر إلى الدفاع مسلّماً المبادرة إلى خصمه. إن العمل التعرضي أمر ضروري في القتال إذن لتحقيق نتائج حاسمة وللحفاظ على حرية العمل، كما أنه يضع المبادرة في يد القائد ويسمح له بفرض إرادته على العدو، كما يساعده على تحديد خيارات المعركة ودفع تلك الخيارات إلى الأمام وتطويرها. كذلك فال تعرض يسهل استغلال التغيرات السريعة في الأوضاع والمواقف واستثمار ضعف العدو. هذا والهجوم يسمّهم إلى حد بعيد في تقليل التطورات غير المرقبة وفي تطويقها والعمل لتلافي وقوعها.

قد تفرض الظروف الدفاع على القائد ولكن عليه أن يتكيف ويعمل ليكون هذا الدفاع

موقتاً عارضاً وليس ب دائم. عليه أن يستغل المناسبات السانحة للانتقال إلى العمل الهجومي باستمرار، أكان لجوئه إلى الدفاع بسبب نقص في الإمكانيات، أو إرهاق، أو خياراً إدارياً بغية الاقتصاد في القوى على جبهة لم يتخذ القرار بشأنها بعد. وحتى خلال القتال الدفاعي على القائد أن يفتش على الظروف والسواعن لاستلام زمام المبادرة وتحقيق نتائج حاسمة من خلال بعض الأعمال الهجومية. إن السلوك التعرضي برفع المعنيات ويولد الفكر الخلاق ويبقي القوات على درجة عالية من التأهب والاستعداد للتلبية والطاعة، أما الاستكانة فتولد الوهن وتخفض المعنيات وتفقد المبادرة فيصبح الجيش حشداً ميتاً دون روح. لذا مما قيل في هذا الأمر يبقى ثابتاً أن التعرض هو الأساس في كل حسم عسكري على مر العصور مما تتنوع الوسائل التكنولوجية وتقدمت الوسائل العلمية أكان ذلك في حروب الأرض أم في حروب النجوم.

### الحشد:

عرف جوميني هذا المبدأ بأنه زوج غالبية الجيش تبعاً بإجراءات استراتيجية لتأخذ دورها في المناطق الخامسة في مسرح الحرب. وقال نابليون بأن فن الحرب يتلخص بمبدأ واحد: جمع قوة أكبر من قوة عدوه، في جبهة واحدة. أمالينين فرأى أن الحشد هو التركيز في اللحظة الخامسة باتجاه الضربة الرئيسية. وصاغ ماو تسي تونغ فكرة الحشد خلال الحرب الثورية وفي نطاق الاستراتيجية غير المباشرة في خمسة أفكار هي: المبادرة ضمن السلبية، والقوة ضمن الضعف، والوضع الملائم داخل الوضع غير الملائم، والتفوق في ظل تفوق العدو، والهجوم إبان الدفاع.

إن مبدأ الحشد بوجه عام هو تركيز قوة قتالية متفوقة على العدو في النقطة الخامسة في المكان والزمان الملائمين. هذا يتطلب وضوح القصد وتحديد درجة المخاطرة المحسوبة، وهو يحتاج إلى تأمين مبدائي وحدة القيادة والتعرض. إن الفن في هذا المبدأ هو التمكن من حشد القوات الملائمة في الظرف الملائم لتحقيق الهدف الملائم، لأن التركيز الأقصى للقوات قد يفقدوها الإرباك بسبب كثافة تجميع القوات والأعتدة على أرض ضيقة فتقيد الحركة من كما يسودها الإرباك طرق المواصلات. وهناك محظوظ آخر على التحشد في هذا العصر وهو الخوف من تشكيل هدف دسم للطيران المعادي ونقطة ملائمة للضربة النووية. إن العصر النووي يفرض التوفيق بين التجميع والتفريق بشكل يضمن سلامة القوات ويوفر الحشد المطلوب. إن مناورة الحشد الآن تتطلب تأمين الأسلحة النووية الكافية لتدمير العدو إن على الصعيد

التكتيكي في نطاق مسرح محدد ومحصور أو على العصيد الاستراتيجي. إن عبقرية القائد تكمن في الجمع وخلق التكامل بين النقطة الخامسة واللحظة الخامسة والقوة الخامسة.

هذا والخشد لا يعني إشراك القوات كافة في الاشتباك بل وضعها في شكل جاهز للتدخل ضمن شروط أبعد المساحة والوقت لتعمل في أحد اتجاهين: إما في الاتجاه المباشر بضرب القوة للقوة، أو في الاتجاه غير المباشر بضرب القوة للضعف. هذا يترجم عملياً إما بضرب تحشيدات العدو الرئيسية أو بضرب قواه الفرعية والأجنحة والمؤخرات بقواتنا الرئيسية.

يجتمع هذا المبدأ بين مبدأي التفوق العددي وتجميع القوات عند كلاوزفيتز، وهو يعني وجوب جمع أكبر قدر ملائم من القوى لتحقيق التفوق في النقاط الخامسة لتحقيق أغراض حاسمة. إن التفوق هو محصلة إجاده تنظيم القوى المتوفرة وتجميعها بفعالية تمهدأ لاستخدامها في القتال. ويرتبط التجميع والتشكيل إلى حد بعيد بالعدو والأرض والقوى المتوفرة والهدف، وهنا يظهر مدى ارتباط مبدأ الخشd بمبدأ تحديد الهدف الذي تحدثنا عنه.

من الطبيعي أن كل قائد يفضل تحقيق التفوق المطلق في كل الأماكن لأنه عندها يكسب المعركة بصورة أكيدة، ويسهل عليه العمل باعتبار أن النتيجة مضمونة إلى حد بعيد قبل الشروع بالمعركة. إن هذا الأمر نادر الواقع وغير واقعي وعلى القائد دائمأ أن يؤمن لنفسه تفوقاً نسبياً في المفاصل والنقط الحساسة بفضل حسن توزيع القوات واستخدامها استخداماً صحيحاً، وإبقاء القدر الكافي منها في الاحتياط لتلافي الواقع في مأزق غير مرقبة، وهنا تظهر أهمية حشد القوى في المكان والزمان.

لقد عبرت المدرسة البلجيكية – عن هذا المبدأ بمبدأين هما: ملامعة الوسائل للهدف وميزان القوى المناسب. إن ملامعة الوسائل للهدف تعني بوضوح تحقيق الوسائل المناسبة للهدف المنوي الحصول عليه أو اختيار المهدf الملائم للوسائل المتوفرة. أما وجود ميزان القوى المناسب فينطلق من الفكرة المثالية القائلة بإحراز التفوق الشامل في كل المجالات بحيث يسهل الجسم المباشر بعمل القوي ضد القوي. لكن ذلك كما قلنا حلم غير قابل للتحقيق دائمأ وطموح بعيد المنال. لذلك فالحل العملي هو البحث عن تحقيق الميزان المناسب في موضع معين وفي وقت محدد تمهدأ للجسم بالعمل من القوي ضد الضعيف.

إن سلامه استخدام مبدأ الخشd مع غيره من المبادئ يمكن أن يسهل للقوى القليلة تحقيق تفوق قتالي حاسم على قوى تفوقها عدداً. فتجميع القوات وتركيزها في المكان مبدأ أساسي ، أما فصلها وتجزئتها فانحراف عن المبدأ، إذا لم يكن له ما يبرره، لأن أفضل استراتيجية هي أن تكون أقوىاء دوماً، وإذا لم يتتوفر لنا ذلك علينا أن نعمل لتحقيق القوة في النقطة الخامسة.

هذا القول لا يعني دفينا إلى التحجر في التفكير، وعدم المرونة في توزيع القوى، فالمقصود هو إمكانية التدخل بفعالية. وما دام في مقدور التطور العلمي اختصار المسافات والوقت إلى حد بعيد في العصر الحاضر، وربما في بعض الظروف إلى تقزيم قيمتها أو دورها في المعركة إلى الحد الأدنى، فقد يبدو لنا في الوهلة الأولى أن قيمة مبدأ جمع القوات في المكان قد تلاشت سبيلاً وأن التجمع في الحروب النووية كما أسلفنا قد يشكل هدفاً سميناً لأية ضربة معادية ربما تؤدي إلى هزيمة ماحقة. غير أن التفكير الهادئ الرصين يعيد إلى المبدأ قيمته عندما نضعه في الصيغة التالية: الحشد في المكان ضمن حدود المهل الواجبة للتدخل الحاسم وشروط الأمان.

أما الحشد في الزمان فهو يعني إبقاء القوات المتأهبة والتي تتroxى هدفاً استراتيجياً مكرسةً لهذا الهدف في آن واحد عملاً بمبدأ أن الأقوى يدمر الأضعف. هنا يجب النظر إلى الموضوع على مستويين استراتيجي وتكني، لأن ما ينطبق على الاستراتيجية مختلف عنه في التكتيكي أحياناً.

● إن تكريس كامل القوى المعدة في آن واحد ضرورة لتحقيق الهدف الاستراتيجي أكان ذلك في مجال العمل أو الردع في الحروب التقليدية أو في الحروب النووية أو في الحروب المحدودة كهجوم الصين على فيتنام في عام ١٩٧٩ مثلاً. أما في مجال التكتيكي فيمكن العمل على أنساق وفي عدة أهداف ضمن خصائص الأسلحة واستغلال ظروف الفوضى السائدة لدى الخصم، والتفتت والضعف الحال في صفوفه لزوج وحدات طازجة نسبياً وتحقيق عامل حاسم، أو لدعم الوحدات في المواقف الحرجة. هذا يعني أن الاستراتيجية لا يمكنها التحالف مع الزمن بوسائلها الخاصة في هذا المجال، أي باستعمال القوات العسكرية بنظام متتابع بينما يقدر التكتيكي على ذلك. هنا تظهر أهمية مبدأ الاحتياط الذي تحدث عنه كلاوزفيتز والذي يستبطنه مبدأ الحشد الذي نتكلم عنه. ولا بد من الإسراع للإشارة فوراً إلى القول بأن تأخر تدخل الوحدات الجديدة في الوقت المناسب قد يمنعها من إنقاذ الوحدات المشتبكة المتيبة فتحقيق بها الهزيمة المحققة، لأن نصر الأعداء قد يجرفها. إن صحة هذا الأمر مرهونة طبعاً بميزان المقارنة بين العدو والقوة الجديدة التي ندخلها المعركة لأن هناك حدوداً ومجالات لتطبيق القياس.

● من البديهي أن التخوف من المستقبل في مجال التكتيكي يدفعنا إلى الاحتفاظ بقوى احتياطية حتى بعد تحقيق النصر في المعركة لتفادي المفاجآت، أما في المجال الاستراتيجي فتصعب المفاجآت و تستحيل أحياناً بعد الهزيمة لأن تبدل ميزان القوى يتطلب وقتاً كبيراً وكبيراً جداً. قد لا ينطبق هذا الأمر تماماً على الحرب النووية سبيلاً أثناء التسابق التكنولوجي في حرب النجوم، وقد يتمكن من قدر على احتواء الضربة الأولى وأفلتت بعض أسلحته

الاستراتيجية في شر تدميرها، من قلب الموازين في ضربته الثانية.

● لا تهك القوى دفعة واحدة أو بنسبة كبيرة في المجال الاستراتيجي كما في التكتيك، بل تبقى القوات غير المشتبكة جاهزة للتدخل وقدرة على متابعة العمل. إن التعب والحرمان اللذان يظهران بصورة أكثر جلاء في المجال التكتيكي يصبعان عاملين مدمرين في حال تعرض القوى لها في الإطار الاستراتيجي، وهذا ما ينسى باقتراب النهاية.

● كلما زاد عديد القوات المكرسة للعمل في المجال الاستراتيجي كلما قلت خسائرها وزادت خسائر العدو، وهذا لا ينطبق دائمًا على النطاق التكتيكي لأن قلة القوات تخفض من مستوى الخسائر في حدود معينة بينما في عمليات الغوار وحروب الضعفاء. إن القوى في المجال التكتيكي تتعرض للتناقض بسبب طول مدة الاستخدام الحقيقي (أي الاشتباك) بصورة أكبر مما تكون عليه في المجال الاستراتيجي، وذلك يعود لضخامة الكتلة البشرية المستعملة في المستوى الاستراتيجي. هذا يعني أن الزمن عامل حاسم في المجال التكتيكي ويقل تأثيره كلما اقتربنا من الاستراتيجية بسبب استخدام القطاعات البشرية الكبيرة.

وجود الاحتياط في إطار الحشد. تبيّنا أن الحشد لا يعني اشتباك جميع القوى في آن واحد، ولكن توزيع الأدوار و اختيار المكان والزمان المناسبين يلعبان أكبر دور في ربح أية معركة. إن وجود القوة الاحتياطية في يد القائد المحلي تعطيه حرية التصرف وتوسيع له مجالات الخيار والتدخل في الظرف الملائم. إن دور الاحتياط في الحقيقة يقوم على لعب دورين أساسين، هما إطالة أمد القتال وتجديده وجهوز قوة متأهبة دائمًا للعمل.

● إطالة أمد القتال وتجديده. هذه هي وظيفة تكتيكية يوضع فيها الاحتياط بإمرة القائد المحلي وراء خطوط النار، فيستعمله حسب رغبته وتقديره للأمور، ويقاتل بعناصره على أنساق طبقاً للحاجة. وينطبق هذا الأسلوب أكثر ما ينطبق على الدفاع حيث يستعمل الاحتياط لدعم مركز مهدد أو لإنقاذ معتصم يخشى انهياره. ولكن مفهوم الاحتياط كمبدأ تكتيكي يجب أن لا يدفع القادة إلى الخطأ والإفراط في تطبيقه على المستويات الدنيا كافة فيصاب الجيش بالشلل. فلو تصورنا جدلاً لواء بتنظيم ثلاثي يقاتل بمفهوم استخدام الاحتياط على مستوى الحضيرة فالفصيلة فالكتيبة ثم اللواء، نصل إلى نتيجة مذهلة ألا وهي أن الجزء اليسير من اللواء يشتبك مع العدو بينما يتوزع الاحتياط على أربعاء كما يأتي: كتيبة واحدة – سريتان – أربعة فصائل – اثنتا عشرة حضيرة. أي أن مجموع القوى الموضوع في الاحتياط هو أكثر من كتيبتين، وهذا أمر غير طبيعي وغير معقول. لذا تعمد الدول إلى إصدار تعليمات ميدانية خاصة تأخذ فيها بعين الاعتبار مراعاة مبدأ وجود الاحتياط وقدراتها

القتالية وعقيدتها القتالية لتحديد المستوى الأدنى الذي يجب استخدام الاحتياط فيه. إن الولايات المتحدة لا تسمح بوجود الاحتياط في حالات القتال العادلة أدنى من مستوى اللواء، بينما تعمد الدول الأضعف إلى استخدام الاحتياط على مستوى الكتيبة. هذا ومهمها كانت الظروف يجنب أن لا تتدنى قيمة الاحتياط بشكل يجعله غير مؤثر عند استعماله.

● جهوز قوة متأهبة دائمًا للعمل. هذا شرط أساسي من شروط المبادرة الاستراتيجية للتدخل حيث يمكن استشاف إمكانية الواقع في مأزق حرج، أو لمواجهة الحالات غير المتوقعة. وهنا تظهر الحاجة للاحتياط في الدفاع والهجوم معاً وإن بقي مجال الدفاع هو الأوفر حظاً. إن النظر للاحتياط من خلال المفهومين السابقين، أي إطالة مدة القتال وجهاز القوى

للعمل مع مراعاة مباديء الحرب الأخرى، يقودنا إلى قناعتين هامتين هما:

● إن مبدأ الاحتياط يعمل ضمن حدّين أقصى وأدنى. فخلق احتياط استراتيجي مسبق في الحروب التقليدية الكلاسيكية قد يكون تبديداً للقوى يستعاض عنه بنقل الجيوش من جبهة إلى أخرى أثناء العمل. وكلما اعلت المستويات العسكرية خفت الحاجة للاحتياط، لأن المعلومات تصبح أدق وأثبتت باقترابنا من حدود السياسة حيث تقل الحاجة إلى الاحتمال والتتخمين في المجال العسكري وتتصبح المعلومات الميدانية اليومية غير ذات بال إلى حد بعيد، سيما إذا كانت الاستعدادات الحربية واسعة شاملة ومتقدمة. هذا ما قال به كلاوزفيتز وأصدره حكمًا مطلقاً. لكن هذا الإطلاق قد يصبح في حالة الحرب البدائية عندما كان كل جيش يمثل نقطة منعزلة في الزمان والمكان، وعندما كانت الدولة بجميع مرافقها الاقتصادية والسياسية هي هذا الجيش. عندها كان وجود الاحتياط الاستراتيجي أمراً غير واجب لأن الهزيمة في معركة واحدة تعني الهزيمة في الحرب كلها وأسلام الدولة. أما في الوقت الحاضر فقد اختلفت الصورة مع تعقيد الأمور إن على الصعيد الداخلي أو على الصعيد الدولي أو في مجالات الإعداد والتحضير. إن الاحتياط الاستراتيجي قد يكمن الآن في سلاح الطيران مثلاً، أو في سلاح الغواصات كما قد يكون في قمر اصطناعي أو صاروخ نووي عابر للقارات. لقد غيرت المفاهيم النووية النظرة للاحتياط، فدخل غالباً في خانة الردع والرد الانتقامي واختيار أسلوب العمل بالضربة الثانية.

● إن الاستخدام المتتابع للقوات في المجال التكتيكي يرجىء العمل الخامس الرئيسي إلى نهاية العمل الشامل ويطيل أمد الحرب، بينما يقوم استخدام القوات جميعها في آن واحد في المجال الاستراتيجي بإدخال العمل الخامس الرئيسي في بدء العمل الكبير. وهذا يعود إلى الغاية المنشودة في القتال لأن العمل الخامس يعني الجسم العسكري ليس دائمًا الغاية التي يهدف إليها جميع المقاتلين وقد يتحقق الغرض دون الوصول إلى الجسم العسكري.

## الاقتصاد بالجهد:

إن مفهوم الاقتصاد بالجهد أو القوى هو الحصول على أفضل النتائج بأقل قدر ممكن من القوات والمعدات والجهود. هو عينه مبدأ تحقيق المردود الأقصى للوسائل ولكن في صيغة أخرى. إن ظروف القتال نفسها هي التي تفرض الاهتمام بهذا المبدأ. لقد كان في الماضي أساس الفن العسكري الانكليزي كما طبقة السوفيات في توزيعاتهم الدفاعية ضد من غزا الأرض الروسية، وأصبح الآن لبّ الفن العسكري الحديث ومن أهم المبادئ في شتى الدول.

إن ضرورات اللجوء إلى الاقتصاد بالجهد تنبع من عدم تمكن الجيوش في حروبها من تغطية الجبهات كافة بنفس المستوى من القوات، فنادرًا ما يتحقق التفوق الشامل أو التعادل الكامل في كلّ الواقع على الجبهة. الحرب مكلفة عادة تستنزف طاقات البلد البشرية والاقتصادية ولا يمكن تلبية متطلباتها وتحقيق اكتفاء الجيش في المعركة إطلاقاً، فهو دائمًا بحاجة أو توق إلى الأكثر والأفضل.

إن مبدأ الاقتصاد بالقوى يعزز المركزية في القرار والتصريف، الأمر الذي يتحقق في مبدأي وحدة القيادة وتحديد القصد. وهو ذو طابعين استراتيجي وتكتيكي، إذ يأخذ المنحى التكتيكي عندما تكون القوات في موقع تفوق أو تعادل استراتيجي، ويأخذ الطابع الاستراتيجي عندما يكون التفوق الاستراتيجي لصالح العدو. هو في الحروب المباشرة المتفوقة منهج تكتيكي بينما في حروب التحرير والغوار وكل حروب الضعفاء حاجة استراتيجية.

قلنا إن الموارد المتوفرة في الحرب دائمًا محدودة، ومن الصعوبة بمكان تحقيق الحشد في المكان والزمان المناسبين لتحقيق الضربة الخامسة. إن الاقتصاد بالقوى إذن هو الخل باللجوء التدريجي الثابت والمستمر إلى تأمين الوسائل المادفة إلى تحقيق الهدف العملي والمحدد بوضوح. إن الفشل في المحافظة على القصد وخدمة تحقيقه تفقدنا التوازن عند أية مفاجأة وتبدد الطاقات المحدودة وتقود إلى الفشل الذريع. إن الاقتصاد بالقوى هو التركيز على حسن استعمال الوسائل من عناصر ومعدات وتوجيهها إلى أهدافها الملائمة باستمرار أكان ذلك في المجال التقني أو التكتيكي أو الاستراتيجي. إن التوزيع الماهر والحكيم للقوى يمكن القائد من إنجاز مهمته بأقل ما يمكن من المصارييف وينبع تبديد الطاقات. ومبدأ الاقتصاد هذا هو الوجه الآخر لمبدأ الحشد والعامل المعدل له، وهو لا يتناقض معه كما يظهر للوهلة الأولى، بل يكمله ليؤلفا وحدة مترابطة. إن مرونة القوى والمعدات وحركتها وتنصيص السلاح المناسب للهدف مع مراعاة حسن التقدير في اختيار الكم والكيف لمعالجة كل هدف تعتبر

روح هذا المبدأ. والتعلل لأسلوب تشكيل القوات وترتيباتها وتوزيعها بمهارة على الأهداف الرئيسية والأهداف الثانوية في الهجوم والدفاع والتضليل وحتى في الأعمال التراجعية، هو الذي يؤمن القوات الكافية والملائمة للعمل في النقاط الحاسمة وبالتالي يحقق الاقتصاد بالجهودات. وهنا يجب عدم إهمال مبدأ التركيز والاحتراس اللذين يتحققان عملياً باعتماد محاور الجهد الرئيسية والثانوية والاحتفاظ بالاحتياط اللازم احتراساً للتطورات غير المرتقبة، ولاستثمار النتائج الجيدة والأرباح المكتسبة. إن عامل الاحتياط هو المبدأ الاقتصادي الأهم الذي يسهم في توفير المباشر ويستدرك ضرورات المستقبل ويحتاط للمفاجآت ويسرع في تحقيق الحسم. لقد دلت التجربة الروسية في الحرب العالمية الثانية أن تكديس الاحتياط الاستراتيجي وجشه ب بصورة دائمة وحشده في الاتجاهات الرئيسية وتطويره باستمرار هي مفاتيح امتلاك المبادرة والنجاح في الحرب خلافاً لما اعتقاد به كلاوزفيتز وأصرّ على المناداة به. إن مبدأ الاقتصاد بالقوى يتلاحم أيضاً مع الشطر الأكبر من مبدأ العامل الهندسي لكلاوزفيتز. فالحواجز والمعوقات الطبيعية من أنهار ومناطق صخرية وعرة إلى الحواجز الاصطناعية من تحصينات وخنادق وحقول ألغام...، إلخ كلها تسهم في الاقتصاد بالقوى لدى المدافع وتجبر المهاجم على البذل والإسراف. إن فعالية هذا الأمر تبرز في التكتيك أكثر منها في الاستراتيجية حتى ليخيّل إلينا أحياناً بأن تعريف الحرب بالقتال حول الحواجز تعريف صحيح إلى حد بعيد. إن أهمية عامل الاقتصاد أخذت تزداد باستمرار مع تقدم التطور العلمي والاختراعات وانسحب تأثيرها على جميع المجالات العسكرية من دفاعية وهجومية وواقية، نظراً لارتفاع الأسعار الخيالية للمعدات والتجهيزات ولرزوخ الدول تحت تأثيرها على الاقتصاد والرفاه. إن الحاجة للاقتصاد هي التي دفعت الجبارين إلى الدخول في مفاوضات الحد من الأسلحة النووية وهي التي تحرك مؤتمرات سالن باستمرار، وهي بالإضافة للخوف من أخطار الأسلحة حافز مهم للسعى الدائم للحد من الأسلحة الاستراتيجية وتوجيه الأموال الموفرة للمجالات الإنمائية والتطور البشري.

هذا هو الاقتصاد في مجال التجهيز والتحسين على الصعيد العالمي، أما في نطاق استخدام القوات فقد أنتجت فكرة الاقتصاد، وفي مجال الحرب التقليدية، نظرية قوات التدخل السريع توفرها للطاقات ولصعوبة نشرها على اتساع الكرة الأرضية. إن تطوير حراكية القوات وسرعة تدخلها وتزويدها بوسائل النقل والاتصال والإذاعة المتقدمة ساعدت في تبني هذه النظرية وتوفير العديد من الطاقات البشرية على الدول العظمى في بحثها الدائب عن السيطرة على المسرح الدولي.

## المناورة والحركة :

إن المناورة هي التحرك لوضع قوة صديقة في موقف أفضل من موقف العدو، وهي ضرورية لتأمين الحشد المتفوق على العدو في النقطة الخامسة وتحقيق المفاجأة والاقتصاد بالقوى. والمناورة في الواقع عامل أساسي في ميزان القدرة القتالية للجيوش، فهي تسهم عملياً ومادياً في استثمار النجاحات المختلفة والحفاظ على حرية العمل وتفادي العورات. إن الغاية من المناورة هي توزيع القوى بشكل يجعل العدو في موقع الدونية، في إطار ميزان الحسناوات والسيئات، ويسهل للمناورة أمر كسب نتائج أقل كلفة إن بالرجال أو بالعتاد. وتحتاج المناورة الناجحة إلى مرونة في التنظيم والتجميع والتشكيل والشؤون الإدارية واللوجستية، كما تحتاج إلى قيادة جيدة وضبط وتنسيق. وأهم من ذلك كله طاقة الاستبatement والخلق والإبداع وعدم العودة إلى القوالب المحفوظة والمستهلكة.

ولا تتعلق المناورة بالقوات فقط بل ترتبط أيضاً بالنار والتجهيزات والإمداد اللوجستي والإخلاء والتعزيز والتعويض. فكما أن المناورة بالقوات أمر حاسم كذلك المناورة بالنيران حاسمة أيضاً، وهي تقوم على تحريك الوسائل وتركيز النيران في الوقت والمكان لتحقيق الضربة الخامسة. إن مناورة النار جزء أساسي من المناورة الكاملة، وهي مع المناورة بالقوات ثنائي دائم الاتصال لا ينفصل. أما المناورة الإدارية واللوجستية فهي تقوم على خدمة المناورتين السابقتين لتحقيق القصد والمدف.

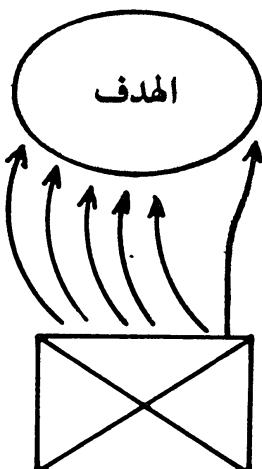
ويدخل في باب المناورة بالقوات عامل الاحتياط الذي تحدثنا عنه سابقاً كونه يفتح أبواب الخيارات أمام القائد ويسلحه بحرية العمل والرد على الموقف الطارئة. كذلك يدخل في هذا الباب العامل الهندسي من ناحية توزيع القوى واستخدامها، كالالتفاف لضرب المؤخرات والاكتناف والعمل على الخطوط الداخلية أو الخرق. هذه الأمور هي الوجه التطبيقي لمبدأ المناورة على صعيد القوات والتي يجري العمل بها في الميدان مع رديفيتها مناورتنا النار واللوجستية. إن المناورة المتكاملة النجاح هي تلك التي تتأمن لها حراكية عالية وقوة نار كبيرة ومركزية وإسناد لوجستي مستمر وملائم. هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أنه كلما تطور العلم وقلت قيمة المسافات وقصرت فسحات الزمن، كلما زادت أهمية العامل الهندسي في المجال الاستراتيجي. كذلك لهذا العامل أهمية كبيرة في المجال النووي ناتجة عن أمرين: الأول كوزموغرافي وجغرافي يرتبط بفن توزيع الأسلحة على سطح الكره الأرضية أو في المجال الفضائي بالنسبة لمعطيات العدو الحالية والمحتملة، والثاني أمر تقني وتكنولوجي يرتبط ببطاقات الأسلحة ومميزاتها.

هذا ورغم أهمية مناورتي النار واللوجستية فهما تبقيان عاملي إسناد في خدمة المناورة

بالقوى التي تسيطر على العمل العسكري وتطبعه بطابعها دائمًا من هجوم إلى دفاع إلى عمل تأثيري إلى غير ذلك من صنوف الخيارات العسكرية. إن هذا الأمر يدفعنا لتعريف صنوف المناورة في المجالين التكتيكي والعملي بشكل مقتضب كونها أوجه الممارسة العملية للحرب لنتتمكن من رسم الصورة الواضحة للمناورة.

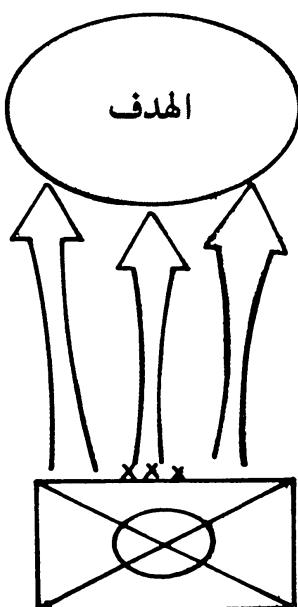
**الهجوم الجبهي.** وهو يعني التقدم إلى العدو مباشرة والاشتباك معه في الناحية التي يوجه إليها دفاعه. يأخذ الهجوم الجبهي ثلاثة أشكال، هي العمل ببرونة، والهجوم على جبهة واسعة، والهجوم على جبهة عادمة.

• **العمل ببرونة.** وهو أسلوب في الهجوم مِن تقوم به الوحدات الصغيرة من مستوى كتيبة وسرية فتنطلق القوات المهاجمة عبر خط التماس بجموعات تتلمس طريقها عبر الثغرات نحو الهدف. إنه أشبه ما يكون بتتسرب المياه خلال المنافذ الضيقة لتعود وتسيطر فيها بعد على المجرى بكمله. هذا الأسلوب في الهجوم مِن يتحاشى النكسات الكبيرة وخسائر التعثر ولكنه لا يؤمن المفاجأة الصاعقة والخشيد في القوى والجهد.

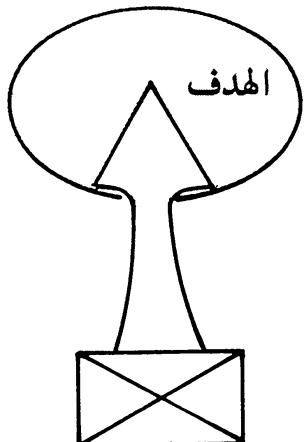


العمل ببرونة

• **الهجوم على جبهة واسعة.** وهو عمل تقوم به الوحدات الصغيرة بمستوى الكتيبة أو السرية، بحيث تكون محمل القوات منتشرة في الخط الأمامي مع احتياط قليل في الخط الخلفي، كما تقوم به القوات الكبيرة من مستوى الفيلق والجيش. من حسنات هذا الأسلوب تشتيت جبهة العدو ومنعه من التركيز وتضليله عن اتجاه الهجوم الرئيس. أما سيئاته فهي تبدد القوات وعدم التركيز بقوة على المفاصل وقلة الاحتياط.



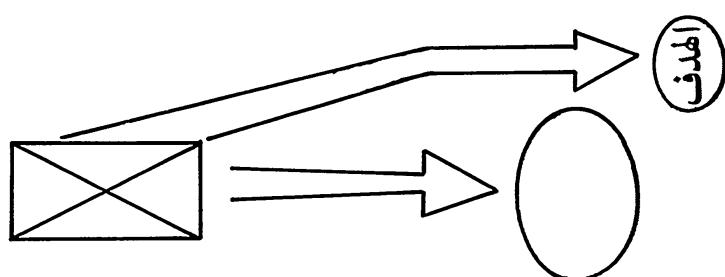
الهجوم على جبهة واسعة



• **المجوم على جبهة عادية.** وهو ذلك الهجوم المتوازن الذي تقوم به القوات على جبهة تناسب حجمها بحيث يأقى عرض جبهة التقدم مساوياً لعمقه. هذا النوع من الهجوم كلاسيكي ثابت الأقدام يوازن بين الاحتياط والقوات الأمامية، يمنع المفاجآت ويسهل العمليات اللاحقة، ولكن يشكو من البطء أحياناً.

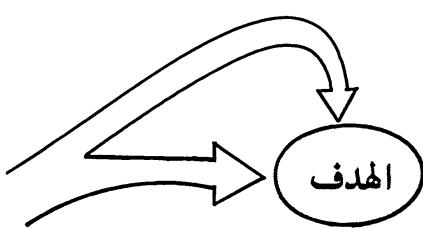
### المجوم على جبهة عادية

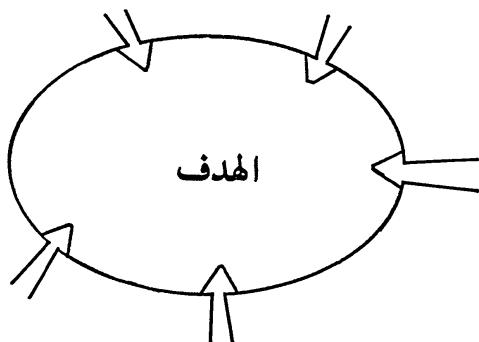
**الاكتناf.** ويقصد به تجاوز القوى المعادية المتمركزة أمامنا لضرب هدف أعمق أو لمتابعة السير، وذلك بتشتيتها بقوى قليلة بغية منعها من التأثير على مناورتنا. تقوم بهذا النوع من المناورة القوات من مستوى فرقة أو أكثر.



**الالتفاف.** ويقصد بذلك تجنب الهجوم الجبهي على الهدف والانحراف لضرب الأجنحة والمؤخرة. قد يكون الالتفاف منفرداً أو مزدوجاً حسب وضع العدو وطاقة القوة المناورة. إن الالتفاف المزدوج صعب التحقيق ويطلب تنسيناً كبيراً ولكن نتائجه حاسمة. الوحدات الصغيرة لا يمكنها القيام بعملية الالتفاف المزدوج نظراً للحاجة إلى عدد كبير من القوات. إن ميزة الالتفاف هي إجبار العدو على القتال بجبهة مقلوبة مع ما يرافق ذلك من إرباك وقطع خطوط المواصلات وتحقيق المفاجأة.

إن تطور الأسلحة والمعدات جعل بالإمكان تحقيق الالتفاف والاكتناf بواسطة القوات المحمولة جواً وحتى إهمال العدو الذي تم اكتناfه للتعامل مع الهدف بعيد.





التطويق. وهو عمل متتطور للالتفاف المزدوج يتطلب وجود قوات متفوقة جداً، يدمر العدو ولكنه يحتاج إلى تنسيق جيد واتصالات ذات كفاءة عالية.

القتال على الخطوط الداخلية. هذا الأسلوب من المناورة هو النقيض للأساليب السابقة التي تعتبر قتالاً على الخطوط الخارجية. إن ميزة هذا الأسلوب تكمن في قصر خطوط مواصلاتنا بالنسبة لخطوط العدو، وهو حال الجيش الذي يقاتل على أكثر من جبهة إما لكثره أعدائه أو لتوزعهم الجغرافي حوله. يستفيد القائم بهذه المناورة من قصر المواصلات بين جبهاته لنقل قواه من جهة إلى أخرى. بينما يضطر أخصامه للتنقل على الخطوط الخارجية لمسافات طويلة. إن القتال الذي تخوضه إسرائيل ضدّ العرب يتصف بهذا الأسلوب من المناورة وقد استفادت منه في جميع حروبها إلى الحد الأقصى.

لقد حارب محمد شاه بأسلوب العمل على الخطوط الداخلية، كذلك رأى نابليون نفسه بأنه يعمل دائماً على الخطوط الداخلية، أما جوميني فقد قال بأن الجيش الذي يملك خطوط مواصلات أقصر من خطوط خصمه يتمكن من التعامل معهم بشكل متعاقب وهزيمتهم واحداً بعد الآخر.

إن العمل على الخطوط الداخلية يتطلب أربعة شروط هي :

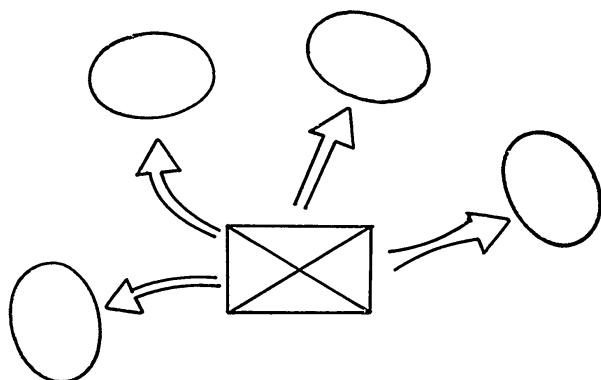
– عزل قوات العدو عن بعضها البعض.

– توفر الوقت والمسافة الملائمين للمناورة بحيث تتمكن القوات التي تعتمد تلك المناورة من نقل تحشيداتها من جبهة إلى أخرى قبل أن يتمكن العدو من تعزيز جبهاته المهددة.

– توفر القوات اللازمة للعمل. أي ما يوازي ٤٠٪ من قوة العدو في كل جبهة لتشتيتها و ١٢٠٪ من قوة العدو للتعامل مع الجبهة المنوي ضربها. هذا ومن الممكن دائماً استخدام القوى بالتتابع في أكثر من جبهة. إن حسنات العمل على الخطوط الداخلية تكمن في سهولة نقل القوات من جبهة إلى أخرى وفي سهولة السيطرة على الاتصالات والتنسيق بين الوحدات وفي إمكانية التوفير في القوى. أما أهم سيئه لهذا الأسلوب فهي الخوف من الإحاطة والتطويق الاستراتيجي والتكتيكي.

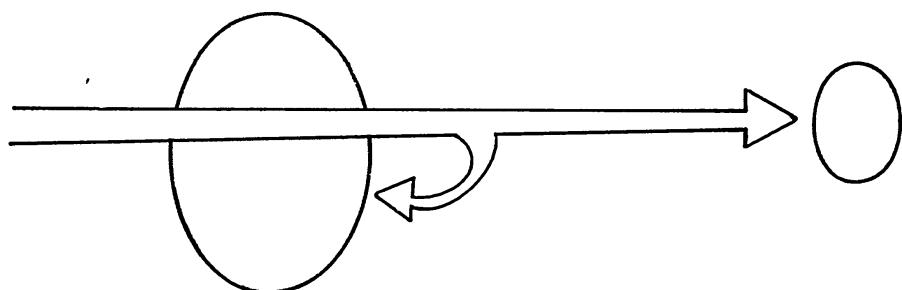
هذا لجهة العمل على الخطوط الداخلية، أما الحالات المناسبة للعمل على الخطوط الخارجية فهي التالية:

- وجود العدو في جيب داخل القوات الصديقة بسبب شكل المحدود الجغرافية أو بسبب خرق لم يتمكن من إتمام نجاحه.
- وجود أراضٍ جبلية وعرة محدودة المسالك التي تنتهي بأراضٍ مكشوفة.
- مسرح العمليات لا يسمح بتجميع القوات الكبيرة وتحشدها في مكان واحد.
- وجود أكثر من حليف على امتداد جبهة القتال وأكثر ما يحدث ذلك بين الدول المتحالفه.



أما حسنهات العمل على الخطوط الخارجية فهي سهولة افتتاح القوات الكبيرة، والإسناد الإداري، وإمكانية قطع خطوط موصلات العدو، وتطوير عمليات التطويق الاستراتيجي والتعبيوي بسرعة. أما السيئات فهي صعوبة التنسيق والارتباط وضبط القوات وخطورة المزية بالتدرّيج. كذلك فالامر يحتاج لقوات متفوقة جداً ولتنسيق شديد ودقيق بين الوحدات المهاجمة.

الخرق. وهو فتح ثغرة بالقوة في جهاز العدو الداعي والإطلاق بالعمق مع إمكانية الالتفاف على المؤخرات والجوانب المستحدثة الجديدة. تقوم بهذا النوع من المناورات الفرق المدرعة عادة وهو يعطي نتائج حاسمة. عند القيام بالخرق يجب تركيز النار والقوات على جبهة ضيقه لفصيمها والتغلغل عبرها بسرعة واندفاع. هذا الأمر يتطلب قوة نار هائلة وحرائية عالية ودرجة رفيعة من المبادرة.



## وحدة القيادة:

يتضمن هذا المبدأ عدة عناصر هي وحدة القيادة ووحدة الخطة ووحدة التنفيذ، ويسميه الانكليز مبدأ التعاون والتنسيق. إن أهم ما في هذا المبدأ هو النظر إلى الحرب بصورة موضوعية متكاملة وتقييم مترابط وقرارات موحدة غير متناقضة. إن الطريق لتحقيق هذه الشروط هي توحيد الخطة والتنسيق بين مختلف أجزائها والتعاون بين مختلف صنوف الأسلحة والشؤون الإدارية واللوجستية. فالنجاح في المعركة الحديثة لا يتحقق إلا بالتعاون بين الصنوف كافة وبين مختلف القوى من برية وجوية وبحرية. هذا فضلاً عن التعاون بين القوات المسلحة والسلطات المدنية في مسرح العمليات. إن النجاح في المعركة الحديثة يحتاج إلى تنظيم جيد لتأمين استخدام الموارد بصورة فعالة وإدارة المعركة بروح الفريق. إن التعاون يخلق الثقة المتبادلة بين الوحدات المسلحة والأفراد، لذلك وجب تفادي تحطيم المجموعات المسلحة والتشكيلات أثناء التجميع للواجب.

إن النقطة الهامة في الموضوع هي أن وحدة القيادة تؤمن وحدة الخطة ووحدة التنفيذ وتماسك التقييم ووحدة القرار. إن هذا يتبع وحدة الجهد بالعمل المنسق لتحقيق هدف واحد. والاستخدام الحاسم لكامل القوى القتالية يتطلب وحدة في القيادة للحصول على المردود الأقصى. فوحدة القيادة تؤدي إلى توحيد الجهود بتنسيق العمليات العسكرية للقوات كافة، فتصب مصطلتها في رصيد المهد夫 العام. هذا لا يعني أن التنسيق لا يمكن تحقيقه بالتعاون بين القوات، بيد أن وحدة القيادة التي تتمتع بالصلاحيات الملائمة تبقى أفضل مجال للتنسيق والانسجام.

عودة إلى التاريخ نلاحظ أن وحدة القيادة كانت من أهم العوامل التي تسهم في صنع النصر، أما تعدد القيادات والجيوش فمن عوامل الهزيمة والتراجع، وخير دليل على ذلك هو النجاح في عصر لواء القيادة الموحدة لإيزنهاور في نزول النورماندي، وفشل تعدد القيادات والجيوش العربية في حروبها ضد إسرائيل.

هذا و يجب التشديد على أن مبدأ وحدة القيادة يزداد أهمية كلما سرنا في معراج التطور التكنولوجي أو أوغلنا في رحاب الاستراتيجية. كذلك علينا أن لا نخطئ ونغمط هذا المبدأ حقه في المجال التكتيكي، فهو قائم وفاعل أبداً، ولكن فداحة الارتكاب وهدر القوى والتوجه إلى أهداف متباعدة في الاستراتيجية تفوق أضرارها نظيراتها في المجال التكتيكي أضعاف أضعاف لأن مصيرية النتائج تفرض ذلك.

إن وحدة القيادة ضرورية للمحافظة على القصد وتأمين الحشد والاقتصاد بالقوى، وهي مبدأ حاسم في العصر النووي الذي يحتاج إلى براعة في استخدام الأسلحة ودقة في

التخطيط على المستويين الاستراتيجي والتكتيكي لتنفيذ الضربات النووية الخامسة.

### الحيطة والأمان:

يهدف هذا المبدأ على مستوى الاستراتيجية العليا إلى حماية الوطن، أما على صعيد استراتيجية الميدان فيهدف إلى تأمين درجة معينة من الأمان لضمان العمل وشن التعرض وهو الوجه الآخر للمفاجأة، لأنه يرمي إلى تفادي تمكين العدو من مفاجئتنا، وهو يعتمد على السرية والتمويل والتبدد والخذل والحركة، وإقامة نظم إنذار فعالة.

إن تطبيق مبدأ الأمان يتم عادة على مرحلتين، المرحلة الأولى وهي مرحلة التخطيط وفيها يفترض أن يكون الأمن صارماً والسرية مطلقة. أما في مرحلة التنفيذ فيجب أن لا تسيطر الريبة والخوف على المنفذين وإلا فقدوا بعملهم السلبي حرية العمل وروح المبادرة. إن السلبية قاتلة إن في الدفاع أو في الهجوم، والمخاطرة الجريئة المحسوبة هي طريق النصر ومفتاح الفن العسكري. إن روح الحيطة والأمان هو حذف عامل الصدفة من مجريات المعركة أو تزويده إلى الحد الأدنى وذلك بتقدير الموقف بدقة وأخذ الاحتياطات الازمة لكل الاحتمالات.

إن هذا المبدأ أساسي للحفاظ على القوة القتالية، ويتحقق في الحروب الحديثة بالاحتفاظ بالقوات متوازنة بحيث تتمكن كافة الأسلحة من الاشتراك في المعركة بصورة فعالة. إن القوة المتوازنة التي تحكم في مسار العمليات تصعب مbagتها ويتأمن جانبها إلى حد كبير رغم صعوبة الحصول على الأمن في العصر الحاضر بسبب التطور التكنولوجي والتقني الكبارين. إن الأمن العسكري هو أمن التوازن وتحقيق حرية العمل للقيام بالضربة الثانية أكان ذلك في مجال الحرب التقليدية أم في مجال الحرب النووية. والتوازن وحرية العمل يتحققان باتخاذ التدابير التي تمنع المفاجأة وتتشل استعلام العدو أو تحد من فعاليته وتحمي القوى الصديقة. كذلك فالتوازن يتحقق بتوفير الاحتياط الجاهز لمواجهة التقلبات المتوقعة وغير المتوقعة.

إن الحيطة لا تعني الابتعاد عن الأخطار بشكل مطلق كما قلنا، لأن الحرب توأم للخطر بل هي تركز على الخذر وتفادي اقتحام المخاطرات غير المدرosa التي لا مردود لها. هذا وقد يتحقق الأمان أحياناً عن طريق الأعمال الشجاعية التي تكسب المبادرات وتحافظ عليها مانعة العدو من التقاط أنفاسه أو استغلال أية فرصة للتدخل.

ويعمل هذا المبدأ بطرق متعددة ومتباينة، ففي الحروب التقليدية يرتكز على تأمين الاحتياط واستمرار الاستطلاع الجوي والأرضي والالكتروني مع توزيع مرافق الخدمات

والشؤون الإدارية وحمايتها بالطرق السلبية والإيجابية، كما وتأمين خطوط المواصلات والإمداد ووسائل الاتصال. أما في الحرب النووية فتتأمن الحيطة بالتوزيع السليم للقوات والمرافق وبوسائل الإنذار المبكر وبالقدرة على القيام بتنفيذ الضربة الثانية في مختلف الظروف والأحوال. وفي حرب الغوار تتحقق الحيطة بالحركة الزئبقيّة الدائمة والاستعلام الدقيق، بينما يتوفّر الأمان في الحرب الثورية بالاستعلام والحركة والتركيز.

لم يعد تحقيق الأمان في الوقت الحاضر ممكناً في الثبات بل أصبحت سماته العامة الحركة والتغيير المستمر. ولو نظرنا إلى الموضوع من ناحية الممارسة العملية نجد أن تطبيق مبدأ الحيطة والأمان يتحقق دائمًا من خلال الأمور الآتية:

● توزيع القوى بشكل يمنعها من أن تشكل هدف ضربة واحدة، ويسمح لها بتعطية بجانب ومؤخرات وخطوط مواصلات بعضها، وإفساح المجال لأجزائها بعدم المفاجأة وبالتالي التدخل لمصلحة القسم المستrik. في هذا السياق يدخل المبدأ الهندسي لـكلاوزفيتز، كذلك يجب أن لا ننسى أن العرب كانوا من أوائل الشعوب التي قدرت مبدأ الحيطة والأمان حق قدره حتى قبل نشر الدين الإسلامي ومن ثم في عهد الرسول (صلعم) وبعده. كانت حيطة العرب وأمنهم تعتمدان خمسة أركان هي:

● **الحيطة الفردية.** وقوامها استخدام الفرد لأكثر من سلاح في آن واحد لتلبية ظروف المعركة، من السيف إلى الرمح فالقوس، ثم التحصن بوسائل الحماية كالبيضة (الخوذة) والترس والدرع. اهتم العرب كثيراً بالدروع كوسائل حماية واستعملوا منها أصنافاً متعددة منها السابقة والبتراء والغلالة والذائلة والمفردة والمضاعفة. هذا التنوع يرمز إلى الأهمية التي أعطيت لوسائل الحماية والتدريء، كما يرمز استخدام أكثر من سلاح في آن واحد إلى المرونة في التفكير والعمل.

● **الحيطة والمفاجأة.** وهي باعتماد الغزو أسلوباً مفضلاً للقتال، حيث تنتهي المعركة قبل أن يتمكن العدو من السيطرة على رؤوسه وتجمّع قواه التي ستُستَّتها المفاجأة. بالإضافة إلى الغزو اعتمد أسلوب الكمائن الغادرة، ونادرًا ما كانت المعارك في البداية تأخذ حيّزاً زمنياً ذا قيمة، حتى أن الحروب الطويلة كحرب البيسوس أو داحس والغراء لم تكن إلا مسلسلاً للغزوات والكمائن والوقعات القصيرة، فغلبت كلمة اليوم على اسم المعركة فقيل: يوم صفين أو يوم ذي قار... ، إلخ.

● **الحيطة بالتحصينات.** وهي اللجوء إلى الخنادق والخصون والأسوار واستعمال الحسك الشائك. لقد اشتهرت عن العرب حصون كثيرة صارت مضرب الأمثال وكانت عبارة عن قصور للوجاهاء والناذدين ورؤساء القبائل كالخورنق والسدير وحسن تيماء... ، إلخ.

● الحيطة بضبط مداخل البلاد. وذلك من خلال استخدام المسالح وتحصين الشعور وتعزيزها بالقوات الدائمة.

الحيطة في الترتيب القتالي. نظراً للأهمية التي أولاها العرب لهذا الأمر فقد أطلقوا على الجيش اسم الخميس، لأن ضرورة الحيطة والأمن تفرض توزيع القوات إلى خمس مجموعات هي : الطليعة، أي مقدمة الجيش، والقلب أو الكبد والعظيم، وهو مركز الثقل فيه، والميسرة والميسنة والساقة أي المؤخرة. هذا ومن الملاحظ أن الطليعة والمجنبَيْن (ميسرة وميسنة) والساقة هي أجهزة حيطة وأمان للقلب.

● وجود نظام استعلامي جيد يبقي العدو تحت المراقبة، ويفيد عن تحركاته ونواياه وقدراته.

● الاستفادة من المحيط (أرض ومنشآت ومزروعات ومناخ...، إلخ) في التمركز والتمويه، وهذا عامل هندسي أعاره كلاوزفيتز اهتماماً كبيراً.

### المفاجأة:

إن المفاجأة روح كل عمل عسكري، وهي الوجه الآخر للحيطة والأمان أو القطب المعاكس له. وهي ذات تأثير كبير على المعنيات تضعضع تماسك العدو وتوازنه وتشيع الاضطراب في صفوفه وتربك عمله وتشل طاقاته العقلية. إن أهمية مبدأ المفاجأة تكمن في القدرة على قلب الموازين في المعركة بشكل حاسم بحيث تأتي ضيغمة النجاحات خارج تناسب قدرات القوى. تنتج المفاجأة عادة حصيلة ضرب العدو في مكان وزمان وطريقة غير متوقعة جيئها. هذا والمفاجأة الناجحة ليست مفاجأة العدو بعمل فريد غير متوقع أو باستعمال عتاد جديد فقط، ولكنها تكمن في حِرُّ العدو للمحاربة في ظروف غير ملائمة له تفقده توازنه. وليس من الضرورة لتحقيق المفاجأة أخذ العدو على حين غرة، ولكن المهم أن لا يتمكن من رد الفعل بفاعلية إلا بعد وقت طويل بحيث لا يعود لهذا الرد أهمية.

إن ما يسهم في تحقيق المفاجأة هو السرعة في العمل واللجوء إلى الخدعة والاستطلاع الفعال بشقيه العادي والمضاد والالتصاق أكثر فأكثر بمبدأ الأمان حيث تصبح سرية القصد والتنفيذ قمة الخدعة. لقد رأى مولتكـيه أن أمام العدو دائمًا ثلاثة طرق ولكن يأخذ عادة الطريق الرابع. إن اختيار الطريق الرابع هو روح المفاجأة ومفتاحها.

هذا وهناك أنواع متعددة لتحقيق المفاجأة، فقد تكون في اختيار الزمان أو تكون في تحديد المكان أو باستخدام سلاح جديد يعطي نتائج مؤثرة، أو بأسلوب العمل أو بالسرعة في

الحركة والتركيز والمبادرة، أو تنتج عن العمل في الحقل النفسي، كما تتحقق بالأعمال غير المتوقعة. إن المفاجأة قابلة التطبيق على جميع المستويات ابتداءً من الرعائط الدنيا وصولاً إلى المراتب الاستراتيجية، وتزداد أهميتها كلما اتجهنا صعوداً إلى حقل الاستراتيجية.

إن تطبيق المفاجأة على الصعيد الاستراتيجي يجري في مجالات التنظيم وأسلوب تعبئة الجيش والتحرك الحاسم وسرعة نقل القوات وحشدها وتوفير الأسلحة الحديثة وابتكار المعدات الخامسة. أما على المستوى التكتيكي فتدخل أساليب اختيار الأهداف وطرق ضربها واللجوء إلى تكتيكات جديدة في الاشتباك واستخدام الاحتياط وفي الخدعة والمخاللة.

إن الخدعة مفتاح المفاجأة وهي التي تمكّن الضعيف من السيطرة على القوي، أما أهم العوامل التي تسهم في تحقيقها، فهي :

- السرعة في التنفيذ.
- السرية في العمل.
- استخدام قوة قتالية غير متوقعة.
- الاستناد إلى جهاز فعال في الاستعلام ومكافحة الاستعلام.
- حيازة نظام اتصالات ممتاز قادر على تحقيق الأمن الإلكتروني.
- التغيير الدائم واستنباط الأساليب الجديدة في التكتيك وإدارة العمليات.
- استعمال أساليب التضليل.

هذا وفترض الخدعة أمرین هما: ضرورة الاستعلام عن مخططات العدو وعدم معرفته لحقيقة اطلاعنا على نواياه، ثم كون نوايانا المستترة تتناقض مع الموقف المباشر وهذا يعمد إلى استدراجه الخصم لارتكاب خطأ تقديری يؤدي إلى خطأ في التصرف بعد الواقع في شباك الحيلة والتضليل.

والخدعة عمل يتناسب مع ميل القوى الضعيفة ووضعها، لذا فهي تحتاج إلى الإقدام والحقيقة والتركيز على موقع واحد بغية الانطلاق في قلب موازين القوى فيه. هذا ويحفل التاريخ بشواهد كثيرة على الخدعة والتضليل، من حصان طروادة حتى يومنا هذا مروراً بأعمال مونتغومري في حرب الصحراء التي اعتمدت الإخفاء والتظاهر أساساً لها. كذلك فهذا المبدأ كثير الاستعمال في حروب التحرير، حروب الضعفاء ضد الأقوياء كما جرى في فيتنام والجزائر كون هذا الأسلوب يلائم الضعف ويقترب إلى العمل الذهني العقلي بقدر ما يبتعد عن القوة أحياناً.

قلنا إن التاريخ حافل بالمفاجآت العسكرية، وهناك سلسلة من هذه الأعمال توضح القصد وتفتح أمامنا آفاق التأمل والابتكار:

- مسيرة خالد بن الوليد من العراق إلى الشام في طريق غير متوقعة وبشكل سري سريع ورائع أسهمت إلى حد كبير في حسم معركة اليرموك لمصلحة الجيوش الإسلامية.
- استخدام أميركا للقنبلة الذرية في الحرب العالمية الثانية في اليابان الأمر الذي دفع اليابان إلى الاستسلام دون قيد أو شرط من هول المفاجأة وضخامة الخسائر.
- المفاجأة التي حققها الإسرائيليون والأميركيون في حرب ١٩٦٧ على الجبهة المصرية في طريقة استخدام الطيران، الأمر الذي دفع الرئيس جمال عبد الناصر لإطلاق تصريحه المشهور: انتظراهم من الشرق فجاؤونا من الغرب.
- المفاجأة الاستراتيجية التي حققها المصريون والصوريون في حرب رمضان عام ١٩٧٣ بهجومهم المفاجئ في وضح النهار على إسرائيل ونجاحهم في إخفاء نواياهم عن الولايات المتحدة الأمريكية وباقى العرب.
- المفاجأة التي حققها الروس في الحرب العالمية الثانية على الصعيد السياسي حين أبرموا اتفاقاً مع ألمانيا بينما كان أحد وفودهم في باريس يفاوض فرنسا للتحالف ضد ألمانيا.

### البساطة:

وتعني البساطة الوضوح وعدم التعقيد في التخطيط والتنفيذ والتدريب والتنظيم والتعبئة والإدارة والحركة. إن الخطط البسيطة هي ضرورة أساسية للتنفيذ الكفوء الفعال، كما أن الأسلحة البسيطة مطلب أساسى في الجيوش لأنها تسهم في الأداء الرفيع وتساعد العسكري على تحمل الصعاب، كما تكسبه الثقة بسلاحه عن طريق التالق معه واستيعاب أسراره. هذا وتزداد أهمية هذا المبدأ يوماً بعد يوم كلما زاد التطور العلمي وكثرت التعقيدات التكنولوجية، إن هذا التعقيد تلزم بساطة تنفيذية وإلا واجهنا تعقيداً فوق تعقيد ووقفنا في شبكة من التداخلات المربيكة. إن البساطة أهم صفة من صفات الخطط العملاقة والإدارية، فسهولتها تحقق العمليات الناجحة، لأن الخطط السهل المباشر الواضح، والأمر الدقيق المحدد يبعدان المنفذ عن سوء الفهم والارتباك. ولذا على القائد أثناء صنع القرار أن يختار الخطة السهلة في حال تساوي العوامل المؤثرة والحسنات والسيئات.

إن أكثر من ركز على البساطة هو الجنرال مونتغومري الذي كثيراً ما كان يقود قواته بالأوامر الشفهية متجنباً روتين الكتابة وتعقيداته، وهو بالذات يعزى انتصاراته وأمعيّته العسكرية في أحد أسبابها إلى اعتماده البساطة وعدم التعقيد في الأوامر، كما يعتبر البساطة أحد أهم صفات القيادة.

## الروح المعنوية :

إن المعنويات العالية هي الرقم الصعب في كل معادلة عسكرية ولا يمكن إغفالها إطلاقاً. كل شيء سهل التقدير بمقاييس الكم المادية والكيف التقنية إلا الروح المعنوية، هي قيمة لا يمكن وضعها في الميزان المادي الدقيق لتحديد مدى فاعليتها وتأثيرها، وهي تخرج عن إطار كل مقياس محصور محدد لتقلب الموازين والمقاييس. إن معنويات الجيوش مخلصة تفاعلات معقدة للقيم والأخلاق والنظم الاجتماعية والعقائد والأيديولوجيات وللتراث القومي والاجتماعي وللأهداف السامية، كذلك فهي تعتمد على القيادات والكفاءات في التدريب والسلاح والجسد. إن شعور الجندي هو جزء من شعور الجيش وبالتالي جزء من شعور الشعب ككل. إن تلامس هذا الشعور مع عدالة القصد وصدق الشعارات يرفع معنويات المقاتل ويزيده شراسة وصلابة وإصراراً. إن هذه الإرادة هي سلاح الضعفاء الأمضى وهي التي انتصرت عبر التاريخ في جميع الحروب وأصبحت الهدف الحقيقي لكل قائد، فهو بالسيطرة على إرادة خصمه يكسب الحرب، وما الحرب إلا صراع إرادات.

إن المعنويات العالية هي ثقة بالأهداف والقادة والقدرات، وكلما كانت الثقة متينة كانت المعنويات عالية، وكلما كانت الثقة متزعزة تدنت المعنويات. إن المعنويات في جيشين متصارعين تأخذان اتجاهين معاكسين تماماً، فارتفاع المعنويات في الجيش الأول يواكبه دائماً انخفاض في معنويات الجيش الثاني، والعكس بالعكس. هذه معادلة صائبة غالباً إلا في حالات الإنهاء لدى الطرفين عندما يقتربان من البحث عن السلام. وعلى أية حال تبقى هذه المعادلة صحيحة تماماً داخل المعركة المحصورة في نطاق المكان والزمان والحدث، وكل نصر يواكب ارتفاع في المعنويات وكل هزيمة تلاحقها المعنويات المتدنية.

تبقي نقطة مهمة يجب الانتباه إليها، وهي أن التربية والقيم تساعدان العسكري على اكتساب المانعة ضد تحولات المعركة الطارئة وتعطيه نوعاً من الصمود والثبات الأمر الذي يسهم فيبقاء المعنويات عالية حتى في الظروف الحالية، وهذا ما يوفر للقادة الفرصة على التفكير والتحضير لصنع القرار الملائم بعيداً عن ضغط الأحداث.

هذا وفي الأخير يجب التأكد بأن المعنويات للجيوش هي أفضل من السلاح لأنها تعبر عن الإرادة التي تدير السلاح ولا قيمة للسلاح بلا إرادة تحميته.

## المرونة وحرية العمل :

إن المرونة في العمل العسكري تعني نوعين هما التكيف والقدرة على التنوع الدائم في الأساليب والممارسة لتأمين الحشد المناسب والحفاظ على القصد. هذا الأمر لا يعني تفادي

المهمات الصعبة واللجمة إلى التدابير السهلة، بل يقصد به توفير عدة طرق لتحقيق الهدف رغم الظروف المتغيرة أكانت متوقعة أو غير متوقعة. إن المرونة تتطلب من القائد بعد النظر لاستباق الأمور والسرعة في القرار ومواكبة التطورات والجرأة في التغيير وأخذ القرارات الصعبة غير المستحبة، وهذا لا يتسم إلا للقائد الحكيم بعيد عن الانفعال والتعقيد السريع التفكير والتنفيذ والذي يملك حسّ القيادة.

هذا وتعبير المرونة ليس بعيداً عن المحافظة على حرية العمل الذي يعني امتلاك الخيار والقرار بالتصريف في أي وقت. إن تحقيق هذه الميزة لا يتم إلا ببقاء القائد قادرًا على اختيار أكثر من قرار للوصول إلى هدفه وتحقيق قصده. إن توفير هيأة الركن للبدائل بصورة مستمرة هو روح هذا المبدأ الذي يتطلب تفادي الوقوع في أخطار الجمود والحقيقة المميتة تحت ضربات العدو ومبادراته. إن هذا المبدأ يعتبر التوأم الثالث للحيطة والمفاجأة لأنه لا يتأمن إلا بوجود جهاز حيطة ملائم يمنع المفاجأة والواقع في أسرا استدرجات العدو. هذا وتزداد أهمية هذا المبدأ في جو الحرب النووية حيث تصعب الخيارات وتكثر الخسائر.

### **المبادرة:**

وهي تعني امتلاك زمام الأمور والحفاظ على خيار البدء بحيث تأتي الإجراءات أفعالاً بينما تصب جميع إجراءات الخصم في خانة ردات الفعل. إن المبادرة بمفهومها هذا تعتبر نوعاً من حسن التصرف ضمن المعطيات المتوفرة في الوقت والمكان الملائمين. إن القائد الذي يت تلك المبادرة هو الذي يسيطر على تفكير خصميه ويوجهه ضمن أفقية محددة بينما يوفر لنفسه حرية التحرك والتصريف والاختيار. والمبادرة غالباً ما تتجلى في العمليات الهجومية حيث يضطر الخصم للجوء إلى السعي الحثيث للرد على مناورة مهاجمه تاركاً مخطوطاته جانبًا. لكن هذا لا يعني أن المبادرة في الدفاع أو الانسحاب ليست موجودة. إن خيارات الهجوم المعاكس مثلًا هي خيارات مبادرة، كما أن سلامه قرار الانسحاب أمام عدو قادر وتلقي التورط معه في معركة خاسرة هو عمل مبادرة، كذلك فقرار الدفاع لكسب الوقت قرار مبادرة. كل هذا يعني أن المبادرة هي التمكن من الاختيار الحر للمناورة تمهدًا لتحقيق الغاية المرجوة وإبقاء الخصم واقعًا تحت قيود خياراتنا.

### **الإِدَارَة:**

إن مبدأ الإِدَارَة يعني وضع الرجل المناسب في المكان المناسب في الوقت الملائم ووضع العتاد الملائم في اليد المناسبة في الوقت الملائم. هذا هو مفهوم الإِدَارَة بوجه عام، وهو يتوجه

إلى شقين: شق بشرى وشق مادى. لقد أخذ مبدأ الإدارة يزداد أهمية مع الزمن وتلازم مع فن قيادة المرؤوسين. نشأت الأهمية بسبب التعقيدات الكثيرة في مجال ضخامة العديد والعتاد وصعوبة التعقيدات التكنولوجية والتقنية فأصبح أمر إدارتها فناً قائماً بذاته، وأخذت الجيوش تنشيء الأولوية والفرق الإدارية واللوجستية لحل معضلات الإدارة.

إن الإدارة بمفهومها العام يمكن أن تعرف بفن القيام بالعمل بواسطة الآخرين وهي تقوم على:

- تنظيم المصادر البشرية والمادية.
- إنشاء جهاز إداري ديناميكي وفاعل.
- تحديد نتائج وأهداف مرجوة.
- القيام بالعمل بصورة ملائمة.
- تأمين رضى الجهاز الإداري عن منجزاته.

هذا والحلقة الإدارية تقوم دائماً على ثلاثة أركان هي: التخطيط والتنظيم والرقابة. وقد نشأت عدة مدارس إدارية على مر العصور، منها الحركة الإدارية العلمية بزعامة فردرريك تايلور وهنري فايلول، وحركة الإدارة العامة بقيادة ليونارد هوايت وماكس فيبر، ومدرسة العلاقات الإنسانية والمدارس السلوكية. كل هذه المدارس درست علاقة الإنسان بالأخر وعلاقة الإنسان بالعتاد. إن ما يهمنا الآن ليس التطرق لدراسة الاتجاهات الإدارية والنظريات، ولكن جل ما نبغيه من العرض لهذه المدارس هو للتدليل على تشابك التيارات وتعقيد المفاهيم الإدارية، وعلى ضرورة دخول التكنولوجيا العلمية إلى جميع حقول الإدارة في الجيوش.

قد يكون الجيش حالة إدارية خاصة لأنه يتعامل مع الوقت بدقة، وكل خطأ لا يرحم وقد يؤدي إلى الفشل القاتل. إن الترتيبات الإدارية المناسبة تعطي القائد حرية العمل لتنفيذ خطته، وإذا كانت المنظمات الإدارية عالية الكفاءة وقدرة على تلبية حاجات الميدان يسهل على القائد السيطرة على قواته وقراره. إن الخطة الإدارية الجيدة هي التي تلبي حاجات الخطة التعبوية وتؤمن لها سبل النجاح.

بعد هذا العرض البسيط يجيء علينا تعداد الحقول الإدارية الخاصة بالقوات المسلحة والتي تعتبر ذات خصوصية مميزة عن باقي الحقول الإدارية العامة، وهي التعيين والترفيع والتدريب والتعزيز والإخلاء والإمداد وإنقاذ التعويض والتمويل. كل هذه البنود ذات أوضاع خاصة وتستلزم دراسات مستفيضة لفهمها وهي ليست في صلب هذا الموضوع.

## الإبادة:

ويقصد بها القضاء على الخصم قضاءً مبرماً واجتثاث المعضلة من أساسها. إن هذا المبدأ قريب من فكر كلاوزفيتز الذي يقول بأن هدف الحرب يجب أن يبقى القضاء على قوات العدو. كان اعتماده في الماضي أمراً منطقياً عندما كانت الحرب معركة واحدة والدولة وجيش واحد يقوده الملك أو الأمير. كانت الإبادة عندها تعني الكثير، تعني القضاء على الملك والدولة والنظام وكل شيء. أما في الوقت الحاضر فقد أصبح هذا المبدأ صعب التطبيق، ولا يمكن القضاء على مقومات الخصم القومية والبشرية في ظل النظام الدولي الحالي، وفي كنف توازنات القوى بين الجارين، خاصة في ظل توازن الربع النووي. إن الظروف الحاضرة تجعل من الصعب حل المشاكل بالجسم العسكري النهائي وتدفع الجميع إلى طاولة المفاوضات للخروج بحلول تسووية. يبقى هذا المبدأ جائز التطبيق في الدول ذات الأراضي الواسعة كالاتحاد السوفيتي والصين، وذلك باستدرج العدو إلى الم tahات المتشعبة والاستعانة بالمساحة على إبادته. لقد استخدم الاتحاد السوفيتي سهول الجليد الواسعة والثلوج والبرد القارس لتحطيم جيوش نابليون ونجح في ذلك، كما أن حروبه الناجحة كانت تبدأ دائمةً باستدرج العدو إلى مَفَاوِزِه الداخلية.

على أية حال لقد اختارت دول عديدة في الكتلة الشرقية هذا المبدأ كالاتحاد السوفيتي والصين، وتبقى أهليته للتطبيق صالحة في حسم القضايا الصغيرة.

## موضوعية تقدير الحلقة الخامسة:

إن هذا المبدأ من أهم ما يتوجب على القائد أن يتمتع به. فسلامة التقدير والتقييم ضرورية لكل عسكري وخاصة للقائد وهيأة ركته. إن القائد الذي يلتزم العقلانية في التفكير وينحطط بمسؤولية وأمانة موضوعية ويحلل بمنهجية للوصول إلى القرارات الملائمة المدرosaة، ولا يقع في شراك العاطفة والأفكار المنسقة، هو القائد الذي يربح المعارك عادة وهو الذي لا يقع في أخطاء مميتة.

إن موضوعية التقدير وسلامته أكثر ما يحتاجها القائد لتحديد الحلقة الخامسة في المعركة، إذ أنه من غير الممكن تحقيق التفوق في جميع الجبهات والجسم في جميع الأماكن معاً. إن الحرب لعبة أحجية لها مفتاح سحري هو الحلقة الخامسة. وأما القائد الماهر فهو الذي يكتشف تلك الحلقة ويوجه جهده إليها. إنها النقطة التي يمكن عبرها تغيير الموازين وقلب المعادلات. إن تحديد الحلقة الخامسة لا يتقرر تجريدياً بل بدراسة الوضع بدقة ومنه يمكن تقرير الأولويات للعمل وتفضيل الأهم على المهم. إن الفن العسكري يكمن في تحديد

نعمل الأهم والأكثر حسماً وهذا ما يبشر به ما وتسى توونغ وما آمن به.

إن تحديد الحلقة الخامسة يدلنا إلى مكان توجيه الضربة الرئيسية أو الجهد الرئيسي. فعند تفوق العدو استراتيجياً تكون النقطة الخامسة في أحد المفاصل أو نقاط الضعف القاتلة، أما في حال التفوق فقد تكون النقطة الخامسة تحشيدات العدو الرئيسية أو قواهده الخلفية واحتياطه الاستراتيجي. أما أثناء التوازن الاستراتيجي فتصبح النقاط الحيوية حلقات حاسمة.

إن هذا لا ينطبق فقط على المعركة ب مجالاتها التكتيكية والاستراتيجية ولكنه ينطبق أيضاً على التنظيم والتدريب والمعنويات والتسلیح والتأهيل للمعركة المتطرفة، وذلك حسب وضع العدو وإمكاناته وحسب طبيعة أرض المعركة وأجوائها، وحسب الأوضاع الإقليمية والدولية وإمكانية وجود الحلفاء.

### خلاصة:

ما يمكننا قوله أن مبادئ الحرب ما هي إلا حقائق أساسية أو مسلمات تغطي بفاهيمها مسارات الحروب، وتطبيقاتها بشكل جيد يساعد القادة على القيام بعمليات عسكرية ناجحة وعدم الشطط والوقوع في أخطاء قاتلة. وهي بطبيعتها متراقبة أو متلازمة أو متعارضة، وتعتمد في تطبيقها على الظروف والحالات التي يواجهها القائد. قد تسمح العوامل والأحداث بانسجام بعض المبادئ بحيث يردد أحدها الآخر، كما قد تتعارض أحياناً فيصلح تطبيق أحدها بينما يستبعد الآخر. هذا يعني أن درجة تطبيق أي مبدأ وأهميته ترتكز على الحالة الخاصة التي تطبقه فيها: الأهمية متغيرة دائماً مع تغير الأوضاع باستمرار، وبالتالي ليست العبرية في حفظ المبادئ ومحاولة تطبيقها بل هي في عمق تفكير القائد وسلامته في اختيار المبادئ الملائمة وحسن تطبيقها بشكل منسجم وفعال.

إن التطبيق الصحيح لمبادئ الحرب يساعد القائد على خلق وضع يتفوق فيه على عدوه أو تعطيل تفوق عدوه ويعزله للمسير قدمًا نحو هدفه العام. إن التطبيق السليم للمبادئ مع الاهتمام ببقية العناصر العسكرية من تقنية وتكنولوجية وإنسانية فضلاً عن الإعداد الفني الملائم ورعاية العناصر الإنسانية المكونة لقيم العسكري، من المعنويات والشجاعة والاندفاع والتضحية، يسهم في تحقيق النصر. إن الخلل الطفيف في موازين القوى يسهل السيطرة عليه بتطبيق المبادئ الملائمة، كما يمكن قلب موازين أحياناً بشكل صارخ عندما يكون المبدأ الحربي الذي اختير تطبيقه هو المبدأ الحاسم.

## روح مبادئه صن تزو

- التعرض
- الحشد
- المناورة
- المفاجأة
- الأمن

مبادئ الحرب المتبعة حالياً. ندرج فيها يلي سلسلة من مبادئ الحرب المعتمدة من قبل بعض المفكرين العسكريين والدول الكبيرة استكمالاً للفائدة. إن اختيار دولة لمبدأ ما ناتج عن دراسات دقيقة لقيمها وتوجهاتها وخبراتها وأهدافها القومية، وهذا بالتالي يفسح لنا المجال للتفكير في مجموعة من المبادئ الخالية العربية الموحدة التي تتلاءم مع طبيعة الوضع العربي ومع الروابط والأهداف العربية والتي نحن في أمس الحاجة إلى توحيدتها.

## المبادئ الدولية

فورتشن ١٩٠٣	هندرسون ١٨٩٩	كلاؤزفيتز ١٨٣٠	فرونزي	فولر	كولنز	الكولونييل موراي	الجنرال جودريان
الاقتصاد بالقوى حرية العمل الأمن المفاجأة	الحشد المطاردة الأمان البساطة	الحشد قابلية الحركة التعرض الرأي العام الهدف المفاجأة المطاردة	التعرض المناورة والحركة تركيز القوى	الهدف التعرض المناورة الحشد المفاجأة الحبطة والأمان	الهدف البساطة الوحدة المبادرة المناورة والمرونة التركيز الاقتصاد المفاجأة الحبطة والأمان المعنويات	الهدف القومي وحدة القوى المبادرة المناورة الحشد الاقتصاد بالقوى التفاعل توحيد الطاقات الوضوح	المبادرة الحشد المفاجأة المفاجأة المفاجأة الحشد توحيد الطاقات الوضوح

بورن ١٩٤٤	ليدل هارت ١٩٣٢	ليدل هارت ١٩٢٩	مورايس ١٩٢٩
الخشد	لا تندفع إذا استطاع	لا تندفع إذا استطاع	الخشد
التعاون ووحدة القيادة	الخصم تجنبك	الخصم تجنبك	التعاون ووحدة القيادة
الاقتصاد بالقوة	استثمار النصر	الاقتصاد بالقوة	الاقتصاد بالجهد
قابلية الحركة	المرونة	استثمار النصر	قابلية الحركة
المعنيات	عدم تعزيز	المرونة	العرض
العرض	العمل الفاشل	عدم تعزيز	الأمن
الأمن	المفاجأة	العمل الفاشل	المفاجأة
الهدف		الهدف	
المفاجأة		المفاجأة	

مركز الدراسات الاستراتيجية (لندن)	مفكرة الحرب البريطانية ١٩٢٩	ماكلين ١٩٤٨	مونتغومري ١٩٤٥
العرض	الخشد	الادارة	الادارة
تركيز القوى	التعاون ووحدة القيادة	الخشد	القوة الجوية
المفاجأة	الاقتصاد في القوة	المرونة	الخشد
الحيطة والأمن	قابلية الحركة	العرض	التعاون ووحدة القيادة
المعنيات	العرض	الأمن	قابلية الحركة
الاستعلام	الأمن	الهدف	العرض
.	الهدف	المفاجأة	البساطة
	المفاجأة		المفاجأة

## المبادئ الدولية

الولايات المتحدة				
التعليمات العامة	الجو	البحرية	الجيش	
الهدف	الهدف	الهدف	الهدف	
البساطة	التعرض	التعرض	التعرض	
وحدة القيادة	الخشد	الخشد	الخشد	التفوق
التعرض	الاقتصاد	الاقتصاد	الاقتصاد في القوة	
المناورة	قابلية الحركة	قابلية الحركة	المناورة	
الخشد	التعاون	الأمن	وحدة القيادة	
الاقتصاد بالجهد	الأمن	المفاجأة	الأمن	
المفاجأة	المفاجأة	البساطة	المفاجأة	
البيطة والأمن	البساطة	المعنيات	البساطة	

إيطاليا التعليمات القدية	فرنسا (عن مبادئ فوش)	بريطانيا العظمى	ألمانيا الغربية
الخشد	حرية المناورة	انتخاب وإدامة القصد	تحديد الهدف
المفاجأة	تركيز القوى	التعاون	البساطة
البيطة والأمن	المفاجأة	ال تعرض	التعاون
		المرونة	العرض
		تركيز القوى	قابلية الحركة
		الاقتصاد بالقوى	الاقتصاد
		المفاجأة	المفاجأة
		البيطة والأمان	البيطة والأمن
		المعنيات	تحديد جميع
		تنظيم الإسناد الإداري	القوات المتوفرة

## المبادئ الدولية

الاتحاد السوفيatic	باكستان	فرنسا التعليمات العامة الحالية	إيطاليا التعليمات الحديثة
الإبادة	إدامة القصد	الرغبة في تحقيق قصد واحد	المبادرة وحرية العمل
تعاون الأسلحة	العمل التعرضي	وحدة القوة والمصادر	التعرض
التعرض	الحشد	الحشد	المناورة
المناورة والمبادرة	الاقتصاد بالجهد	الاقتصاد بالقوة	المفاجأة
الحشد وتركيز القوى	قابلية الحركة	وحدة العمل	الحيطة والأمن
الاقتصاد بالقوى	وحدة القيادة	المفاجأة	الاقتصاد بالجهد
الديومة بالاحتياط	الأمن	المفاجأة	تركيز القوى
المعنىيات	المفاجأة	المعنىيات	الهدف
المفاجأة والخدعة	البساطة	حرية العمل	القيادة
التقدم والتماسك	المعنىيات		البساطة
	الإدارة		

## المبادئ الدولية

إسبانيا	سويسرا	بلجيكا	الصين الشعبية
وحدة العمل المفاجأة إرادة فهر العدو	إبادة العدو البساطة وحدة العمل حرية المناورة تركيز القوى المفاجأة الاقتصاد بالجهد ملاءمة العمل في الوقت والمسافة	الموضوعية في التقييم والتقدير ملاءمة الوسائل للهدف ميزان قوى ملائم وحدة العمل الاقتصاد بالقوى المفاجأة الحيلة حرية العمل المعنويات	الإبادة التدريجية تعاون القوى السياسية والعسكرية المبادرة المناورة المستمرة تركيز القوى الاقتصاد بالقوى المفاجأة الحيلة والأمن المعنويات التفوق المحلي بالقوى

## المبادئ الدولية

مدرسة الحرب الإيطالية	الأردن	إسرائيل	الصين الوطنية
الهدف	اختيار القصد والاحتفاظ به	انتخاب وإدامة القصد	إدامة القصد
وحدة القيادة	الحفاظ على المعنويات	العمل التعرضي	العمل التعرضي
المبادرة	العمل المجموعي	الخشذ	الخشذ
تركيز القوى	الأمن	الاقتصاد بالجهد	الاقتصاد بالجهد
المفاجأة	المفاجأة	وحدة القيادة والتعاون	قابلية الحركة
الأمن والتوازن	الخشذ	المفاجأة	الأمن
المعنويات	الاقتصاد بالجهد	إدامة المعنويات	المفاجأة
التحضير والتنظيم	الرونة	الرونة وقابلية الحركة	البساطة
الاستعلام	التعاون		المعنويات الإدارة

## المبادئ المقترنة

- وضوح الهدف وإدامة القصد.
- وحدة القيادة والعمل.
- المفاجأة والخدعة.
- الاقتصاد بالجهد وملاءمة الوسائل للغاييات.
- الحشد والتلتفو في النقطة الحاسمة.
- الاستعلام والأمن المتوازن.
- المبادرة وحرية المناورة المرنّة والمستمرة.
- الإسناد الإداري المنظم.
- البساطة.
- التعرض.
- التكامل والتعاون العسكري السياسي.
- التماسک والاستمرار.
- الإبادة التدريجية بالصبر.
- احترام عاملی الوقت والمسافة.

بعد هذا العرض لجملة من مبادئ الحرب العالمية التي تعكس الفكر السائد الآن، لا بد أن نحاول صياغة مجموعة مبادئ عربية رغم معرفتي السلفية بأنني لست مخولاً بذلك وربما لست مؤهلاً لهذا العمل، لأنني لا أملك جميع المعطيات الالزمة. لكن ولتكن مبادرتي هذه محاولة على الطريق الصحيح علّها تحرك من يعنיהם الأمر والمؤهلين لخوض هذا الغمار.



# التأثير على المعركة

جوّ الحرب  
التأثير على العدو  
المؤثرات على القوات الصديقة



## جوّالحرب

تمهيد. عرضنا في درسنا لنظرية الحرب الديناميكية التي تحكمها بوجهها النظري والعملي مبينين كيفية اندفاع الحرب إلى حدّها الأقصى نظرياً، وتعديل حدّتها بواسطة المؤثرات العملية، متطرقين إلى مفهوم المدنة ودوافع السلم وأساليب حل التزاعات. وفي درسنا لمبادئ الحرب عالجنا العوامل الأساسية الأزلية والأبدية التي تعتبر دليلاً في فن الحرب، يتقن استعمالها القادة العظام ويفشل في تطبيقها الآخرون. وفي كلا الموضوعين كانت معالجاتنا تتجه إلى المفهوم العام والأسس الدائمة التي لا ترتبط بزمان.

إننا في موضوعنا هذا سنحاول الانتقال من المعطيات العامة لتدخل فيها بعد إلى رحاب المعطيات الخاصة التي تؤثر في مجرى المعركة، منطلقين من مبدأ عام تردد كثيراً خلال درسنا لمبادئ الحرب ألا وهو ملاءمة الوسائل للغايات. وإذا التفتنا إلى المعركة واضعين هذا الدليل أمام أعيننا بالنظر إليها من عدة زوايا عبر مفهوم التأثير فيها، يتضح لنا أن أركان المعركة ثلاثة هي : جو حرب وعدو وصديق. إن التأثير على هذه الأركان في الاتجاه الملائم يؤثر وبالتالي على نتيجة المعركة أو الحرب كلها.

### جوّالحرب :

إن جو الحرب هو المسرح الذي تتفاعل فيه الوسائل مع قوة العدو لتأثير على قواتنا ولتحقق الغايات كمحصلة نهائية في حال النجاح، أو لتبتعد عن تحقيقها في حال الفشل. ويحكم جو الحرب عوامل عدة سماها كلاوزفيتز بقانون الاحتكاك العام كونها تؤلف عناصر عرقلة وكبح للمقاتلين، ولا يمكن تخفيف حدة هذا الكبح إلا بالتمرس بأساليب الصراع وترين الجيش على الحرب من خلال العمليات الحقيقة، فضلاً عن التقدم العلمي والتكنولوجي الذي يسهم في السيطرة على البيئة الجغرافية ومسارح العمليات. هذا وأفضل تصوير واقعي لهذه الحال هو قول الجنرال جان بيريه بأن مهمة حمل السلاح حقاً مهمة غريبة، فممارسة الحدادة تصنع الحداد، لكن علينا في الجيوش صنع حدادين دون ممارسة الحدادة.

بعد هذا العرض البسيط سنحاول تناول العوامل المؤثرة بالحدث مبتدئين بالعناصر المعنوية ومن ثم الانتقال إلى العناصر المادية.

### الخطر:

هو العامل الأهم في جو المعركة كونه الصاحب الدائم للمقاتل منذ البداية حتى النهاية. وأي إنسان مهما كانت تربيته وطبيعته البشرية لا بد أن يفقد قدرته على القرار الفوري في بداية الاشتباك ولو إلى حين، مهما كان خارق الشجاعة نادر المثال. لكن المهم في الأمر هو استعادته لرباطة جأسه بسرعة وضبطه لتصرفاته تحت ضغط الخطر. وما الشعور بالخوف سوى ردة فعل طبيعية وحساسية غريزية لا تسسيطر عليها وتحد من حدتها إلا العادة والتترس بالقتال. وغني عن البيان أن الإنسان العادي لا يعود إلى الهدوء الكامل بسرعة ولا يحتفظ بالمرونة الطبيعية للتصرف مهما ترس في غمار المعارك العسكرية إلا إذا كان شجاعاً مت候ماً شديداً بالإحساس صبوراً طموحاً. إن الناظر إلى الأمر من بعيد قد يستغرب الأمر، لأن الحرب في النظارات هيئه على رأي المثل، لكن الواقع شيء والتنظير شيء آخر.

لهذه الأسباب عمدت بعض الدول من القدم إلى إرسال قواها المسلحة للاشتراك في المعارك الدائرة في مسارات عمليات بعيدة عنها كأسلوب تدريسي حقيقي، فضلاً عن تحقيقها لأهداف سياسية أخرى لأن التدريب والتعليم لا يمكن أن يحذفَا قيمة الممارسة العملية مهما علا شأنها. إن الأمثلة كثيرة على هذا النوع من التدخل، ويكون هنا أن نذكر مشاركة الدول الأوروبية في الحرب الأهلية الإسبانية وتدخل القوات المصرية في حرب اليمن كمثيلين لتحقيق هدفين في المشاركة بالحرب؛ هدف سياسي وآخر تدريسي.

إن ردات الفعل على الخطر، أي خطر، محسومة بثلاثة عوامل هي عنصر فسيولوجي وعنصر نفسي أخلاقي وعنصر تدريسي. إن ردات الفعل الفسيولوجية حيال الخطر تختلف من جسم لآخر، فهناك أجسام قادرة بتركيبتها على تحمل الصدمات أكثر من غيرها ومؤهلة للسيطرة على ردات الفعل عليها بصورة أسرع، بينما هناك أجسام ينقصها هذا الترابط وتندفع في مواجهة أية هزة. أما العنصر النفسي والأخلاقي فهو مرتبط بالقيم التي يحملها كل إنسان. إنه عامل عقائدي تربوي مرتبط بتراث الشعب وأيديولوجيته وتوجهاته وأماناته. يبقى العنصر الثالث وهو عنصر التعود وهو الذي يؤثر بالعاملين السابقين، فالتمرин والتعود يؤمّنان التطبيع الذي يؤثر على الطياع وعلى التركيب الفسيولوجي أيضاً. إن التدريب مفتاح التغيير، فهو يبني المركبات الصالحة وينسف من دور المؤثرات السلبية ويوهّل الإنسان العادي ليصبح قادراً على السيطرة على زمام الأمور في جو الخطر بشكل مقبول. وتبقى الحدود على

أطراف المسألة حيث يتمركز التخاذل الفاضح والشجاعة النادرة. إن هذه المسألة تبقى خارج إطار القياس وفي النطاق الذي لا يتمكن التدريب من السيطرة عليه، إنها وبالتالي تتعلق بإرادة الله والقيم التراثية.

### الجهد البدني :

يتطلب القتال من العسكري في المعارك جهداً بدنياً كبيراً وتقشفاً وصبراً على شفف العيش وعدم الراحة، ربما لفترات طويلة. فإذا لم يتدرب على هذا الأسلوب من الحياة على مراحل في أيام السلم صعب عليه مواجهة المتابع دفعه واحدة أثناء الحرب. لهذا السبب تركز الجيوش في تدريبياتها على التخشن والصبر عملاً بالحديث الشريف: «اخْشُوْشِنَا فَإِنَّ النَّعْمَ لَا تَدُومُ». هذا من ناحية أخرى فالجهد البدني مؤثر على الأحكام التي نطلقها في القتال من نواحي متناقضة.

● يكون الحكم الذي يطلقه الشخص الذي يعيش المعاناة بعيداً عن التنظير وقريباً من الواقع العملي، غير الحكم الذي يصدره المتفرج على الحدث من بعيد، فالذي يده في الماء هو غير الذي يده في النار.

● يؤثر الجهد البدني على الحكم الذي يطلقه المعايير بشكل يبعده عن الواقع فيجعل المصداقية نسبية وشخصية ترتكز على علاقة الحاكم بالمحكوم عليه من خلال إمكانات مصدر الحكم المادية والمعنية والفكرية.

● عند تحقيق النصر يستطيع الشخص الذي يعيش المعاناة، أخذًا بعين الاعتبار الجهد البدني، يستطيع أن يعطي الصورة الإيجابية لهذا النصر من ناحية تقديره لضخامة الجهد المبذولة والتعب والأخطار، فيكسب النصر رونقه وبهاءه ويقدر حق قدره. إن هذا لا يعني الحقيقة المطلقة بعينها، فربّ ناجح أغوطه فرحة النصر وجعلته ينسى التضحيات المبذولة ويبخسها قيمتها. غير أن المقدر يقع في السلبية عادة عند المهزيمة لأن المشاعر تميل إلى العدالة الظاهرة في الحكم لتصبح عاملاً يفتش عن تبرير للهزيمة، فتنقلب المقاييس وقتها، وينظر إلى الأمور بنظار تكبيري مضلل.

### ضبابية المعلومات :

من المسلم به أن وجود المعلومات ودقتها أمران يسهلان على القائد أخذ القرار الصحيح، كما أن غياب المعلومات يوقعه في حيرة من أمره ويدفعه إلى الترير في أخذ قراره، الأمر الذي قد يفوّت عليه الفرصة التي يصعب تعويضها غالباً، خاصة وأن المعلومات هي

المعارف التي يجب أن تكون عن العدو لتشكل الأساس الذي تبني عليه الأفكار والقرارات والأفعال. لقد وعى المفكرون العسكريون أهمية المعلومات فجعل بعضهم الاستعلام الدقيق الذي يأتي في وقته مبدأً من المبادئ الدائمة للحرب، لما يوفره من خدمة للمناورة وقيادة المعركة، إن الحرب دون معلومات كالسير الأعمى في الظلام الذي يفقد توجهه ويضيع موقعه.

في جو المعركة تتشابك العوامل وتتضارب في اتجاهات شتى تسهم في الشك وعدم الثقة بالواقع الأكيدة وتدفعنا إلى التمسك دائمًا بأهداب الحذر. لقد تطورت تكنولوجيات الاستعلام وتقنياته كثيراً في العصر الحاضر، وأصبح من الصعب إخفاء الواقع عن عيون العدو البشرية والالكترونية بعد أن غزا الإنسان الفضاء وسيطر على الموجات الصوتية الدقيقة والشديدة الحساسية. لقد صَغَّرَ حجم الكرة الأرضية بعد أن صغر حجم الكون، وأصبح الالتفات إليها من على يضعها كلها تحت المراقبة دفعه واحدة من خلال أنظمة معقدة من الأقمار الصناعية قادرة على كشف التمويه والإخفاء ومؤهلة للاستعلام عنها هو داخل الأرض.

ورغم هذا التطور العلمي الهائل والتقدم المذهل لا يزال لعامل الضبابية وجود وتأثير، لأن التقدم لم يتمكن من السيطرة على سرية النوايا التي هي أهم هدف يجب التوجّه إليه في البحث عن المعلومات، وإن بقيت الحقائق مشوهة متاثرة كحبّات العقد التي فقدت الخيط الذي يجمعها. إن أفضل مثال لدور السرية يمكن تقديمها هو قيام الاتحاد السوفيافي بغزو تشيكوسلوفاكيا دون أن تتمكن أية تقنية من المعرفة بالهجوم قبل تنفيذه، كذلك حجب النوايا العربية عن إسرائيل في حرب تشرين. هذا يؤكد على أن مكان الضبابية في المعلومات لا يزال محفوظاً، لذلك فمعالجة هذا الضعف واجبة للتقليل من تأثيره إلى الحد الأدنى، وهي تتم عادة على قناتين هما:

- قناة نفسية شخصية تعتمد على المحافظة على التوازن بثبات الجنان، والابتعاد عن الخوف والتمسك بالأمل.
- قناة مادية بتقوية فاعلية الاستعلام وجودته من خلال تطوير الأساليب الفنية والتكنولوجية بما في ذلك الاستعلام المضاد ومقاومة الاستعلام المعادي.

### مواجهة الأحداث المتغيرة:

لقد أسلفنا أن قرس العسكري في القتال هو أفضل أسلوب لتدريبه على معايشة الأخطار والواقع، كذلك فمواجهة الأحداث عن كثب تغنى تجربته الفردية وتجعله أكثر تفهماً لأمور الحرب. إن المعركة بطبيعتها تفاعل بركاني ناشط وهي متقلبة متغيرة باستمرار، لأنها صراع إرادات يحكمها الفكر الباحث أبداً عن جديد ويوثر فيها كل تيار نفسي يهب وكل

خاطرة ترد وكل معلومة تتتوفر. لم يذكر التاريخ أن قائداً خاض معركته تماماً كما خطط لها، بل اضطر جميع القادة إلى التكيف المستمر حسب معطيات الظروف الآنية، وأصبح تركيب الخطة المنفذ بعد المعركة بعيداً إلى حد كبير عن المخطط الأساسي. إن العسكري المتكيف هو العسكري الناجح وغير مسموح للقائد أن يقف مكتوف اليدين عند المواجهة بل عليه التصرف، ومن يتصرف بصورة أسلم هو الرابح أبداً. إن لكل فرد دوره في القتال من أصغر جندي إلى أكبر قائد له تجاربه واستجاباته الشخصية وله مبادراته وتصرفاته حيال الظروف الطارئة والمتغيرة. هذا وقد تدخل ظروف الطبيعة في مجال المؤثرات والأحداث المتغيرة على نطاق الفرد في تحركه الدائم وفي نطاق تحولات الزمان والمكان وهي تجربه على التعامل معها والقيام بردات الفعل حيالها للتغلب على العقبات في نطاق الأرض والطقس وما شابه. وغنى عن القول بأن الصدف والمفاجآت تبقى المناخ المسيطر في الحرب ما دام للإنسان فكر يعمل ونوايا كامنة تتربيص متحيّنة الفُرَص ومستغلة السوانح العارضة. والصدف هذه قد تعمل لمصلحة أحد الفريقين، والعسكري الخبير هو القادر على اغتنام الرياح حين هبواها.

### تأثير المحيط الجغرافي :

إن للمحيط الجغرافي أكبر الأثر في العمليات العسكرية ودراساته عنصر هام من عناصر تقدير كل موقف، لأنه يؤثر على مجرى العمليات ويوجهها. إن التأثير الذي نقصده في هذه الفقرة ليس التأثيرات الفردية أو التأثير الآن على الفرد بل ما نقصده هو التأثير العام على العمليات بشكل عام.

إن دراسة العوامل المؤثرة تأخذ بعين الاعتبار التأثير على العدو وعلى الصديق في آن معاً، والتأثير على طبيعة العمليات بوجه عام ويدخل فيها درس عوامل الطقس والأرض والأوضاع الأخرى، من سكانية واجتماعية واقتصادية وما غير ذلك من المؤثرات. إن عوامل الطقس المؤثرة هي الحرارة والرطوبة والرياح والأمطار والمد والجزر والأرصاد الجوية، وهي تؤثر على الرؤية والحركة والإنسان والعتاد. كذلك للأرض تأثير على العمليات. وعناصر التأثير ناتجة عن الطبيعة العامة للأرض والتخفية والتستر والمراقبة وميادين الرمي والحركة والموانع والأراضي التعبوية والحيوية، فضلاً عن المقتربات ومحاور الحركة والتقدم.

جميع هذه الأمور يجب أخذها في الحسبان في المعركة ودرستها بدقة لما لها من تأثير، والمعركة الناجحة هي التي تتلاءم مناورتها مع معطيات الأرض والطقس والعتاد وال موقف والتي يعيدها التمرس العسكري الذي يساعد على التكيف وملاقاة جميع الاحتمالات والمواجهات المستجدة.

## التأثير على العدو

طبيعي أنه لولا وجود العدو لما قامت الحرب، فهو العنصر الأساسي الذي توجه نحوه الجهد وتحضر الخطط لضربه والسيطرة عليه. إن أركان قوة العدو القتالية هي نفس أركان القوة الصديقة، لذلك سنؤجل دراستها هنا إلى باب القوة الصديقة، حيث سيشمل درسنا جميع المؤشرات على القوات من تدريب إلى تسليح وما هنالك من عوامل أخرى. لذلك سنكتفي الآن بعرض بعض التدابير التي يمكن اتخاذها للتأثير على العدو سلباً وتكيده أغلى الأثمان لقاء نجاحاته أو تفوقه.

لقد تطرق كلاوزفيتز لهذا النوع من الأعمال ووعى أهميته في الدفاع والهجوم، كما أنه يزداد أهمية كلما كان العدو في وضع متذوق. إن هذه التدابير ما هي إلا نوع من أنواع كسر السلبية والعجز واغتنام الفرص والتوجه بالضرب إلى المفاصل وال نقاط الحساسة الموجعة. جميع هذه الإجراءات تقع في باب التحرك الإيجابي الهدف إلى التأثير على قوة العدو على طريق التدمير الشامل لقواه الذي يعتبره كلاوزفيتز هدف كل حرب وغايتها النهائية. فيما يلي عدد هذه التدابير وهي :

- غزو تدميري لبعض مقاطعات العدو وجمع أكبر قدر ممكن من الغنائم والأسلاب قبل الانسحاب بهدف تدمير بنية التحتية وتحطيم اقتصاده.
- احتلال بعض المقاطعات الحيوية ذات القيمة الاقتصادية العالية.
- قصف النقاط والمراكز الحساسة وإيقاع أكبر قدر من التدمير والضرر فيها. وهذا ما ينطبق على القصف الاستراتيجي الذي تقوم بها القوات الجوية كالقصف التجريدي.
- الاستنزاف بتدمير القوات المقاتلة.
- استنزاف قوات العدو المادية وتدمير إرادة الصراع لديه تدريجياً من خلال العمل المدروس المبرمج في إطار الاقتصاد بالقوى والاستمرار الطويل النفس. إن اللجوء إلى هذا النوع من الاستنزاف جائز في حالات متعددة، لكنه يلائم القوات الضعيفة نوعاً ما عندما تتجاوز قوتها أكبر منها.

● شل فعالية جهاز العدو الدفاعي أو الهجوم وذلك باستخدام تكنولوجية جديدة متقدمة أو تقنية حديثة تجعل من جميع التدابير والإجراءات التي يتخذها غير ذات فائدة. إن أفضل مثال على هذا هو سباق التسلح في الحرب الفضائية والتكنولوجية المستخدمة في ما يسمى بحرب النجوم. إن من يمكن من اعتراض صواريخ عدوه العابرة للقارات بنجاح قبل وصولها إلى أهدافها، أكان ذلك في الفضاء الخارجي أو في فضاء الأرض، يهدد فعاليتها ويهز أركان نظامها واستراتيجيتها. كذلك فالدولة القادرة على تعطيل النظام المضاد للصواريخ في حرب النجوم أو القادرة على تعطيل نظم الإنذار المبكر تشنّ جهاز عدوها بالكامل وتجعله غير ذي فائدة.

## المؤثرات على القوات الصديقة

تحدثنا سابقاً عن كيفية العمل لتحسين إنتاج القوى في جو الحرب، وعن كيفية التأثير على العدو للإسهام في تكبده غالياً ثمن مواقفه أو نجاحاته. عالجنا كلا الأمرين من زاوية تحقيق الكسب والردود الإيجابي للقوى الصديقة. وبغية اكمال الموضوع سنعالج هنا مسألة رفع مستوى إنتاجية القوات الصديقة بالطرق إلى المؤثرات التي تفعل بها وتوجيهها في الناحية الإيجابية. إن فاعلية أية قوة عسكرية في المجال القتالي ترتكز على عدة عناصر هي : العديد والعتاد والتنظيم والمهارة والقيادة والمعنيات.

### العديد :

وهو الأساس أو اللبنة الأولى في صرح البناء العسكري. فلو لا الوجود البشري لما وجدت المجتمعات والدول والمصالح المتناقضة أو المتحالفه. وما الجيوش إلا الأداة أو الوسيلة التي تعمل لتحقيق مطامح فتاة، أو أمن فتة أخرى. وكلما كبرت الأداة كلما كبر فعلها وقربت من أن تكون وسيلة حسم وتقرير مصير. فما من جيش صغير تمكن من الصمود أمام جيش أضخم منه إلا ضمن معطيات وحدود معاذلة الدفاع والهجوم التي سنأتي على ذكرها فيما بعد، مع مراعاة باقي عناصر الفاعلية العسكرية من عتاد وتنظيم ومهارة وقيادة ومعنيات. وهذا يعني أن قاعدة التفوق العددي عامل صلب لا يحابي، لكنه لا يمنع وجود أمثلة على أمم وشعوب أو فئات قليلة العدد تتمكن من الصمود أو التفوق على أمم أكبر وأضخم وأعرق أحياناً. التاريخ مليء بتلك الأمثلة وقد تكون هذه الظاهرة إلى حد بعيد الصانع الأول للتاريخ الأمم، والموجه غير المباشر لاتجاهات الحضارة. إنها مسألة تعبئة سليمة للطاقات واستثمار لجميع القوى في المكان والزمان المناسبين. لقد تمكن القلة العربية أثناء نشر الدين الإسلامي ومع استخدامها لعامل الزمن، من أن تدق أبواب الصين شرقاً وتهدم قلب أوروبا غرباً، كما أن الطوائف الإسلامية القليلة العدد في زمن التشيع والباطنية، كالمتأولة، والإسماعيلية والحساشين وقراططة البحرين والدروز والعلويين، قد أسهمت بنشاط وдинاميكيه في صنع تاريخ المنطقة من جهة، واستطاعت أن تحافظ على استمرار وجودها أمام

أكثرية ساحقة نافذة تنظر إليها كفّيات منشقة وتحبّ عودتها إلى الخط الأساسي من جهة أخرى. ولم يكن استمرار الوجود هذا والفعل في بناء التاريخ بالأمر السهل البسيط، بل كان استمراراً لعاشوراء وجملة وتقى ونضالاً شاقاً في مجال المادة والروح. وأسطع شاهد على الجهود والتضحيات المضنية التي كانت تدفعها هذه الفئات مختارة كضربيّة صمود واستمرار، ملحمة كربلاء، وإطلاق أحد المؤرخين اسم الأقلية المحاربة في القرون الوسطى على الدروز مشيراً إلى تاريخ هذه الفئة كسيرة لنضالها وحروبها.

وكما في الإسلام كذلك في المسيحية، فقد عانت الأقلّيات المنشقة الأمرّين أمام حزم الأكثرية السائدة وظلمها إن في الغرب أو في الشرق. وخير مثل على ذلك محاكم التفتيش وليلي السكاكين الطويلة ومذابح الموارنة في منشأهم الأول على ضفاف العاصي. ورغم دفع الأقلية الثمن الباهظ لاستمرار بقائها، فقد سجلت نجاحات كبيرة في تحطيم الحاجز الصعب الفاصل بين البقاء والفناء.

أما في العصر الحديث فما من مثال أفضل من معاناتنا العربية الدائمة في مواجهة الأقلية الصهيونية للأكثرية العربية، أو تفوق النظم العنصرية الآني في جنوب أفريقيا على الأكثرية الساحقة من الشعب المحلي الأسود.

لم تستطرد في هذا المجال ونلتفت للماضي نفياً للقاعدة بل إثباتاً لصحتها، لأن هذه الظواهر أسباباً تصنّف في فئتين:

أ - فئة خارجة عن ميزان القوى ولكنها تصب في مجرى الميزان، وقد اختبرنا تصنيفها منفردة كون علاقتها بالعديد علاقة غير مباشرة وهي في الأمثلة التي أوردناها وتدور حول:  
• الإيمان أو العقيدة أو الأيديولوجية التي ترتبط بالروح المعنوية ارتباطاً وثيقاً.  
• التفوق الحضاري الذي يفرز تفوقاً عقلياً وتكنولوجياً فيؤثر في عناصر التنظيم والمهارة والعتاد السالفي الذكر.

• المعادلات الدولية والظروف، وينطبق هذا الشأن على الصراع العربي الإسرائيلي بشكل واضح حيث تؤثر المعادلات الدولية في عناصر موازين القوى في مجال العتاد والتكنولوجيا وأدوار الحلفاء الدوليين.

ب - فئة داخلة ضمن ميزان القوى وهي ترتكز على سلامة النظرة إلى مفهوم العديد. فهو لا يعني إحصاء السكان في دولة ما بل يعني العديد المشترك في المعركة، أي عديد الجيوش المقاتلة ومن يعمل في خدمتها. إن العنصر البشري عنصر أساسى من عناصر القوة القومية ولكن قيمته تكمن في حسن استخدامه وإن كان وجوده هدرًا للطاقة. فقد تؤلف دولة صغيرة جيشاً كبيراً مستثمرة طاقاتها البشرية والمادية إلى أقصى الحدود وبذلك يتتفوق

جيشهما بعده على جيش دولة أكبر منها كثيراً. إن اعتماد فكرة التجنيد الإلزامي أو الأمة المسلحة تسهم إلى حد كبير في تقوية الطاقات العسكرية ضمن الإمكانيات المادية والاقتصادية والبشرية. هنا تظهر أهمية العديد وسلامة النظرة إليه، ويتبيّن بجلاء إن حسن الاستخدام هو الأهم. إن هذه النقطة تدفعنا للتنويه مجدداً بعظمّة الأهمية التي يجب إيلاؤها للعديد مذكرين بمبادئي الحرب اللذين سلف ذكرهما: التفوق العددي عند كلاوزفيتز والخشود في سياق المفهوم الحديث للمبدأ.

### العتاد :

وهو العنصر الثاني في ميزان الفاعلية العسكرية ويترافق مع العديد في نظام تؤامه تنافسي من حيث الوزن والقيمة المرجحة. لقد فطن الإنسان لهذا العامل منذ القدم، فكان أداة حسم على مر العصور وشارات هداية في منعطفات التاريخ، لدرجة دفعت بالمؤرخين لإطلاق أسماء العتاد على حقب الزمان، كالعصر الحجري والعصر البرونزي وما إلى ذلك من تسميات. ورغم أن هذه التسميات التي ترمي إلى العامل التطوري الفاعل الذي يطبع العصر الحضاري بطابعه ويدفع الحضارة قدماً في مراجحها المتسامي، رغم أنها ليست بسبب العامل العسكري فقط بل بسبب شمول التأثير لمختلف قطاعات الحياة، رغم ذلك يبقى الأمر العسكري بالغ الأهمية في هذا المجال، وقد يتتصدر أحياناً من حيث القيمة بقية أطر التأثيرات الأخرى.

لقد تلاحم القتال عبر العصور مع صنع التاريخ، ونظرة سريعة عبر مسلسل الماضي والتاريخ العسكري تكفي لإثبات صحة ما أوردناه.

لقد أدى تغلب الإنسان على الصخر وتطويعه ليصبح أداة قتالية كالسكين والخنجر بعد أن كانت العصا سلاح الجسم، أدى إلى نقلة نوعية هامة في موازين القوى العسكرية التي انعكست بدورها على تنظيم المجتمعات البشرية وتطورها. وجاءت النقلة النوعية الأهم بدخول المعدن ميدان المروء، وبقيت هذه التطورات تتراكم مع دخول الاختراعات العسكرية إلى ساحات القتال، من السيف والرمح إلى البندقية والبارود فالسلاح الموأثر ثم الرشاش فالدبابة والطائرة والصاروخ وأخيراً السلاح النووي والفضائي، فضلاً عن أعدة التنسيق والإدارة كوسائل النقل والإشارة. كل هذه الاختراعات جاءت لتضاعف قوة المستعمل، فكانت أداة حسم في يده حيناً ووسيلة ردع أحياناً. أما الميزة في قانون الصراع التؤامي بين العديد والعتاد فتكمن في ثلاثة أمور هي :

● إن زيادة قوة أحدهما تسهم في تقليل الحاجة إلى قوة الآخر. فالجيوش المتطورة مثلاً

تركز على نوعية السلاح وخبرات المستعملين بالأفضلية على حساب العدد، بينما تركز الجيوش في البلدان الأقل تطوراً على ضخامة العدد كما في الصين مثلاً. ويدخل في المفاضلة والاختيار طبعاً عامل الوفرة والندرة، إن في الطاقة البشرية أو في العتاد.

- رغم التطور المتناهي لم يحسم أمر الأرجحية لأي منها بعد، وربما لن يأتي الجسم أبداً بسبب القيود الجغرافية والطبيعية والدولية، ووسائل الرد المتطورة وتشابك المصالح الدولية والموازين المعقّدة التي تحكمها والتي تتفاعل دائياً في إطار الزمان والمكان.
- من الثابت القطعي أن الجمع بين عنصري العديد والعتاد يعطي دائياً مردوداً إيجابياً شرط الأخذ بعين الاعتبار العوامل الأخرى التي سنأتي على ذكرها مباشرة بعد عامل العتاد. هذا ومن المفيد التنوية بأن عامل العديد يساعد كثيراً في تقديم الخبرات لخدمة العتاد المعقّد، لأن مبدأ الاحتمالية والنسبية يجعل من الأهون تأمين الكفاءات للأعتمدة ذات التقنية والتكنولوجيا العالية في المجتمعات البشرية الكثيرة العدد التي تفرز بطبيعتها عدداً أكثر من القدرات.

### التنظيم :

وهو الركن الثالث من أركان الفاعلية القتالية، ويرمي إلى صوغ العديد والعتاد في جسم عسكري متناسق متماسك بغية الحصول على المردود الأفضل والفاعلية القصوى. يتميز التنظيم بالاستقرار والديمومة النسبية على مستوى الوحدات، وبالتالي فهو على الصعيد العالمي عمل استراتيجي متراّبط مع العقيدة القتالية للجيش وتحكمه عوامل ثابتة بأغلبيتها وهي :

- الأهداف القومية والوطنية.
- الاستراتيجية السياسية للدولة.
- مساحة الدولة وجغرافيتها.
- الطاقات البشرية.
- الطاقات الاقتصادية.
- الطاقات الحضارية من ثقافية وعلمية وتكنولوجية.
- الارتباطات والالتزامات الإقليمية والعالمية.
- الطاقات العسكرية.
- جو التزاعات والمشاكل العالقة.
- ظبيعة العدو وطاقاته.
- الأيديولوجيات والمفاهيم الشعبية.

إن تنظيم أركان القيادة مثلاً في دولة ما لا يتغير يومياً بل يبقى المدة الكافية لاختباره وإدخال التعديلات المدرosaة عليه، إما بعد تجربته سلماً وحرباً أو بالاستفادة من تجارب الدول الأخرى وتقديمها الفني والعلمي. هذا ومن الملاحظ أن تنظيم الجيوش يلامس الاستراتيجية والتكتيك في آن معاً، فكلما اتجهنا صعداً توغلنا في حرم الاستراتيجية وكلما توجهنا إلى التنظيمات الدنيا تحكمت في خياراتنا قواعد التكتيك. وهنا يجب الانتباه إلى أمرين في تنظيم الجيوش ألا وهما:

● مراعاة سهولة التنسيق والانسجام والعمل مع الجيوش التابعة لنفس المنظومة المتحالفه (كجيوش الحلف الأطلسي أو حلف وارسو أو الجيوش العربية).

●أخذ إمكانات الأسلحة والأعتدة وميزاتها بعين الاعتبار، كون تطور العتاد والتكتيك عاملان متفاعلان يؤثر أحدهما بالآخر. إن ميزات أي سلاح تفرض تقنية معينة لاستعماله، وبالتالي تكتيكيًّا ملائماً له. كذلك فأي تكتيك معين يتطلب استعمال أسلحة ذات ميزات خاصة يتلاءم أسلوب استعمالها وفعاليتها مع هذا التكتيك وبالتالي فهي تستعمل بتقنية معينة. هذا التلازم الثلاثي بين التكتيك والتقنية وتكنولوجيا العتاد يظهر أيضاً في المجال الاستراتيجي عندما يلعب السلاح النووي الدور الرئيسي إن في الردع أو في العمل.

وإذا نظرنا إلى التنظيم من الناحية التقنية نجد أنه يجب أن يلبي متطلبات هامة، هي: سهولة القيادة. ويرى كلاوزفيتز في النظر إلى الموضوع من وجهة استراتيجية أن هناك عدة عوامل تؤثر في الطاقة على القيادة وسهولة السيطرة وهي الآتية:

● تفقد المجموعة العسكرية مرونتها عندما تكون الأجزاء التي تتالف منها قليلة رغم سهولة قيادتها. فالتنظيم الثنائي مثلاً تنظيم سهل القيادة وغير من باهظ التكاليف، فإذا وضع القسمان مثلاً على خط واحد ضاع العميق فقد الاحتياط وأضاع القائد حرية المناورة والتصريف وتلبية المتطلبات الطارئة. وإذا وضعوا في نسقين متتابعين قلل قوى القيمة المشتبكة وصعب على القسم الآخر تشكيل العميق والاحتياط في آن واحد.

أما التنظيم الثلاثي فيمتاز بالخفة وسهولة القيادة ويؤمن القوات الكافية للاشتباك، ولكنه لا يؤمن العميق والاحتياط في آن معاً لامتصاص الصدمات الكبيرة، كذلك ففي مراحل استثمار النصر يقع الخلل في التوازن بين قوات الملاحة وتوفير الاحتياط. فإذا ربت القوى بشكل يؤمن صدمة قوية احتفى العميق وضعف الاحتياط وعجز عن استثمار النصر، سيما إذا تعرض هذا الاحتياط للخسائر من جراء المعركة. أما إذا عزز الاحتياط فتضعف قوة الصدم.

ويتصف التنظيمان الرابع والخامسي بالمرونة في الترتيب وديمومة الاستمرار بحيث

يوفّقان بين قوة الصدمة وتأمين العمق وجود الاحتياط القادر على استئثار النجاح والتغلب العميق. ويكتاز التنظيم الرباعي بأنه أخف من الخماسي وأسهل قيادة، لكن التنظيم الخماسي أكثر مرونة. إن قيادة هذين التنظيمين أصعب من قيادة التنظيم الثلاثي، وهذا لا يعني أن الصعوبة تعتبر سيئة مميتة، سبباً وأن وسائل الاتصال والسيطرة وأساليب القيادة المتطورة قد حلّت كثيراً من عقد التحكم والقيادة. لذلك نرى أنه من الخطأ الخوف كثيراً من الثقل وصعوبة القيادة لأن التفوق التكنولوجي سمح بتنوع المسؤولين وتراوحتهم بين الخمسمة والخمسة عشر مرؤوساً وذلك حسب قدرة الرئيس وطاقته القيادية.

لقد رأى كلاوزفيتز أن عدد المسؤولين في الأسواق العليا يمكن أن يتراوح بين ثمانية وعشرة (٨ و ١٠)، وفي الأسواق الدنيا بين أربعة وستة (٤ و ٦)، كما أن الأميركيين يرون بأن عدد المسؤولين النموذجي هو ستة (٦). وقد جرب كل من الفرنسيين والأميركان الميكيلية الخماسية في تنظيم فرقهم في ظل إمكانية اللجوء إلى السلاح النووي، ولاحظوا أن الخذر من تجمع القوى يجب أن يسود جو الفرقة دائمًا خوفاً من الضربات الذرية التكتيكية، فعولج الموضوع بالتركيز على التبدد المدروس بين حدّي الأمان والجهوز لتنفيذ المهمة في الوقت المناسب، كما عولج بتعداد القيادات في النظام الخماسي القادرة على توفير قيادة بديلة للفرقة في حال تعرض مركز القيادة الرئيسي للتدمير.

على أية حال تبقى مسألة اختيار التنظيم مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقدرات العدو وبالوضع البشري والاقتصادي وطاقة البلاد على تزويد جيشه بالعتاد والرجال، فضلاً عن توفر الكوادر والقيادات الالزمة لمارسة دور السيطرة بالإضافة إلى طاقات وكفاءات القيادة أنفسهم.

● إذا زاد عدد الأجزاء زيادة كبيرة ضعفت قدرة القيادة العليا على إدارتها. وشرح هذه الفكرة مرتبط بضمون الفكرة السابقة. لكن لا بد من التنويه بأن هناك حدّاً أقصى للطاقة القيادية رغم التطور العلمي والتكنولوجي في وسائل الاتصال والسيطرة، وهذا عائد لطاقة الإنسان نفسه ككائن بشري ولطاقة الفرد في كل دولة والذي مختلف عن غيره في دولة أخرى لأسباب تراثية وفكرية وعلمية.

- إن ازدياد طبقات التسلسل القيادي يعرقل حركة الأوامر ويضعف قوتها بشكلين:
  - تبديد القوى الناتج عن ضرورة التنسيق الإضافي.
  - هدر الوقت الذي يتطلب نقل الأوامر.

وفي النهاية يجب التنبّه إلى وجوب الحفاظ على النظام المتميّز ووحدة القيادة مع تفادي الأزدواجية.

المرؤنة. تطرقنا في الحديث عن سهولة القيادة عَرَضاً إلى أمر المرؤنة في التنظيم عندما تفحصنا التنظيمات الثلاثية والرابعة والخامسة، وقلنا ان الدول تحاول تطبيق إحدى هذه التنظيمات حسب ظروفها الاقتصادية والبشرية. ونضيف هنا بأن الدول الكبرى تحاول دائمًا تطوير تنظيماتها جيوشها هادفة إلى تحقيق الإناتجية القصوى والمرؤنة للتلاؤم مع الأوضاع المتغيرة و Capacities الأسلحة المستحدثة. وإذا أخذنا الولايات المتحدة الأمريكية كمثال على قولنا نجد أنها جربت أسلوبين في تنظيم القوى غير التنظيم الفرقي الثابت لأنها اعتبرته محدودة المرؤنة وثيقاً واعتمدت أحد الخيارين الآتيين:

- أسلوب القاعدة الهيكيلية، وذلك بتحديد تنظيم قيادي ثابت للفرقه قادر على السيطرة على مجموعات من مختلف الأسلحة تخصص حسب الحاجة إليها، أي بأسلوب القيادة الجاهزة والكتائب المتوفرة للالتحاق بها.
  - كذلك جربوا اللواء كأساس قتالي كونه أخف من الفرقه وأسهل قيادة ويمثل القدرات الذاتية الملائمة بخوض المعركة في جو الحرب النووية.
- هذا ومهمها يكن الاتجاه السائد في تنظيم أي جيش يبقى عامل المرؤنة أحد الهواجس التي تحكم تفكير المنظمين والمنظرين وهذا يعتمد على ظروف القتال والقدرات والقيادات وأنواع مسارح العمليات.

تناسق الأسلحة والمعدات. وهو أمر هام جداً في تنظيم الجيوش وتحقيق الانسجام بين قطاعاتها، لأن كل تجريدة قتالية يجب أن تحتوي على مجموعة من العتاد والسلاح، تشكل نظاماً متاماً للعمل في الدفاع والهجوم وفي إطار المفهوم الاستراتيجي العام، للكتلة العسكرية المعدة، إما للمعركة بصورة مستقلة أو ضمن تنظيم عام للجيش أو بالتنسيق مع الحلفاء. وهنا تجدر الإشارة إلى الانتباه لأمر انسجام السرعات بين الوحدات المقاتلة. من الصعب مثلاً التوفيق بين سرعتي الراكب والراجل، أو تحرك الدبابات والمدفعية المقطرة.

الحيطة والأمان. الحيطة أمر أساسي إن في الوحدات الصغيرة أو في الوحدات الكبرى. لذا تجهز الجيوش وتنظم بشكل يسمح لها باتخاذ تدابير الحيطة الالزمة أثناء حلها وترحالها و المعاركها. والحيطة تؤمن بأسلوبين؛ أسلوب تنظيمي للممارسة وأسلوب تقني مرتبط بالوسائل والمعدات. وتأخذ الحيطة طريقها بدءاً بالكشفين الخفاف في الوحدات الصغرى إلى عناصر الاستعلام والاستطلاع في الوحدات المتوسطة مروراً بالاحتياط على المستويات الملائمة، بالإضافة للأجهزة التقنية والمعدات الالكترونية المعقدة للاستماع والتصوير الليلي والنهارى والطائرات والأقمار الصناعية، وصولاً إلى أعلى مستوى متطور لجمع المعلومات على

الصعيد الاستراتيجي. في كل هذا المسار نرى أن الجيوش تعمل جاهدة في حقل التنظيم لتحقيق التنسق والفاعلية اللازمتين تأميناً لحيطتها.

بعد هذا العرض في تنظيم الجيوش لا بد أن ننتقل إلى ركن آخر مرتبط بالتنظيمات الثابتة ولكنه يتخد طابع الظرف والآن، وما هو إلا فرع من تلك السلالة أو إجراء ظرفي في التنظيم تقتضيه المصلحة وحاجات الممارسة وأسلوب زج القوات. إن هذا الأمر ينحصر في أمرین هما: التجمیع للواجب والتشکیلات أو الترتیبات القتالية.

التجمیع للواجب. وهو يعني التنظيم التحضيري للقتال، وهو مرتبط بالمعركة نفسها، ويعتبر مفهوماً تكتیکیاً بوجه العموم وإن ظهرت فيه بعض ملامح الاستراتیجیة على صعيد تنظیم الجيوش المخصصة لسارح العمليات. وإذا شئنا تعريف هذا العمل، فيمكن القول بأنه فن تركیب وتوزیع القوى الموضوعة بتصرف القائد وصوغها في هيكل يلبی حاجات المهمة الموكولة إليه.

إن وصفنا لعملية التجمیع بالفن ليس بأمر بعيد عن الواقعية، فالعقل البشري قادر على استنباط أعداد لا حصر لها من الترکیبات سیما إذا كان مجموع القوى المستعملة كبيراً. ولكن ليست كل تشکیلة بصالحة، والقائد الفنان الماهر هو القادر على الخروج بالتجمیع الأفضل للمهمة مستوى حیاً بذلك علومه العسكرية وخبراته المیدانیة وعقربیته القيادیة في إطار الواجب المطلوب تحقيقه. القائد هو كالصائغ والذهب والأحجار الكریمة بتصرفه، ولكن الخلیة الجميلة تبقى صنع يديه ونتاج أفکاره.

من هذا المنطلق نرى أن التجمیع للواجب يمزج بين الفن والعلم ويرتقی في سلم الفن بقدر تقدّمه من تحجر القوالب الجاهزة وانفتاحه على تشعبات الخلق والتصور. ولكن يبقى علیاً من ناحية المنطقات الأساسية والسلمات البديھیة وخصوصاً المواد والأدوات المستعملة. هذا وفي إطار الشوابت العلمية يمكننا تحديد بعض الأساس الواجب مراعاتها في عملية التجمیع للواجب، وهي:

- تلبیة حاجات المهمة بشكل فعال.
- الاقتصاد بالقوى والوقت.
- مراعاة شؤون الحیطة والأمان.
- مراعاة أطر التنظيم الأساسية للقوى وعقیدتها القتالية، بحيث تفصل الوحدات أو تجمع بالفئات حسب تنظیماتها الأساسية، وليس بفرط عقود الأفراد أو الأسلحة.
- البساطة وعدم التعقيد.

● استشفاف المستقبل والجهوز لتنفيذ العمليات اللاحقة.

التشكيلات أو الترتيبات العسكرية. وهي عمل تكتيكي تقني تمارسه الوحدات العسكرية في افتتاحها على أرض المعركة للقيام بمهامها. إنها تدبير توضع به القوات على الأرض بشكل يؤمن لها تنفيذ المهمة بأفضل صورة بحيث تتمكن جميع العناصر والوحدات من استخدام أسلحتها بالصورة الفضلية فضلاً عن تأمين متطلبات الحيطنة والتدخل في إطار عنصري الزمان والمكان المناسبين وضمن نطاق السيطرة القيادية. أما ما يجب مراعاته في اختيار أي ترتيب في مجال المتطلبات العلمية والأسس التنظيمية فهو ما يأتي:

● تنفيذ المهمة بالصورة الفضلية.

● طبيعة الأرض التي تعمل عليها القوى.

● خواص المعدات والأسلحة وقدراتها التقنية.

● وضع القوات الصديقة المجاورة وقدراتها.

● وضع القوات المعادية وطاقاتها.

● عوامل الحيطنة والأمان.

● سهولة القيادة والارتباط.

### المهارة:

وهي العامل الرابع من حيث التسلسل المنطقي لتكوين القوات المقاتلة. وبعد إيجاد الإنسان وإمداده بالأداة الحربية، ومن ثم تنظيم الأفراد والعتاد وتنسيقتهم في مجموعات حسب العقيدة القتالية المرتكزة على خصائص العتاد من جهة وعلى عوامل استراتيجية سبق ذكرها من جهة أخرى، بعد ذلك يأتي دور تشغيل ميكانيكية هذه الآلة الحربية ورفع قيمة إنتاجها ليصل إلى طاقتها القصوى. إن الوصول إلى هذا المستوى لا يتم إلا على مراحل ثلاث، هي:

التعليم الفردي. وهو يهدف إلى تدريب المقاتل على المهام التي تُطلب منه ولفته إلى الصعوبات التي تواجهه، وتلقينه أساليب حلها من خلال تجارب زملائه ومحصلة الخبرة الطويلة العامة للجيش، مع التركيز على معرفة العسكري لسلاحه من مواصفات وإمكانات واستعمال، فضلاً عن تعليمه أساليب الحيطنة لحماية نفسه من الأخطار المعادية.

التعليم الجماعي. ويتوخى صهر الطاقات الفردية في بوتقة منسقة ضمن الوحدة ثم يتسامي صعداً بالتنسيق بين المجموعات المختلفة في إطار غاية أساسية دائمة هي تحقيق المردود الأقصى وتسهيل أمر الإدراة والقيادة.

. الإتقان. وهو أشبه ما يكون بعملية تدليك محرك السيارة لكي يعمل بيسر ونعومة وإنتاجية عالية. ولا يتحقق الإتقان إلا بالمران والممارسة الطويلة القريبة من الواقع، بحيث يرتدي العمل العسكري طابع الروتين الوتيرى الأوتوماتي وبذريعته الحياة اليومية.

وعندما يتقن الإنسان عمله، يثق بنفسه وبإمكاناته وقدراته. وكذلك فإن قناعة العسكري لاستعمال سلاحه يكسبه الثقة بهذا السلاح وبالتالي الثقة بنفسه. إن الثقة بالنفس هي الصخرة الصلدة التي تشكل الأساس الهام لأية منجزات عسكرية كبيرة.

والثقة بالنفس لا تنفصل عن الثقة بالفريق أو المجموعة، خصوصاً عندما تتوصل الجماعة إلى إتقان دورها إن منفردة أو في الإطار الأكبر. والإتقان الذي نعنيه يؤدي مباشرة إلى المهارة التي تتميز بسرعة التنفيذ وسهولة القيادة والإنتاجية العالية.

### القيادة:

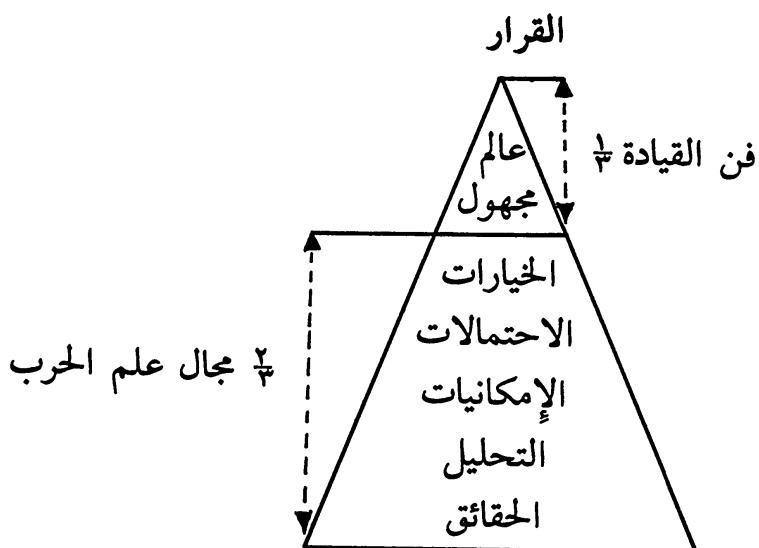
في كلامنا عن التأثير على المعركة تحدثنا عن جو الحرب الذي تحكمه أربعة عوامل هي الخطر والجهد البدني والشك وضبابية المعلومات، وأخيراً مواجهة الأحداث المتغيرة ومعاييرها. وإذا كان جو الحرب ينبع على كل مقاتل ويؤثر في تصرفاته ورداته فعله وإنجابيته، فحرى بنا إذن أن نهتم بأمر القائد دماغ المعركة ورأس حربتها. فهو القبطان الذي يسير دفة المركب وسط الأنواء والأعاصير، عندما تختلط بوصلة التقدير وتهتز قواعد الحسابات العادية. ولذلك فإننا لا نبالغ إذا نادينا بالقاعدة الذهبية الآتية:

الحرب = قيادة

يقول الجنرال جان بيرييه أن هناك ثالوثاً يهيمن على الحرب هو الذكاء والشجاعة والسلاح. فلو أردنا تطبيق هذا القول على القائد ووسّعنا دائرة خيالنا لقلنا ان الحرب قائد سلاح. فالقائد ذكاء وشجاعة ومعرفة، والسلاح هو الجيش الذي بين يديه.

لقد تعمدنا هنا الاجتزاء في التخصيص والتأنيل في التعليم لنعبر من خلال ذلك إلى التحدث عن المؤهلات التي يجب أن يتمتع بها القائد قلب الجيش وروحه: لكن قبل المباشرة بالتفصيل يجدر بنا التذكر أن الموقف الذي تعيش فيه القائد ترتبط بالوقت وضغط الأحداث والخطر ومتطلبات العمل وضرورته، وهذا يتطلب منه التصميم والمعرفة والنزاهة في القرار والعمل والتصريف. إن القيادة أو الرزامة في بعض نواحيها عطاء رباني، وهذا ينبعنا إلى عدم إهمال وجوه الشبه بين الزعيم والقائد، فالإثنان يقودان الأتباع لتنفيذ ما يرغبونه

أولاً يرغبونه، هما اللذان يقودان بينما يضطر الإداري العادي أن يماشي آراء الأكثريّة. من هذا المنطلق يمكن تحديد القيادة بأنها فن توجيه الناس للعمل خارج نطاق إرادتها وأن القائد القائد هو الذي يسيطر على أتباعه بصورة ممتازة ويووجههم للعمل بقطع النظر عن رغباتهم وإراداتهم. هذا ويبقى أن نقول أن القيادة هي فن القرار المليئ خارج نطاق المعطيات، ويمكن أن نرمز إليها من خلال الرسم الآتي:



من هذا الرسم يتبيّن فعلاً أن القائد هو من يتقن المسير عبر المجهول منطلاقاً من الخيارات المتوفّرة للخروج بالقرار المليئ، وهذا لا يتوفّر إلا للقائد الذي تؤمن له الصفات الآتية فضلاً عن مسحة الإبداع والإلهام:

الذكاء والبداهة. يقول كلاوزفيتز أن قراراتنا على احتكاك دائم مع تجاربنا، وعلى الفكر أن يبقى مستنيراً بصورة دائمة. وما دامت الصفة الفكرية تختل مكان الصدارة في مجال القرارات القيادية، وبما أن الحرب هي تفاعل مستمر وديناميكي متغيرة أبداً، تغشاها ضبابية الشك والصدف، أصبح الذكاء الماهر الخارق الأداة الأساسية لاستشاف المستقبل وتقدير الأمور حق قدرها، لأن الذهن الواضح والفكر المنظم يساعدان على سرعة التفهم وكشف الحقائق، فيقترن الفهم بالبداهة التي ليست إلا ردّ فعل للذكاء اللماح المستنير، والسبيل إلى التفوق في حقل الصراع مع الأمور الطارئة وذلك بسرعة النجدة التي يقدمها هذا الذكاء في أسلوب تفكير سليم متوازن.

هذا ولم نبدأ في تصنيفنا للمؤهلات القيادية بالذكاء إلا لأنّه عامل يتفاعل مع المؤهلات الباقية ويؤثر فيها بشكل أو باخر.

الشجاعة والاتزان. الشجاعة أمّ الخصال العسكرية وهي على نوعين، شجاعة طبيعية وشجاعة مكتسبة.

أما الشجاعة الطبيعية فهي عامل شخصي يعود إلى تركيب الإنسان الفيسيولوجي ولا مبالاته واستهانته بالمخاطر، أو إلى جو التربية العائلي المحيط الذي ينشأ فيه. إن هذا الاندفاع والاستهانة يكسبان الإنسان الصلابة والصمود أمام المخاطر ويدفعانه للتضحية وهم يتأثران بالقناعات الوراثية والأيديولوجيات والعقائد والإيمان.

هذا النوع من الشجاعة يعتبر حالة دائمة لا تتأثر بالفكر الطارئ أو الذكاء كثيراً ولكنها قيمة ثابتة يمكن توظيفها في المعركة باستمرار، وهي قد ترتبط إلى حد بعيد بحال الشعوب الحضارية ونشاطاتها. يقول كلاوزفيتز كلما قلت النشاطات المختلفة لدى شعب من الشعوب رجح فيه النشاط الحربي. ربما لم يعد هذا القرار صالحًا للتعتميم الواسع الآن، ولكنه في نظري ينطبق إلى حد بعيد على الشجاعة الفردية والشراسة. فالفقر والحرمان والالتصاق بالأرض عوامل تحريض لاستشارة كوامن الشجاعة أو ضيق الصدر والتزق في النفوس.

أما الشجاعة المكتسبة فهي الشجاعة الوعية الذكية التي إذا افترت بالشجاعة الطبيعية ارتفت إلى أسمى مراتب الاندفاع والتضحية وأكملها، وهي تنموا وتتفتح في ظل التجارب والمارسات المستمرة، وخير مثال على ذلك عمليات الفداء التي قادتها المقاومة الوطنية اللبنانية ضد العدو الإسرائيلي الغاصب. إن هذا النوع من الشجاعة يتأثر بعدة عوامل متغيرة وهي بالتالي شعور وانفعال غير ثابتين. لذلك نرى أن الإقدام وهو الابن الشرعي للشجاعة المكتسبة، نراه متغير الشدة في الشخص نفسه من ظرف إلى آخر، وبين مهمة وأخرى. ولا عجب في ذلك ما دام الإقدام هو المخاطرة المحسوبة التي تتأثر بالطموح والحماسة وحب الظهور والعاطفة والأيديولوجية. لكن عندما تطغى العاطفة على الإنسان يتعطل عمل الفكر فينشئ الذكاء ويفقد قدرته على الحساب. إن وصول الشجاعة إلى هذا المستوى يعتبر تهوراً وهدراً للطاقة، إذا لم يضبطها الفعل الوعي المترزن، وهي غير مستحبة. أما التصميم المستمر المدروس والرصين فهو حالة من الشجاعة الذكية النادرة والإقدام المطلوب في كل آن وزمان.

الإرادة. يقول كلاوزفيتز إن الإرادة الصلبة تقف بكل عظمتها في قلب الفن العسكري، كما يقف العمود وسط ساحة تنتهي إليها جميع الشوارع الرئيسية في المدينة. قول رائع وتزداد روعته مع ازدياد ظهور صحته وحقيقة. إن تقويم المسائل العسكرية وتقدير الموقف إن على الصعيد المتوسط أو على صعيد لعبة الأمم أخذ يهتم أكثر فأكثر بدراسة القائد

المعادي للتنبؤ بردات فعله والمواقف التي سيتخذها تجاه الأحداث من خلال النظر إلى ماضيه وطبيعته وصفاته القيادية، ومن أهم هذه الصفات ميزة صلابة الإرادة التي تعمل على إذكاء روح التحدي والحماسة والتصميم والأمل ومناقب الشرف. وهنا يحضرني حديث تلفزيوني لإيغال آلون عن لقائه بجمال عبدالناصر أثناء حرب ١٩٤٨ في أبو عجيلة. قال بيريز: لقيت عبدالناصر لأفواضه على الاستسلام، فكان رده: أعرف أنكم أقوى مني وليس باستطاعتي الانتصار أو فك الحصار، ولكن في استطاعتي القتال حتى آخر جندي وعدم تدنيس شرف مصر. هذا مثال على إرادة وتصميم العارف الذي يعي أبعاد المخاطر التي تنتظره في حال مكابرته، ولكنه رغم ذلك يكابر كي لا يدنس شرف بلاده منها بلغت التضحيات. إنها الإرادة تتجلّى في أبهى مظاهرها وأروع توجهاتها.

هذا وقوه الإرادة تتجلّى في أمرتين هما الحزم والصمود. فالحزم هو الصلابة وردة فعل الإرادة في مقاومة أية صدمة تتعرض لها، أما الصمود والمقاومة فهما الحزم المستمر كما وصفه كلاوزفيتز. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الصمود والمقاومة يحتاجان إلى قوى معنوية وجسدية تتوفّران في الشعوب البدائية أكثر من توفرها في الشعوب المتحضرّة، التي تسهم المدنية في رفع مستوى الرفاهية فيها وبالتالي تؤثّر في تدني الطاقة على المقاومة والصمود. إن التخشّن في التربية والحياة عامة عامل أساسي في تأهيل الإنسان على التحمل والصبر وهذا ما قال به النبي العربي الكريم عندما أطلق عبارته المشهورة: «اخشوشوا فإن النعم لا تدوم».

قوه الشخصية. وتعتمد على الاتزان وضبط المشاعر والأهواء، وتحكيم العقل المادىء بعيد عن الانفعال في أخرج الظروف وأعنف حالات الفوضى والغليان، بالتصريف الملائم في الوقت الملائم، بحيث لا تفقد بوصلة العقل والمصلحة توجهها الثابت، أو تتبذّب في متاهات الأهواء المتقلبة وعتمة الضياع الدامسة. ويجب أن لا يفهم من تركيزنا على الثبات في التوجّه أننا نجيز العناد مادام نوعاً من أنواع استمرار الإرادة: إن العناد شيء وقوه الشخصية والثبات شيء آخر. إن قوه الشخصية والثبات ترتكزان على معطيات عقلانية ملموسة وقناعات منطقية مدروسة، أما العناد فَصَلْفُ وغرور وتهور سلبي وغباء، وقد يكون ظاهرة نفسية تعبّر عن ضعف الشخصية في مجال المحاولة اليائسة لإثبات قوتها.

حسن الأرض والتوجّه. لقد تكلّم عن هذه الميزة كثيرون لأنها تلتتصق التصاقاً مباشراً بإدارة العمليات العسكرية ونجاحها. هي في الواقع مفتاح سر القيادة، لأن المعركة تعامل مع الأرض والجيوش، فمن أحسن التعامل مع الأرض اجتاز نصف الامتحان وفوّت على خصميه ميزة الاستفادة من تقديرات الأرض. إن القائد الذكي الذي تسعفه خيالاته وذاكرته

على استيعاب التصور الحقيقى للتضاريس الأساسية التى تهم مستوى القيادى فى مسرح عملياته، ويعرف إمكانات قواته في التحرك عليها، يستطيع أن يناور ببراعة ويقود قطاعاته بسهولة ومرنة وتنسيق. هذا وترتفع قيمة هذه الميزة عندما يعمل القائد خارج وطنه أو في أرض لم يشاهدها أو يألفها سابقاً، لأن من تعرف إلى الأرض قبل عدوه واكتنه أسرار ميزاتها تمكن من توظيف تلك المميزات لصالحه وسرق عطاياها من أمام عدوه.

ملاءمة الكفاءة للمنصب. من المسلم به أنه كلما علا منصب القائد كلما احتاج إلى مستوى فكري أرفع وقدرة على التحليل والقرار وتحمل المسؤولية. فالجندي المغوار لا يحتاج مثلاً إلا إلى قدر كبير من الشجاعة والاندفاع بينما يكفيه نزير يسير من العقل يقاد يجاور الغريزة، بينما يحتاج قائده إلى الجمع بين الطاقة البدنية والشجاعة والعقل بنسب تتفاوت مع الارتقاء في سلم التراتبية بحيث يحمل العقل رويداً رويداً مكان الطاقة الجسدية والاندفاع، وتحل الشجاعة المسؤولة الوعية الرصينة الدائمة مكان الاندفاعات الفورية والمقامرة المتهورة.

. كم من قائد لواءً لامع فشل في قيادة فرقة، كما أنه كم من ضابط أركان عミز سقط في امتحان قيادة كتيبة أو مجموعة صغيرة. وهنا يحضرنا القول الفرنسي المشهور الذي يرى أنه ليس بالضرورة أن يكون المساعد الناجح قائداً ناجحاً. إن القيادة فن له مواصفاته، ومؤهلات القائد هي التي تميزه عن غيره. هذا وكما قلنا سابقاً إن القيادة لها رافدان يؤهلان القائد لتسليم مسؤولياته، وهما راقد رباني يرتكز على المؤهلات التي يضعها الخالق في الإنسان عند ولادته، ورافد اكتسابي يأتي من التعليم والتدريب وصقل المعطيات الربانية.

بعد أن عرضنا موضوع القيادة من مختلف جوانبها لا بد أن نعود ونكرر بأن الحرب قيادة، وبأن الجيش قائد، وبأن العناصر المؤثرة في عامل القيادة والتي أتينا على ذكرها يمكن وضعها في صيغة معادلة رمزية تسهيلاً للتذكر والاستحضار.

$$\text{القيادة} = \text{ذكاء} + \text{شجاعة واتزان} + \text{إرادة} + \text{شخصية} + \text{حسن الأرض} + \text{كفاءة}$$

$$\text{ق} = \text{ذ} + \text{ش} + \text{أ} + \text{خ} + \text{ح} + \text{ك}$$

### العناوين :

الإنسان مادة وروح، وقد شغل بعنصريه المادي والروحي العلماء والمفكرين عبر الزمن. منهم من اهتم بالروح مهملًا المادة متوجهاً إلى الغيبات والماورائيات، ومنهم من أهمل الروح وركز على المادة مكتشفاً أسرارها ونوميسها والقوانين التي تحكمها مسجلًا بذلك الانتصار

العلمي تلو الآخر، ومسهماً في مسار التطور الحضاري. ومنهم فريق ثالث حاول إجراء توازن بين المادة والروح لما للأخيرة من قيمة وإن كانت غير مكتشفة حسياً. إن الحدنس والتسامي العرفاني وإعمال العقل والتأمل يدفعان إلى نوع من الجدل حول وجود هذه القوة وطاقاتها ضمن حدود متفاوتة تأرجح بين النفي والشك واليقين.

ولا يهمنا هنا الخوض في متأهات الجدل الفلسفية، وإنما الذي يعنينا هو الاقرار بأن التطور العلمي قد سار أشواطاً بعيدة في مجال اكتشاف المادة وقوانينها بينما لم يتعد التطور الروحاني سن الطفولة في مجالات الروح الشاسعة. لم توجد المقاييس الحازمة والضوابط بعد، كما لم تتضح الحدود والأفاق ولا تزال الرؤية ضبابية في مكان كثيرة.

من هنا يظهر لنا جلياً أننا أقدر على تقويم حدود الطاقات العسكرية المادية في أية حرب من الخوض في سبر أغوار القوى المعنوية وتبيان حدودها. لقد أثبتت حروب التحرير وحروب الأنصار التي شهدتها العالم خلال هذا القرن صحة قولنا وخطأ النظرة المادية البحتة إلى الأمور، التي تجعل من الإنسان رقمًا بسيطاً في المعادلة الحربية. وإن كان من الضروري أن يحول الإنسان إلى رقم لتسهيل أمر صياغة هذه المعادلة تمهيداً للتعامل معها بأسلوب عقلي ومنهجي، فلا بد إذن من اعتباره الرقم الصعب كالحجر الفلسفى الذى حلم به العلماء قديماً ليحولوا بواسطته كل شيء إلى ذهب. هذا الرقم الفلسفى الصعب إنما تكمن صعوبته في تقدير حدود قواه المعنوية وطاقاتها على الصمود واجترار العجائب. سنعود إلى موضوع المعنويات بإشارات لاحقة، ولكننا سنكتفي الآن تدليلاً على أهميته بයایراد معادلة قانون الاستراتيجية العام وتفسير رموزه.

ز م ق ك = س

- تمثل (س) العمل الاستراتيجي.
- تمثل (ك) عاملًا خاصاً بالحالة الخاصة المحلية والعالمية.
- تمثل (ق) القوة المادية.
- تمثل (م) القوى المعنوية وهي ما يهمنا في هذه المعادلة الآن.
- وتمثل (ز) الزمن.

إن نظرة بسيطة على هذه المعادلة تجعلنا نلاحظ أن جميع العناصر سهلة التحديد مادياً إلا العنصر المعنوي الذي يبقى اللغز الأكبر والعامل الأكثر تغيراً. وهنا نلاحظ بوضوح أيضاً أنه في حروب التحرير عندما يكون العامل (ق) ضعيفاً والعامل (ك) غير ملائم وضعيف،

فلا مندوحة إذن من اللجوء إلى قوة العاملين (م) و (ن). هذا الذي يحصل دائمًا في حروب الضعفاء ضد الأقوياء، إذ لا يمكن الانتصار إلا بالاعتماد على الزمن وعلى الصمود المعنوي، وسندرس ذلك فيما بعد.

الآن، وبعد أن عرضنا العوامل التي تؤثر على الفاعلية القتالية للقوى الصديقة، لا بد من إيجازها في معادلة سهلة المنال على الشكل التالي:

$$\text{أ - الفاعلية القتالية} = \text{عامل البشري} \times \text{عامل المادي}.$$

$$F = B \times D$$

$$\text{ب - العامل البشري} = \text{العديد} \times \text{المعنىات} \times \text{القيادة}.$$

$$B = U \times M \times C$$

$$\text{ج - العامل المادي} = \text{العتاد} \times \text{التنظيم} \times \text{المهارة}.$$

$$D = T \times N \times H$$

$$\text{د - تصبح المعادلة على الشكل التالي:}$$

$$F = (B \cdot D) = (U \cdot M \cdot C) (T \cdot N \cdot H)$$



# فن الحرب

التطور التاريخي  
مستويات الفن العسكري



## التطور التاريخي

واكب فنُ الحرب التاريخَ في تطوره ضمن سياق متصل الفكر مرتكزاً على تفاعل الحاجة والعقل، رغم ظهوره للوهلة الأولى بأنه انتشار قمم متباعدة في متأهات التاريخ. والحقيقة الثابتة هي أن فن الحرب سلسلة تراكمات معارف وإغناء تجربسي للفكر العسكري عبر العصور. لقد مر هذا الفن في مراحل عدة وانتقل من مرحلة إلى أخرى سالكاً المفارق المميزة للزمن ومنعطفات التاريخ الحاسمة، وكان للانتقال في كل مرة أسباب، إما بداعي استمرارية الحركة التاريخية أو بداعي الظروف الراهنة، أو لأسباب عقلانية تكنولوجية موجبة. وما هذا التطور إلا سنة من سنن التكيف والتلاؤم مع المحيط، يحكمها دافع البقاء والاستمرار بالارتكان إلى قطبي الأمان والأنانية. أما هذه المراحل، ورغم تفصيلاتها الجزئية المتشعبة، فيمكن وضعها ضمن خطوط عريضة هي المرحلة الفردية والمرحلة الشعبية والمرحلة النظامية. ثم العودة إلى الحرب الشعبية.

### المرحلة الفردية :

تعود هذه المرحلة إلى فترة بدائية الإنسان يوم كان يقاتل بداعي الحفاظ على الحياة الشخصية ضد محيطه الشرس من حيوان وإنسان. وإذا جاز لنا التعبير فيمكن وصف مناخ هذه المرحلة من وجهة نظر الفن العسكري بالغريزية والروتين الفردي وانعدام الأمان، لأن المحيط الذي يعيش فيه المرء ما هو إلا بقعة صيد يقتضى فيها الإنسان قوته وأمنه بالاستباق أو بالصراع. فكما يتربص الصياد بالطريدة خفية ويقترب منها صامتاً وعلى حين غرة، كذلك كان يفعل الإنسان أخيه الإنسان. أما إذا انكشف أمره وانعدمت المفاجأة فيتقلل الإنثان إلى الصراع ويحكم بينهما ميزان الجسد والعقل والشجاعة. لذلك يمكن القول بأن الفن العسكري في هذه المرحلة اعتمد الغدر بالكمين والماياحة بالإغارة، ثم المبارزة أو المصارعة في حال انعدام المفاجأة، مع التركيز على التملص السريع أو الهرب كأسلوب لتفادي الخطر. لقد كانت المعركة في هذا العصر تتراوح بين توافق إرادة الخصمين من جهة وعند الغدر تعتمد على إرادة أحد الطرفين من جهة أخرى.

## المرحلة الشعبية :

لقد اخترنا اسم الشعبية لهذه المرحلة تركيزاً على مفهوم اشتراك الشعب كله في القتال، وليس على اشتراك فئة معينة دون باقي الفئات. توافقت هذه المرحلة مع طور تكون التجمعات البشرية ضمن عائلات وعشائر ذات روابط ومصالح مشتركة، تبعها بعد ذلك اتجاه إلى الاستقرار بعد حياة الترحال أدى إلى بزوع نزعة الارتباط بالأرض وتعاظمها. بدأت نزعة الاستقرار تتجلّى مع ارتباط الإنسان بكهفه، وتطورت مع توسيع العلاقات بمحيطه الأرضي رويداً رويداً بما يتلاءم مع تنامي المصالح وتعقيداتها.

من هنا يظهر أن هذه المرحلة تقسم إلى فترتين زمنيتين، فترة حياة العشيرة والترحال أولاً ثم فترة حياة السكن والاستقرار ثانياً، مع ما رافق ذلك من ظروف التحول بين الفترتين، وتعايش الحضارة والبداوة في آن معاً حتى يومنا الحاضر.

هذا وتجدر الملاحظة أن عنصر الجهد الذي ظهر في صدر الإسلام هو راوند من الروافد الأساسية الكبرى للمرحلة الشعبية في مجتمع الجزيرة العربية، ومن ثم في المجتمعات دول الخلافة المتعاقبة، ولكن بنسب متفاوتة ومتناقضة. كذلك فالدعوة المسيحية للمحافظة على الأماكن المقدسة أو تخليصها من أيدي المسلمين وحماية طريق الحجاج قد عملت خلال الحروب الصليبية في نفس الفكرة والإطار رغم أنها كانت تستبطن في طياتها غaiات اقتصادية وتطلعات لتوسيع مساحات النفوذ.

فترة العشيرة والترحال. اتسمت هذه الفترة عسكرياً بمفهوم القبيلة المتنقلة باحثة عن الكلاً. وكان الارتباط بالأرض ضعيفاً غير وثيق، فلا قيمة لها إلا بقدر ما تقدم من غذاء للمواشي والأنعام. كانت القبائل وخاصة في البلاد العربية، تنتقل صيفاً شتاءً طالبة الرزق ضمن نطاق غير ضيق في الأرض، ولكنه يبقى محدوداً بالمكان من حيث طاقات وسائل النقل. هذا يعني أن قيمة عامل الأرض تكبر طرداً مع اتساع الرقعة التي يمكن أن تكون هدفاً للحرب. فموقع التخيم لم يكن ذا قيمة للفيلية لأنها تتركه إن عاجلاً أم آجلاً تحت ظروف الحاجة للمراعي، ولكن عندما تسع البقعة المحرمة على قبيلة ما تزداد قيمة عامل الأرض فعالية. ومفهوم التنقل القبلي في نطاق محدود بالمكان قد تمكّن المغول من ضربيه فيما بعد، فاجتاح جانكىز خان وهولاكو آسيا وأوروبا في الزحف وراء الرزق والاستيطان. هنا تتجدر الملاحظة أن عمليات المغول كانت قبلية إلى حد بعيد من ناحية المهاجم وحضرية استقرارية من ناحية المُدافِع، أي أنها وقعت في عصر حضري فمثّلت التحضر بين نهرين في الحياة لا يزالان يتعايشان حتى الآن، هما حياة البداوة وحياة الحضر. وما ذكرنا هنا

لحملات المغول وإن أتت من الناحية الزمنية في فترة السكن والاستقرار عامة، إلا لأمرين: أولهما التدليل على تعايش نهجي الترحال والاستقرار في العالم، وثانيهما الالتفات إلى القدرة على كسر بوتقة محدودية المكان بالوسائل البدائية التي اتبعها جانكيز خان باعتماده الأمور الآتية:

- مذهب الشعب المسلح.
- الحرب الصاعقة المرتكزة إلى:
  - العمل السريع بواسطة الخيالة.
  - الاستمرار.
  - المفاجأة.
- التركيز على الاستعلام للمعركة.
- الاهتمام بصلاحة الشؤون الإدارية والمدنية في البلاد المحتلة.

كذلك لنا مثل آخر في موجات الهجرة القديمة المتعاقبة من الجزيرة العربية نحو السواحل الغربية، التي كسرت إلى حد بعيد نطاق محدودية المكان، ولا تزال أخبار تغريبةبني هلال الشاهد الحي على ذلك. لم تنحصر هذه الظاهرة في الشعب العربي فقط، بل برزت في شعوب أوروبية عديدة، وهذا يدل إلى أن هذه التحركات ترمز إلى حقبة زمنية معينة في تاريخ الشعوب.

على أية حال فقد تميزت هذه الحقبة قتالياً بطوابع خاصة فرضتها الظروف ألا وهي:  
● من الوجهة الهجومية. في هذا الصدد سيطر أسلوب الغزو بالإغارة للكسب والسلب والسببي، حتى أن نظاماً خاصاً بتوزيع الغنائم والسبايا كان يسود تلك المجتمعات. لقد بقيت آثار هذا النظام جلية عند العرب حتى فجر الإسلام وتدخلت مع القوانين الإسلامية. أما الوجه الثاني للقانون فكان الثأر الذي استمرت بسببه حروب كثيرة في الجزيرة العربية كحرب داحس والغبراء وحرب البسوس. رافق هذا الأمر نهجان في فن القتال هما الكمين والتعقب، وقد تطلب نوعاً من الاستعلام عن العدو للبقاء في صورة تحركاته بغية النجاح في الإجراءات القتالية. إن الاستعلام بقصد الغزو والتعقب والكمائن كان أسلوباً شائعاً بواسطة الرسل والعساين والسبايا وربما كانت هذه الوسائل الجذور الحقيقة لعمل المحسوسية الآن.

لقد تطورت في هذا الجو مفاهيم اجتماعية وقانونية وفنية كثيرة، منها الإيجارة والحماية وهدر الدم والإجلاء، فضلاً عن ظاهرة الصعاليك وفن اقتداء الآثار... ، إلخ.  
هذا ولم تكن المعارك إلا عملاً خاطفاً لا يستمر طويلاً، ولذلك كان يطلق على المعركة

اسم اليوم، أو الوعة. أما الحروب فقد كانت مجموعة من المعارك يفصل بينها فترات زمنية كبيرة، ويبقى السبب الأول القاسم المشترك الأساسي فيها.

● من الوجهة الدفاعية. في هذه الفترة كانت أفضلية الدفاع هي للعيال أولاً والمال ثانياً، أما الأرض فقد كانت في المقام الأخير، وغالباً لم تعط أية أهمية. هذا وتزداد شراسة الدفاع بازدياد الخطر المحدق بالعيال ثم المال، وعندما يتمكن المدافع من إجلاء عياله وما له إلى مكان آمن حصين كان ينظر إلى المعركة بنظار السلامة، فإذا كان الخصم قوياً فـ مفضلاً تفادي المعركة، أما إذا تبين له أن الخصم ضعيف قارعه وأجبره على الفرار وغنم منه ماله. المسألة كلها تقدير لوقف بميزان الخسارة والربح المادي في مجال العيال والمال ليس إلا.

فترة السكن والاستقرار. عند ظهور القرية زاد ارتباط الإنسان بالأرض أهمية، وتدخل عاماً المال والمكان ليصعب فصلهما، فتصلب دفاع الإنسان ضد الغارات على مسكنه، واشتدت الحرب ضراوة وتخربياً وطالت مدة المعركة وازدادت أهمية التلامم بين المدافعين ولدى المهاجمين، وبرزت وبالتالي ضرورة وحدة القيادة بشكل أكبر مما كانت عليه خلال الفترة العشائرية، الأمر الذي حدا بالمدافعين إلى تسويير مدنهم أو القسم الحساس من أماكن سكنهم بحيث يلجم الأهالي كافة إلى داخل الأسوار عند ظهور أي خطر مداهم.

هنا بدأ عصر التحصينات والخنادق الذي لا يزال مستمراً حتى الآن، وإن كانت حقبة الأسوار قد ولّت منذ زمن بعيد. وبظهور الأسوار وما رافقها من أبراج وخنادق، تطور فن الحرب وظهرت فيه أفكار جديدة. لقد أثر ذلك في الهجوم والدفاع وفي الوسائل والأساليب لدرجة حملت البعض على اعتبار التحصين مبدأً من مبادئ الحرب يسهم في الاقتصاد بالقوى ويوفر الوقت والحماية في آن معاً.

● في الهجوم. تطور القتال تكتيكياً وتقنياً مركزاً على أمور هامة، هي:  
— التطويق والحاصار كوسيلة لاستنفاد المواد الدفاعية والغذائية المخزونة، أي بعبارة أخرى اللجوء إلى سياسة التجويع.  
— تخريب الممتلكات والأرزاق خارج الأسوار لاستدرج المدافع إلى معركة في العراء في زمان ومكان لا يلائمنه.  
— ظهور الوسائل التقنية لفتح الثغرات في الأسوار وتسلقها كالمنجنيق والسلام والانطلاق في مسيرة تطوير الوسائل الهجومية.

● في الدفاع. كانت الأمور تسير بشكل مغاير وفي الاتجاه المعاكس لتردد على الأعمال الهجومية فتركّز الأسلوب الدفاعي على الإجراءات التالية:

- اتباع سياسة خزن المؤن لفترات طويلة.
- تقوية الأسوار ورفعها بحيث يصعب ثقبها وتسلقها ثم تحصينها بالأبراج والشرفات ومرانز الرماية.
- استعمال المنجنيق والنيران كوسائل دفاعية.
- حفر الخنادق المملوءة بالمياه حول الأسوار وتقوية التحصينات بالأفخاخ والخوازيق.  
بالإضافة إلى ذلك فقد اعتمد أسلوب حرب العصابات خارج الأسوار لإبقاء العدو في توتر وإرهاق مستمرتين وضرب وسائل تموينه ورسله. كان الليل الغطاء الأساسي لتسلل المقاتلين عبر الأسوار وللاختفاء في الأدغال والمفاوز، وأدى شيء على ذلك القصور والقلاع الماثلة إلى الآن كتراث تاريخي سياحي في أوروبا، وروايات القصور العربية كالخورنق والسدير والحلابات وعمرًا التي تداول أخبارها الكتب التاريخية.
- أما سياسة الأحلاف فقد كانت أفعى الأساليب للضغط على المهاجمين لفك حصارهم إذا ما هددوا بالتطويق من قبل أحد الجيوش الجديدة، فضلًاً عما كان لظروف المناخ والطقس من تأثير على الجيوش المنتشرة في العراء لفترات طويلة.
- هذا ويمكن اختصار فن الدفاع في ذلك العصر بكلماتي الصبر والإنهاك. إنها مسألة يأس وإعياء، فمتى اقتنع المطرّق بعمق تدابيره وبدأ يحس بالإرهاق والتعب عدل عن إجراءاته وانتهت المعركة.

### المرحلة النظامية:

جاءت المرحلة النظامية لتلبّي حاجات التطور الاجتماعي والاقتصادي والتكنولوجي للشعوب. ظهرت في البدء في بلاد اليونان مرادفة للحضارة الاغريقية العريقة، ومن ثم اعتمدها الرومان والشعوب كافة، كل حسب ظرفه الحضاري الاجتماعي والاقتصادي والتكنولوجي. أخذت الأمم تقibus عن بعضها النظم العسكرية بما يلائم ظروفها ومستوياتها في مجال التقدم. درست أمور التسليح والتدريب وتطورهما، كما طور استعمال الحصان ومن ثم الآلة كأداة للحركة والصدام والملاحقة. كذلك برزت ظواهر التنافس بين الأسلحة في إطار التنظيم وأسلوب الاستعمال والترتيب في القتال كاستخدام البنادق والرمّاحين وحاملي السيف، بالإضافة إلى التنافس بين الرجال والخيالة قديمًا، واستمرار ذلك التنافس التطور في نطاق تنسيق استعمال الأسلحة حتى يومنا هذا، وذلك باعتماد مقاييس المستوى التكنولوجي وتقنية الاستخدام للحصول على المردود الأقصى. تارة يفرض التطور التكنولوجي نفسه على التقنية التي تفرض نفسها وبالتالي على التنظيم والتكتيك، وطورًا تسلك

القضية الطريق المعاكس انطلاقاً من الحاجة عبر التكتيك وصولاً إلى التكنولوجيا. هنا تظهر الحال كأنها صراع تكنولوجي فقط كما في التنافس بين الدرع والمدفع أو الطائرة والأسلحة المضادة لها أو في مجال الحرب الإلكترونية.

هذا الأمر ليس مطلقاً الصحة، فللاستراتيجية والتكتيك دور في التوجه، وعلى أية حال فلن نتوغل في رحاب التطور العلمي ونكتفي بهذه الإشارة إلى التلازم والتفاعل المستمر بين التكنولوجيا والتقنية والتكتيك تحت سقف الاستراتيجية في إطار جدي متضاد، لنخلص بعد ذلك إلى ثوابت أساسية ميزت المفهوم النظامي للجيوش ألا وهي :

- تحضير قوات محددة العدة والعدد والتنظيم، وبالتالي أسلوب القتال والنفقات نظراً لفداحة التكاليف الحربية.
- لم يعد الشعب بكماله الأداة القتالية المباشرة بل أصبح أداؤه غير مباشرة في إطار القوة القومية.
- أصبحت المعارك تُدار بين مجموعات منظمة وجيوش شرعية تنوب عن الشعب وتحفظ أمن الدولة الخارجي والداخلي.
- انتفاء وجود السلاح بين أيدي الشعب بحيث أصبحت الخسارة والربح لكلا المتصارعين تقررها نتائج مبارزة القوات النظامية.
- تضاؤل فرص المفاجآت وعلى الأخص الاستراتيجية منها.
- أصبح لقتال مسببات ومكان وزمان محددين.

لا يعني هذا الأمر غياب قتال الشعب إلى الأبد، بل بقي ظاهراً راسخ المعالم في النداء بالأمة المسلحة من قبل بعض المفكرين العسكريين وهذا ما اعتمده ليبية، أو من خلال العودة إلى عمليات الأنصار وحرب التحرير الشعبية والمحروbs الأهلية، فضلاً عن اعتماد الدول أساليب مختلفة للتعبئة الحربية، والتي تعود بجذورها إلى المرحلة الشعبية بالتركيز على واجب الإنسان في الإسهام بالدفاع عن أهداف وطنه وأمته.

نظرة تأمل عبر الماضي إلى التنظيم والتجميع والترتيب والممارسة تجعلنا نلاحظ أن هذه التوائم قد مررت خلال المرحلة النظمية في عهود تنظيمية مميزة هي : عهد الترتيب الخطبي، وعهد الترتيب الشبكي، وعهد الحركة والخرق، وعهد توأمة الطائرة والدبابة، والعهد النووي، ثم العودة إلى حرب الشعب. هذه العهود سنعرض مقوماتها بإيجاز في العجالات الآتية.

عهد الترتيب الخطبي. وهو العهد الذي كان فيه السلاح الأبيض الأداة الأساسية للقتال حيث ينظم الجيșان للمعركة في صفوف طويلة تبلغ الكيلومترات أحياناً، وعلى ثلاثة أنفاق

هي المشاة الخفيفة، أي النّبالة، فقوة الصّدم المؤمّنة من المشاة من نسقين الأول لأصحاب السيوف والرماح القصيرة والثاني لأصحاب الرماح الطويلة. كان دور النّبالة هو افتتاح المعركة لإرباك العدو، ومن ثم الانسحاب عبر الصفوف إلى الخلف ومتابعة إمطار العدو غير المشتبك بالبنال عن إحدى الرّبّى والمرتفعات أو الجوانب، ومن ثم ملاحقته إلى مسافة محدودة جداً بعد تقهقره. في هذا العهد لا يدوم الترتيب الأولى إلا لحظات يختلط بعدها الحابل بالنابل. في تلك الظروف كانت عمليات الالتفاف على الجوانب صعبة أو مستحيلة إلا في حال استعمال الخيالة كأداة التفاف وتطويق وملحقة.

هذا ومن الملاحظ في ذلك العهد، وكأمر طبيعي، أن رهبة المقاتل تتدنّى في حال حماية جنبيه ومؤخرته من قبل رفاقه، بحيث يبقى اهتمامه محصوراً بالعدو الذي يواجهه. أما العدو الذي يأتيه من الخاصرة فيربكه ويُشل تصرفاته، ناهيك عن العدو الذي يفاجئه من الخلف فلا يستطيع ردّ أذاء في الوقت الملائم. لذلك كانت نهايات الصفوف نقاط ضعف وعورات حساسة للجيوش، فإذا ما تمكن أحد الجيشين من الالتفاف عن جانب خصمه إلى مؤخرته حقق النصر غالباً. هذه كانت الحال في الماضي ولا تزال قيمتها فاعلة في الوقت الحاضر، أكان ذلك في الالتفاف أو الخرق لأن الغاية دائماً هي خرق الجوانب والالتفاف عليها.

لقد تميزت تلك الفترة بأمور عدّة، أهمها:

- صعوبة الالتفاف على الجوانب وعدم تحقّقها إلا للجيش الأكبر صاحب الصفة الأطول أو في حال إتقان تركيز ثقل الخيالة السريعة الحركة بشكل خفي على الجوانب.
- اللجوء إلى عمليات الخرق بدلاً من الالتفاف كونها تخلق بجانب اصطناعية لدى العدو.
- كان الجيش يتسم بطابع كونه نقطة مرتبطة بالمكان والزمان قادرة على تفادي المعركة التي لا تنشب في الواقع إلا بموافقة ضمنية من كلا الطرفين، الأمر الذي حدا بالماريشال موريس دو ساكس (١٦٩٦ - ١٧٥٠) إلى القول: «إني لست من أنصار المعارك وأعتقد أن القائد الماهر يستطيع القيام بالحرب طوال حياته دون أن يضطر إلى خوض غمار معركة واحدة. إنه من الضروري القيام بمناورات متعددة متواترة وإذابة العدو بشكل متدرج، ولا شيء يضعف العدو ويحسن موقفنا مثل هذا الأسلوب. إني لا أريد أن أقول أن علينا عدم مهاجمة العدو إلا إذا توفرت لنا فرصة سحقه، ولكنني أؤكد أنه يمكن أن نخوض الحرب دون أن نترك شيئاً للصدفة في المعركة. إن القائد الذي يستطيع ذلك يبلغ ذروة المهارة والأخذ». لقد كانت مهارة القائد تتجلّى في خداع خصمه لاستدراجه إلى قبول المواجهة في مكان وزمان لا يناسبانه. حتى أن بعض القادة لجأوا في عمليات الحصار إلى تخريب الأرض المحيطة بالأسوار لإجبار أخصامهم على القبول بالمعركة قسراً.

- كانت الحرب تتسم بالطول وعدم الحسم لأن القائد العارف كان يلجأ إلى فك الاشتباك والانسحاب عندما يحس برجحان كفة خصميه العسكرية.
- كان التحرك أمراً منفصلاً عن المعركة غالباً ما كان للقائد الوقت الكافي لتحضير ترتيباته القتالية.
- الافتقار إلى العمق في الترتيبة الأمر الذي لفت القادة إلى تطوير تشكييلاتهم وتعميقاتها باستعمال عدة أنساق متالية، ومن ثم استعمال نظام المربعات والكراديس فيما بعد والتي تبقى دائرة في فلك النظام الخطي.

عهد الترتيب الشبكي. أخذ هذا العهد شكله البارز والمميز أيام نابليون بونابرت وإن لم يكن في الواقع عنده إلا حصيلة تطور الجيوش وقتها في القارة الأوروبية كلها، بعد أن تطور العتاد وبرزت أهمية القوة النارية التي أمنها تطور البندقية فسمح بتقليل عدد الصنوف في النسق الواحد وأصبح النسق مؤلفاً من ثلاثة صنوف، وأحسن المفكرون العسكريون كفولر وجبيير، بإمكانية اتباع نوع جديد من العمليات أكثر فعالية وحسماً. وأصبح من المستحيل بعد تضخم عديد الجيوش حصرها في حيز مكاني هندسي. أما ميزات هذا العهد فهي:

- ظهور تنظيمات محددة للجيوش تتناسق فيها مختلف الأسلحة، معتمدة المستويات والوحدات العضوية.

● توزيع الجيوش أثناء الانتقال على شبكة من الأراضي تستفيد من الطرق والممرات والمعابر، وتتمون من الأرض التي تنتقل عليها غالباً.

- أصبح ترتيب الحركة والتجميع مرتبطين بترتيب القتال، وتحولت الشبكة إلى جبهة حيث كانت القوى تسير متفرقة وتقاتل مجتمعة. هذا الأمر أوجب اعتماد المهارة في تنسيق الحركة والتمويل ودقة توقيت التجميع والتجمع، فأصبحت العمليات مزيجاً من الحركة وال المعارك بعد أن كان العملان منفصلين في الماضي.
- ظهور أهمية المناورة وضرب الجوانب والمؤخرات وجّر العدو للقتال على جبهات معكوسة.
- إمكانية إرغام الخصم على قبول المعركة في جميع الحالات وإرباكه بعدم معرفته مركز الثقل ونقطة الضرب القادمة أو الاتجاهات الحقيقة للمسير.

عهد الحركة الخرق. وقد جاء هذا العهد نتيجة حتمية لفهم قيمة الحركة والتأليل في الجيوش وإن بصورة محدودة أو مخصوصة من بعض القادة. وقد تحلت قيمة الحركة بالتطبيقات المتالية واستراتيجية مطرقة شليفن والسباق نحو البحر فاختلطت العمليات بالمعركة. لكن

قصر نظر بعض القادة وعدم تقديرهم لسر الحركة حق قدره، فضلاً عن تساوي إمكانيات السرعة في التحرك ووجود شبكات السكك الحديدية وامتداد الجيوش وكثرة قواها من جراء التجنيد الإجباري وسهولة التسلح لدى الخصمين، أعاد كل ذلك الحرب إلى اعتماد الجبهة الطويلة المتصلة، فغطت الخنادق والتحصينات مسرح العمليات كله، وتوزعت الأسلحة الرشاشة على طول الجبهة، وراوحت المعارك في مكانها في وثيره زمنية ثقيلة، وإنهاك متبدل غير ذي جدوى وتعادلت جبهة المعركة مع مسرح العمليات.

لم تتمكن هذه الحقبة من الاستمرار بعد ظهور عقم فكرها العسكري، فبرزت من جديد أهمية الخرق سيما وأن عمليات التطويق أصبحت بعيدة المنال بسبب طول الجبهات وتماسكها. أنعش هذا الديناميكية بعدها ركدة في حرب الخنادق منذ عام ١٩١٤ لفترة غير قصيرة. لكن تنفيذ الخرق بقوات من المشاة لم يكن كافياً للتغلب العميق بسرعة، لذلك أصبح العمل بأساليب إحداث جيوب في جدار العدو الدفاعي تؤدي إلى الإنهاك المتبدل واستئناف القوى الاحتياطية، غالباً ما تصبح مصائد قاتلة للمهاجم. دفع هذا الوضع الجنرال فوش لاستخدام مناورة الطرق المتتابع لوصول الجيوب وتطويرها، غير أن هذا الأسلوب العنيف لاستخدام القوى أثبت كلفته العالية والثمن الباهظ غير المحتمل لتحقيق النجاح، وأظهر بأن القادة لم يتبيّنا السر الكامن في الحركة وأهمية السرعة والمرونة والصدمة. عهد توأمة الطائرة والدبابة. تميز هذا العهد بأهمية التنسيق بين مختلف الأسلحة وخاصة الدبابة والطائرة الوسيطتين في الحروب التقليدية، سيما بعد التطور المذهل الذي ظهر في حقول التكنولوجيا والتقنية، فبرزت أهمية حرب الحركة والخرق بقوى مدرعة، ثم التوغل العميق داخل خطوط العدو لاستئثار النجاح بالتدمير والتطويق والتجاوز، وأصبحت المعركة جزءاً لا يتجزأ من العمليات الخامسة وربما جاءت فاتحة لها. أما مميزات التوأمة هذه، فهي :

- المرونة الفائقة وسرعة الحركة.
- العمق الاستراتيجي الكبير للحرب، إذ لم يعد أي مكان في أراضي المتخاصمين في منأى عن الويلات والدمار وازدادت أهمية ضرب المراكز الحساسة والأدمعة أثناء القتال.
- شدة القوة التدميرية للقنابل.
- لم يعد هدف الحرب التدمير المادي للعدو بقدر ما أصبح تفتیت نظامه والسيطرة على إرادته القتالية من خلال الضرب العميق الموجع والمربك نفسياً والذي يشلّ أجهزة القيادة والإدارة والسيطرة والتمويل.
- إن هذا العهد هو المطبق حالياً في الحروب التقليدية وسيبقى كذلك إلى أجل غير محدد.

العهد النووي. وهو عهد الرعب والخوف والإبادة، عهد الأهداف الكبيرة والخسائر الكبيرة. ونظراً لمستواه الاستراتيجي وبخصوصيته رغم استحداث أسلحة نووية تكتيكية، ولارتكازه بصورة عامة على التكنولوجيا، فسنؤجل البحث في هذا الميدان إلى حين مباشرة دراسة الأمور الاستراتيجية.

إن ما يهمنا الآن هو معرفة أن هناك حقبة جديدة في التطور العسكري فرضت ضوابط صارمة على الحرب ووجهتها بسبب الردع النووي نحو الأعمال المحدودة وحروب التدخل الضيقية وعمليات الإرهاب والحروب الشعبية، ولم يعد من الجائز التفكير في حروب عامة شاملة دون اقتران ذلك بفناء البشرية.

### **العودة إلى الحرب الشعبية:**

إن الإرهاب وال الحرب الشعبية ظاهرة من ظواهر العصر الحاضر، أفرزتها حاجة الإنسان إلى الاقتراب من جديد إلى طفولته الشعبية وطاقاته الجسمية والنفسية لنيل مآربه تحت المظلة النووية الحاكمة التي يفرضها توازن الرعب. وخلال حرية التصرف الضيقية بين تناقضات الحروب الإقليمية المحدودة والصراعات بالواسطة والعمل غير المباشر تبرز أهمية العودة إلى الحرب الشعبية، والتفتیش على الأهداف المحدودة، ونظراً لأهمية هذا الموضوع سنعود إلى معالجته مجدداً في سياق بحث لاحق، ولكن ما يهمنا الآن هو التركيز على أن الحرب الشعبية كما الحروب المحدودة، أصبحت التنفس الطبيعي لأزمات العصر بعد أن سيطر ظل الردع النووي الرهيب.

## مستويات الفن العسكري

إذا ما رجعنا إلى دراستنا في باب نظرية الصراع نجد أنه من المفيد التذكير بأننا قد عرّفنا الحرب بالعمل الإكراهي العنفي للشخص، وبأنها أسلوب إدارة متطرفة للصراعات السياسية تعبيراً عن مصالح المجتمعات البشرية، تحكم فيه نزاعات الأمان والأمانة، ويهدف إلى فرض إرادة أحد المتصارعين على خصمه. وانطلاقاً من مفهومنا للحرب كأسلوب إدارة متتطور للصراعات يماشي التطور الحضاري ويتعقد بتعقيداته؛ نرى أن هذا التعقيد يزداد باطراد كلما ارتفعنا في مراقي تقدم البشرية في جميع مجالات النواحي العلمية والفكرية التي تظهر في حقول التكنولوجيا والتقنية. وفي انتقالنا من السهولة والبساطة إلى التعقيد والتشابك تزداد أهمية تحديدنا لمستويات الفن العسكري، واستيعاب معطياته، والتعرف بمعاهيمه، وتحديد مفاصيله الهامة، وتبين الحدود الفاصلة بين المستويات ومجالات التشابك ومعابر الانتقال.

لم يكن هذا الموضوع في الماضي أمراً يشغل العسكريين أو المدنيين نظراً لاختلاط الاستراتيجية بالتكتيك ولبساطة التقنية وانعدام التكنولوجيا، ولعدم حاجة القائد إلى إجهاد الفكر في التحديدات النظرية ما دامت الحاجة لا تفرض ذلك. كان الفن العسكري يلازم السلبية والمنطق والشخصية، فكم من قائد بارع أتقن الاستراتيجية دون أن يعلم بوجود هذا الفن. وكم من آخر أجاد في المجالات التكتيكية دون أن يشعر بالفاصل بينها وبين الاستراتيجية ولم يكن بحاجة للتحذلق بالتفتيش عن ذلك. وخلال الأيام بدأ القادة يشعرون بقيمة هذا الأمر، سيما بعد إسراع عجلة التطور العلمي وخروج فن الحرب عن مفهوم المهارة والشطارة، ولم يعد الإغفاء بالتجربة كافياً للسير على مسالك القيادة الشائكة. إثر ذلك انكبّ الباحثون في الغرب على دراسة الأمر من خلال تفحص التاريخ فكتب فيجس في نهاية القرن الرابع الميلادي مؤلفه دراسة عن الفن العسكري. ثم جاء عصر نابليون حيث تعقدت المسألة العسكرية فدخلت عليها عوامل النار والحركة واللوجستية، واضطرب القادة في الرعائل الوسيطة إلىأخذ القرار وتقدير الموقف وخوض المعركة منعزلين عن القيادة العليا، الأمر الذي أوجب عليهم الإمام بالقواعد والشؤون القيادية. استنبط عصر نابليون أساليب

عقلانية في التفكير اعتبرت لفترة طويلة الحال الناجز النهائي لعضلات الفن العسكري. ولكن الواقع كذب ذلك، فجاء كالوزفيتز ليفلسف الحرب وينظر إليها بعمق في إطار اجتماعي شمولي، ومن ثم تبعه في القاطع الآخر الفكر الماركسي معتمدًا على تعاليم سان تزو وللينين ليضع تصوراته في قاعدة المادة التاريخية وصراع الطبقات. وتطورت دراسة الفن العسكري في العصر الحاضر فدرس ريمون آرون الموضوع في فرنسا في كتابه «السلم وال الحرب بين الأمم»، كما بحث ليدل هارت البريطاني الأمور الاستراتيجية في كتاباته مركزاً على الأعمال غير المباشرة، كما بحثت الحرب الشعبية بإسهام من قبل كل من ماوتسى تونغ والجنرال الفيتلنامي جياب.

كل ذلك شكل إغناءً تراكمياً وتطوراً هاماً في حقل الفكر العسكري، وكوئن أساساً انطلقت منه المدارس الأمريكية والروسية الحديثة لتنظيم البحوث الدائمة المستمرة والمنظمة محترمة أهمية الفن العسكري، سيما بعد بروز الأسلحة النووية الرهيبة إلى الساحة وتنصيبها كحلم صارم وضع خطأ أحمر لمستويات العنف وتأجيج الصدام في مجالات الصراع الدولي. شكل هذا المنحى والمنهج العلمي تطوراً متشعباً في بنية الفن العسكري، وأصبح من الضرورة بمكان تحديد المستويات كما نوهنا سابقاً، واكتناه مراميها وأبعادها الأمر الذي يصعب تيسيره للإنسان دون التبحر العلمي والتقطيع المنهجي. لقد استقر المفهوم العلمي الحديث على اعتماد مستويين متباهين للعمل العسكري هما الاستراتيجية والتكتيك، أما الوصل بينهما فيتم عبر جسر العمليات، ويدور تفاعಲها حول محوري التكنولوجيا والتقنية بحيث تفرض التكنولوجيا نهجها حيناً على التكتيك عبر التقنية لتضع بصماتها على صفحة السقف الاستراتيجي في النهاية، وحياناً آخر توجب الاستراتيجية تكتيكياً معيناً يطبع التقنية بطابع خاص يحرك الفكر البشري الخالق لتطوير التكنولوجيا حسب الحاجة وفي الاتجاه الملائم.

ولا تكتمل هذه المداخلة إلا بتوضيح مفهوم كل من التكنولوجيا والتقنية والتكتيك والاستراتيجية لظهور الحدود ويتبين الترابط والتأثير. سترك الحديث عن التكتيك والعمليات والاستراتيجية لباب لاحق، لأنها مواضيع سنسترسل في الحديث عنها، ونعرف الآن بكلمات التكنولوجيا والتقنية مكتفين مؤقتاً بهذا التوضيح.

التكنولوجيا: هي التطور العلمي والفنى في مجال العتاد والمعدات، والطاقات التي يقدمها هذا التطور.

التقنية: الأساليب المتطورة لاستخدام التكنولوجيا في خدمة الإنسان للاستفادة من خصائصها وطاقاتها.

# الاستراتيجية

تمهيد وتعريف

الاستراتيجية في المجال العسكري

مظاهر الاستراتيجية وصفاتها

التخطيط الاستراتيجي

الجسم الاستراتيجي

أنواع الاستراتيجية وقواعدها

المناورة الاستراتيجية

الإعفاء حرب الضعفاء



## تمهيد وتعريف

تأخذ الاستراتيجية اسمها من الخدعة والخيالة، وقد تغير مفهومها عبر العصور بتغير الفكر وأسلوب النظر إليها، وبعد أن كانت تفهم في إطار الحاضر، أخذت- بسبب التطور البشري تلقي ظلالها على مساحات أوسع وتسير من التخصيص نحو التعميم والشمول. كانت في البداية محصورة في ما يتعلق بالحقل العسكري وأما الآن فقد دخلت غالبية المقول وتفاعلـت مع مفاهيمها.

في سالف الأزمان كانت الاستراتيجية ملازمةً لاستباط الخطط العسكرية التي كانت من اختصاص الرؤساء أو الملوك في ظل الحكم الاستبدادي والملكيات المطلقة حيث كان الملك يمثل رأس الهرم في كل شيء والقائد العسكري لشعبه في جميع الحروب. يقود الحملات بنفسه ويطلق شرارة الحرب ويخدمها ساعة يشاء. في ذلك الزمان كان التخطيط الاستراتيجي العمل الأساسي للملك المستبد، ولذلك اعتبرت الاستراتيجية فن تخطيط وتوجيه الحروب. من هذا المنطلق نظر إلى الاستراتيجية كانصهار وتوزيع للقوة ضمن العمل الموحد.

ومرت الأيام فدخل على صناعة الاستراتيجية تعديل طفيف في الشكل، وبعد أن كان الملك المطلق الصالحة المحتكر الوحيد لهذه الصناعة، اضطر إلى إشراك غيره في هذا العمل بسبب التعقيدات الموضوعية، وانتقلت الصناعة إلى مراكز القوى في الدولة حيث أخذت تشارك الملك في بعض أوجه الممارسة والتخطيط الاستراتيجي. حدث هذا التحول عندما اضطر الملك إلى إشراك رأس المال الوطني في تمويل حملاتهم وعندما توسيـت المعارك وكبرـت الجيوش فأصبح من الضروري استخدام القادة والمساعدين. لقد بـرـزـتـ هذهـ الـظـاهـرـةـ فيـ حـرـوـبـ الـثـلـاثـيـنـ عـامـاـ حيثـ استـعـانـ الأـبـاطـرـةـ وـالـمـلـوـكـ بـقـادـةـ عـسـكـرـيـنـ دـرـبـواـ عـلـىـ الـعـلـمـ العسكريـ وـقـادـواـ جـيـوشـ فـيـ المـارـكـ بـعـيـداـ عـنـ مـلـوـكـهـمـ.ـ فـيـ هـذـهـ المـرـحـلـةـ تـحـولـ الـعـلـمـ الاستـرـاتـيـجـيـ إـلـىـ مـشـارـكـةـ بـيـنـ الـمـلـكـ وـالـقـائـدـ.ـ قـامـتـ هـذـهـ المـعادـلـةـ عـلـىـ إـمـساـكـ الـمـلـكـ بـزـمـامـ الـقـرـارـ وـتـصـرـفـ الـقـائـدـ الـعـسـكـرـيـ فـيـ تـنـفـيـذـ الـخـطـطـ الـإـسـتـرـاتـيـجـيـةـ.

وجاء عصر النهضة الأوروبية فحصل تحول آخر في صناعة الاستراتيجية وذلك في نهاية القرن الثامن عشر بعد قيام الثورتين الأمريكية والفرنسية، ففرضت الظروف والمفاهيم نفسها وأصبح الشعب مصدر القوة والعامل التنفيذي للإستراتيجية، وأصبحت الاستراتيجية لا تقاس بمصدر القوى فقط ولكن بالقيادة السياسية والأفكار أيضاً. هذا الوجه الديموقراطي للمسألة أشرك الشعب في صنع القرار الاستراتيجي بواسطة ممثليه في المجالس التمثيلية، وسمح للرأي العام في توجيه القرار ورعايته. أدى هذا النوع من المشاركة إلى توسيع المفهوم العام للإستراتيجية ونقلها من الحيز العسكري الصرف إلى ميدان أرحب وأوسع حيث تداخلت العوامل الاقتصادية والسياسية.

وحل العصر النابليوني فتراجع مفهوم النهضة للإستراتيجية بعد سيطرة الامبراطور على مقاليد الدولة والعودة إلى الحكم المطلق. رجع نابليون بالاستراتيجية إلى معادلة المشاركة بين الملك والقائد وحضر، بسبب عظمته القرار بشخصه فضاق بذلك حيز تصرف معاونيه وأصبحت مشاركتهم تقتصر على التنفيذ المحدود لما قرره بونابرت.

لقد أثر نابليون كثيراً في التحضير لتطوير المفاهيم الاستراتيجية لسبعين هما: أولاً اعتماده النظام الشبكي في القتال واضطرار القيادات الوسيطة للتعامل مع المعارك على مستوى العمل الاستراتيجي، وثانياً اتساع رقعة حربه من إيطاليا إلى مصر فروسيا، الأمر الذي أعطى للمناورة العسكرية رؤية واسعة الإطار لا يمكن حصرها في استراتيجية المشاركة البسيطة بين الملك والقائد. عرف نابليون الاستراتيجية بأنها فن الحرب وأبقى تعريفه في إطار العموميات ضمن صيغة العلاقة البسيطة بين الملك والقائد، مع أنه فتح بمارسته باب التطور كما أسلفنا. ورغم ذلك لم يحيز المفكرون العسكريون بعد نابليون مباشرة عتبة الحد العسكري للإستراتيجية وإن كان كلاوزفيتز قد حاول ربطها بالسياسة بأسلوب تجريدي.

وبعد أن كانت الاستراتيجية أخذت صورة فن القادة (الجزنالات) جاء المفكر العسكري جوميني ليعطيها طابعاً ملموساً بعيداً عن التجريد فعرف الاستراتيجية بأنها فن صناعة الحرب على الخريطة وتشمل كل مسرح العمليات. لم يأت هذا التعريف بكافٍ بل حصر الأمر بالتخطيط للعمليات العسكرية متناسياً تشعبات الاستراتيجية وتطلعاتها خارج حدود النطاق العسكري الضيق. كذلك جاء تعريف الأرشيدوق شارلز مقلوباً رأساً على عقب إذ عرف الاستراتيجية بأنها علم الحرب والتكتيك فن الحرب، الأمر الذي أثبت عدم صحة قلبه للتحديات.

أما كلاوزفيتز فقد استطاع بحسه المتفوق أن يميز الطبيعة السياسية للإستراتيجية وأن يسعفه حده في تلمس امتداداتها الأخرى. وعلى أهمية السياسة في تحديد الهدف

للاستراتيجية، لذلك قال بأن الحرب امتداد للسياسة بوسائل أخرى. أعطى الأسبقية للهدف السياسي الموجه وأكد ضمناً بأنه لا وجود لحرب من دون هدف سياسي تخدمه. لقد وصف كلاوزفيتز الاستراتيجية بأنها استخدام الاشتباك وسيلة للوصول إلى هدف الحرب، كذلك فهي فن استعمال الوسائل بتطابق صحيح مع الأهداف. هذا واعتبر أن فن الحرب هو فن معرفة استخدام وسائل معينة في القتال. هذا يعني أن الاستراتيجية هي فن إدارة الحرب من تجنيد إلى تجهيز وتسلیح وتدريب وقتل وإدامة وصيانة، وبذلك يكون قد أعطى الاستراتيجية صفة استمرارية تسبق الحرب وتسير معها لتخطّطاها إلى النتائج مهتمة بالتحضير وبالنشاطات المتعلقة بالحرب نفسها. من هذا المنطلق جاء تعريفه للتكتيک والاستراتيجية على الوجه التالي:

التكتيک: هو نظرية استخدام القوات المسلحة في الاشتباك.

الاستراتيجية: هي نظرية استخدام الاشتباكات في خدمة الحرب.

بعد كلاوزفيتز جاء مولتكيه ليعرّف الاستراتيجية بالتطبيق العلمي لجمع الوسائل المختلفة من قبل القائد للحصول على الهدف المطلوب. حصر مولتكيه الاستراتيجية في نطاق العلم وأبعدها عن الفن فانتفت صفة الإبداع عنها الأمر الذي يجانب الحقيقة، ويرهن الاستراتيجية بميكانيكية النهج العلمي وهذا أمر غير صحيح.

وبعد انقضاء قرن على وفاة كلاوزفيتز جاء المؤرخ البريطاني ليدل هارت ليعود ويؤكد بأن الاستراتيجية هي القيادة العسكرية أو فن الجنرالات، أما روحها فالاتفاق حول جناح العدو وإنقاده توازنه. قاد هذا التفكير إلى توضيح مفهوم التقارب غير المباشر ثم الاستراتيجية غير المباشرة فيما بعد وهي ما وصفه الجنرال أندريه بوفر بتقاديم أخذ الثور من قرنيه. هذه المطلقات جعلت هارت يحدد الاستراتيجية بفن توزيع واستخدام مختلف الوسائل العسكرية لتحقيق هدف السياسة. لقد سار على خط كلاوزفيتز واعتمد على مفهومه القائل بأن الحرب شكل من أشكال العلاقات البشرية، والسياسة هي الرحم الذي تنمو فيه الحرب. لم يتعد عن هذا الخط كثيراً ولكنه وصف الاستراتيجية بالفن وركز على استخدام مختلف الوسائل في إطار تنسيقي يسلك الطريق غير المباشر. إن أهم ما جاء به ليدل هارت هو التوسع أكثر في مفهومه للاستراتيجية، إذ قال بوجود استراتيجية عسكرية واستراتيجية كبرى، وهي تلك التي تنظر إلى ما يتعدى الحرب، أي فترة السلم التي تعقب الحرب. لقد وضع الاستراتيجية الكبرى في المرتبة الأولى وبذلك أكد أن الاستراتيجية هي فن إقامة السلم، وهذا منعطف هام في تاريخ مفهومنا للاستراتيجية.

كانت الاستراتيجية في الزمن الغابر تعتبر فن قيادة . الجيوش في المعارك، أي الفن الأساسي للحرب. هكذا كان الفكر يرى الاستراتيجية إبان الحروب الصليبية والرومانية والبابلية. ثم جاء العصر النابليوني لينظر إلى الاستراتيجية كأداة استخلاص للعبر من النزاعات لتطبيقاتها في الحروب اللاحقة. وجاء جوميني وكلاوزفيتز، ليضعها الأول في إطار التقنية الشكلية وليفتحها الثاني على السياسة ويعتبرها أداة من أدوات تحقيق أهدافها. أما ليدل هارت فقد افتتح عهد النقلة النوعية الثانية بعد كلاوزفيتز ليقول بأن الاستراتيجية أداة للسلام وليس للحرب فقط، فهي فن سلمي قبل أن تكون فن حرب، ولذلك رأيناه يشدد على العمل غير المباشر لأنه يفتش عن الغاية ولا يهمه أن تكون الوسيلة عنيفة بالضرورة.

وبعد مدرسة ليدل هارت الإنكليزية ازدهرت المدرسة الفرنسية الحديثة من خلال مفكرين أحدهما صحفي سياسي هو ريمون آرون، وثانيهما عسكري هو الجنرال بوفر. وكما كانت مدرسة هارت نقلة نوعية كذلك جاءت المدرسة الفرنسية وقد اتسمت عند المفكرين الاثنين بعلامات مختلفة وربما أخذت عند آرون صفة العودة للينابيع.

يقول آرون بأن الاستراتيجية هي قيادة وتوجيه بجمل العمليات العسكرية، أما الدبلوماسية فهي توجيه العلاقات مع الدول الأخرى على أن تكون الاستراتيجية والدبلوماسية تابعين للسياسة. هذا التحديد يحصر الاستراتيجية في حيز ضيق في الاتجاهين الأفقي والعمودي، فهو يحصرها أولاً في النطاق العسكري ثم يضعها كتابعٍ للسياسة وعلى قدم المساواة مع الدبلوماسية. بهذا التعريف يعيد آرون الاستراتيجية إلى قواعدها القديمة ويؤكد على أنها فن القادة ولا عمل لها إلا في النطاق العسكري بينما طبيعة الظروف تدفعها للتغلب من هذا الإطار الضيق للالتحام مع مفاهيم أخرى سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية.

أما الجنرال أندريه بوفر فيرى بأن المفاهيم السابقة للاستراتيجية تظهرها كأنها فن استخدام القوى العسكرية للوصول إلى نتائج حددتها السياسة. وهذا التعريف ضيق ومحدود لأنه لا يتعامل إلا مع القوى العسكرية فقط، لذلك فضل صياغته في عبارة أخرى تقول بأن الاستراتيجية هي فن استخدام القوة للوصول إلى أهداف السياسة، كذلك يرى بأن الاستراتيجية هي فن التأثير على الغير وليس ذلك بالضرورة من خلال استعمال القوة العسكرية. يتأثر بوفر كثيراً بفوش فيوافقه على أن روح الاستراتيجية كامنة في اللعبة المجردة الناجمة عن تعارض إرادتين، كما يأخذ بمفهوم نابليون القائل بأن الاستراتيجية هي الجزء الإلهي لكل موقف مقابل التعاون المتداول بين العوامل المادية. لكن وإن كانت الاستراتيجية لمعة من لعات العبرية والفن فهو يرى أن من الضروري خضوعها للفكر والعقل. ويستدرك

بوفر فيرى أن عيب هذه التعاريف هو في ارتباط الاستراتيجية بالفن العسكري عامة، بينما من الضروري أن تنسحب تعاريفها على أكثر من حقل وميدان. هذا ويفضل بوفر أن يقسم العمل العسكري إلى استراتيجية وتكليك وشئون إدارية (لوجستية). وهو يعرف هذه العناصر الثلاثة كما يأقى:

**التكليك:** هو فن استخدام الأسلحة في المعركة للوصول إلى المردود الأقصى. هنا يظهر أنه يركز على التقنية والتكنولوجيا بشكل غير مباشر، لأن الوصول إلى المردود الأقصى في استعمال الأسلحة لا يتم إلا بالمعرفة التقنية والمهارة في استخدام نتاج التطور التكنولوجي في الأدوات المخترعة.

**الشئون الإدارية:** هي علم الحركة والتمويل.

**الاستراتيجية:** هي فن التأثير على إرادة الغير بشتى الوسائل. هذا التعريف هو تركيب استراتيجي لأفكار بوفر وليس عبارة حرفية وردت على لسانه، لأن تحديده المعروف هو ما أورده سابقاً ألا وهو بأن الاستراتيجية هي فن استخدام القوة للوصول إلى هدف السياسة.

نلاحظ هنا عند بوفر أن للإدارة والتكليك صورة مادية وإن كان للأخير وجه فني، وبالتالي فهما أقرب إلى حكم القواعد العلمية المادية، بينما تبقى الاستراتيجية خارج نطاق المادة وقى رحاب العبرية في الجزء الأكبر من مكوناتها. إن التقارب منها يجب أن يتم عن طريق الفكر والعقل والمنطق والاستدلال والحدس وتبقى الألمعية مفتاح كل تقارب.

لقد كان هارت وبوفر مشعли نار تفاعل الفكر في العصر الحديث حول المسائل الاستراتيجية، لذلك توالت التعاريف المختلفة. فرأى مفكرون بأن الاستراتيجية بشكل عام هي فن استخدام وسائل معينة لبلوغ أهداف معينة. كما رأوا أن الاستراتيجية العامة ترتكز أصلاً على سلطة سياسية وهي وبالتالي فن إشراك مجموع الوسائل الموضوعة بتصرف الحكومة لبلوغ الهدف الذي تحدده تلك الحكومة. هذا يدفعنا إلى الانتقال من التعميم إلى التخصيص في التسمية والقول بوجود استراتيجيات متخصصة مختلفة، كالاستراتيجيات العسكرية والاقتصادية والسياسية والنفسية وما شابه من استراتيجيات تستمد أسماءها من الوسائل المستعملة ومن مستوى الهدف المرجو وحقول العمل ومن الخصوصيات أو الميزات الذاتية لكل واحدة. إن اعتماد أسلوب التخصيص يسمح لنا القول بأن الاستراتيجية العسكرية هي فن استخدام الوسائل العسكرية لبلوغ الأهداف التي تحددها السياسة، أما التكليك فهو التنسيق بين الحركة والنار للوصول إلى تحقيق تأثير الصدم.

قبل متابعة البحث لا بد من إثبات عدة تعاريف للاستراتيجية تدل على الفكر العسكري الحديث وهي :

تعريف كلية القيادة والأركان الأمريكية : الاستراتيجية هي تطبيق مبادئ الحرب بهدف التحضير لها وتجيئها ، أما التكتيك فهو تطبيق مبادئ الحرب في إدارة المعركة .

تعريف التاموس العسكري الأميركي : الاستراتيجية هي فن وعلم تطوير واستخدام القوى السياسية والاقتصادية والنفسية والعسكرية للأمة أثناء الحرب والسلم لدعم السياسات القومية وزيادة احتمالات النصر وتقليل فرص الهزيمة .

تعاريف كلية الحرب الصينية الوطنية :

• الاستراتيجية : هي فن تطوير واستخدام القوة لخلق واستثمار موقف ملائم بحيث تزداد احتمالات النجاح ونتائجها المفضلة بدرجة كبيرة عند متابعة الهدف القومي أو هدف الحرب أو هدف الحملة أو هدف الحلفاء أو خوض المعركة الخامسة .

• الاستراتيجية القومية : هي فن تطوير واستخدام مجموع القوة القومية لخلق واستثمار موقف ملائم بحيث تزداد احتمالات النجاح ونتائجها المفضلة بدرجة كبيرة عند متابعة الهدف القومي .

• الاستراتيجية السياسية : هي فن تطوير واستخدام القوة السياسية لدعم الاستراتيجية القومية بخلق واستثمار موقف ملائم بحيث تزداد احتمالات النجاح ونتائجها المفضلة بدرجة كبيرة عند متابعة الهدف السياسي .

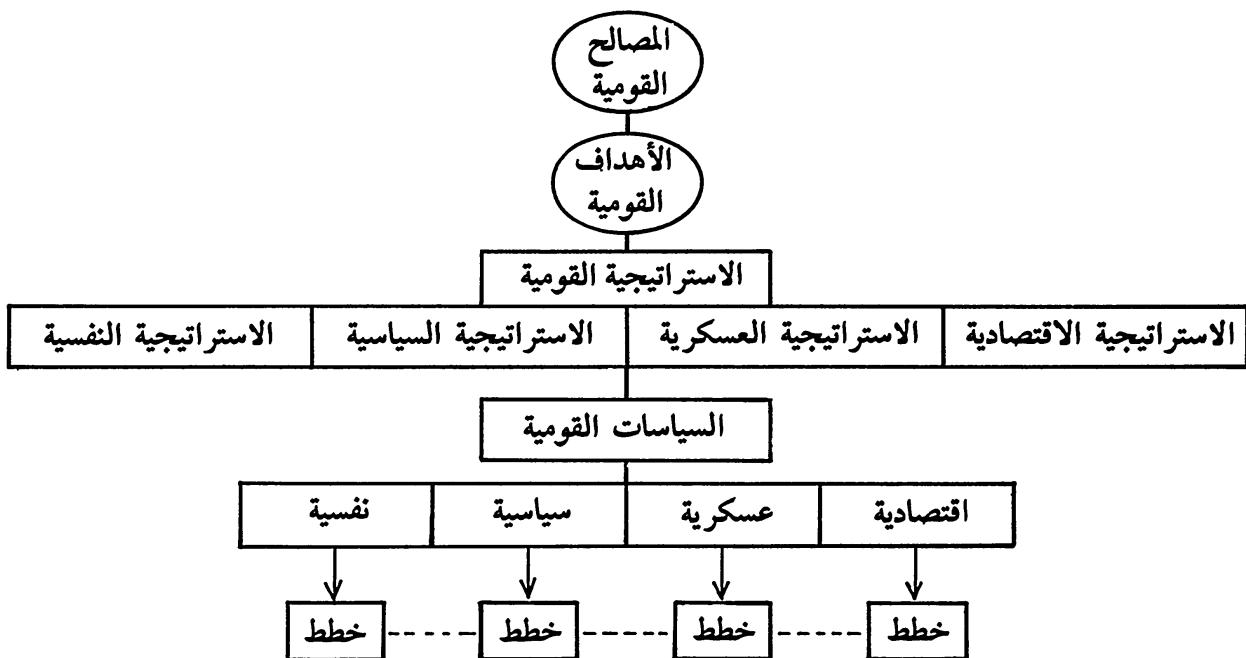
• الاستراتيجية العسكرية : هي فن تطوير واستخدام القوات المسلحة لدعم الاستراتيجية القومية بخلق واستثمار موقف ملائم بحيث تزداد احتمالات النجاح ونتائجها المفضلة بدرجة كبيرة عند متابعة الهدف العسكري .

هذا الأسلوب من التعريف يمكن تطبيقه على مختلف الاستراتيجيات من اقتصادية ونفسية وما إلى ذلك من استراتيجيات أخرى .

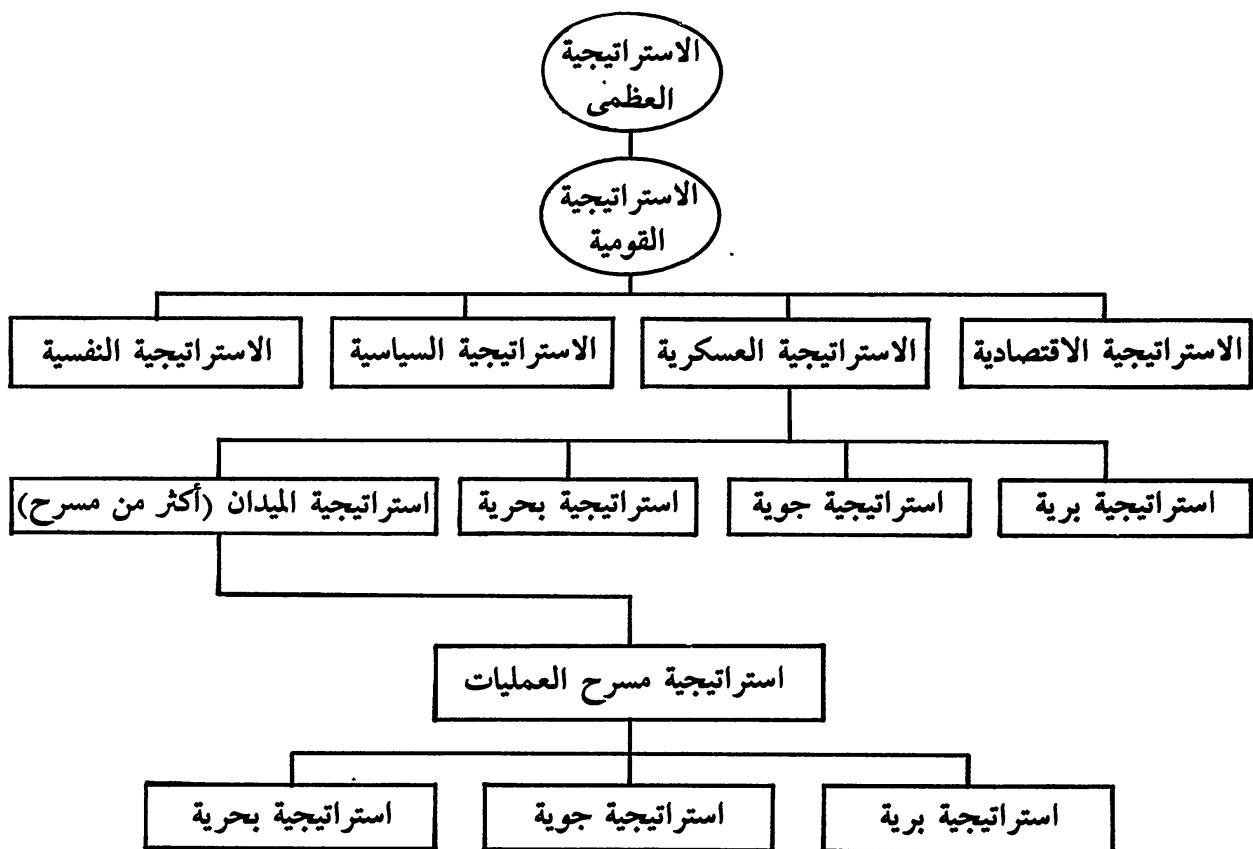
• الاستراتيجية العظمى : وهي الاستراتيجية التي توضع خدمة قوة عظمى وحلف معين من عدة دول ولذلك يمكن تحديدها بالأتي :

الاستراتيجية العظمى هي فن تطوير واستخدام قوة الأمم المتحالفة لخلق واستثمار موقف ملائم بحيث تزداد احتمالات النجاح ونتائجها المفضلة بدرجة كبيرة عند متابعة هدف الحلفاء .

## التخطيط للاستراتيجية القومية



## تقسيم الاستراتيجية



التكتيك: هو فن استخدام قوة القتال في مجال دعم استراتيجية الميدان (العمليات) لخلق واستثمار موقف ملائم بحيث تزداد احتمالات النجاح ونتائجها المفضلة بدرجة كبيرة عند القتال في معركة حاسمة أو مسک هدف تعبوی (تكتيكي).

القتال: استثمار قدرة المقاتلين ومهاراتهم باستخدام أسلحتهم في دعم التكتيك.

إن هذا التسلسل في تعريف الاستراتيجية يسمح لنا بوضعها في خطط تسلسلي حسب التصور الجاري يبرز المستوى والارتباط والهيكلية. (انظر رسم هذا التصور في الصفحة السابقة).

يظهر من ذكر هذه التعاريف والمفاهيم المختلفة للاستراتيجية وما يدور في فلكها أن هناك اجتهاداً جاداً من قبل المفكرين العسكريين في دراسة الأمور الاستراتيجية، سيما بعد ظاهرة إنشاء مكاتب الدراسة المختلفة في الولايات المتحدة والتي ترتبط كلها بجموعات الشركات الكبرى متعددة الجنسيات. هذا الأمر يرجع إلى ما لل استراتيجية من أهمية على الصعيد الدولي إن إقليمياً أو عالمياً نظراً لتشعبات حقول عملها حيث لم تعد مقتصرة على الميدان العسكري فقط. وتبرز أهمية الاستراتيجية في نواحي ثلاثة هي:

● تنامي قيمة الاستراتيجية واتساع نطاق مسؤولياتها المتسارع مواكبة ركب التطور الحضاري باستمرار.

● إسهام ديناميكية التطور والتحولات المستمرة في عدم الاستقرار النهائي والاتفاق العام على إظهار حدود الاستراتيجية وإبراز معالمها وتكريس مفاهيمها.

● وقوع المفاهيم الاستراتيجية في منطقة الجذب بين العسكريين والمدنيين ولذلك فهي محكومة بالصراع التقليدي الدائم بين الجناحين كصراع (الحمة والكنة).

لاحظنا أن في الماضي لم تكن الحاجة ماسة للتدقيق في الدراسات الاستراتيجية، فقد كانت الممارسة أفضل مدرسة ومشعل المداية الملائم للسير على طريق الفن العسكري، فالبطء في التطور كان يسمح للمنطق والعقل والسلبية بأن تحكم في هذا الموضوع. والقائد الناجح كان كالشاعر العربي أيام الجاهلية، إنما يولد شاعراً بهبة من الله. وقد لازمت الشاعرية الفروسية والقيادة قدماً عند العرب فمثلت وجهها الإنساني النبيل.

أما الآن فقد تجاوز التطور العلمي العملاق بقعة الاستقرار والسكنون الاستراتيجي وأعطى الفن العسكري شحنة ديناميكية سريعة التفاعل. لقد جاءت استجابة المفكرين العسكريين كردة لهذا الفعل تتسم بعالم مميزة هي:

● إدراكهم أهمية الموضوع ودراسته بأسلوب جاد يهدف إلى إرساء قواعد عامة محاولين الاستقرار في التحديد والشمول في المعالجة.

● متابعة الدراسة والتطور من خلال المعاهد المختلفة التي كرست جهودها لهذا الحقل وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية كما سبق ذكره.

● محاولة حل عقدة النزاع التقليدي بين العسكريين والمدنيين بعدة طرق وأساليب.

ففي البلدان النامية لم تأخذ هذه المشكلة حجمًا كبيراً نظراً لسهولة تذويب التناقض في وحدة القيادتين العسكرية والسياسية داخل الرأس الواحد للهرم. غير أن هذه الاستراتيجية تعيش إلى حد ما في كنف الطفولة الفكرية أو التأخر بما يوازي تأخرها الواقعي عن ركب الحضارة. إن هذا الأسلوب ما هو إلا عودة إلى صيغة القرون الوسطى في أوروبا، صيغة الملكية المطلقة حيث توحد القائد والرئيس في شخص الملك. هذه الصيغة لا تعيش إلا موقتاً لأن ركب التطور سيجرفها حتى.

أما في البلدان الاشتراكية فقد حل الإشكال في إطار التحليل الماركسي المؤمن بالتطور التناصي والتسليم بالمرحلية وصولاً إلى حتمية تحقيق الشمولية والحكم للبروليتاريا. لذا فقد خرجنوا منذ أيام ستالين بنظرية الحرب الشاملة ذات الطابع الاجتماعي. أخذوا عن جن تزو وتخطيلين كلاوزفيتز في تحلياته للحرب عندما نادى ببدأ تأجيل العمليات العسكرية إلى أن يسمح تفكك العدو المعنوي بتوجيه الضربة القاضية بسهولة الأمر الذي يعطي للعامل النفسي أهمية كبيرة في المعركة. أعطى هذا المفهوم أهمية كبيرة للحظة التاريخية الخامسة التي تعبّر عن الوقت الملائم للعمل لأن لكل شيء مرحلته ولكل حدث وقته. أما ما وتسى توسع فقد طور الموضوع ليقلب إلى حد بعيد المفاهيم الكلاسيكية لموازين القوى في الحرب وليعطي العامل المعنوي الاهتمام الأكبر في نطاق حرب التحرير الشعبية التي تعتمد شمولية الحرب باستقطاب الشعب وإسهامه الفاعل فيها.

أدرك الغرب أهمية اتساع منطقة عمل الاستراتيجية فجاءت المحاولات الليبرالية متشربة الاتجاهات. أبقى ليدل هارت الاستراتيجية تحت مستوى السياسة محاولاً مزج السياسة بالفن العسكري بطريقة غير مباشرة معتمداً مفهومه للاستراتيجية غير المباشرة الذي يركز على التقرب غير المباشر في مجال العمليات، كما يعتبر أن الاهتمام الأكبر هو لهدف السلام بعد الحرب وليس للغرض المباشر للحرب الذي قد يكون تدمير قوات العدو، لأن ذلك لا يudo كونه وسيلة لتحقيق هدف السلام.

أما ريمون آرون فقد حاول تفادي الحساسية بين السياسيين والعسكريين باعتماده الفصل العمودي القائل بالثنائية (استراتيجية دبلوماسية) واللقاء تحت سقف السياسة. لكنه رغم هذه التوأمة أحسن بأنه قد أليس الاستراتيجية ثواباً أصغر من مقاسها فحاول إيجاد المخرج بطرح اسم جديد للاستراتيجية فدعاهما علم الممارسة، هذا الاسم الذي يستوطن في طياته

فكرة التمدد والتتوسع التي اتجهت إليها الاستراتيجية العسكرية وأخذ يؤمن بها المفكرون العسكريون ويخشاها السياسيون نتيجة استقرار مفاهيم تقليدية خاصة وعادات تفكير تفصل المجال المدني عن المجال العسكري. هذا فضلاً عن الخشية من الطموحات العسكرية الكبيرة.

أما الجنرال أندريه بوفر فكان الأجرأ في طروحته بالتعرف للمعضلة مباشرة وبصراحة السياسيين حول تقديره لمخاوفهم وقوله بأن المهم في الموضوع هو المضمون وليس الاسم والثوب. فلا مانع عند إيجاد تسميات جديدة تفي بالغرض شرط التوصل إلى الإحاطة والشمولية والواقعية المنسجمة. وأما المدرسة الأميركية فقد جاء حلها للمعضلة على طريقتها الخاصة، طريقة الشراكة الرابحة حيث لعب العسكريون المتتقاعدون دوراً كبيراً في التخطيط الاستراتيجي جنباً إلى جنب مع المدنيين في مكاتب الدراسة والمدارس الاستراتيجية التي تعمل لصالح الشركات الكبرى التي توجه السياسة القومية للدولة وتحكم وبالتالي الاستراتيجيات العظمى في العالم، لقد كانت هذه المكاتب المفصل الحقيقي للقاء المدني العسكري والمصهر الجامع للفكر المشترك، وبذلك حلت التناقضات ومعضلة الحساسية إلى حد بعيد.

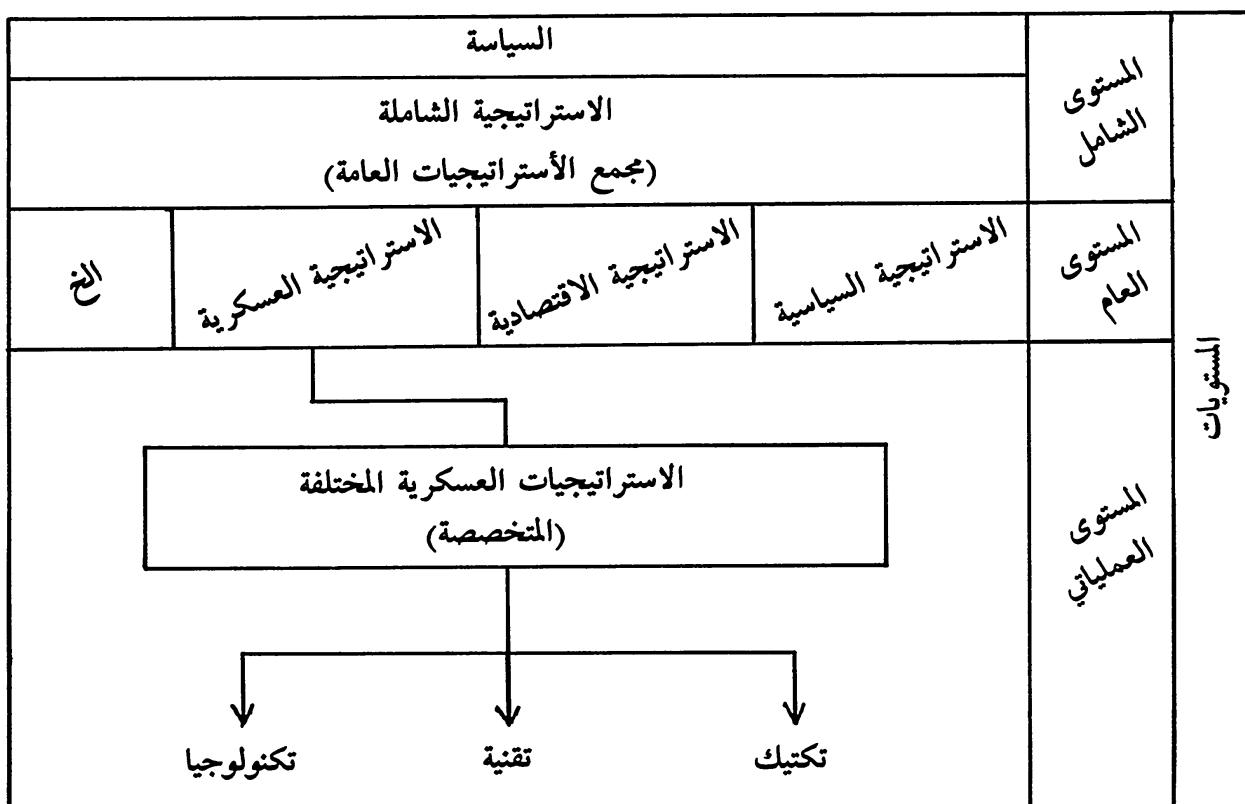
إن مخاوف السياسيين ومحاولتهم الاستئثار بمركز الصدارة في التخطيط والقرار يعزل عن العسكريين هي في الواقع نقطة ضعف قاتلة في بنية الدولة ونظامها وأمنها. فالادعاء المتحجر بقاعدة عدم تسييس الجيش ووجوب التزامه بتنفيذ قرارات الشرعية والولاء المطلق لها دون مناقشة كان مدخلاً لتسلط السياسيين الجاهل في بعض الدول، الأمر الذي يؤدي إلى تقزيم القادة العسكريين وغضط الأكفاء منهم خفهم وجعلهم يدورون بتبعية قاتلة في فلك السياسيين بعيدين عن دورهم الأصيل في التخطيط الاستراتيجي للدولة.

لقد كان هذا المفهوم الخاطئ للدور العسكريين أحد الأسباب الكثيرة التي أدت إلى انهيار الجيش اللبناني عام ١٩٧٦. فبدلاً من أن يكون لهذا الجيش دور في التخطيط الاستراتيجي على مستوى الدولة، سيما وأنه هو المسؤول أصلاً عن قطاع كبير في التنفيذ، أبعد نهائياً عن التخطيط العالي ووقع تحت هيمنة السياسيين الذين لم يكتفوا بذلك بل مدّوا أصابعهم إلى داخله وجعلوا منه أداة آلية ليس إلا. والغريب في الأمر أنه كان هناك إجماع على تقزيم دور القيادة وتنحيتها عن مسرح التخطيط والتفكير من جميع الفرق المتصارعين في الساحة اللبنانية، كأنهم بذلك وجدوا القاسم المشترك الذي أمضوا سنوات الحرب الأهلية يفتشون عنه.

إن تفتيش بوفر عن الواقعية والإحاطة والانسجام، كما أسلفنا، دفعه إلى النظر بتحفظ

إلى تقسيم ريون آرون العمودي واعتبره جائراً تعسفيًا وفضل عليه التقسيم الأفقي، طارحاً فكرة الاستراتيجية الشاملة ومعتبراً الشيوعيين سباقين فيها. رأى أن الشيوعية خرجت بنظرية متكاملة واعترف بأنها أكثر كمالاً من نظرياته التي يعتبرها محاولات أولية للخوض في م tahat الاستراتيجية، بينما يقف الغرب في نظره جامداً غير قادر على الإنطلاق إلى الرحاب الأوسع، ولهذا يعزّو الفشل في الرد على استراتيجية هتلر واستراتيجيات حروب التحرير الشعبية في فيتنام والجزائر، إلى الجمود في التفكير إزاء تطور استراتيجية الخصوم.

إن الجنرال بوفر مع جرأته في طرح فكرة الاستراتيجية الشاملة يبقى محافظاً على شعرة معاوية في علاقته مع السياسيين حافظاً لسياسة مركز الصدارة بوضعه الاستراتيجية الشاملة في هرم المستويات تحت مستوى السياسة مباشرة ومن ثم يليها في المرتبة الاستراتيجيات المختلفة. هذا يوضح بأن الاستراتيجية الشاملة تقود التزاعات العنيفة أو المخادعة والماكرة التي تجري في آن واحد في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والدبلوماسية والعسكرية...، إلخ. فضلاً عن ذلك، لقد تبني بوفر كما في الموسيقى طبقتين للاستراتيجية واحدة عليا للاستراتيجية المباشرة وأخرى سفل للاستراتيجية غير المباشرة. أما الصلة الرمزية لهرمية الارتباط الذي تبناه بين الاستراتيجية والسياسة فتظهر في البينة أدناه.



نلمس من هذا العرض صعوبة تبني تعريف محدد ونهائي للاستراتيجية. فبقدر كثرة الحلول المتخذة لإنهاء الإشكالات والمداخلات بين السياسة والعمل العسكري تكثر التعريف وتتبادر مدلولاتها. وما جوهر هذه الحلول في الواقع إلا نوع من الأعمال التوفيقية أو التنسيقية بين متغيرين متشابكين في مساحات واسعة من مجالات العمل. إن هذه الجدلية الديناميكية الدائمة من الصعب وصوها إلى استقرار موحد للتعريف على الأقل في المستقبل المنظور، لما للتطور في حقول العلم المختلفة والمرتبطة بالعمل العسكري من تسارع واتساع. إن وحدة القيادة ومركزيتها القوية في النظم العسكرية أو الملكية المستبدة تبني الحل القائم على مزج السياسة بالشؤون العسكرية وعدم التفريق بينها إن أفقياً أو عمودياً، وهذا يظهر جلياً في التركيز على تنظيم الجيش بشكل يجعله العمود الفقري للدولة ويربطه مباشرة بالعرش أو بالرئيس مؤمناً له الولاء بصورة أكيدة بعيدة عن الشك. كذلك فإن إنشاء قوات خاصة مميزة الارتباط والاستعمال تحقق الهدف المطلوب في التوازن داخل الجيش لحماية الرئيس واستقرار النظام. إن كثرة التنظيمات داخل الدولة الواحدة تعكس الإحساس بالقلق وتؤمن الاستكانة والاستقرار بشكل أفضل، لأن هذه القوى تلغى بعضها البعض في إطار حساب التوازنات. إن الأمثلة كثيرة على هذا الأسلوب نجدها أمامنا في العالم الثالث، وأقرب أدلة نسترشد بها موجودة في الدول العربية كالحرس الملكي والحرس الجمهوري والقوات الخاصة وسرايا الدفاع وألوية الدفاع وقوات المكافحة... ، إلخ.

أما النظم الاشتراكية فكما أسلفنا سابقاً قد بلأت انطلاقاً من مفاهيم أيديولوجية إلى أسلوب تدويب الأستراتيجية في السياسة معتمدة الجيش العقائدي ومبرزة دور السياسة في الجيش في المستويات الوسطى والدنيا من خلال ضباط التوجيه السياسي والعقائدي الذين يشكلون القيادة الفعلية للقوات، ولكن من موقع الظل. هذا ومن الملاحظ أن الهيمنة التي تتحقق للسياسة في هذا الحل لم تلغ دور الأستراتيجية بل وحدت الجناحين في جسم واحد على المستوى المركزي، وتحققت وبالتالي الانسجام ضمن الصورة العامة والإطار الشامل. لقد اعتمدت بعض الدول العربية هذا الأسلوب الذي لم يظهر بأنه فاشل بل حقق نجاحات ملموسة رغم ظاهر تدني المستوى التي ترافق كل بداية بسبب تسلط الأضواء على الولاء العقائدي وتنمية بعض الكفاءات غير الملزمة. ولكن استقرار الممارسة أسهم في تغطية النواقص وإظهار الطاقات الجديدة المؤمنة بهذه التجربة الأيديولوجية وهذا النهج، الأمر الذي ساعد على ازدياد اللحمة وترسيخ الانسجام والتنسيق المشودين.

أما النظم الغربية فلم يستقر فيها الصراع بين السياسة والاستراتيجية. فالسياسة تهدف دائماً إلى تحجيم الاستراتيجية وإجبارها على الاقتناع بالتبعية، بينما تستمر الاستراتيجية

بالتعاظم والتمدد متسلبة إلى مستوى نفوذ السياسة، ويشتد هذا الصراع دون الوصول إلى الحل الخامس والنهائي رغم إيجاد الحلول الآنية والموقتة. إن الجنرال بوفر يقول مثلاً، بأن السياسة العليا أي السياسة الشاملة، تكمن قبل كل شيء في اختيار الأهداف وإطار العمل، ولذا فهي تتعلق على نطاق واسع بعناصر ذاتية، على حين يقود استخدام القرار السياسي إلى محاكمة عقلانية لا بد وأن تكون بجملها محاكمة موضوعية تستلزم وسائل استراتيجية.

وهناك اتجاه آخر يعتمد المستوى والأفضليات للتصنيف فيقول بأن الفكرة الاستراتيجية تتعلق بحل المشكلات العالمية التي تحتوي هدفاً مفضلاً مميزاً وأضحاً يجعل الأهداف الأخرى قانونية. أما في حال تضارب أفضليات الأهداف وتبدلها فيلعب عندها العمل السياسي دوره.

والاتجاه الثالث للتصنيف يعتمد الشكل والمضمون العنفي أساساً له. فدخول حرم الاستراتيجية هو العتبة الأولى من عتبات التصعيد عندما تقرر السياسة اللجوء إلى العنف في التعامل مع المعضلة المطروحة. ولذا يبقى العمل محصوراً في المجال السياسي وينتقل بصورة متقطعة إلى المجال الاستراتيجي كلما قررت السياسة اللجوء إلى الأسلوب القمعي.

وأما نظرة ليدل هارت فتؤمن بالهدف الأبعد الذي يتعدى النتيجة المباشرة للحرب أو الهدف الآني للمعركة ليصل إلى الغاية الحقيقة للصراع التي تعبّر عن هدف السياسة من خلال السلم الذي يلي الحرب. وهي وبالتالي تتبع بمفهوم الاستراتيجية عن التوجّه العنفي لتبدأ بالتمدد على حساب المستوى السياسي. هذا التمدد يصعب ضبط حدوده بسبب سرعة سير التاريخ خلال الصراعات وتبدل أفضليات الأهداف وتحولها أو تحويرها باستمرار.

هذه النظارات إلى الموضوع تختلف عن المفهوم الماركسي. اللينيني الذي لا يميز بين المستوى الأعلى للسياسة التي تختار الأهداف وبين المستوى المتعلق بالاستراتيجية التي تختار وسائل التنفيذ. هنا لا بد من النظر بتقدير عال إلى فكرة الجنرال بوفر لمناداته بالاستراتيجية الشاملة كحل يتجاوز التناقضات ويوفر الانسجام ويهتم المستوى، غير أن الصراع لم يزل قائماً وسيستمر لمدة طويلة ما دام التغيير ينتاب العقيدة في النظم الليبرالية دوريًا مع تغير الحكم ويحرّمها ميزة الاستقرار والاستمرار. هذا لا يعني المناداة باعتماد الأسلوب الاشتراكي أو الدكتاتوري، ولكن معرفة الواقع وعدم التعامي عنه ووضع اليد على الجرح تسهم في دعم العقل والمنطق في مسيرة التفتیش عن الحل الذي أتصوره في المحافظة على شرعة معاوية وليس في الانصهار الدكتاتوري القسري بل بالتكامل المنسق ونعومة الاحتياك التي تشبه إلى حد بعيد احتياك دفاعات السيارة بجدار المحرك بصورة مستمرة ومنظمة، حيث تسهل عملها وتنزع التآكل زيوت التنسيق المرنة.

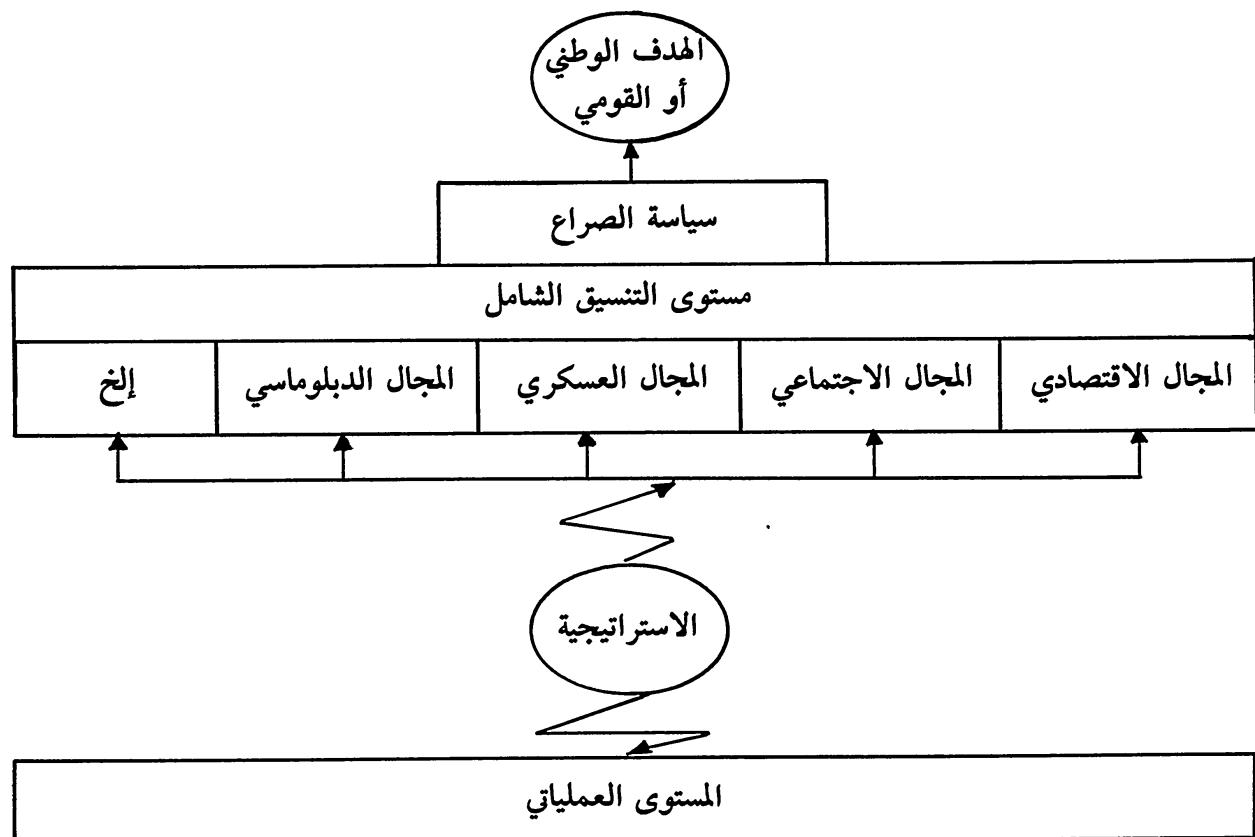
انطلاقاً من هذا المفهوم ومن إيماناً باتساع نطاق تدخل الاستراتيجية، وتحقيقاً للانسجام والمرؤنة في العمل، وبالعودة إلى تعريفنا للسياسة على أنها إدارة صيغ مصالح المجتمعات البشرية وعلاقاتها، ومن خلال تعريفنا للحرب على أنها أسلوب إدارة متتطور للصراعات السياسية، بالعودة إلى ذلك كله سنحاول تعريف الاستراتيجية على الشكل الآتي:

**تعريف الاستراتيجية.** هي فن ممارسة متتطور وأسلوب تفكير وإدارة للتأثير على الغير في الصراعات وال العلاقات الدولية باعتماد الحلول التي ترعى المصالح و تعمل على تحقيق الإرادة والأهداف الوطنية بالتركيز على قطبي الصراع -الأبدي الأمن والأنانية.

هذا يظهر أن الاستراتيجية وسيلة تستخدمنها الدولة لتحقيق سياستها التي تنبع من الفلسفة السائدة فيها، ومن مفاهيمها التي تحدد أهدافها الوطنية والقومية. وهكذا نرى أن مصائر الأمم هي في أيديها إلى حد بعيد ما دامت مرتبطة بالفلسفة التي تختارها والأيديولوجيات التي تؤمن بها.

إن هذا التعريف يؤمّن في نظري نعومة الاحتكاك بالإقرار بأن الاستراتيجية هي فن، وبالتالي فهي مجال إبداع وتطور لا تحكمه القاعدة الجامدة. وهي أسلوب ممارسة في التخطيط والإدارة بحيث تشكل رافعة أو محركاً يعمل في نطاقات واسعة تتعذر العمل الحربي الذي يبقى أداة سياسية أو ورقة في يد السياسة. كذلك فنحن بهذا التعريف نحترم الشمول الذي هدف إليه الجنرال بوفر، وتعريف الممارسة الذي أوحى به آرون، مع الإقرار بنوع من الهيكلية المتكاملة التي تتبعها الأفكار الاشتراكية، متتجاوزين نطاق الصدام بين الجيش والسياسة، سينا في الدول الحديثة العهد في الديموقراطية، حيث يختدم الصراع بين اتجاهين، الأول هو أن الجيوش أدوات أو وسائل صرفة، والثاني الذي يقول بالأفضلية العسكرية المرتكزة على توأمة الدولة والأمن الأمر النابع حقيقة عن الحداثة في التطور وعدم الاستقرار في المفهوم الديمقراطي.

ومن حسنات اعتماد هذا الحل هو الإقرار بأن السياسة تلعب دوراً الوسيلة والغاية الوسيطة في آن معاً. فكما أن الإنسان هو هدف ووسيلة في الوقت نفسه، كذلك السياسة، فهي تعمل في مجال الصراع على مستويين، مستوى الهدف ومستوى الأداة التي يزداد تحكمها بالقوى العسكرية أو يقل حسب الظروف كونها تحتل المرتبة الأولى في سلم الأولويات والصدارة. ويزداد هذا الأمر وضوحاً عندما نبني لفظة أدار كمعنى لكلمة ساسَ فيصبح معنى سياسة الصراع هو إدارته. أما الاستراتيجية فتختلف عندها من قيود الحساسية لتلعب دور فن الممارسة في شتى المجالات المتعلقة بالصراع ومستوياته العالية وتصبح الصورة الرمزية للتفاعل على الشكل الآتي:



## الاستراتيجية في المجال العسكري

بعد أن حلّلنا الاستراتيجية من القيود التي كيّلتها داخل الحدود الضيقه واعتبرناها فنّ ممارسة عال على مستوى الدولة، نعود إلى التخصيص ودراسة العمل الاستراتيجي في المجال العسكري. هنا لا بد من المبادرة إلى التوضيح بأن تعريفنا للاستراتيجية على هذا النحو لا يعنينا من إضافة اسمها إلى نواح عسكرية متخصصة أو منهجه أو تكنولوجية محددة، كقولنا مثلاً الاستراتيجية الدفاعية أو الاستراتيجية الذرية، وذلك للدلالة على قطاع معين أو منحي مميز في المجال العسكري. فكما يجوز لنا أن نضيف كلمة الفن إلى بعض الحقوق لإطلاق تسمية خاصة كالفن التشكيلي أو فن الغناء أو فن التصوير، كذلك يمكننا اتباع الأسلوب نفسه في فن الحرب الذي تحكم الأستراتيجة مساره. إن هذا النوع من التحديد ينطبق على الاستراتيجيات الوسيطة المتخصصة التي تقع بحكم معطياتها تحت مظلة الاستراتيجية الشاملة أو الاستراتيجية الوطنية العليا.

وكون الاستراتيجية فنّ إدارة للقتال في بعض نواحها، فهي المظلة التي يتفاعل في كنفها التكتيك والتقنية والتكنولوجيا وميزات الأسلحة والتجهيزات. كذلك فهي تتأثر بالتحولات التكنولوجية والتقنية التي تؤثر على تطور التكتيك وتطبعه بطبعها. إن هذا التفاعل بين الاستراتيجية وما يقف في ظلها هو تفاعل ذو اتجاهين متعارضين، إذ يؤثر كل تطور في ناحية من النواحي بالناحية الأخرى ولكن أفضليّة التبعية تبقى للاستراتيجية.

لقد وقع بعض المفكرين كتوبيني وروجرتون وفولر تحت تأثير التطور العلمي والتكنولوجي فمالوا إلى الاعتقاد بأولوية الاختراعات وضرورة تفصيل التكتيك الملائم على مقاساتها دائمًا بحيث يفرض ذلك تبعية الاستراتيجية للتكتيك. إن تبعية التقنية الختامية للتكنولوجيا أمر واقع، أما تبعية التكتيك الدائمة لها فأمر فيه نظر. صحيح أن التكتيك في النهاية هو الأسلوب السليم لاستخدام المعدات بشكل يسمح لها بإعطاء مردودها الأقصى، ولكن الصحيح أيضًا أن هناك كثرة من الأساليب الغير مخصوصة العدد والتي يمكن للعقل المفكر استنباطها، قادرة على تحقيق هذا المفهوم. فحدود خطوط التبدلات الكبيرة والمميزة

في التاريخ العسكري وإن تلزمت إلى مدى بعيد مع ظهور الاختراعات العسكرية كالمجنحية والنبال والبارود والبندقية السريعة الطلقات إلى عصر الذرة والأقمار الصناعية، فهي مما لا شك فيه تفاعلات متبادلة في ظل الاستراتيجية القائمة. هنا يجب التوضيح بأن الاستراتيجية كونها فن إبداع وخلق فهي تلعب دور القبة أو الجلد الذي يظلل التكتيك والمرآة التي تتعكس عليها أضواؤه، وهي أشبه ما يكون بالطبقة التي تعكس الموجات الراديوية من السماء إلى الأرض. أما التكتيك فهو عمل عسكري مباشر في حقل التنفيذ، ويبقى على مستوى الأساليب ولا يوغل في رحاب الفن كثيراً. وهو كونه أسلوب ممارسة تنفيذية يمكن أن يقسم إلى شطرين:

تكتيك عام. وهو يختص بتعاون الأسلحة أي العمل التنسيقي بين مختلف الأسلحة للحصول على المردود الأقصى.

تكتيك سلاح. وهو يتعلق بأساليب استخدام كل نوع من أنواع الأسلحة للحصول على المردود الأقصى لهذا السلاح.

وغمي عن القول أن رُكييَّ التكتيك هما النار والحركة اللتين يؤلف اجتماعهما الصدمة، وبالتالي فمنظور التكتيك يرتكز على تطورهما وذلك في مجال إمكانية انتقال السلاح وسرعته وسهولة استعماله ودقته ومسافات الرمي ومفاعيل الذخائر وما إلى ذلك من أمور فنية.

إن رعاية الاستراتيجية للتفاعلات العسكرية قد طبعتها منذ القدم وعبر العصور بميزات خاصة. فإذا كان التكتيك أخذت أهميتها تظهر تاريخياً، فإن ازدهار فن الحصار المرتبط بالأرض والمركبات المادية، لم تكن في ذلك العهد بحاجة لدراسات مكثفة وتفاصيل، لأن تحرك عجلة التطور كان بطبيئاً مما سمح للفكر بالتعبير عن نفسه والسيطرة على خيوط اللعبة الحربية من خلال الاختراعات والمبتكرات، حيث بدأت النظريات والمبادئ تظهر في الأفق التكتيكي لتنسق استعمال الاختراعات مراعية طاقاتها التقنية ومردودها الأقصى.

ومع مرور الزمن وتتسارع عجلة التطور تشابك النظريات الاستراتيجية ويزداد العوامل غير المحسوبة كمؤثرات فاعلة في الصراع الحربي، الأمر الذي أسهم في وقوع بعض المنظرين الراغبين في إيجاد قواعد ثابتة للاستراتيجية في خطأ تحجر المنهج الفكري الهندسي المسطوح الأبعد الذي يرتكز على العناصر المادية الثابتة في خلق معادلة استراتيجية تقوم على الحشد والتفوق العدي في مراكز محددة وفي زمن معين، أي:

- س. تعني الاستراتيجية.
- ح. تعني الحشد.
- ز. تعني الزمان.
- م. تعني المكان.

هذا الخط الهندسي المسطح الوحيد الجانب ينظر إلى المسألة من زاوية مادية واحدة مهملاً التفاعل بين المعسكرين المتخصصين وتأثير ذلك على قيمة العدد، كما يستبعد العبرية المبدعة، فضلاً عن إهماله للخصائص الأساسية الملزمة لطبيعة النشاط الحربي، ألا وهي القوى المعنوية والنفسية وحيوية رد الفعل التي تتأثر بالعامل الشخصي وضبابية المعطيات، وقد درسنا هذه الأمور بإسهاب سابقاً. لقد انتبه إلى ذلك الخطأ الفادح كلاوزفيتز قبل أن يلمع نجم القوى المعنوية ويتلألأ في هذا العصر خلال الحروب الثورية، وقبل أن يغوص المفكرون في تحليلات أبعاد الطاقات النفسية المائلة. لقد سمح حس كلاوزفيتز الفلسفى العميق بالخروج بمعطيات جديدة وهى أن العناصر الاستراتيجية ليست هندسية بحتة وإنما تشمل النقاط التالية :

- العناصر المعنوية .
- العناصر البدنية .
- العناصر الهندسية (حشد ومكان وزمان) .
- العناصر الجغرافية .
- العناصر الإحصائية (وسائل تموين وما شابه) .

بهذا أصبح مفهوم «الكيف» يعتمد على zaman والمكان والقوى التي تخوض المعركة، أي بتعبير آخر أصبح الكيف يرتكز على الأين، والمتى والكم.

لقد كانت انطلاقـة كلاوزفيتز إسهاماً كبيراً في تطوير مذاهب التفكير العقلانية التي أبرزت مصادر الخطأ الثابتة والمطبات التي يقع فيها المفكرون العسكريون فيما لو أبقوا نشاطهم الفكري ضمن إطار المذاهب العقلانية التي طورها الفكر العسكري الباحث عن الثوابت. إن اعتماد غاذج المقاييس الجاهزة والقواعد الثابتة حسراً أمر بلية الخطورة في المجال العسكري، ولكن استخدام هذه المقاييس دليل هداية ومنهج بحث غير صارم التحديد أمر واجب. إن ما توصل إليه البحث العسكري. في مجال مذاهب التفكير العقلانية يمكن حصره في ثلاثة هي: المنهج الهندسي والمنهج التشبيهي، والمنهج التطابقي. وفيما يلي إيجاز لبعض خصائص هذه المناهج.

### المنهج الهندسي:

لقد ساد هذا النوع من الفكر منذ القدم وظهر في أيام يوليوس قيصر كما تجذر بصورة أساسية بعد انقضاء عهود القادة العظام، وبعد رحيل أي قائد يهُب العقل في البحث عن أسباب انتصاراته ليجعل منها قواعد ثابتة ومنارات هداية للمستقبل. إن هذا الميل نوع من الدافع النفسي للبحث عن القاعدة النهائية. لقد سيطر الفكر الهندسي على الفرنسيين بحججة المحافظة على فلسفة ديكارت فاختلطت لديهم الأيديولوجية بالمنهجية الواقعية، لأن القول بمسالمات دائمة في الفن العسكري أمر خدّاع ينطلق من قواعد سليمة. إن المنهج الهندسي يسحر العقول ببساطته الرائعة ومنطقته المتراقبة ولكنه يقع في خطأ الجزئية ويسقط اعتبار الظروف من الحسبان فيصبح عنده الفن العسكري تقليداً عملياً لظاهر من مظاهر النجاح ويسيء القادة قطيع أغنانم لا يعرفون إلا نوعاً واحداً من القتال. إن القاعدة الذهبية في هذا المجال هي أن المبادئ لا يمكن أن تسبيق التطبيق أبداً ولكن العكس هو الصحيح، لأن المبادئ تولد من دراسة التطبيق الناجح وهي وبالتالي ليست ذات قيمة مطلقة مجردة.

### المنهج التشبيهي:

وهو قياس أمر كل معركة بما يشابهها في معارك في الماضي إن من ناحية الأرض أو من ناحية العدو أو من ناحية الظروف. إن هذا القياس يفرض اتخاذ نفس التدابير الناجحة التي اتخذت في الماضي، وهذا أمر بالغ الخطورة لأنه يتم بالجزئية ولا ينظر إلى الواقع الحالي بشمولية، إذ ليس وجه الشبه الواحد كافياً لتعيم القياس ولصحة تطبيقه، إن هذا الأسلوب جائز في المجال الكمي كعلم الرياضيات، ولكنه غير صحيح دائماً في المجالات النوعية. لقد أنشأ هذا المفهوم في الماضي عقيدة الهجوم الاستراتيجي والتناوبات المحلية في الدفاع والهجوم التكتيكي، كما أضاف إلى ذلك مفهوم الأمن بالهجوم الأمر الذي أوقع المنظرين العسكريين فيما بعد بعقيدة الهجوم التكتيكي غير المشروط، واحتلّ أمر الدفاع بالمناورة على الخطوط الداخلية. إن عملية القياس بالتشبيه تبقى حقائقها جزئية ولا يمكن الاعتداد بها دائماً كأمر مسلم به ناجز المفعول لأنها تهمل النظر إلى الظروف والشمولية.

### المنهج التطابقي:

وهو المنهج الذي قد يكون أقرب من غيره إلى واقع الأمور لأنه يعتمد على مطابقة الوسائل للأهداف وبذلك يحافظ على ملاءمة العمل للمعدات الموفرة ووضع المهدف المرغوب تحقيقه. إن نقطة الضعف في هذا المنهج تكمن في عدم تقدير الظروف الموضوعية حق قدرها لأنه ينظر إلى الموضوع نظرة مادية بحتة لا تهتم كثيراً إلى العوامل الأساسية الأخرى.

إن مذاهب التفكير منها تعددت لا يمكن أن تسقط من حسابها النظر إلى كل حالة بفردها دون إهمال لجميع المعطيات المادية والظرفية، وعلى المرء أن يضع في حسابه أن عملية التقييم أمر صعب جداً، يجب أن توضع الأهواء فيه جانباً، كما يجب عدم الالتزام بمنهج واحد في التفكير بل يفترض استخدام جميع الأساليب مجتمعة بالإضافة للمعطيات الظرفية والموضوعية للخروج بالنتيجة النهائية مع التركيز على استقلالية المعضلة عن مثيلاتها التاريخيات.

وبالعودة إلى مسار التفكير نجد أن التجارب قد أغنت الفكر العسكري وأوضحت الرؤيا في مجال الاستراتيجية مبرزة بعض الثوابت التي تساعد في إرساء القاعدة للظواهر التي يحكمها القانون وللتي تخرج عن حكمه، أما هذه الثوابت فهي :

- إن المجال الاستراتيجي هو حقل فكر وتروّ لأن الأمور تسير فيه بشكل أبطأ مما تسير عليه في التكتيك.

- لا يمكن اعتماد عقيدة جامدة متحجرة وثابتة لأن ديناميكية الأحداث وسيولة الواقع تتعارض مع ذلك، كما أن الموهبة وال Beckerية تعملان خارج نطاق القوانين الصارمة. لذلك يجب أن تبقى النظرية أداة تشفيف وأسلوب عمل ودليل هداية وتطوير ذاتي متكيف بعيدة كل البعد عن الاستقرار.

- تزداد الأمور تعقيداً كلما ارتفعنا في السلم الحربي ، لذا فإن إجاد نظرية تكتيكية أسهل كثيراً من استنباط نظرية استراتيجية.
- يتحتم على القائد أن يوازن في القرارات الاستراتيجية دائمًا بين الطموح والغرور والطاقة .

- يتعدد القائد أحياناً في المجال الاستراتيجي ، ويقع في الندم وتواجهه نزاعات زعزعة للثقة ، لأنه لا يرى الأشياء مباشرة بعينيه على الطبيعة ، أما المستوى التكتيكي فيوفر له ذلك.
- إن منهجية التقويم تفرض على القائد الاهتمام بالمعارك المحتملة ، كاهتمامه بالمعارك الحقيقة الراهنة نظراً لخطورة نتائجها. وعليه عدم وزن أيه ميزة تقدمها معركة معينة بعزل عن المحصلة العامة للحرب ، لأن الموازنة النهائية هي التي تظهر حقيقة الخسائر والأرباح .  
بعد هذه الجولة السريعة في رحاب الاستراتيجية والالتفات إلى مسار تطور الفكر فيها ، وتحديد الثوابت المميزة التي تطبعها لا بد من العودة إلى الحاضر والتمعق في محصلة الفكر الاستراتيجي الغنية لمحاولة رسم إطار تشريجي عام أو هيكل تلتتصق به جميع نشاطات الصراع لنشكل إذا جاز التعبير شجرة العائلة الاستراتيجية في المجال العسكري ونرسم شبكة الروافد والقنوات الأساسية لنهر الاستراتيجية العظيم ، وهذا ما سنحاول عمله في الفصول اللاحقة .

## مظاهر الاستراتيجية وصفاتها

انطلاقاً من مفهومنا الذي حددناه سابقاً للاستراتيجية بأنها فن وأداة عمل وأسلوب ممارسة حلّ معضلات الصراع وحوار الإرادات العالية، لا بد من الإقرار بواقعها الشمولي متخطين المفاهيم التقليدية حول العلاقات العالمية وعادات التفكير التي تخطتها الزمن والتي تفصل المجال العسكري بحزم عن المجال المدني. لقد أضحت الاستراتيجية في الواقع، كما يقول الجنرال بوفر، لا تمثل أمراً عسكرياً بحثاً بل هي فن حكومي ضروري ولا مانع من إيجاد اسم جديد لها ليحل عقد الخوف المتأصل عند المدنيين من الطغيان العسكري وليمتنع كل التباس.

إن إقرارنا باتساع مجال عمل الاستراتيجية وتنوع نشاطاتها يدفعنا إلى التفتيش عن الأقنية الأساسية لمجاريها وتحديد اتجاهات ومسارات ديناميكيتها عبر تلك الأقنية. فكما في الدورة الدموية لجسم الإنسان هناك قلب وشرايين وأوردة ودماء تدور في اتجاهات محددة ومنتظمة ذهاباً وإياباً، كذلك تدور الحركة الاستراتيجية ضمن إطارها الشمولي لتنقسم إلى مظهرتين عامتين: مظهر إيجابي ذي توجه خاص في حركته، ومظهر سلبي ذي توجه معاكس يعتمد السكون والاقتناع إلى حد بعيد.

أما المظهر الإيجابي فيعكس صيغة الفعل الذي يحقق رغبتنا رغم أنف الخصم، ويفرض إرادتنا بالعمل الذي يخلق وقائع ومستجدات تلزم العدو بنتائجها. لقد أطلق الجنرال بوفر على الأفعال اسم استراتيجية العمل كونها الممارسة الإيجابية الفاعلة لتحقيق إرادتنا. أما المظهر الآخر المعاكس فهو الردع الذي غمن بوسائله الخصم من القيام بأي عمل، والردع مظهر سلبي سكوفي أثناء استخدامه ولكنه عمل عملي منظم دؤوب خلال تحضيره. بمعنى آخر ان الردع هو الوجه الثاني للفعل، أي إنه الفعل المسبق غير المباشر.

هذا ومن الملاحظ أنه في خضم الصراع العالمي والسباق التكنولوجي المتتطور، لا يمكن الفصل بين الفعل والردع فهما جناحا الطائر الاستراتيجي يتكمalan كما الشرايين والأوردة. ولا طاقة لهذا الطائر في التحليق بيسير دون أحدهما سيفا في أجواء الصراع النووي الرهيب.

هذا التكامل يظهر جلياً في مساحات العمل المشتركة أو المتناوب لتحقيق نفس الهدف. فقد يحقق الردع الأهداف المبتغاة من الفعل دون عمل، كما يقوم الفعل أحياناً بدور رادع أساسياً مباشر أو جانبي غير مباشر. إن المهم في الأمر أن يبقى الردع قادراً على العمل ساعة يشاء أو على الأقل في ظروف معينة، لكنه يفقد قيمته عندما تعزله الظروف ويصبح غير قادر من الانتقال إلى مجال العمل. إن أهمية الردع هي في كونه أداة تهويل بالعمل، ومتى فقد هذه الميزة ضاعت قيمته.

### المميزات العامة للفعل والردع:

إذا ألقينا نظرة فاحصة على مفهومي الفعل والردع نلاحظ الميزات الآتية:

- عدم وجود أي تناقض أو تناقض بينهما، فهما يتكملان كالزوايا التي تؤلف بمجموعها الدائرة (٣٦٠ درجة)، أو الخط المستقيم (١٨٠ درجة). فإذا كبرت زاوية صغرت الأخرى ليبقى المجموع ثابتاً. هذا المجموع هو إطار الشمولية الذي تحدثنا عنه سابقاً.

يقول الجنرال بوفر بأن الردع قادر على لعب دوره في الحماية والوقاية مع غياب عنصر العمل غياباً كلياً نظراً لأنه يعتمد على وجود القوى والتهديد بالعمل الذي تمثله هذه القوى. وعلى أي حال إن الفعل المستند على استخدام محمل القوى أو بعضها يحمل في طياته جزءاً من الردع نظراً لوجود قوى غير مستخدمة بعد. إن الردع هو الترس الذي يرد الضربات أما الفعل فهو السيف القادر على الضرب والصد معاً، وبذلك يتكممل تسليح المبارز بالسيف والدرع معاً.

- يعتمد الفعل على التدقيق والتحقق العملي من قدرة الوسائل وتناغمها ومستوى القوى التقني والطاقات المادية من عديد وعتاد بشكل أساسى مع عدم إهمال الاستعلام والتوقعات في أفضلية ثانية. أما الردع فيعتمد على التوقعات والاحتمالات كأساس أول يرتكز على الشكوك والتهويل. إن أفضل مثال على الردع هو البندقية الفارغة التي تخيف اثنين: أصحابها الذي يخشى تطور الخصم وانكشف أمرها أو الانزلاق في مواجهة غير مضمونة تفلت من عقال العقل، والمهدّد الذي يقع تحت الشك من رهبة فاعليتها.

هذا يعني، وعلى الأخص في المجال النووي، أن الردع عمل نفسي في الدرجة الأولى يرتكز على معطيات مادية محسوبة ذات تأثير عالٍ يزيد تأكيدها وفعالية ضخامة القيمة المادية للعتاد وضخامة التأثير المرتقب.

- إن هامش خطأ التوقعات في الردع أثناء المرحلة الإعدادية أصغر من هامش الخطأ للفعل أثناء تلك المرحلة لأن الردع يركز على القيمة الأكيدة للعتاد والطاقة النازعة أبداً إلى

التفوق في المجالين التكنولوجي والتقني آخذًا الصفة الكلاوزفيتزرية للعمل بشكل أكثر وضوحاً مما هو عليه في مجال الفعل. إن الأمر في مرحلة التطبيق ينقلب ليكبر هامش خطاً توقعات الردع ويصغر هامش توقعات الفعل بسبب الاختبار العملي للوسائل والسلوك العقلاني في المجالين التقني وال النفسي .

● يعتمد الفعل على السرية والكتمان إن في التنفيذ أو في التحضير لتحقيق المفاجأة والتضليل ، بينما يحتاج الردع إلى أسلوب آخر لتغذية الشكوك والخوف لدى الخصم والتركيز على الدعاية وإظهار الطاقات و مجالات العمل المحتملة والتهديد المسبق والخداع والتضليل لأن سياسة التهويل هي التي تؤمن الردع بصورة أساسية وليس الطاقات المادية فقط . هذا يعني أن الردع نوع من الإبحار في الخيال الخصب ودفع العدو للنظر إلى الوسائل المتوفرة للردع بنظر تكبيري يعيش في الحجم والأبعاد والمسافات .

● تكون القرارات أكثر عقلانية في نطاق الفعل ، وبالتالي فهي أسهل تقديراً ، بينما يتحقق الردع أكثر فأكثر كلما ابتعدنا عن العقلانية في القرار والتصرف المحتمل .

● إن الردع والفعل وجهان لعملة واحدة هي العمل والقوة . ففي الردع عمل غير مباشر جبار يرتكز على التحضير الدؤوب والقوة ، بينما يتم الفعل بالوجه المباشر للعمل والممارسة التنفيذية للقوة وإن كان لا ينسى التحضير .

● يحقق الردع غايته بالشك الجزئي أو الكلوي وغير الأكيد لتوجيهه تصرفات الخصم في أجواء من التهويل والخيال . لكن نتائج الفعل لا تثمر إلا بخلق القناعة الأكيدة لديه بعد محاكمة عقلانية يجد فيها أن أضرار متابعة الصراع تفوق كثيراً الآمال الخلبية التي تمنى بها تلك المتابعة .

● يضع الفعل التاريخ دائماً بحزم مقيد في مرحلته التنفيذية كما يسهم في ذلك من خلال المرحلة الإعدادية بصورة غير مباشرة ، أما الردع فهو يسهم في توجيه خطى التاريخ بصورة غير مباشرة ، وضمن إطار عريض غير متزمن أو قسري .

● يتميز الردع بأنه مجال سباق تكنولوجي وتقني جاد صارم ومستمر وبالتالي فهو أداة إنهاك اقتصادي قاسي واستنزاف ذاتي لا يضاهيه التحضير للفعل ، لأن الردع مفضل أصلاً لدى الإنسان كون النفس البشرية تهفو بطبيعتها إلى السلام . إن التربية والأديان وغالبية النظم الاجتماعية تركز منذ القدم على الردع وتطبع الفكر الإنساني بمفاهيمه لترجمة سلبياته على إيجابية الفعل خاصة وإن السلام يبقى الهدف الأبعد وال حقيقي لكل حرب .

إن خير دليل على توق الإنسان للسلام وترجح كفته هو ما رافق زيارة الرئيس أنور السادات التلفزيونية لإسرائيل عام ١٩٧٨ وما تبعها من نتائج . فرغم وجود التناقض

التاريخي بين الشعبين العربي والإسرائيلي، ورغم تضارب المصالح، وحقيقة الاغتصاب المشين والخوف من أخطار الأيديولوجية التوسعية المبنية على العرقية والتطرف والحق الإلهي، هذه المفاهيم التي عفى عليها الزمن، ورغم التراكمات النفسية والخذد والكراءة التي تطبع نظرات الشعبين لبعضها البعض نتيجة التزاع القاسي الذي تفجر حروباً مدمرة وظلماً وحشياً تحكم بصير المنطقة خلال الحقبة التي رافقت ولادة إسرائيل واستمر خلال حياتها. رغم كل ذلك فقد تمكنت الزيارة من اجتياز هذا الحاجز النفسي وكسر جليد الكراهة إلى حد بعيد في مصر وإسرائيل ولو إلى فترة زمنية محدودة. إن أسطع دليل على ذلك هي مظاهرات الاستقبال العاطفية لكل من السادات وبيغن ووفود البلدين إن في القدس أو في الإسكندرية أو في ميت أبو الكوم. ما من شك أن هناك يداً للدولة في تحريك هذه المظاهر، ولكن الحقيقة أيضاً هي أن تلك المسرحية لعبت على أوتار العاطفة السلمية فحرّكت الأماني والأحلام. حرّكت هذه المبادرة تيارات السلام داخل إسرائيل، فبرزت بقوة داخل حركة «السلام الآن»، وفي مواقف بعض الأحزاب في الكنيست. كذلك دلت عليها هزالة المعارضة داخل مصر رغم مشروعية هذه المعارضة ومنطقيتها ووجوهاً عقلياً وعاطفياً وإنسانياً. خدّرت هذه المبادرة قوى الشعب وراح في إغفاءة مؤقتة كان لا بد منها ليعيد حساباته ويقوم المرحلة استعداداً للإنطلاق من جديد. كان ذلك تعطيلًا مؤقتاً للعقل وفترة سماح لا بد منه لإعادة تكوين الموقف القومي.

لقد تحقق هذا الحلم غير المتوقع بفضل نزعة السلام الكامنة في أعماق كل إنسان، والتي تبحث دوماً عن الرفاه والسعادة متخطية الأعراف والأخلاقيات والمناطق. هذه النزعة الإنسانية هي التي تعمل على تفضيل السلام على الحرب، والردع على الفعل، والحاضر المعروف على المستقبل المجهول. وهي التي توظف الحرب لمصلحة السلم، حتى ليمكننا القول بأن الحرب والصدامات العسكرية وسيلة تقارب بين الخصمين طالما أن السلم هو الهدف المشترك وطالما أن السعي الحيثي في جميع الظروف يتوجه إليه.

### معرضات العمل الاستراتيجي:

كون الاستراتيجية فن ممارسة وحوار إرادات، فهي عمل متعدد الأبعاد والاتجاهات متغير الأشكال، وليس مسطحة أو وحيدة الجانب، لذلك تكثر إشكالياتها ومعضلاتها، وإذا سهل التنظير فيها فالتطبيق يبقى صعباً متفلتاً من المقاييس الصارمة المحددة، ولا تتحكم بزمامه إلا العبرية الخلاقة. إن أفضل تجسيد لهذا الواقع هو قول نابليون بأن الاستراتيجية علم سهل ولكن المهم هو التنفيذ. إن حصر جميع الإشكالات الاستراتيجية ومعضلاتها أمر صعب، ولكن يمكن إيجاز أهمها فيما يأتي:

- اتساع عمل الاستراتيجية بشكل يتعدى حصره ويصعب على أي فكر أو خيال خلاًق اكتناه جميع أبعاده ومدى طاقاته وقدراته.
- إن صعوبة سبر أغوار العامل النفسي في المعادلة الاستراتيجية تبقى الباب مفتوحاً أمام شتى الاحتمالات والشكوك والتوقعات والمفاجآت.
- تشابك العمل العسكري مع الأعمال الأخرى من الاقتصادية ومالية وعقارية...، إلخ. بشكل متلازم لا يمكن تمييز الحدود الفاصلة فيها بسبب ضبابيتها وتحركها.
- إن أي تشخيص استراتيجي لا يمكن أن يتم بمعزل عن التنسيق مع التشخيصات في الحقول المساعدة الأخرى، وعلى الأخص التشخيص السياسي الذي يوضح الظواهر والأحداث التاريخية التي تعتبر حجر الأساس في أي خيار عسكري. هنا تكمن الصعوبة في المحافظة على صيغة التكامل والمرونة في التعامل، سيما وأن تحديد أدوات العمل وميكانيكيته تبقى قضية استراتيجية تتعلق بأسلوب التحليل وطريقة إعداد المخططات. ولكن إمعان النظر في هذه القضية يظهر أن لها وجهاً مادياً محدوداً يمكن دراسته بدقة والخروج بنتائج وحلول حسابية، كما أن لها وجهاً غير محدود ترتبط معظم زواياه ومقاساته بأمور نفسية تمت خارج النطاق التقليدي لتصل إلى الدوافع السياسية والقومية أو الوطنية أو الأهواء، وهنا يكمن وجه الصعوبة في الأمر.
- يشبه الجنرال بوفر الرجل الاستراتيجي عندما يدرس المعضلة بالجراح الذي يجري عملية لريض سريع النمو في غرفة عمليات أدواتها متحركة متغيرة والمرض غير محدد. هذه الضبابية في المعلومات والحركة الدائمة هما اللتان تخلقان الصعوبات وتجبران الاستراتيجي على الاستمرار في تطوير المخططات عبر سلسلة معقدة من التحليلات والمحاكمات المتتابعة التي تستنتاج بعضها من البعض الآخر، كما في نظرية الجدلية والتناقضات أو التفاعلات والتفجيرات النووية.
- وجود الحساسية في تجاذب الصالحيات بين العسكريين والمدنيين كما نوهنا سابقاً.
- إن فداحة الأخطاء الاستراتيجية تؤثر على مصير الأمة وعلى تطور الشعب وتحرف مسار تطوير التاريخ، سيما وأن إرادة الشعب هي التي تصنع تاريخه.  
هذا الاقتناع لا يتنافي إطلاقاً مع المفهوم الماركسي الليني لل التاريخ ومع حتمية التطور، لأن التطور التاريخي يبقى توجهاً عاماً، أما الصناعة فهي عمل خاص ضمن نطاق المجرى العام تمارسها الشعوب من خلال نضالها الدائب في معراج التقدم. إن عمل الشعب في هذا المضمار هو ضبط إيقاع حركة التاريخ وتعديل سرعتها. انطلاقاً من هذا المفهوم يمكننا تعريف الحرب إذن بأنها وسيلة تطور وتقديم.

● ضرورة الدرس الدقيق والتحليل العميق قبل الإقدام على اتخاذ أي قرار استراتيجي عنيف وذلك ضمن حدود الوقت المناسب لئلا تفوق فداحة خسائر التأخير قيمة الخطأ الناجم عن القرار السريع. ويقول بوفر في هذا المجال أن لا شيء أكثر خطراً من تحليل سياسي ناقص نحاول تغطيته وسد ثغراته بقوة السلاح، خاصة وأن التاريخ يسير بسرعة أثناء الصراعات.

### صفات الفعل:

- لل فعل كما للردع صفات مميزة وخاصة به تطبع مجرياته بطابعها وهي تمثل بالأتي :
- الفعل ظاهرة بارزة تنتظم في إطار شمولي عام من السياسة والاقتصاد والمعطيات الاجتماعية وال العلاقات الدولية ، من التحديد إلى التحالف ، وهي تعمل كتؤام ملائم للردع ، والفعل في مسرح معين لا يتنافى مع الدبلوماسية في مسرح آخر .
  - يسيطر العمل العسكري العنفي على الفعل عامة ، ويكون العمود الفقري فيه ، حيث تركز معظم أعضاء الجسم متتظمة في صيغتها الجسدية النهائية . هذا يجب أن لا يضللنا ويدفعنا تحت تأثير النظريات الكلاؤزفيتية إلى السير في ركاب التصعيد إلى الحد الأقصى وإسقاط كل ما هو غير عنيفي من حسابات الفعل ، لأن الأيام أثبتت بأن الفعل قادر على العمل وتحقيق أهدافه في مساحات واسعة متدرجة من التهويل والضغط المجرد حتى الوصول إلى أقسى درجات الحرب العامة المدمرة وبذلك يستغير من الردع بعض أدواته .
  - يرتبط الفعل دائمًا بالمجتمع الذي ينفذ فيه وبالمفاهيم والأيديولوجيات الحاكمة . فهو يتطور ويتوجه وينمو تحت تأثير تلك الثوابت النسبية من أهواء تاريخية أو تطلعات مغامرة جريئة متأصلة في اللاوعي .
  - يتأثر الفعل إلى حد بعيد بالمستوى الفكري والحضاري والتقدم التكنولوجي والتقني ، لأن التكنولوجيا والتقنية تفرضان أسلوب العمل والممارسة في كنف المنهجية الفكرية الحضارية القائمة .
  - تلعب الأنانية الكامنة في الضمير الإنساني دوراً بارزاً في توجيه مسارات الأفعال . فالإنسان بطبيعته مركب على ديناميكية ذات قطبين هما الأمان والأنانية . إن الأنانية التي تعنينا الآن هي مركب يحكم الفرد والمجتمع والدول وتتمثل ب بصورة تجارية هي الرغبة في الربح الآمن السهل . لهذا السبب تأخذ المقارنة بين الغايات والوسائل والأرباح والخسائر دوراً رئيسياً في التحكم بتوجهات الأفعال وحدتها ومستوياتها وتغير أهدافها ، معتمدة المفاضلة بين الأخطار والمكاسب في إطار الرهان المستند إلى التوقعات في الحوار بين الأرباح والخسائر المحتملة .

- يعتبر التوقع والمقارنة والحدس والاستقراء قواعد أساسية في دراسة منهجية الفعل التي تهتم بالدّوافع المتأثرة دائمًا بالقيم الملائمة للعصر والشعب من حضارية وأيديولوجية وقومية ودينية واجتماعية.
- يرتبط الفعل في العصر الحاضر بثلاثة تيارات كبرى أتسود المجتمع العالمي هي:
  - الإنتاج الحر للاستهلاك، أي الاقتصاد الاستهلاكي المبني على قاعدة الربح والرّفاه الفردي المسيطر في المجتمع الغربي الرأسمالي عامة.
  - الإنتاج الجماعي المبنى على العامل لمصلحة البروليتاريا والمسيطر في الدول الشيوعية.
  - تيارات تركيبية من المفهومين السابقين تعتمد التوجيه والتدخل بشكل أو آخر لتنتظم في حلول اشتراكية متنوعة، يختلف قربها أو بعدها من أحد القطبين الأساسيين: النظام الرأسمالي والنظام الشيوعي، حسب الحلول المعتمدة وظروف الشعب والدولة.

## التخطيط الاستراتيجي

يتناقض التخطيط الاستراتيجي مع الموقف الفلسفى بصورة أساسية وأكيدة، لأن الموقف الفلسفى مبني على التأمل والسكون والتتخمين الهدى الذى يغنىه الشكل ويصل جوهره الجواز والاحتمال، بينما يحتاج التخطيط الاستراتيجي إلى معطيات دقيقة ومواد محاكمة وتوقعات ثابتة أو مرجحة، يفترض التعامل معها كأنها حقائق، لتسهيل أمر وضع الخطة ورفع قيمة جدواها، كونها ستنقل من حيز التفكير الساكن إلى حيز العمل الهدف الذى لا يستقيم إلا بالارتكاز على ثوابت أو فرضيات ينظر إليها كمسلمات وواقع. لذلك فالخطيط الاستراتيجي يجب أن يكون شاملًا عميقاً مناً متظروأً، يأخذ بعين الاعتبار شتى الاحتمالات والتوقعات الممكنة، ويفتح الباب للتعديل والتطوير الدائم الحركة استجابةً للمستجدات غير المتوقعة. للتخطيط مراحل متلازمة متتابعة تكمل الواحدة منها الأخرى، ولا يستقيم أمر الخطة إلا إذا تمت جميع مراحلها بانتظام واتساق وتكامل منعاً لوجود الثغرات واجتناباً للتقصير والمفوات. إن الكمال شيء نسبي يصعب تحقيقه، ولكن محاولة الوصول إليه أمر واجب، ولا يتم ذلك إلا باتباع منهجية منسجمة تعتمد على المرحلية التي تختبر منطقية التقويم. إن العقلانية في التخطيط الاستراتيجي تفترض أن يتم على مراحل ثلاثة هي: التشخيص السياسي والتقويم الاستراتيجي ووضع الخطة.

### التشخيص السياسي:

نعني بالتشخيص السياسي ربط الماضي بالحاضر لاستشاف احتمالات المستقبل واستجلاء دروبه تمهدأً لتحديد الخيارات الملائمة. وقد يأخذ التشخيص عدة مناهج وأساليب لا يمكن حصرها، كما يمكن السير فيه باتجاهات مختلفة حسب نقطة الانطلاق والزاوية التي ينظر إلى الموضوع من خلالها. من الممكن مثلأً الابتداء بالماضي وعبر الحاضر وصولاً إلى المستقبل، أو الانطلاق من الحاضر نحو المستقبل مع الاستفادة من عبر الماضي، وهذا هو الأسلوب الذي ستبعه في هذه الدراسة.

تقويم الوضع السياسي الحاضر. وهذا يقوم على النظر إلى الواقع الحاضر بعين العقل وال بصيرة بعيداً عن العاطفة، مع التعمق في دراسة الأوضاع و سبر أغوارها، آخذين بعين الاعتبار شتى التيارات الفكرية والفلسفية والعقائدية التي تعالج أمر دراسة المجتمعات البشرية وتطورها، لتطبيق القاعدة الأكثر قرباً للواقع أو التركيبة الملائمة من القواعد التي تفسر الوضع بموضوعية وعمق وشمولية. هنا تكمن الصعوبة في اختيار الوسيلة أو الأداة النظرية، بسبب تعدد المفكرين وتشعب الأفكار حول السياسة و ولادة المجتمعات وتطورها وموتها، لأن الاختيار يضعنا مسبقاً على طريق النتيجة. فإذا كان الاختيار حكياً موفقاً كانت النتيجة كذلك، وإذا كان سطحياً عاطفياً انفعالياً غير مكتمل الأبعاد أتت النتيجة على صورته.

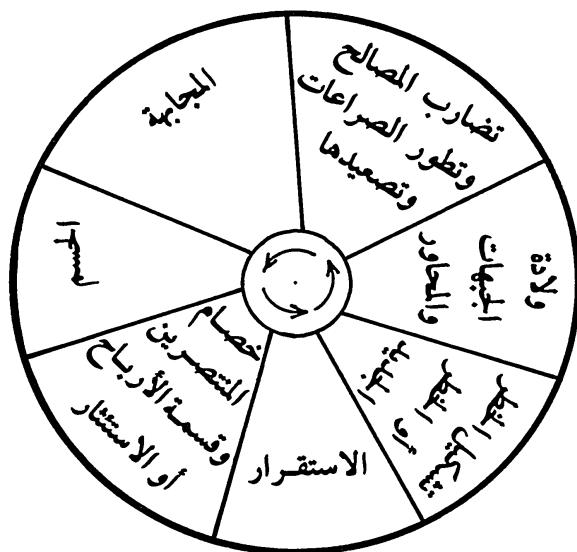
لقد حاول كثيرون خوض غمار دراسة هذه المواضيع والخروج بقواعد لها، أمثال ابن خلدون، وكارل ماركس وريمون آرون وروستوف وتوبينسي، لكن جميع النظريات في اعتقادى لم تأت قاطعة جازمة مانعة و شاملة كالقواعد الحسابية، رغم عمقيها ومستوى المفكرين والمنظرين الذين طرحوها. لذلك أرى مع الاعتراف المسبق بالعجز عن استجلاء كوامن هذا المضمار بأنه من الواجب على كل محلل استراتيجي أن يكون على يقنة بشتى هذه التيارات الفكرية، فتساعده للخروج خلال دراساته بتركيبة عقلانية يستلهم فيها المنطق والفكر والواقع والظروف فيشكل بذلك رافعة عمل وأداة تقويم ملائمة تسهم في حل العقد التي تواجهه أثناء التخطيط. أما الأساليب التي يمكن اتباعها في هذا المجال فهي متعددة ومتنوعة منها على سبيل المثال: المقارنة والتحليل والتركيب.

● المقارنة. وهي أسلوب سهل وخطر في آن معاً يعتمد التشبيه ويستلهم المعارف الواسعة في شؤون الماضي وخفايا حنایا التاريخ ليخرج بنتائج مبنية على القياس، طالما أن القاعدة الذهبية تقول بأن التاريخ يعيد نفسه. لكن وجه الخطورة في هذا الأسلوب يكمن في تبدل الأوضاع والظروف والمفاهيم ليثبت بأن التاريخ لا يعيد نفسه فعلاً لأن المعطيات الظرفية والموضوعية تختلف. إن من يلجأ إلى القياس الآلي الجامد غير عابئ بهذه التغيرات والتوجهات يقع في الشطط وينحرف عن الطريق السوي. إن من غير المعقول مثلاً إهمال ظروف الزمان والمكان والأيديولوجية والمفاهيم الاجتماعية السائدة والتوجهات القومية والأهواء المتحكمة، أكان ذلك يسير مع تطور حركة التاريخ أو عكسها. إن تقدير التطلعات التقديمية يجب أن لا يؤدي أبداً إلى إهمال الظواهر الرجعية والنوم على حرير حتمية زوالها، الأمر الذي يقود إلى الواقع في الخطأ القاتل الذي ارتكبه العالم إزاء الحركتين النازية والفاشية، وارتكبه العالم والعرب معاً حيال الحركة الصهيونية العنصرية التي أخذت سموها

تجري في عروق الغرب والشرق مغриة بصلاح منهاجها ومبشرة بالعودة إلى أفكار القوميات العنصرية الإثنية والطائفية للقرون الوسطى، انطلاقاً من بانغلادش والفيليبين مروراً بإيرلندا وقبرص وإيران وتركيا وتشاد وصولاً إلى عدد من الدول العربية.

وهنا يجب الاستدراك والتأكيد بأن إعادة التاريخ لبعض وقائعه، إنما يتم عبر مسار عام وميكانيكي مجرد عن التفاصيل ترتفع إلى مستوى التعميم، ويمكن التعبير عنها في إطار بحثنا بحلقة مغلقة تتنظم في ترتيب متناسق بدءاً من ظهور الخطر ومروراً بمراحل ولادة الجبهات والمحاور ثم تضارب المصالح وتصعيد الصراعات فالمجاورة والجسم، وبعد ذلك تصفيية الحسابات بين المنتصرين واقتسام المغانم أو الاستئثار بها، فالاستقرار ومن ثم العودة إلى مرحلة ظهور خطر جديد.

ينطبق مسار هذه الحلقة على جميع الأحداث العالمية تقريباً، أكان ذلك حرباً عامة كالحربين العالميتين أو ثورات وحروباً أهلية كالثورة الفرنسية أو الثورة الروسية عام ١٩١٧ وحرب التحرير الجزائرية وثورة كوبا والثورات العربية عامة. كذلك إن هذه القاعدة تنطبق على صراعات الأحزاب اللبنانية في الجبهة الواحدة خلال الحرب الأهلية. إن رسم هذه الحلقة التاريخية يمكن أن يتم على الوجه التالي:



● **التحليل والتركيب.** هنا وجهان لعملة واحدة. فالتحليل ينطلق من الصورة النهائية باتجاه الأعمق لتحديد أجزائها وعناصرها الأساسية، بينما ينطلق التركيب من الأجزاء المكونة ويسمو صعداً حتى يصل إلى الصورة النهائية.

هذا ويجب أن يتم التحليل والتركيب بمسار الأحداث وسياق ديناميكتها، لأن حركةحدث واتجاهها يخلقان وقائع معينة، كما يؤثر الضغط الجوي وحركة الرياح في المناخ والطقس. كل فعل له رد فعل تتناسب معه عملاً بقانون السبيبة، فتقلس النفوذ البريطاني في منطقة الخليج مثلاً قد أحده فراغاً استغلته الولايات المتحدة الأمريكية ووظفته لصالح نفوذها. كذلك فدعم أية دولة لفئة معينة من الشعب في الحروب الأهلية أو المحلية تخلق بصورة شبه آلية محوراً آخر من الفئة الثانية والدول المعادية لتلك الدولة. إن الشواهد على

ذلك كثيرة في الصراعات التي تطبع هذه الحقبة من الزمن بطابعها، من زائر إلى أفغانستان إلى المناطق العربية. هذا وينطبق الأمر أيضاً على صراعات الدول فيما بينها فلا تشذ عن تلك القاعدة.

أما المجال الثاني الذي يجب أن يعيره التحليل اهتماماً فهو التطور الاقتصادي والمادي الذي يرى فيه البعض وعلى الأخص الماديين أساس كل صراع ورافعة كل تطور. كذلك يهتم التحليل بالتطور العلمي والتكنولوجي والتقني، لأن هذا التطور ينعكس على المفاهيم وأساليب الممارسة معاً، ويوضع وبالتالي بصماته على صفحات المخططات الاستراتيجية.

يبقى أن نلتفت إلى أمرين هما حركة الأفكار وطاقات الإعلام والدعاية. فحركة الأفكار في الدول المتقدمة تسير بخطى وئيدة رصينة يطبعها العلم المادي بطابعه، وتقيدتها ضوابط واضحة المعالم. أما في الدول النامية والمتخلفة فتحكم المشاعر والأهواء المتقلبة وتلعب العوامل النفسية والسلمات الراسخة الجذور في المجتمع أكبر الأدوار لتزيد من حالات عدم الاستقرار. ويتسع مجال العمل النفسي وتتدنى قيم القواعد وتفعل الدعاية والإشاعات بشكل رهيب فعلتها. وغنى عن القول بأن أهمية الدعاية والإعلام في تصاعد مطرد في جميع الدول من متقدمة إلى نامية بسبب التطور العلمي الذي سمح بتعدد الوسائل وحقق ارتباط شعوب الكورة الأرضية كافة في وحدة إعلامية مميزة قادرة على التأثير الفاعل والتوجيه المهيمن، وخير مثال على ذلك هو تعلق العالم قاطبة بأخبار (سكاي لايف) وسقوط شظاياه في المحيط الهندي والصحراء الأسترالية، الأمر الذي ساعد الولايات المتحدة الأمريكية على تحويل التقصير العلمي إلى مكسب دعائي واضح يصب في رصيد أرباحها.

ويكتمل التقويم السياسي للوضع الحاضر عند ربطه بالماضي وإيجاد المعادلة التي يتالف منها هذا الرباط مع احترام متغيرات الزمان والمكان والظروف والقوى والأفكار والمصالح والمشاعر والأهواء، لا تشذ منهاجية الربط والتطور هذه عن حلقة مسار التاريخ التي نوهنا بها بل تسير على نمطها وهديتها.

احتمالات المستقبل. يهد تقويمنا للوضع السياسي الحاضر للانتقال إلى تحديد احتمالات المستقبل التي تعتبر المرامي المرجحة لتجهيزات حركة الحاضر. فكلما وضحت الرؤيا حول الوضع السياسي الحاضر سهل أمر استشكاف المستقبل وبيان خطوطه. وعملية استكشاف المستقبل وتحديد معالمه أمر جدي وأساسي في كل عمل تخطيطي، وعلى الأخص في المجال الاستراتيجي. ويرتكز نجاح التخطيط إلى حد بعيد على وضوح صورة الحاضر وإنائها عبر الماضي وتجاربه التي تطبع مسار التاريخ بصماتها المنتظمة والمنمرة أو المميزة

بدولات خاصة أو بالآلية تحكم إلى مفاهيم فاعلة. إن المعادلة التي تربط الماضي بالحاضر لتعبر به إلى المستقبل تسهل على المخطط وضع الفرضيات المتنوعة أولاً، ومن ثم ترتيبها في نظام أفضليات قد يأتي بسيطاً وسهلاً في بعض الأحيان، ولكنه معقد وبالغ الصعوبة غالباً. ذلك يعود للمنطلقات أو المسلمات والزوايا التي ينظر إلى الموضوع من خلالها فضلاً عن مدى خطورة كل فرضية على الوضع الوطني.

إن تحديد احتمالات المستقبل مع نظام أولوياتها حكم صعب، على القادة والمسؤولين اتخاذها مهما كانت النتائج، لأن غياب القرار والحكم أسوأ من وجود الحكم غير الناضج. وجود الحكم هذا يسهل تحديد خيارات المستقبل واتخاذ القرار الذي يسمح بوضع الخطط، بينما يُعيق غيابه الدولة متخبطة وهائمة في حلقة ضياع رهيب.

يصف الجنرال بوفر هذا الموضوع بأنه الدخول في مجال علم بناء الحاضر حسب توقعات المستقبل. إن صحة هذا القول تدفعنا إلى الإيمان بأن ميكانيكية التاريخ ليست صلبة ضيقية المجال وذات وتيرة آلية واحدة، بل هي مرنة رحبة تحكم الحتمية في اتجاهها العام الواسع بمعنى الربط بين المنطلق والمهدى. لكن الطريق التاريخي بين الثابتين الماضي والحاضر أو بين الحاضر والمستقبل فهو مجال تحرك وإبداع وخلق بثبت بأن الإنسان العاقل المفكر والتطور المادف، هو الذي يصنع التاريخ في إطار قطبي المنطلق والمهدى ضمن حدود مناورة تتسع أو تضيق حسب الظروف المادية من مكان وزمان وطاقة، وهذا في رأيي ما عنده ماوتسى تونغ بقوله إن الشعوب هي التي تصنع التاريخ.

إن تفاعل الإنسان المتتطور العاقل والمفكر المادف بالمحيط المادي يمكن اعتباره في نظري المظهر الحقيقي للحتمية التاريخية. أما العودة إلى المفاهيم القديمة حول تطور المجتمعات دورياً وارتقائها إلى القمة ثم الانحدار نحو الموت فهي أمر يجب إعادة النظر فيه، سيما وأن العقل قد تخطى حواجز كثيرة وحطمت معتقدات متعددة خلال مراحل غزوه للفضاء القريب واتجاه جهوده نحو الفضاء الكوني الرحيب.

وصناعة التاريخ قد تكون رجعية أو تقدمية في إطار محدود، ولا مناص لنا من الإقرار بالواقع بأن هتلر قد أثر في محى التاريخ البشري الحديث، أكان توجهه في نظرنا قومياً أو عنصرياً أو رجعياً أو تقدمياً. منها اختلفت التسميات لا يمكن طمس معالم الواقع الذي لا يلغى قاعدة حتمية التطوير بمفهومها العام الذي يعني التغيير، ولكنه يثبت حقيقة وجود مجالات للمناورة ومجاري عامة واسعة قد تغشاها التيارات المحلية التي تعكس التيار الشمولي العام كمثل شجرة باسقة تتدلى أغصانها أحياناً لتلامس الأرض، ولكن هذا التدلي لا يلغى حقيقة ارتفاع الشجرة واطراد نوها.

هنا تطالعنا فكرة هامة وهي أنه يجب أن لا يشكل مفهوم الحتمية التاريخية للمؤمنين به خدراً يقعدهم عن التخطيط الاستراتيجي ويوقعهم في جدل كالجدل الذي قام بين الجبرية والقدرة، وأوقع القائلين بالتسير في اتكالية مستسلمة قاتلة. فالاتحاد السوفيatic رغم تبنيه لنظرية الحتمية التاريخية في صراع الطبقات ونظرته المقارنة للأمور من خلال منظاره للتقدمية، نراه لا يترك التخطيط جانباً بل يركز عليه ولا يتورع عن التكيف مع الظروف وإيجاد الحلول المناسبة لها أكانت هذه الحلول تقدمية أو غير تقدمية من ناحية المفهوم المجرد للموضوع. هذا يعني أن الأهمية تبقى للب في كل مسألة وليس للقارب.

حل الناقضات بين الخيارات: إن هذا العمل أمر حيوي وهام يفعل في حياة الدولة ويؤثر على مصيرها خاصة في الظروف الحرجة. فحل الناقضات يجب أن يرافق عملية التشخيص السياسي كما يواكب التقويم الاستراتيجي ويسهم في بناء الخطبة، ويتعذر ذلك إلى مجال التنفيذ ليساعد في تحقيق المرونة الالازمة لمواجهة ديناميكية التطور الدائم. أما الناقضات فمردها إلى تعدد مطامح الدولة وتضاربها، فضلاً عن الناقضات التي تجتمع عن تعارض مصالح الحلفاء أو مطامحهم وتوجهاتهم أضعف إلى ذلك طبيعة هدف التزاع وما يمثله للمتخاصمين وللحلفائهم. إن مسألة حل الناقضات أمر حيوي وهام بالنسبة للدولة لأنها يحررها من كوابح الحيرة والتردد، ويوضح أمامها سبل العمل ويسهل عليها تعبئة الطاقات الداخلية ويساعدها على اكتساب الحلفاء وفرز الأعداء من الأصحاب.

لقد أعطى هتلر لمسألة حل الناقضات الأهمية اللاحقة بها في بداية تحركاته الاستراتيجية على الساحة الأوروبية قبل الحرب العالمية الثانية وفي نصفها الأول، فتمكن بسياسته المرنة المتطرفة لاجئاً إلى التهديد والوعيد حيناً وإلى التحالفات أحياناً وإلى سياسة القضم والمضم أحياناً أخرى، تمكن من تحقيق نجاحات هائلة أضعاعها بعد وقوعه في شرك الكبرياء والصلف والغرور وبعد أن كبرت مطامحه وأمسى عاجزاً عن حل ناقضاته مع الدول الأوروبية.

إن مواقف العرب من المسألة الفلسطينية خير دليل على عدم حل الناقضات بين الأهداف المتضاربة للحلفاء الأمر الذي كان السبب الأساسي في كل فشل من جراء عدم توظيف الطاقات كافة في سبيل خدمة الهدف الواحد. لقد وقع أطراف الثورة اللبنانية في نفس المأزق فكانت الناقضات بينهم وبين حلفائهم الخارجيين أهم أسباب النكسات التي كانت تصيبهم جميعاً من آن إلى آخر، ولم يسجل أي طرف منهم نجاحاً في حل أي ناقض إلا كمال جنبلاط عندما تمكن من جمع الأحزاب الوطنية في صيغة الحركة الوطنية حول أهداف الإصلاح وحماية المقاومة الفلسطينية وتكرис عروبة لبنان. لقد قدمت هذه الصيغة

الزخم الملائم للأحزاب الوطنية لتصمد في الحرب وتحتاز مراحل المحنّة وتتفادى التصفية والانهاء.

## التقويم الاستراتيجي:

يبرز لنا التشخيص السياسي معالم الواقع ويلفتنا إلى احتمالات المستقبل ونسبة وقوعها ومدى خطورتها وجدوى تحقيقها. كذلك فهو يمكننا من تصنيفها إن من حيث الأهمية بالنسبة للتأثير والقيمة أو من حيث إمكانية الحدوث. يسهل هذا التصنيف أمر القرار السياسي الذي تعتبره الاستراتيجية الهدف والضوء الأخضر لتحركها فتسعى في ظله لتحقيق مراميه.

ويبدأ تحرك الاستراتيجية بعملية التقويم التي يجب أن تتعامل مع الحقائق والسلمات بغية الوصول إلى قرارات محسوبة ومدروسة، وهي وبالتالي حجر الأساس في كل خطة استراتيجية. إن التقويم الاستراتيجي يدور حول تفاعل عناصر ثلاثة قطبيها الأساسي الهدف القرار وجناحها الوسائل من جهة وحقول العمل من جهة أخرى. أما إذا نزلنا في سلم التدرج إلى الاستراتيجية العسكرية فنلاحظ أن تقويم الموقف يدور حول خمسة عناصر هي: مقارنة القوة والمسافة والوقت وتطوير القوة القتالية المتكاملة والتحمل.

إن مقارنة قوانا مع قوى العدو أمر ضروري لتحديد الإمكانيات ولتفادي التحلق في سماء الأوهام والواقع في مطبات سوء التقدير. كذلك فالاهتمام بعامل الوقت والمسافة واجب أساسي لمعرفة إمكانيات المهل المتوفرة ومعطيات المسافات والأبعاد التي تطبع التنفيذ بطابعها وتحد من الخيارات أو تلغي بعضها أحياناً. أما مسألة القدرة على تطوير القوة وتكاملها فهي ركن ضروري لمعرفة أبعاد الطاقات الآنية والمستقبلية ولتبين الحدود القصوى التي يمكن الوصول إليها من خلال الإمكانيات. وأما عنصر التحمل فهو الذي يقيس قدرة الدول على الصمود والصبر على مستلزمات الصراع بحيث تبقى مقومات البناء الهيكلي سليمة. غير مخطمة.

إن قيمة الهدف اختيار تختلف من ظرف إلى آخر. فهي حصيلة معادلة تدخل فيها أسباب النزاع والنتائج المتغيرة، وتتكيف أو تتعدل باستمرار من جراء تفاعلها مع الوسائل وحقوق العمل، لأن هذا التفاعل يرتكز على مبدأ تجاري يدخل فيه عامل الخسارة والربح وبالتالي المساعدة تطبيقاً للمبدأ العام القائل بتناسب الغايات والوسائل وتوزن التضحيات والخسائر مع المردود العام.

أما في باب دراسة الوسائل فيجري الاهتمام بالمتوفر منها أولاً ومدى ملاءمته للمهمة وفاعليته. بعد ذلك تهتم الدراسة بالوسائل المطلوبة وإمكانية تحقيقها وكلفة هذا التحقيق

والمهل اللازمة لذلك. يتم كل ذلك من خلال مقارنة وموازنة بين المهدف ووسائل تحقيقه، حيث يدخل في تلك المقارنة الركن الثالث للموضوع، وهو دراسة حقول العمل الممكنته وهوامش التحرك وحرية التصرف داخل تلك الهوامش. وغنى عن البيان أن دراسة حقول العمل أمر هام على المستوى الاستراتيجي نظراً لأنعدام وجود حرية للتصرف مطلقة على الصعيد الدولي. فالواقع أن العالم يعيش في ظلال توازنات متعددة الأقطاب إن دولياً أو إقليمياً، وخير دليل على ذلك التناقضات والتوازنات التي شاهدها في الشرق الأوسط أو في الشرق الأقصى فضلاً عن مظلة الوفاق بين الجبارين التي يعيش العالم في كنفها، والتي ربما كان مؤتمر يالطا هو انطلاقتها بعثها في شكلها الحاضر بعد أن أخذت أشكالاً وصوراً مختلفة في السابق.وها نحن نرى هذه المظلة تتطور وتتشعب أركانها وتترسخ معالمها في مؤتمرات فلاديفوسنوك وسالت واحد واثنين ومؤتمرات بين الشمال والجنوب و مختلف مؤتمرات الطاقة. إن التوازن المتعدد الأطراف الذي يعيش العالم في ظله أشبه ما يكون بالمناطق التي تكسوها المستنقعات، حيث تنتشر فيها الأراضي والبرك والبرازخ والمجاري بصورة متشابكة غير منتظمة، فيواجه فيها العابر مناطق خطرة نسبياً وأحوالاً وبؤراً عميقة غيتة، كما يواجه إلى جانب ذلك معابر آمنة وأراضٍ صلبة. هذا هو مثل العالم اليوم؛ مناطق مستقرة نفسياً وأخرى بعيدة عن الاستقرار، بؤر توتر عالي ومناطق سكينة وهدوء. خلال كل ذلك تتشابك المساحات المستقرة وبؤر التوتر، وتتسع إحداها أو تضيق حسب محيطها وظروف اتصالها والتغيرات التي تحكمها. لقد أخذ العالم يتمظهر بصور من التوتر تعبر عنها الحروب الباردة حيناً والحروب الإقليمية المحدودة أحياناً والحروب التحريرية أحياناً أخرى، وكل ذلك تحت مظلة التوازنات الدولية.

لقد جئنا على ذكر التوازنات المتعددة الأطراف لأنها تدخل في صلب تحديدنا لحقول العمل خلال التقويم الاستراتيجي الذي نحن بصدده. وهذه الحقول هي الأفقية الثالثة لم وقد التقويم الذي تلتزم فيه الأثافي الثلاث: المهدف والوسائل وحقول العمل، وتعاضد متكيفة باستمرار لتفرز المخطط الاستراتيجي الذي يعتبر عن حق العتبة الفاصلة بين حرم الفعل وعراء الركود.

وكما يؤكّد هذا التفاعل الثلاثي خططاً استراتيجياً ما، فقد يفرز أحياناً توجيهياً استراتيجياً هو بمثابة منزلة بين المزليتين، وقراراً متقدماً عالياً على طريق التنفيذ. ولإيضاح الفرق بين المخطط والتوجيه نذكر توجيهين استراتيجيين ليسا بعيداً العهد، وهما متمايزان من حيث موقعهما، واحد قبل التخطيط وآخر بعده. ذلك يظهر المرونة في العملية من جهة ويبيرز المجال الواسع الذي ينتقل فيه كل من التخطيط والتوجيه بين التقويم والتنفيذ من جهة أخرى.

إن التوجيه الأول هو الذي أصدرته رئيسة الوزراء الهندية أنديرا غاندي أثناء الصراعات الأهلية والطائفية في باكستان الموحدة عندما بدأ التوتر يزداد ضراوة وأخذت قوافل النازحين تتقاطر إلى الأرض الهندية. لقد أصدرت غاندي هذا التوجيه لقيادة جيشها قبل سنة من اندلاع الحرب الهندية الباكستانية عام ١٩٧١ والتي أدت إلى هزيمة باكستان وولادة دولة بنغلادش. ستتجاوز هنا الحديث عن أسباب الصراع والخلافات القديمة بين الهند والباكستان لننطلق من المدخل المباشر للحرب وهو كثافة اللاجئين الوافدين إلى الهند، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يخلقها هذا النزوح. وكما تجاوزنا في بحثنا الأسباب القديمة للنزاع، كذلك ستتجاوز أيضاً عمليتي التشخيص السياسي والتقويم الاستراتيجي إلى مضمون التوجيه الذي يدور حول النقاط العامة الآتية:

- الجهوز خلال سنة لاحتلال بنغلادش وإعادة المهرجين إلى ديارهم.
  - يجب أن لا تتعدي مدة الحرب الخمسة عشر يوماً خوفاً من عدم التمكن من ضبط نتائج التفاعلات الدولية التي ستنشأ عن القتال (حيز الأمان).
  - تقوم الحكومة الهندية بتحضير الجو الإعلامي والغطاء السياسي خلال الفترة التحضيرية.
  - على القيادة العسكرية الهندية إعداد الجيش للمعركة وطلب الوسائل التي تحتاجها للتنفيذ خلال مدة معينة تكفي لتحقيقها وإتقان استعمالها قبل بدء الحرب.
- يعطينا هذا المثال فكرة واضحة عن المضمون الذي قد يحمله التوجيه الاستراتيجي وعن المركز الذي يحتله بين الهدف والخطة.

أما المثال الثاني فهو التوجيه الاستراتيجي الذي أصدره الرئيس المصري أنور السادات وكتبه محمد حسين هيكل عشية حرب تشرين (الغران) عام ١٩٧٣م بعد فشل المحاولات المتكررة لإنجاح الحلول السلمية، وبعدما أيقنت الدول العربية أن لا خيار لها لاسترجاع الأرض المحتلة أو لتحريك المفاوضات إلا خيار القوة طالما أن الفكرة التي رسختها حرب ١٩٦٧ (حرب الأيام الستة) في أذهان القادة الإسرائيليين قد تشبيّعت بالغرور والغطرسة، مركبة المفهوم الكلاؤزفيتزي للسياسة وال الحرب بنظرية للأمن ترتكز على المفاهيم التالية:

- إن الأرضي العربية المحتلة هي أحزمة أمان لإسرائيل لا بد من وجودها للمحافظة على الدولة.

— إمكانية ضم الأرضي بالقوة. أي قانونية القوة في اكتساب الحق. لأن التجربة أثبتت نجاح هذا المفهوم عملياً في حرب ١٩٤٨ وضربت بقرارات الأمم المتحدة حول

التقسيم عرض الحائط. ثم جاء ضم إيلات (أم رشراش) للدولة الإسرائيلية بالقوة بعد انتهاء حرب ١٩٤٨ ليذكر هذا المفهوم. ولذلك لاحظنا أن مناخيمن بيعن تمسك بهذه الفكرة صراحة أحياناً ومداورة أحياناً أخرى، خلال محادثات كامب دايفد ومتفرعاتها. لقد أصر على أن جميع حروب إسرائيل مع العرب كانت حروباً دفاعية، وعليه يجوز لها ضم الأراضي التي احتلتها لضمان أنها المستقبلية، مدعياً حجته هذه بفتاوي خبراء وختصاصين في القانون الدولي.

— الاقتناع بالتفوق العنصري المبني على مفاهيم تراثية قديمة، هي نفسها التي دفعت اليهود للمطالبة بأرض الميعاد وإقامة دولتهم اعتداداً بمفهوم الحق الإلهي الذي تخطاه الزمن.

— مفهوم اليهود الديني لدورهم التاريخي التوسيعى المرسوم الذي يعتبرونه قدرًا وواجبًا مقدسًا، وهو يحدد دولتهم الموعودة من النيل إلى الفرات.

— معاناة اليهود كأقلية عنصرية مضطهدة في أوروبا وخاصة خلال العهد المحتل النازي.

إن مفاهيم كهذه لا يمكن أن تقود إلى حلول سلمية للمعضلة، ما لم تتبدل قواعد التصلب وتهتز القناعات الرجعية. لذلك كان لا بد من قيام عمل عسكري يحطم هذه المفاهيم، فجاء توجيه الرئيس أنور السادات الاستراتيجي قبل الحرب وبعد تقويمات استراتيجية وتحضيرات متنوعة وحتى خططات مدروسة، جاء على شكل قرار أو إيدان ببدء الحرب لضرب نظرية الأمن الإسرائيلي. هنا نلاحظ بوضوح أن التوجيه جاء ليضع اللمسات الأخيرة على الخطط المجهزة ليكييفها بما يتلاءم مع الوضع العام. وهذا يؤكّد لنا حرامة القرارات والخططات بصورة دائمة، وعدم سكونها وضرورة تكييفها وبعدها عن التصلب إن في أولوياتها أو دورها صنعها أو منهجهية دراستها وإقرارها.

إن نص هذا التوجيه الاستراتيجي طويل لذلك سنقتطف منه المقطعين التاليين:

● استراتيجية مصر في تلك المرحلة. إن الهدف الاستراتيجي الذي أتّحمل المسؤولية السياسية في إعطائه للقوات المسلحة المصرية وعلى أساس كل ما سمعت وعرفت من أوضاع الاستعداد يتلخص فيما يلي:

تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي وذلك عن طريق عمل عسكري حسب إمكانات القوات المسلحة يكون هدفه إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالعدو وإنقاذه أن مواصلة احتلاله لأراضينا يفرض عليه ثمناً لا يستطيع دفعه. وبالتالي فإن نظريته في الأمن — على أساس التخويف النفسي والسياسي والعسكري — ليست درعاً من الفولاذ تحميـه الآن أو في المستقبل.

وإذا استطعنا بنجاح أن تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي فإن ذلك سوف يؤدي إلى نتائج محققة في المدى القريب وفي المدى البعيد:

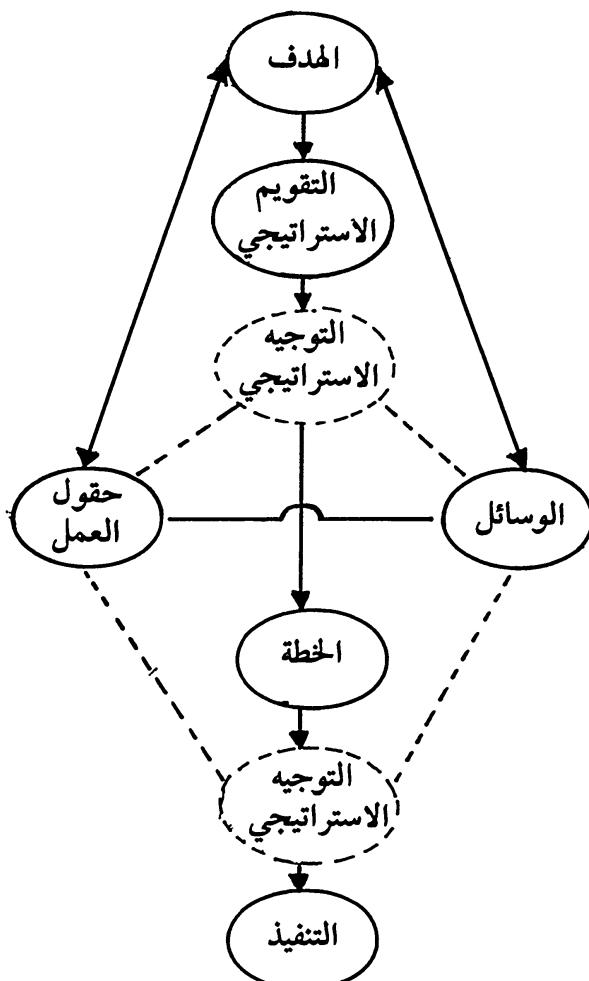
في المدى القريب إن تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي يمكن أن يصل بنا إلى نتائج محققة تجعل في الإمكان أن نصل إلى حل مشرف لأزمة الشرق الأوسط، وفي المدى البعيد فإن تحدي نظرية الأمن الإسرائيلي يمكن أن يحدث متغيرات تؤدي بالترابع إلى تغيير أساسي في فكر العدو ونفسيته ونزعاته العدوانية.

● التوقيت. إن الوقت الآن ومن وجهة نظر سياسية ملائم كل الملاعنة مثل هذا العمل الذي أشرت إليه في هذا التوجيه.

إن أوضاع الجبهة الداخلية وأوضاع الجبهة العربية العامة بما في ذلك التنسيق الوثيق مع الجبهة الشمالية وأوضاع المسرح الدولي يعطينا من الآن فرصة مناسبة للبدء.

ومع العزلة الدولية للعدو ومع الجو الذي يسود عنده بنزاعات الانتخابات الحزبية وصراعات الشخصيات فإن احتمالات الفرصة المناسبة تصبح أحسن أمامنا.

إن التوجيه الاستراتيجي المصري يثبت لنا أن التوجيه قد يأتي أحياناً بعد التخطيط ليضع اللمسات الأخيرة على الخطة المجهزة ويكييفها حسب الظروف الحاضرة، فيصبح نوعاً من الإيذان ب المباشرة التنفيذ وليس مرحلة من المراحل المتطرفة على طريق التخطيط، كما في حال التوجيه الهندي الذي جئنا على ذكره. انطلاقاً من المعطيات التي تناولناها في بحثنا عن التخطيط والتقويم الاستراتيجي وما يتشعب عنها أو يتصل بها يمكننا أن نتصور رسيمة رمزية لهذه العملية على الشكل الآتي:



### الخطة :

بعد دراسة الهدف ومقارنته بالوسائل و مجالات العمل من خلال التشخيص السياسي ثم التقويم الاستراتيجي ، تتكون لدينا المعطيات الالزمة لوضع الخطة والأرضية التي يجب أن

تقوم عليها، والأبعاد التي يجب أن تتحترمها. ومن الطبيعي أن كل خطة استراتيجية يمكن أن تأخذ اتجاه تيار التطور التاريخي فتساعد في تسريعه، أو يمكن أن تأخذ اتجاهًا معاكساً للتيار، فتسهم في عرقلة مسيرته أو إبطائه، ولكنها لا يمكن أن تعكس اتجاهه أبداً. وكل خطة تماشي التيار تأتي بصورة عامة أسهل وأيسر مناً من المخططات التي تعاكسه. لكن الواضح في الأمر أن المخططات الاستراتيجية التي تنتقل من حيز التفكير إلى حيز العمل، تلعب دوراً أساسياً في صنع التاريخ، وكانت أهدافها رجعية أم تقدمية، تسير في موكب تيار التطور التاريخي أم عكسه.

وبديهي القول أن أي خطط استراتيجي كونه مبني على التوقع وحوار الإرادات، يجب أن يأخذ بعين الاعتبار تقلبات المستقبل ومفاجآته العسكرية والسياسية والاقتصادية وتعاقب الأعمال وتوافقها وردات الفعل المرتقبة وغير المرتقبة، سبيلاً وأن المضمون الدولي للصراع يزيده تعقيداً ويجبر اللاعبين على مراعاة الأعداء والأصدقاء والمحايدين على حد سواء.

أما الأرضية الالزامية لبناء الخطة وإطار عملها ومواد بنائها وأدواتها، فيقدمها التقويم الاستراتيجي الذي تكلمنا عنه، والذي يتم بدراسة مثلث الأهداف والوسائل وحقول العمل. ومحصلة هذه الدراسة المنهجية العميقه تدور حول النقاط التالية:

● تحديد هوية المشتركين في اللعبة وأهدافهم ومصالحهم آخذين بعين الاعتبار حدة الدوافع السياسية والقومية.

● معرفة مستويات الفعل الممكنة والتي يحددها الجنرال بوفر على الشكل الآتي:  
— مستوى السلم الكامل والذي يرتكز على فكرة الاستقرار الناجمة عن توازن القوى الرادعة.

— مستوى الحرب الباردة وهي على درجتين: التدخل الخفي والتدخل المكشوف.

— مستوى استخدام السلاح ويشمل الحروب التقليدية وتتراوح بين التدخل العسكري المحدود وال Herb التقليدية الشاملة. كذلك يشمل مستوى الحرب النووية وتتراوح بين الضربات التحذيرية وذروة العنف النووي.

● دراسة خصوصيات معادلة الوضع الناجمة عن تفاعل الأهداف والوسائل وحقول العمل بـ:

— تكيف الأهداف الذي يعتمد على مقارنة الدوافع والقيم لكل من أهداف المتنازعين، وتحليل التناقضات القائمة بين الأهداف لتحديد النقاط الحساسة من أماكن قوة وثغرات ضعف في كل من أهداف الأصدقاء وأهداف الأعداء. لأن نقاط التضامن والقوة تشكل رافعة عمل أساسية بينما تشكل نقاط الضعف والتناقض وسائل شلًّا ومُقايل. كذلك

يعتمد تكيف الأهداف على الربط بين السياستين الداخلية والخارجية ومراعاة أمر حل الناقضات تأميناً لحرية العمل.

— درس ميكانيكية الفعل وسيكولوجيته بتحديد عوامل الاستقرار أو عدمه واكتناع أسبابها، لأن ميكانيكية الفعل تعيش ثلاثة أنواع من الاستقرار هي: الاستقرار الثابت ويتمثل بتوازن الرعب الناتج عن طاقة رادعة عالية متعادلة لدى الطرفين. والاستقرار المهزوز الذي يتمثل بوجود طاقتان رادعتان غير متكافئة وغير مضمونة النتائج، كما كانت الحال في بعض مراحل التسابق في التسلیخ النووي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيافي في الخمسينيات، وكما هي الحال في معادلة توازن الردع غير المباشر بين دول الصاف الأول ودول الصاف الثاني في المجال الذري.. أما الاستقرار الثالث فهو الاستقرار الظري الذي تخلقه الصدفة أو خصوصيات الوضع في نطاق محدود من الزمان والمكان والأهداف. يبقى الوجه الآخر للعملة وهو عدم الاستقرار المتأي عن خلل في توازن القوى يغري أحد الطرفين بتحقيق أهدافه أو تأمين مكاسب مرمودة من خلال سلوك طريق الصدام.

ويتناول درس ميكانيكية الفعل تحديد سيكولوجية الصراع بدرس النفسيات الخاصة بالقادة من سياسيين وعسكريين، ومدى انعكاسها على صنع القرار ومتابعة تنفيذه، فضلاً عن دراسة النפשية العامة للشعب. يضاف إلى ذلك تحديد إطار العمل النفسي المباشر على الشعبين المتخاصمين وعلى المقاتلين في كلا الطرفين. كذلك يتم بتحديد خيارات العمل النفسي غير المباشر وفعاليته على ساحة الصراع وعلى الساحة العالمية.

● تحديد حقوق العمل والجهود الممكنة. إن دراسة حقوق العمل تؤدي إلى تبيان اتساع مجالاتها وتوضيح معالم حدودها وتشابكات أطرافها، فيسهل عندها معرفة أنواع الجهود الممكنة وخصائصها المتعلقة بالمكان وطبيعة الجهود وترتيبها وتحديد الخيارات.

إن المكان يعتمد على بعد الجغرافي حيث تتحدد مناطق العمل الممكنة لكل من المتخاصمين في المجالين الداخلي والخارجي. أما طبيعة الجهود الممكنة وأساليبها فتتوزع على المجالين الداخلي والخارجي ، وتنظم في تشكيلة واسعة من الأساليب السياسية والدستورية والاقتصادية والنفسية والعسكرية...، إلخ متدرجة المستوى ومتعددة الشدة. إن حدتها تختلف باختلاف نوع الخيار نفسه أجزاء على مستوى قرار سياسي موفق أو تدخل تأمري خفي أو تدخل مكشوف يراوح بين المساعدات البسيطة المحدودة ويتدرج حتى المستوى النووي، مروراً بمجموعة من خيارات التدخل والصدام المختلفة النوع والشدة ومدى الشمول. هذا كله مرهون بالطبع بدرجة حدة الصراع وإمكانات العمل.

وأما ترتيب الجهد فهو أمر يتعلق بتحديد أولوياتها وأماكن تنفيذها، وشروط هذا التنفيذ ونقط تلاقيها أو افتراقها وتأثيراتها والعوامل المؤثرة فيها والمهل الازمة لذلك.

بعد ذلك يبقى تحديد الخيارات التي تؤمن حرية المناورة. ويقول الجنرال بوفر في ذلك: «إن أفضل قرار على هذا المستوى هو القرار الذي يطور حرية قرارنا السياسي إلى أبعد مستوى، ويقلص حرية قرار الخصم إلى أدنى حد ممكن».

يعني ذلك أنه يجب اللجوء إلى القرارات التي تؤمن العمل على الاقتصاد بالقوى، وحل تناقضات الأصدقاء واحتواها، مع إرغام الأعداء على التبذير وتغذية تناقضاتهم لشل طاقاتهم.

• شكل الخطة ومضمونها. إن شكل الخطة في الواقع ليس قالباً جاماً أو إطاراً صلباً لا يمكن كسره. المهم في الموضوع هو المضمون وليس الشكل إطلاقاً. هذا لا يعني عدم وجود بعض المفاتيح والنقاط الهامة الواجب وجودها في كل خطة، ولكنه يعني عدم أهمية الإطار الخارجي بالنسبة للجوهر الذي نرى أن كل خطة يجب أن تراعيه بالتركيز على نقاط حساسة وهامة لتأمين النجاح ألا وهي :

- تلبية متطلبات الأهداف والخيارات.
- مراعاة تناسب الغايات والوسائل.
- السهولة والواقعية.
- الدقة والوضوح والشمولية.

- اختيار المناورات التي تفادي التناقضات الداخلية أو تحتها، وتضخم تناقضات الخصوم.

- اختيار المناورات التي تؤدي إلى الجسم الاستراتيجي.

- المحافظة على حرية القرار والعمل وتحقيق الاقتصاد بالقوى.

- اعتماد المنهجية وبرمجة الأولويات بصورة منطقية ومنسجمة.

- مراعاة عامل الوقت والمهل في الإعداد والتنفيذ والاستثمار.

- تحقيق المرونة الديناميكية أثناء التحضير والتنفيذ.

- دوام ارتقاب المفاجآت وسهولة الانتقال إلى تطبيق المخططات البديلة أو تحويل الخطط الموضوعة قيد التنفيذ أو تطوير الأهداف ردأ على أي طارئ.

- مراعاة عامل المسافة والمكان.

ما تقدم نلاحظ أنّ ما من مخطط استراتيجي ناضج إلا ويتسم بالحياة والتغير والتأسلم بشكل يؤمن المرونة في العمل والصلابة في التوجه العام.

## الجسم الاستراتيجي

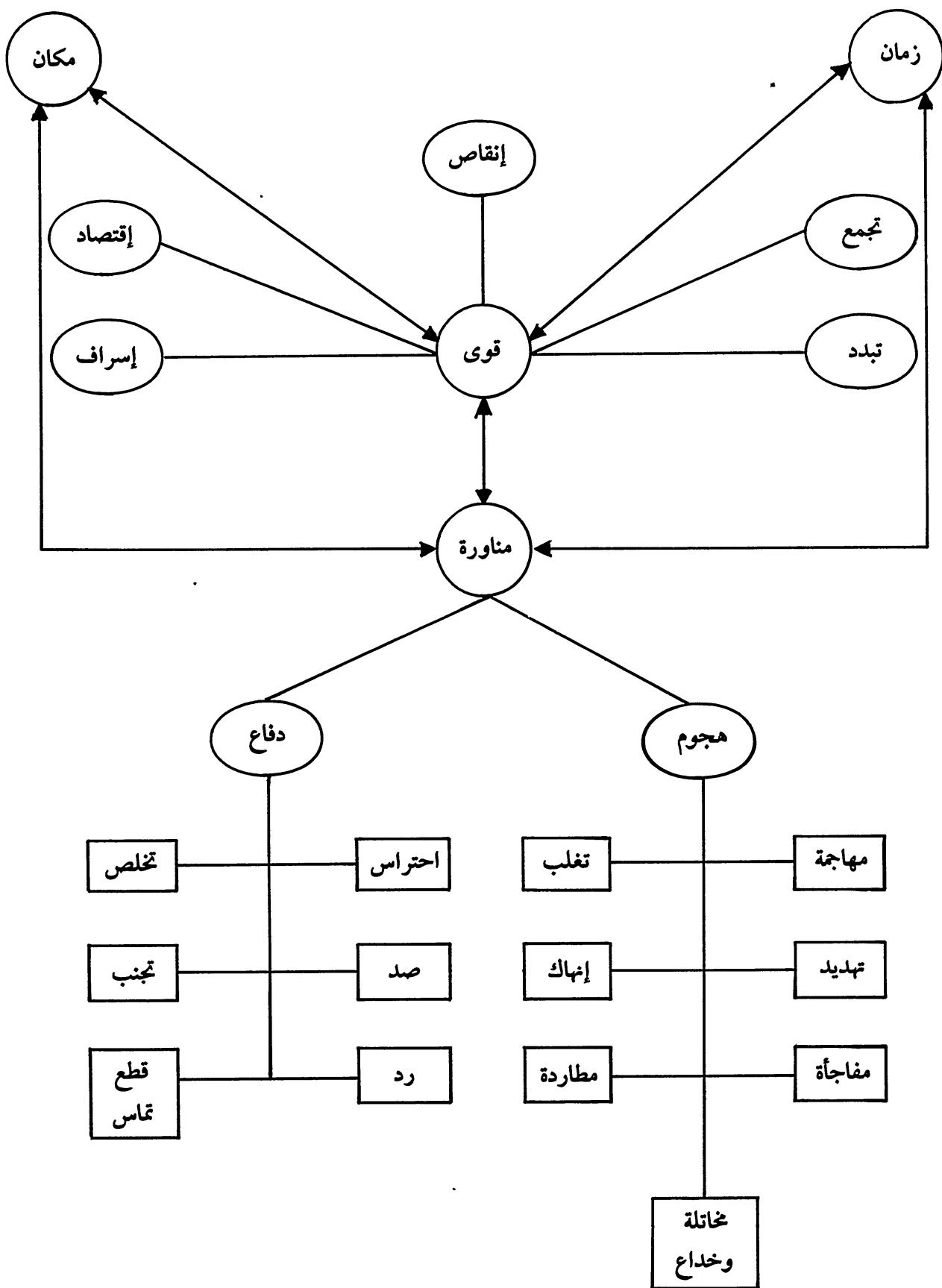
ما من تخطيط استراتيجي سليم إلا ويبغي أحد أمرين: إما تحقيق الجسم أو إبعاده، وذلك حسب إمكانات المخطط ووسائله بالمقارنة مع وسائل خصميه ضمن نطاق ما تسمح به حرية العمل وحقوله. يقول الجنرال بوفر: «إن كل حل استراتيجي يتعلق بثلاثة محاور إحدايات هي: الزمان والمكان وكمية القوى المادية والمعنوية الداخلية في تشكيل وضع موقف من الأوضاع». أما عامل المناورة فهو الدليل الذي يقود بقية العوامل الأخرى ضمن مفازة معقدة المسالك، ويضبط تتابع وتعاقب الأوضاع وعلاقاتها التصادمية المتفاعلة التي تتجسد بسلسلة من الأفعال والردود عليها.

هذه الرؤية للموضوع تجسد اللعبة الخامسة للأستراتيجية إذا جاز الخيال بأربعة أبعاد

متشعبه هي:

- اختيار الزمان.
- اختيار المكان.
- كمية القوى وقرارات تحركها وتنحصر في خمسة أنواع هي: التجمع والتبدد والاقتصاد والإسراف والإنقاص.
- عامل المناورة ويتمظهر بشكلين:
  - الهجوم، ويشتمل على المهاجمة التي يدور في فلكها عدة نشاطات هي التهديد والمفاجأة والمخاتلة والخداع والتغلب والإنهاك والمطاردة.
  - الدفاع، ويدور في فلكه أعمال الاحتراس والصد والرد والتخلص والتجنب وقطع التماس.

إن جميع الأعمال الأساسية للعبة الجسم الاستراتيجي يمكن وضعها في رسيمة رمزية تبين ارتباطاتها وتفاعلاتها على الوجه الآتي:



هذه الرسمة تساعدنا على توضيح معادلة الاستراتيجية البدائية المبسطة التي تكلمنا عنها سابقاً:

$$س = ح زم$$

وللتفسير نذكر بأن (س) تعني الاستراتيجية، و(ح) تعني الحشد للقوى، و(زم) تعني الزمان و(م) تعني المكان.

قلنا إن هذه الرسمة تساعدنا على التوضيح، كما أن العرض يساعدنا على وضع معادلة الاستراتيجية من جديد في عدة صور بعد أن ظهر لنا جلياً تضامن الاستراتيجية والجسم وعلاقة القوى بالمناورة وال Sheridan. هذه الصور هي الآتية:

$$ح = ق ن$$

١ الحشد = القوى × المناورة

$$ح م = س$$

٢ الجسم  $\Rightarrow$  الاستراتيجية

$$س = ح م = ح زم = (ق ن) زم$$

وإذا نظرنا إلى مفهوم الجسم الاستراتيجي على أنه تحقيق للهدف العام وحل لمعضلة عسكرية، فلا بد من أن نشدد على أركان هذا الخل وأدواته المتمثلة بالأبعاد الأربع وتشعباتها خصوصاً على المستوى العملياتي. كما علينا عند القيام بأي تخطيط استراتيجي أن نعيّر مسألة الجسم الأهمية التي تستحقها شريطة أن نبقي الهدف أمامعينا قطباً ترنو إليه بوصلة الجسم محددةً لنا السبيل السوي والخل السليم. فليس الجسم دائمًا دموياً طاحناً ولا هو نتيجة صراع طويل، وإنما تختلف طريقة تحقيقه وأسلوبها باختلاف الظروف وماهية الهدف. لقد قدم الجنرال بوفر في كتابه «مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية» عدة نماذج لمسائل تبين أن الحلول ليست واحدة، وإنما تختلف نتيجة لمعطيات كل منها. وقد رأيت عرضها مع غيرها في الجدول المفصل أدناه لتسهيل المقارنة والاستنتاج.

النوع الأساس	معطيات النزاع						أهمية مصدر العنف	
	حقل حرية العمل العنيف		وسائل الفريق الثاني وإمكاناته		وسائل الفريق الأول وإمكاناته			
	كبير	معدود	معدودة جداً ضعيفة	قوية جداً كافية	معدودة ضعيفة	قوية جداً كافية		
إن التلويح بالقرة كافٍ لإجبار الخصم على التخلي عن مطامعه بسبب الردع.	x		x	x		x	قليلة	
يجري البحث عن النتيجة الخامسة بسلسلة من الخداع والعمليات غير المباشرة	x	x	x		x		قليلة	
سلسلة من الأعمال المتعاقبة بقوات محدودة وعمليات محلية مع توافق الضغط المباشر وغير المباشر (القضم والهضم) (التقرب غير المباشر)... إلخ صراع طويل الأمد (إنهاء مادي ومعنوي) (حرب عصابات) (حرب تحرير)	x	x	x		x		كبيرة	
عمل عسكري عنيف سريع وقصير الأمد. قد يكفي النصر في المعركة وتحطيم الجيش كافي لتحقيق الحسم إذا كان سبب الصراع غير حيوي، وألا يمكن أن ثور النيران الكامنة تحت الرماد عندما تواتيها الرياح للانتقال إلى حروب عصابات وتحرير وبنقي تحت مظلة الردع التوسي	x			x		x	كبيرة	
الحل مضمون لصالح القوي ويكتفي التهويل بالقوة لتحقيق الهدف إذا كان حقل حرية العمل ضعيفاً بسبب قوة حلفاء الضعف تشبه المسألة عندها الحل (1)	x		x			x	قليلة	
إن الحل غير مضمون لصالح القوي إذا كان الهدف حيوياً في ظل وجود ردع حليف يهدى من حرية العمل (حرب عصابات) (إرهاب)... إلخ يأتي الحل على طريق عمليات التقرب غير المباشر وعمليات الصراع طويل الأمد	x	x	x		x	x	كبيرة	
	x		x		x		قليلة	

إن إمعان النظر في جدول الحلول أو الإجراءات يقودنا إلى التفكير في موقع الجسم من هيكل اللعبة الاستراتيجية بجملها. هذه اللعبة التي يمكن تبسيط تعقيداتها بوضعها في إطار معادلة ثنائية هي الهدف والطريق. فإلى الهدف ترنو جميع الإجراءات، كما تدور جميع الحلول في فلكه. أما الطريق فهي التوجيه والأسلوب والوسائل والمناورة.

وهدف كل استراتيجية هو قرار عال يقع على أحد المستويات الثلاثة، الشامل أو العام أو العملياتي. أما الطريق فمن ضمن أركانها الأساسية الجسم الذي يحقق الهدف، وما يهمنا من الجسم أمران هما:

● نقطة الجسم. وهي، إذا جاز التشبيه، تقع على مشارف الهدف أو على اعتابه. و اختيار نقطة الجسم أمر بالغ الخطورة والأهمية وعليه يرتكز القسط الكبير في النجاح في تحقيق الهدف. وسلامة الاختيار يجب أن تأخذ بعين الاعتبار تكوين الخصم ونقاط ضعفه ونقاط قوة الأصدقاء، و مجال تفوقهم، فضلاً عن الهدف الاستراتيجي الذي ينبغي تحقيقه.

● المناورة الاستراتيجية. وهي تلك المناورة التي ترمي إلى بلوغ النقطة الخامسة. وكما لا اختيار النقطة الخامسة أهمية كبرى في النجاح وتحقيق الهدف الاستراتيجي، كذلك لا اختيار المناورة التحضيرية نفس الأهمية. ومقومات نجاحها ترکز على نفس اعتبارات النجاح في اختبار النقطة الخامسة. وكما يقول الجنرال فوش، فالمناورة هنا تأخذ طابع حوار الإرادات بين الخصمين، فكلُّ ي يريد نجاح مناورته وفشل مناورة عدوه.

إذا تمكَن فريق من تأمين حرية العمل وتحقيق الاقتصاد بالقوى عن طريق تأمين المردود الأقصى للوسائل سهَّل عليه قيادة مناورة ناجحة ذات ثلاث شعب لتحقيق الجسم المشود قوامها:

- الحماية ضد مناورة العدو.
- تأمين المناورة الذاتية.
- القيام بالعمل الحاسم.

## أنواع الاستراتيجية وقواعدها

لاحظنا من خلال دراستنا لتعريف الاستراتيجية والاستراتيجية في المجال العسكري، أن هناك تيارات فكرية مختلفة قد عالجت هذا الموضوع من زوايا عده وباجهادات متباعدة، فمنهم من حشر الاستراتيجية في النطاق العسكري البحث، ومنهم من اعترف بصعوبة وضع حدود ظاهرة بينها وبين السياسة نظراً لتنامي أهميتها، سبيلاً وأمناً أسلوب حسم وأداة صنع تاريخ. ومنهم من اعتنق صفتها الشمولية كعقيدة راسخة وكمظلة دائمة لا تنمو التصرفات السليمة للدولة إلا في كنفها. وبعضهم نادى بوجوب التقسيم العمودي في نطاق المسؤوليات بينها وبين الدبلوماسية رافعاً شعار الثنائية: دبلوماسية استراتيجية.

وفي خضم هذه التيارات المتضاربة المتشابكة يبدو للفاحض والمعain الحصيف أن الاستراتيجية أخذت نفسها أكثر فأكثر وتمدد فيتسع نطاق تأثيرها كانتشار بقعة الزيت، وأصبحت صفاتها الشمولية أموراً مقبولة، إن لم نقل ثابتة راسخة، أكان ذلك في نطاق المفكرين الشرقي الاشتراكي أو الغربي الليبرالي.

من هذا المنطلق سنجاول رسم الصور التي نراها الأقرب إلى واقع تشابكات الاستراتيجية من حيث المستويات والأنواع والقواعد والعوائد مفصلين ما أمكن كل صورة على انفراد، ومحاولين رسم شبكة العنكبوت التي تربط هذه الصور بعضها ببعض وتشكل الجوامع المشتركة ومحاور التجاذب والاستقطاب فيما بينها.

إن تقسيم الاستراتيجية يرتكز على المفهوم الذي نطلق منه للنظر إليها، وهذه المفاهيم ما هي إلا صفات راسخة للاستراتيجية. تلك الصفات لا يمكن حصرها، ولكننا في سبيل التبويب سنهم بالصفات التي تساعدننا على توجها وتسهم في إبراز معالم تقسيماتنا. إن أهم الصفات هذه هي الشمولية والاتساع الجغرافي والزماني والسيطرة على مجموعة من الطاقات والتحركات ومستوى الخطر العالي والتأثير الواسع والتكلفة الباهضة. من هنا نلاحظ أن بعض الأسلحة يصنف استراتيجياً وبعضها الآخر يصنف عادياً، وذلك نسبة للتأثير والتكلفة وحصرية الامتلاك. إن تطلعنا لكل تصنيف استراتيجي فيما يتعقب سيهتدى بهذه المؤشرات التي ذكرناها لأنها الصفات المميزة للاستراتيجية بوجه عام.

## التقسيم من حيث المستوى:

يمكن تقسيم الاستراتيجية أولاً من حيث مستوياتها ارتباطها بالسياسة التي تعتبر بالواقع أداة إدارة للدولة، كونها تمثل المجتمع البشري المنظم، وثانياً من حيث حقول تخصصها ونطاق مسؤوليتها. إن هذا التقسيم يمكن أن يأتي حسب المراتب التالية:

**الأستراتيجية الشاملة.** ما دمنا قد اعترفنا بالمفهومين التاليين للاستراتيجية وهما: أولاً أنها فن استخدام وسائل معينة لبلوغ أهداف معينة، أي الإقرار بشموليتها وتنوع حقول عملها، وثانياً أنها فن ممارسة متطور وأسلوب تفكير وتحظيط وإدارة للصراعات والعلاقات الدولية. ومع الاقتناع بتنامي أهمية هذا الفن واتساع نطاق دوره وفعاليته، فلا بد إذًا من الإقرار بمفهوم الاستراتيجية الشاملة التي تقع في قمة هرم الاستراتيجيات وفي المرتبة الثانية بعد المستوى السياسي مباشرة. وهي وبالتالي تسيطر على إدارة الحرب الشاملة وتلعب دور الأداة التنسيقية في تحديد المهام الخاصة لمختلف الاستراتيجيات العامة، السياسية والاقتصادية والدبلوماسية والنفسية والعسكرية... ، الخ لتأمين توافقها في مجال سياسة الصراع خدمة للهدف الوطني أو القومي. والاستراتيجية الشاملة في هذا المفهوم تتدخل بالسياسة العليا وتشابك وإيادها في نطاق معقد يصعب فصل النهايات والحدود فيه خصوصاً لجهة التمييز بين الاستراتيجية والدبلوماسية لأنها يصعبان وجهين لعملة واحدة. إن أفضل دليل هداية في هذا المجال هو في التطلع إلى الموضوع من زاوية الهدف والوسيلة عبر الممارسة التنفيذية. فكلما اتسم العمل بالطابع المادي بعيد عن العنف العسكري أو التهويل بالقوة كلما أصبح أقرب إلى الدبلوماسية منه إلى الاستراتيجية. أما عندما تتجه الأمور في المنحى الآخر فهي تأخذ بالاقتراب إلى الاستراتيجية.

**الاستراتيجيات العامة.** قلنا إن عمل الاستراتيجية الشاملة هو التنسيق بين الاستراتيجيات العامة في مختلف القطاعات خدمة لهدف الصراع العام. هذا يعني أنه رغم علو مستوى الاستراتيجية العامة فهو لا يبلغ درجة الشمول بل يتسم بطابع التخصص في قطاعات عامة يتساوى فيها التعميم والشمولية ضمن نطاق التخصص المحدد بإطار الموضوع. فعندما نتكلم عن الاستراتيجية الاقتصادية مثلاً نجد أن الإطار الموضوعي هو الذي يرسم معالم حقول العمل، وأن الشمولية محدودة ضمن السقف العام لهذا الإطار. هذا وتجدر الملاحظة هنا أن مستوى الاستراتيجيات العامة هو مجمع فسيح متتطور لموضوعات متنوعة تزداد اتساعاً وتكتاثراً كلما ارتقينا في مراجح التقدم البشري والحضاري.

إن الاستراتيجية التي تهمنا أكثر من غيرها في هذا المستوى هي الاستراتيجية العسكرية

التي نوهنا سابقاً بأنها فن إدارة للقتال في بعض نواحيها، أو أنها فن تنسيق المعرك خدمة لهدف الحرب. لا حاجة هنا للتذكير من جديد بتعريفات كلاوزفيتز وليدل هارت وجوميني وبوفر لأنها في الواقع تدور حول محور واحد وفي ذلك واحد. إنما المهم في الموضوع من الناحية العملية في عصرنا الحاضر هو دور الاستراتيجية التنسيقية الهام في مختلف الأعمال الحربية برية وبحرية وجوية، وكانت الحرب دائرة في جو تقليدي أو جو نووي.

استراتيجية العمليات. هي استراتيجية المعركة وهي في الواقع صلة الوصل بين الاستراتيجية العسكرية والتكتيك، حيث تمثل جسر عبور أو بربخاً بين اليابسة الأم وإحدى شبه الجزر. إن أول من تنبه لوجود هذا المر الإجباري أو المشاع التمازجي إذا جاز التعبير هم الألمان حيث استعملوا تسمية استراتيجية العمليات في المجال البري. أما الآن فقد ثبت وجود هذه الاستراتيجية في حقول البر والبحر والجو على حد سواء.

وكون استراتيجية العمليات المفصل بين الاستراتيجية والتكتيك فهي تأخذ من الإثنين بعض صفاتهما وتمزجها في تركيبة مميزة ذات نكهة خاصة. وأهمية هذه الاستراتيجية تأخذ مضامونها من الميزات المحددة التي تعطيها طابعها الخاص. فهي تجمع بين التخصيص والتعيم في آن واحد، كما تربط بين الاتساع والمحدودية في نفس الوقت. هي فن حل المعضلات بتحقيق أفضل الممكن، أي أنها التوفيق بين الفكر والتطبيق، ما يجب عمله وما يمكن تحقيقه.

أما الصفة الهامة لاستراتيجية العمليات فهي التركيز على الواقع والتفاصيل أكثر من الاهتمام بالتجريد والتعيم. ذلك يعني الارتباط بالأرض ومسرح العمليات والجو وعوامل المناورة والطاقات اللوجستية بحيث يكون تناغم هذه العناصر وانسجامها الصورة الواقعية للأسلوب القتالي الملائم، أكان ذلك في حرب حركة بطيئة أو سريعة أم حرب موقع وإنهاك أو مفاجأة وما إلى ذلك من أساليب متنوعة متنامية أو متعاقبة. إن طابع استراتيجية العمليات يقربها من تعريف جوميني للاستراتيجية الذي يرى أنها إدارة المعركة من على الخارطة، وهذا يؤكّد بأن جوميني عندما تطلع إلى الاستراتيجية لم ير أمامه إلا استراتيجية العمليات وإدارة المعركة أما ما عداها فلم يكن يعنيه.

ومع أن الجدل حول ثبات الاستراتيجية أو تطورها لا يزال قائماً غير محسوم، فتارة يشده نحو الثبات كثرة من الشواهد التاريخية الموجلة في القدم، وطوراً تفرض عليه فكرة التغيير والتطور نفسها مدعومة بحركة التقدم العلمي والتكنولوجي المذهلة. ومع ذلك فمن الملاحظ أن الاستراتيجية تزداد ثباتاً من ناحية القواعد الأساسية كلما ارتقينا صعداً في سلم مستوياتها.

واستراتيجية العمليات هي أكثر ديناميكية من الاستراتيجيات التي تعلوها، كونها تجاور التكتيك والتقنية وتتأثر بأجواتها، وفيها قد يصح قول فولر بأن الاستراتيجية تابعة للتكتيك والتقنية والتكنولوجيا. إن أساليبها ملزمة بالتغييرات السريعة والمستمرة نظراً لارتباطها بعوامل محددة كالأرض والمناخ وال العدو ومسرح العمليات ووضع الأهالي والموقف الاقتصادي والسياسي والتعبئة النفسية، وغير ذلك من ثوابت ومتغيرات تتدخل وتفاعل لاختيار الأسلوب الاستراتيجي الملائم.

### التقسيم من حيث أسلوب العمل:

لو نظرنا إلى الاستراتيجية من زاوية إدارة الصراع وأسلوب العمل، نلاحظ أن حدة العنف قد تختلف كثيراً من موقف إلى آخر، كما أن الوسائل المتنوعة قد تأخذ أحجاماً وأهميات متغيرة حسب الوضع والظروف والخيارات المتخذة، سيما وأنه على الصعيد الاستراتيجي تشعب الأساليب وتتكاثر الوسائل والطاقات وتنسخ مجالات الاختيار وتعارض أو تتوارد الأفعال، وعلى الأخص إذا كان الصراع يدور على مستوى الاستراتيجية الشاملة. إن هذا التشعب والتتشابك لا يعني تقسيم الاستراتيجية من حيث أسلوب العمل إلى عنوانين بارزين غير منفصلين بخطوط تغيير جازمة بل بمناطق تغيير مشتركة تحقق التكامل والانسجام من جهة والليونة والمرونة في التحول من جهة أخرى. هذان العنوانان هما الاستراتيجية المباشرة والاستراتيجية غير المباشرة.

الاستراتيجية المباشرة. هي التي تتميز بأسلوب عمل يكون فيه للدور العسكري العنف السهم الأساسي في تحقيق الهدف المنشود، أي بتعبير آخر بلوغ النتيجة الخامسة عن طريق العمل العسكري بينما تبقى الأعمال الأخرى في عداد المتممات التحضيرية أو المساعدة.

إن الاستراتيجية المباشرة هي التوجه إلى الحسم عن أقصر طريق، ألا وهي سبيل المواجهة الجبهية، أي أخذ الثور من قرنيه كما يقول بوفر. إن هذا الأسلوب من العمل هو مقارعة القوة والعنف بالعنف أكان ذلك على مستوى العمليات بالقرب المباشر أو على مستوى الاستراتيجية العليا بوجهها العنفي غير الموارب. إن الاستراتيجية المباشرة هي الشكل التقليدي للحرب منذ الأزل، وهي تتسم بالبساطة وبعد عن التعقيد لكنها مكلفة كثيرة الخسائر ويصعب عليها تحقيق الغايات باستمرار، غير أنها في حال نجاحها تحقق الحسم المنشود. هذا النوع من الاستراتيجية يتوجه لضرب قوات العدو كهدف أساسي في الصراع وهي ما نادى به كلاوزفيتز الذي آمن بأن الحل يأتي عن طريق إفناء القوات المعادية. لقد

أصبح هذا النوع من الاستراتيجية في هذا العصر أمراً مشكوكاً فيه نظراً لوجود الضوابط والخطوط الحمر أمامها، ولكن مصداقيتها تبقى فاعلة على مستوى استراتيجية العمليات. كما أن التوجه المباشر يبقى جائزاً وفاعلاً على صعيد التكتيك بوجه عام.

الاستراتيجية غير المباشرة. وهي التي تتحقق فيها النتيجة الخامسة عن غير طريق العمل العسكري العنف الذي يلعب عندها دوراً متمماً أو أداة تفاعل وتحريض.

لقد عرف بوفر الاستراتيجية غير المباشرة في إطار الاستراتيجية الشاملة بأنها فن معرفة الاستفادة من هامش حرية العمل الضيق الذي أفلت من الردع النووي والسياسي، مع استخدام الحد الأدنى من القوى والوسائل العسكرية بغية تحقيق النتائج الخامسة الهامة المحددة مسبقاً، مع التحديد، والتحديد القاسي أحياناً، للوسائل العسكرية المستعملة. لقد أوضح فكرته من خلال المعادلة الاستراتيجية التي تقول:

س = ك ق م ز

وتعني «س» العمل الاستراتيجي، أما «ق» فتعني القوى المادية، والـ «م» تعني القوى المعنية، والـ «ز» تعني عامل الزمن، أما الـ «ك» فهي عامل الحالة الخاصة عالمياً ومحلياً. وما دامت قيمة الـ «ق» صغيرة في الاستراتيجية غير المباشرة، فذلك يعني ضرورة تأثير العمل النفسي على العدو بشكل مباشر مع استخدام الزمن إذا كان ذلك ضرورياً. لذلك يمكنناأخذ أسلوب الجسم كدليل هداية لإطلاق التسمية الملائمة على الاستراتيجية المتبعة، فكلما تناهى وزن العمل العسكري العنف في اللعبة الاستراتيجية كلما قربت المناورة من أسلوب الاستراتيجية المباشرة، بينما يأخذ أسلوب الاستراتيجية غير المباشرة بالظهور أكثر فأكثر عندما تسلك الاستراتيجية طريقاً بعيداً عن العنف العسكري كأدلة لتحقيق الجسم.

### التقسيم من حيث حقول العمل والاختصاص:

وهو تقسيم شبيه من ناحية الجوهر بالتقسيم في حقول التكتيك. فكما يوجد تكتيك عام يعنى بالتنسيق بين مختلف الأسلحة في المعركة لتحقيق المردود الأقصى للوسائل، يوجد كذلك استراتيجية عامة تنسق العمل في مختلف الميادين البرية والبحرية والجوية، كما تنسق أعمال جميع الأسلحة لبلوغ هذا المردود. هنا يقترب مفهومنا التقسيمي للاستراتيجية من الحقل العسكري ويصبح كلامنا ملائماً للاستراتيجية العسكرية. إن هذا الأسلوب من التقسيم يفرض علينا الخوض في مواضع عدة غير عسكرية من اقتصادية إلى سياسية ونفسية، ويدركنا

بالاستراتيجيات المختلفة على المستوى العام وتفرعاتها العديدة. لكن طابع كتابنا العسكري يهدونا إلى التزام خطة وعدم الاندفاع في متأهات ورحايا التشعبات الأخرى.

وبالعودة إلى الاستراتيجية العسكرية نلاحظ أنه كما يوجد تكتيك خاص بكل سلاح (مدفعات – مدفعية، طيران... ، إلخ) يتعلق بأسلوب عمل السلاح نفسه وقدراته التقنية والتكنولوجية، كذلك، هناك استراتيجيات أسلحة ينحصر تخصصها بنوع معين من السلاح والعتاد. هذه ظاهرة قديمة العهد رافقت تطور الصراعات البشرية عبر العصور، منذ كانت الاستراتيجية جنيناً في رحم التكتيك البدائي البسيط. إن ما يميز استراتيجية السلاح هو متانة الصلة بينها وبين المعدات والعتاد والاختراعات التكنولوجية. فكل سلاح جديد فعال كان يطبع تكتيك العصر وبالتالي استراتيجية بطابعه، ويتحقق حسم الصراعات القائمة عن طريقه، إلى درجة جعلت تسميات الحقب التاريخية بأسوء الأعتدة والأسلحة أمراً متابعاً. بإطلاق اسم العصر الحجري أو البرونزي على حقبة تاريخية، وإن كان لا يعود إلى دور الحجر والبرونز في صنع أسلحة العصر فقط، بل يتعداها إلى المستوى الاقتصادي والحضاري عموماً، فهو بلا شك يرتكز بأحد أسبابه إلى تلك الأسلحة كونها عنصراً فعالاً في صناعة التاريخ، خاصة وأن الحرب هي العوامل الأساسية في التطورات التاريخية السريعة والتحولات الكونية الضخمة.

وتكبر الاستراتيجية وتنمو مع نمو الحضارة ملازمة التكتيك حيث تختل الأمور العسكرية حيّزاً المميز وتأخذ الأسلحة والأعتدة أدواراً أكبر في صنع التواريخ العسكرية، فنسمع بعصر السيف وعصر الرمح وعصر الخيالة، كما تتحقق المفاجأة الاستراتيجية عن طريق استعمال هنييعل للفيلة في اجتياز جبال الألب. ومع التطور السريع للحضارة وخاصة في العصر الحديث نمت دوحة الفن العسكري وتشعبت غصونها وتوضحت معالمها أكثر فأكثر، وبرزت الاستراتيجية بتشعباتها وأغصانها المختلفة فنادي المفكرون باستراتيجية برية وأخرى بحرية وثالثة جوية ورابعة نووية، وليس تلك بالطبع نهاية سبحة العقد بل بدايتها، إذ أخذت تلوح في الأفق معالم وأسس استراتيجيات أخرى كالاستراتيجية الإلكترونية والاستراتيجية الفضائية، وسيأتي يوم ليس بالبعيد حين تصبح الاستراتيجية الشاملة حجماً بسيطاً من هرم استراتيجية كونية أبعادها تتعدى حدود المساحة والزمان.

ولم تكشف الاستراتيجية في التطور في الحقل العسكري فقط بل اخترقت صفوف قطاعات كثيرة في الفترة الأخيرة خاصة بعد الحرب العربية الإسرائيلية عام ١٩٧٣، والمؤتمرات بين الشمال والجنوب (الدول المتطورة والدول النامية) حيث تألفت معالم الاستراتيجية النفطية وأخذت تتحفّز استراتيجية الأرصدة للعب دور ذكي وكبير.

وعلى أية حال إن ما يهمنا في الأمر هو التركيز على الحقل العسكري من ناحية تصنيف الاستراتيجيات من حيث حقول العمل والاختصاص. إن استراتيجية السلاح أي سلاح، أصبحت واقعاً ملماً في هذا العصر بعد أن تطورت أنواع الأسلحة وخاصة النووية والالكترونية منها وأصبحت هي نفسها أسلحة استراتيجية. هذه الأسلحة الاستراتيجية أخذت تفرز استراتيجيات خاصة بها، وهي وإن كانت في دور التشكيل غير الكامل، فلا بد من الإقرار بوجودها، كاستراتيجية الأقمار الصناعية واستراتيجية الصواريخ البعيدة المدى واستراتيجية الصواريخ المضادة، وهي في وقت غير بعيد ستركت أركان استراتيجياتها وتبلورها بشكل شبه نهائي وثابت. هذا الواقع هو ما حدا بفولر إلى القول بأن الاستراتيجية تتبع التكتيك والتقنية والتكنولوجيا.

هنا يجب أن نلاحظ أن نظريات استراتيجية الأسلحة الكبرى تتالف عادة بعد تحقيق إنجاز علمي تقني أو بعد عمل عسكري حاسم في هذا الحقل، لأن ذلك يؤثر على عواطف المفكرين ومشاعرهم و يجعلهم مشدودين إلى هذا التطور أو الحدث من جهة، أو يقدم لهم الحل الذي يفتشون عليه أو الذي يحاول العقل الباطن اكتشافه من جهة أخرى. لقد بروزت خلال القرن الماضي وفي مطلع القرن الحالي ثلاث مدارس أو استراتيجيات أسلحة كبرى وتعصب لكل منها كثيرون، كما رفض تبنيها كثيرون، وهي الاستراتيجية البرية والاستراتيجية البحرية والاستراتيجية الجوية. إن التحدث ولو بإنجاز عن هذه الاستراتيجيات مع بعض الأنواع الأخرى يكمل موضوع بحثنا ويضفي طابع الوضوح على موضوعنا، لذلك سنعتمد.

الاستراتيجية البرية. نادى بهذه الاستراتيجية السيد هيلفورد جون ماكيندر الجغرافي البريطاني الذي عاش في الفترة الممتدة من عام ١٨٦١م حتى ١٩٤٧م. وهو خريج جامعة أوكسفورد وصاحب إنجازات هامة ونظريات في علم (الجيوبوليتيك) وقد ربط مفاهيمه في حقل الاستراتيجية البرية بهذا العلم، فكانت مزيجاً بين استراتيجية أسلحة برية على المستوى العام واستراتيجية جغرافية. جاءت نظريته تنادي بأن السيطرة العالمية إنما تتحقق عن طريق التفوق البري أي بمعنى آخر إن الجسم يتم عن طريق البر، ولذا جاز اعتبار استراتيجيةه استراتيجية سلاح من ناحية غير مباشرة، لأن السلاح مرتبط بالأرض، وإن كان المراد بالسلاح هنا التعميم على جميع أسلحة البر وليس حصر الموضوع في سلاح بري واحد.

إن الظن بأن الاستراتيجية البرية هي استراتيجية الجسم أمر غير مصيب، فأكيد أن للاستراتيجية البرية سهامها الكبير في السيطرة على الأرض ولكنها ليست أداة الجسم الوحيدة

بل يجب وضعها في مكانها الملائم ضمن منظومة الاستراتيجيات الأخرى. وكما يجوز تصنيف استراتيجية ماكيندر استراتيجية سلاح، يمكن النظر إليها أيضاً من زاوية الجغرافيا السياسية والجغرافيا العسكرية وتصنيفها على أساس ارتباطها بعامل المكان الذي يعتبر ركناً في كل قاعدة استراتيجية وتكنولوجية، وتظهر أمامنا عندها تسميات أو عائلات استراتيجية جديدة هي استراتيجية مكانية واستراتيجيات زمانية واستراتيجيات قوى.

الاستراتيجية البحرية. نادى بهذه الاستراتيجية كعامل حسم وسيطرة عالمي الضابط البحري الأميركي والمُؤرخ الفرد تاير ماهان الذي عاش في الفترة بين ١٨٤٠ م و ١٩١٤ م. لقد درس هذا الضابط في مؤلفاته تأثير القوة البحرية في تاريخ الأمم، وخلص إلى نظرية تقول بإمكانية تحقيق السيطرة بفضل التفوق البحري. ومن مؤلفاته التي خاضت مضمار هذا الموضوع كتابه حول تأثير القوة البحرية في تاريخ اليابان. إن الشيء المميز في تفكير هذا الضابط رؤيته المستقبلية واهتمامه بالعمل الثوري، كان حدها إلى أهمية تلك الظاهرة التي أصبحت الشعار المميز للحقبة التاريخية المعاصرة، فأفرد كتاباً خاصاً لدرس تأثير القوة البحرية على الثورة الفرنسية.

إن الاستراتيجية البحرية لم تفقد وزنها في العصر الحاضر نظراً لاستخدام الصواريخ البعيدة المدى حيث أصبحت تتسم بالمرونة والجاهزية المتبدلة الواقع من خلال استخدام الغواصات الذرية وحاملات الطائرات، هذا الواقع المرن شدد من أهمية الاستراتيجية البحرية ولكنه لم يجعلها أداة الجسم المتفرب بل حافظ على إسهامها الأكيد في عملية الجسم.

وكما وجدنا في الاستراتيجية البرية بطريق غير مباشر أنها استراتيجية سلاح، نجد في الاستراتيجية البحرية الشيء نفسه، كما نجد فيها أيضاً الاستراتيجية (الجغرافية السياسية) والجغرافية العسكرية فضلاً عن عناصر الاستراتيجية المكانية التي نوهنا بها سابقاً.

الاستراتيجية الجوية. نادى الجنرال الإيطالي جولييو دوي في فترة العشرينات من هذا القرن بنظرية تحقيق الحل الخامس والسيطرة العالمية عن طريق الجو، وجاءت الحرب العالمية الثانية من خلال الأعمال الباهرة التي حققها التوأمان (الطائرة والمدرعة)، لتشدّ أزر المنادين بهذه الاستراتيجية، كذلك فحرب عام ١٩٦٧ بين العرب وإسرائيل عزّزت حجة هذه الاستراتيجية. غير أن مغالاة دوي بأن الشكل الوحيد للحرب هو الحرب في الجو، وأن القصف الاستراتيجي للأهداف الحيوية من صناعية وسياسية هو الذي يحقق النصر بسرعة، لم يأت عن طريق الطائرات وحدها بل كان للمدرعات السهم الكبير في ذلك، فضلاً عن

العوامل الهامة المتعددة من اقتصادية وبشرية وسياسية...، إلخ. صحيح أن الحرب الفضائية اليوم هي امتداد لفكرة دوي ولكن خطوط الردع الحمراء قد عطلت مفعولها إلى حد بعيد، كما أن ظاهرة الحرب الثورية ونضال الشعوب التي مارسها الشعب الفيتنامي قد حجمت دور الطائرة إلى حد كبير. لقد تمكّن الفيتناميون من خلق توازن في الإنشاء والتدمير بين اليد البشرية والقادمة الاستراتيجية (ب٥٢)، فكانوا يعيدون في الليل بناء الجسور التي يهدّمها القصف الاستراتيجي في النهار. كذلك أظهر مبدأ العودة إلى الأرض والالتصاق بها فعاليته في هذا المجال. لقد كان الفيتناميون يغوصون عميقاً في الأرض ويتشرون شراذم في الأدغال والمستنقعات كلما زادت حدة القصف اشتداداً. كذلك فالمعروف عن الأنفاق بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية يعزّز هذا المفهوم. أما فعالية الصواريخ المضادة للطائرات في حرب رمضان (الغران) فغنية عن التعريف.

كل هذا قد حدّ من فعالية الطائرات وطعن بنظرية الجنرال دوي، لكن الإنصاف يدفعنا إلى عدم إهمال هذه النظرية بعد أن دخل الفضاء والأقمار الاصطناعية مضمار الاستراتيجية معززاً بالأسلحة النووية والصواريخ المتطورة على مختلف أنواعها ومدعوماً بالموكّب الفضائي. ذلك ينبيء بعهد ازدهار للاستراتيجية الجوية وإن عن غير طريق الطائرة التقليدية، ولكن ضمن شروط معقدة من الفعل والردّ يؤدي انفلات خوابطها إلى تعاظم دور الجسم الجوي أو الفضائي.

وكما في الاستراتيجيتين البرية والبحرية، فالاستراتيجية الجوية هي استراتيجية سلاح وتطور تكنولوجي، وهي تتعدى البُعدين المسطّحين لتلعب في رحاب البعد الثالث العميق، فتصبح أهمية عامل الجغرافيا والمكان محدودة وشبه مهملة حيال الطاقة الجبارية للصواريخ عابرة القارات والأقمار الاصطناعية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى ولادة طبقتين من الجسم، طبقة عالية وطبقة سفلية كالطبقات الموسيقية. فالجسم في الطبقة العالية نادر الواقع في ظل توازن الرعب، وهو يرتكز إلى حد بعيد على الاستراتيجية الفضائية وحرب النجوم. أما الجسم في الطبقة السفلية في نطاق الحروب المحدودة ومتعدد أوجه الصراع المتباينة، فليست الاستراتيجية الجوية أدّة الهيمنة الوحيدة بل إحدى وسائله المتعددة وغير المحصورة.

الاستراتيجية النووية. يقول الكاتب الشهير كامي روجرون: «أنه لا وجود لاستراتيجية سوى استراتيجية الوسائل». ورغم عدم صحة هذا القول كحكم مطلق عام، لأن الاستراتيجية كما رأينا هي الوجه العام والقطب الجاذب، إلا أن واقع التطور التكنولوجي

والعلمي الذي يميز هذا العصر قد أعطى لهذا القول قيمة متزايدة، خاصة في الحقول النووية والألكترونية، وأصبح الإعداد والتخطيط والتحضير أكثر أهمية من التنفيذ، حتى صَحَّ القول بأن الحرب تُربح قبل خوضها. هذا المعنى المجازي إنما يشير إلى استراتيجية العصر الحديث التي يلعب السلاح النووي دور الثقل فيها، والتي أخذت معالمها تتبلور من خلال سباق التسلح وما يؤدي إليه من إنهاك غير مباشر واستنزاف لل Capacities الماليّة والاقتصاديّة الصناعيّة في صراع باهظ التكاليف عماده التفوق التكنولوجي . إن هذا الواقع جعل البعض يطلق على الاستراتيجية الذرية لقب الاستراتيجية الوراثية أو الاستراتيجية الإدارية، كونها ترتكز على عمل إداري ضخم يتمحور حول سلالة ديناميكية متطرفة من أجيال الأسلحة المتعاقبة، التي يخلف كل جيل منها الجيل السابق أو يسد الشغرة التي لم يتمكن من سدها. أما مقياس الجدّة والوراثة فهو يرتكز على القيمة والحسنات التكنولوجية والفعاليات التي لا تتوفر في السلاح القديم ويتميّز بها السلاح الجديد. وهذا يعني أن عوامل المال والاقتصاد والتطور الصناعي أخذت تلعب أدواراً أكثر أهمية في مجالات التكتيک والاستراتيجية الذرية منها في مجالات عمل الأسلحة الأخرى.

إن ضخامة الدور الذي يلعبه السلاح الذري في بناء التاريخ العالمي جعل من الاستراتيجية الذرية عقدة توارد استراتيجيات متعددة ومحور التفااف وملتقى أو مجتمع مفاهيم سياسية واقتصادية وسيكولوجية مختلفة، تنتظم كهيكل أساسی حامل لشتي الاستراتيجيات الأخرى. لذا لا يمكن عزل هذه الاستراتيجية عن غيرها داخل إطار مفهوم النوع والفئة اللذين اعتمدناهما في تقسيمنا للاستراتيجية من حيث حقول العمل والاختصاص، لأن حقل الصراع النووي هو الإطار المسيطر على التوازن العالمي من خلال معادلة من الطاقة على الفعل والردع متشعبـة الأجزاء معقدة الارتباطات تدور في فلكها معادلات كوكبية صغرى ضمن أبعاد محدودة من حيث الغايات والوسائل وحقول العمل وأحياناً الوقت.

هذه الصفات البارزة للسلاح الذري لا تنزع عن الاستراتيجية النووية ميزة الاختصاص ولا تخفي معلم خصوصية العمل، ولذا فوضعها ضمن التقسيم من حيث الاختصاص وحقول العمل يبقى أساساً صالحـاً لتصنيفها ولو من الناحية الأكاديمية على الأقل.

معلم الاستراتيجية النووية. إن واقع العمل النووي وضخامة مؤثراته ونتائجـه كما أسلفنا سمح للاستراتيجية النووية بتخطـي حاجـز المحدودية والتـأثير على مختلف استراتيجيات العصر أو التـداخل معها في إطار الاستراتيجية الشاملـة. إن هذا الواقع الذي جعل من الاستراتيجية النووية بمظاهرـها الفاعـل والرـادع أداة الهـيمنـة والـقيادة العـالـمية إلى حد بعيد، وأدى إلى تـفاعلـ خصـوصـياتـها بـخصـوصـياتـ الاستـراتـيجـياتـ الأخرىـ، قد أـسـهمـ في ولـادةـ جـيلـ منـ

الاستراتيجيات المركبة التي تأخذ العنصر النووي بعين الاعتبار إلى جانب مجموعة كبيرة من العناصر والتوجهات العسكرية الأخرى وتنظم كحجر أساس في إطار الاستراتيجية الشاملة.

إن هذا الواقع لا يمنعنا من التركيز هنا على مميزات ومعالم الاستراتيجية النووية كموضوع مستقل ليسهل علينا فيما بعد تتبع تفاعلاتها في الميادين الأخرى.

نظرة واعية وفاحصة للموضوع تضع هذه الاستراتيجية في معادلة بسيطة تدور حول قطبين متضاربين هما: خواص السلاح النووي وتدابير الوقاية المضادة.

**خواص السلاح النووي.** وهي ميزة القدرة المزدوجة الهائلة من حيث الفاعلية والمدى. فهو سلاح مفاعيله التدميرية عالية جداً، وترابطه مع العلم والتكنولوجيا قزم المسافات والمساحات، فلم تعد بذات أهمية حيال الصواريخ الجبارية والقاصفات الاستراتيجية بعيدة المدى. لقد ضرب العلاقة الطردية بين الكم والكيف وحرر الطاقة من قيود الكتلة. إن النوع في السلاح النووي هو الأساس، فالقنبلة التي تقاس طاقتها بالميكاتن، قد توافي بتأثيرها ملايين القنابل وبالتالي ملايين المدافعين القاصفة.

كذلك من خواص السلاح النووي المرونة والحركة، وهذا يرتكز على عنصرين أوهما صغر حجم القنبلة النسبي، وثانيهما سهولة التنقل بحركية شبه كاملة نتيجة صغر الحجم والوزن والتطور العلمي والتكنولوجي في مجال الحركة والدقة. إن صغر الحجم والمرونة والتبدد والحركية تؤدي إلى صعوبة استمكان السلاح النووي كهدف للسلاح المعادي إلا في حال الصواريخ الكبيرة التي ترتكز في منشآت ثابتة. إن الغواصات المتجولة والقاصفات المتواجدة في الجو دائمًا ومنصات إطلاق الصواريخ المتحركة تجعل من العسير على العدو تأكيد أمر اصطيادها. لقد أسقط السلاح النووي نظريات الحدود الآمنة والدفاع عن الحدود الحصينة، لأن الضرب في العمق عبر الحواجز والقارب أصبح ممكناً وأشد فعالية.

**تدابير الوقاية المضادة.** ترتكز تدابير الوقاية حول الإجراءات المضادة التي تشن فعاليات السلاح النووي وخواصه المبنية سابقاً، وهي تدور حول نشاطات عدة أو لها الوقاية السلبية. وهي تدابير دفاعية بحتة تعتمد الوسائل المادية للحماية ضد القصف الذري وتقليل تأثيراتها كالتبعد والعناية في توزيع المرافق الحيوية فضلاً عن الإجراءات المادية من دريئات وملاجئ تغوص عميقاً في جوف الأرض، وثانيها الوقاية بالكتمان والسرية والحيطة، وهذا يعتمد على التدابير التي تحفظ الأسرار وتمنع تفشيها وترتكز على اليقظة والاستعلام لاستدراك الأمور. كذلك فهي تهتم بعمليات التمويه من تظاهر وإخفاء وتضليل، فضلاً عن قيادة النشاطات السرية وتوجيهها في مجال الأمن والاستعلام المضاد. وثالثها الاستباق الوقائي وهو عمل ناشط

يركز على تدمير القوى، أي الأسلحة النووية المعادية، قبل استعمالها، وبمعنى آخر ضربها قبل أن تتمكن من ضربنا. يسمى البعض هذا العمل تكتيكًا معاكس القوى، وهو، إذا جاز التشبيه، كرميات الاستمكان في التعامل مع المدفعية المعادية، ولكن بشرط أساسي عماه استباقي الضربة التدميرية. ورابعها اعتراض الأسلحة، وهو ملاقة القذائف الذرية أو الطائرات الناقلة في الجو قبل وصولها إلى أهدافها وتدميرها بعمل دفاعي محض. وخامسها هو التهديد بالعقاب والانتقام، وهو أساس فكرة الردع ووسيلة عمل غير مباشرة تعتمد على توفير القدرة على الرد الانتقامي وإنزال العقاب الموجع بالخصم إذا تجرأ على اقتراف أي فعل معادٍ.

● أركان الاستراتيجية النووية. إن أركان الاستراتيجية النووية قد تبلورت من خلال مفاهيم متعددة أفرزها الصراع الدائري بين الشرق والغرب في حقل التسلح والتكنولوجيا النووية وفي تسابق لاهث على تحقيق التفوق. إن طبيعة هذا السباق والمنجزات الفنية التي تحققت خلاله ومعطيات التحالفات في المعسكرين الشرقي والغربي ومصالح كل جناح في الأحلاف قد جسّد مفاهيم مختلفة في الاستراتيجية الذرية حرّيّة بالاهتمام لأنها لا تزال حتى الآن تحكم الصراع بين الشرق والغرب وتدور حولها مؤتمرات نزع السلاح.

لقد برز في الخمسينيات من هذا العصر مفهومان لاستخدام الأسلحة النووية. المفهوم الأول وهو ضرب المدن أو الشعب وقد تبناه الاتحاد السوفيتي لعدة أسباب منها كثافة السكان في الولايات المتحدة والغرب وبروز المدن كأهداف غوذجية لقصم ظهر العدو وتهديده. هذا فضلاً عن أن هذا الأسلوب لا يحتاج إلى دقة كبيرة في السلاح وإنما يعتمد ضياعاته الأساس في ذلك. لم يكن الاتحاد السوفيتي متفوقاً في الدقة فاختار طريق الضياع للسبعين السابقين. أما الولايات المتحدة فقد اختارت حينها سياسة ضرب القوى أي الأهداف العسكرية لسبعين أيضاً هما اتساع رقعة الاتحاد السوفيتي وقلة سكانه بالمقارنة مع الغرب والتفوق النسبي بدقة السلاح في المقارنة مع الأسلحة السوفيتية.

تلازم مع هذين المفهومين مفهومان آخران للردع هما مفهوم الضربة الأولى ومفهوم الضربة الثانية. إن اللجوء إلى الضربة الأولى هو عمل مفاجأة واستباقي يستلزم دقة في السلاح بغية تدمير أسلحة العدو في مواقعها وحذفها من خارطة الصراع لئلا تتمكن من الرد وإنزال الأذى بالبادئ. وهذا يتطلب فضلاً عن الدقة وفرة في كمية السلاح المتبقية لتشكيل تهديد للشعب يجبره على الاستسلام خوفاً من الضربات اللاحقة. أما مفهوم الضربة الثانية فهو اختيار أسلوب عدم المباشرة في الهجوم شرط أن تؤمن الوسائل الفنية لتلافي تدمير الأسلحة المتوفرة من جراء ضربة العدو الأولى بغية القيام بالرد.

إن مفهوم الردع أساساً يدور حول هذين التوجهين ويرتكز على حقيقة توفر السلاح تحت أية ظروف للرد على أي اعتداء من ضربة ثانية. إن قدرة أي فريق على التأكد من تدمير جميع أسلحة الخصم في ضربة أولى يعني زوال عهد الردع إلى الأبد، لأن روح الردع هي قيمة ما تبقى من أسلحة بعد الضربة الأولى. هذه الفكرة هي التي تقلق الآن بالمعسكرين وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية التي تحاول جاهدة من خلال صواريخ (البيرشنغ ٢) التي تعتبر أدق سلاح في العالم، ومن خلال مشروع حرب النجوم، أي ما يسمىمبادرة الدفاع الاستراتيجي، تحاول إلغاء مفعول السلاح السوفيatic والعودة إلى حلم تحقيق الضربة الأولى والنجاة من أي عقاب. إن بادرة حرب النجوم تعني نصب أقمار اصطناعية مضادة للصواريخ في الفضاء بشكل دائم تمنع اقتراب أي صاروخ معاً من الأرض الأمريكية. هذا الجدل لم يحسم بعد والاتحاد السوفيatic أعلن عن استعداده لمجاراة الولايات المتحدة في سباق هذا الميدان، وذلك يقود إلى ولادة وسائل وأفكار جديدة هي قريبة الحدوث.

تحت قبة هذا الصراع وفي غمرة تركيز أسلحة جديدة في أوروبا ولد مفهوم استراتيجيان آخران هما الردع الموسع والردع الصلب، وهما طرhan أوروبيان يرفضان مفهوم الرد المدرج والمرن الذي نادت به الولايات المتحدة سابقاً. إن الردع الموسع يعني امتداد مظلة الولايات المتحدة الرادعة إلى الأرض الأوروبيّة أي توسيع ردعها ليطال تلك القارة، بمعنى أن تكون الولايات المتحدة مستعدة لاستعمال سلاحها الذري ضد الاتحاد السوفيatic فيما لو تعرضت أوروبا لضربة نووية روسية، وهذا يتamen بالالتزام الأميركي وبقاء الأسلحة النووية على الساحة الأوروبيّة أميركية الهوية. إن أوروبا وعلى الأخص فرنسا تشک في مصداقية هذا الالتزام، لأن الولايات المتحدة قد تعرض الأرض الأمريكية للخطر في حال ردّها على الاتحاد السوفيatic مباشرة عند ضربه أهدافاً أوروبية، ولذلك فمن غير المعقول أن تفي بوعدها. هذا دفع فرنسا إلى المناداة بمفهوم الردع الصلب الأمر الذي أجبر حلف الأطلسي على تبني هذه الفكرة، وهي تقول بالالتزام الأميركي الصريح الذي لا يقبل الجدل، بالرد على أرض الاتحاد السوفيatic عند تعرض أهداف أوروبية للقصف حتى لو أدى ذلك إلى ضرب أهداف أميركية.

بعد هذه العجالات نرى أنه من خلال مقارنة خواص السلام النووي وتدابير الوقاية منه، وشل فعاليته يمكن الخروج بعالِم وأسس قادرة على الدخول في تركيبات متعددة لسلسلة من التكتيكات والإجراءات المتكيّفة تلبية لاحتياجات الواقع الاستراتيجي. على هذا الأساس يظهر أن هناك طريقين هامين في علم الاستراتيجية النووية هما مسلك الفعل ومسلك الردع.

مسلك الفعل. يأخذ مسلك الفعل في نطاق استراتيجية الحرب ثلاثة اتجاهات. فالاتجاه الأول هو المواجهة والتصعيد بين السلاح الذري والسلاح التقليدي، كما حدث بين الولايات المتحدة واليابان في الحرب العالمية الثانية، الأمر الذي يؤدي فعلاً إلى قسم ظهر السلاح التقليدي أي الجسم لصالح الوسائل النووية. قد نظن أن هذا الأمر نادر الحدوث ولكنه جائز في ظروف القنبلة النيوترونية وعند اندلاع حرب محدودة بين دولة نووية ودولة غير نووية. والاتجاه الثاني هو المواجهة الذرية الكاملة بين الخصميين والاندفاع نحو الحدود القصوى والتورط الشامل. هذا أمر يؤدي إلى الإفناه المتبادل وانتحار غير عقلاني ومركب إبادة يصعب سلوكه ولكنه يبقى احتمالاً وارداً ولو بنسبة ضئيلة جداً ويجب عدم إهماله سيما عندما يظن أي فريق خطأ أنه قادر على توجيه الضربة الأولى دون أن يتمكن خصميه من ردتها في الضربة الثانية. إن تكتيكات هذه المواجهة هي أعمال تصعيدية قاسية تستعمل نفسها في المواجهة المحدودة، ولكن أسلوبها هناك يحتفظ باتزان مدروس ومحسوب المخاطر.

بعد هذا يبقى أمامنا اتجاه المواجهة المحدودة وهو عمل يلعب فيه الفعل والتقنية والتكتيك الدور الأساسي في إدارة المعركة والضابط الفعلي للعاطفة المتأججة التي قد تنزلق إلى ساحة المواجهة الشاملة في أية لحظة إذا لم يف تهويل عصا الردع في إيقائهما ضمن إطار محدود. إن التكتيكات المستعملة في هذا المجال كثيرة وبعضها يستعمل في إطار الاستراتيجية الشاملة ومنها تكتيك تحديد الخسائر وتكتيك الحماية الوقائية والتكتيك التدميري.

إن تكتيك تحديد الخسائر يعتمد على الانتشار والسرية والحيطة ومنع المواجهة والحماية داخل التحصينات والملاجئ، وهو عملية سلبية المنحى تعتمد على الاقتصاد في القوى. أما تكتيك الحماية الوقائية فهو عمل يرتكز على أسلوب اعتراض الأسلحة المعادية في الجو وتدميرها ومنعها من اختراق نطاق حماية الأصدقاء. هي نفسها مبادرة نظام الدفاع الاستراتيجي الأميركي، وفي حال نجاحها تتغير مفاهيم كثيرة في عالم الاستراتيجية النووية وربما بإعادتها إلى حصن الاستراتيجيات التقليدية.

إن التكتيك التدميري يأخذ أحد أسلوبين: أسلوب ضرب القوى وأسلوب ضرب الشعب.

وأسلوب ضرب القوى هو الذي اختارته الولايات المتحدة كما قلنا، ويعتبر في نظر بعض منظريها الأسلوب الفعال الوحيد لأنه يدمر سلاح الخصم وهذا يتزعز أنبياه. إن اختيار هذا الأسلوب طريق صعب وشائك، فهو يتطلب الدقة والسلاح والتطور التكنولوجي في الاستعلام عن الأهداف وتحديدها، مع تأمين الفعاليات الأكيدة والمأمونة. لذلك نرى أن أحد أسباب اختيار الولايات المتحدة لهذا الأسلوب هو دقة أسلحتها المتقدمة وتقنولوجيتها

العالية في الحقول الألكترونية وتنوع أسلحتها الدقيقة كالقنبلة النيوترونية التي لا تؤثر على المواد والجواجم بل تفتت بالحياة فقط. أما أسلوب ضرب الشعب أو معاكس المدن كما يسميه الأميركيون، واستراتيجية الرادع الأدنى كما يطلق عليه البعض، فهو يعتمد على ضخامة القوة التدميرية للسلاح أكثر من اعتماده على الدقة، كما يركز على الشعب أي المدن كأهداف أساسية ولذا سمي بمعاكس المدن. ميزة هذا الأسلوب هي أنه لا يحتاج إلى نفس الدقة والتكنولوجيا والتكليف الاستعلامية التي يحتاجها أسلوب ضرب القوى، فضلاً عن أنه أوفر من ناحية عدد الأسلحة، كونه يعتمد ضخامة القوة وليس على تعدد الأهداف. لقد اعتمد الروس هذا المبدأ أثناء سباقهم في حقل التسلح النووي مع الأميركيين خلال الخمسينات، وقد يكون لا يزال هو أسلوبهم المفضل حتى الآن، رغم أن تنظيرهم في هذا الحقل يقرب من التنظير الأميركي ورغم أن تكنولوجيتهم قد تطورت كثيراً، أما السر في ذلك فعلى ما أعتقد هو مسألة كثافة السكان.

مسلك الردع. هو ما يسميه البعض باستراتيجية الردع، ومعناه محاولة التأثير على إرادة الخصم بصورة مباشرة دون المرور باختبار القوة. إن هذا المسلك قد فرض نفسه بعد أن ثبتت جميع تكتيكات الفعل وأساليبه عدم فعاليتها المطلقة في تقديم ضمانات الأمان والحماية الكافية، لأن الاستراتيجية النووية في هذا المجال أصبحت سباق تسلح وصراع تفوق تكنولوجي، ولم يتمكن أي سلاح من تحقيق الانتصار الكامل على السلاح الآخر وحذفه من الساحة نهائياً. لقد بقي الصراع بين الاعتراض والاختراق دائرياً في حرب ضروس لم يكتب فيها النصر لأي من النهجين منذ أمد بعيد، وما برنامج حرب النجوم الحالي إلا استكمال لذلك الصراع الذي قد لا ينجح في تحقيق انتصار نهجي على آخر، فما دام الفكر البشري قادرًا على العمل فهو قادر على اختراق المضادات ومضادات المضادات وهكذا دواليك في سلسلة لا متناهية من الإنهاك المادي والاقتصادي الرهيب دونما الوصول إلى نتيجة حاسمة أو اطمئنان أمني وطيد. إن حسنة هذا السباق الوحيدة هي الإسهام في التطور العلمي والتكنولوجي الذي قد يستخدم في أغراض سلمية تحقق الرفاه والتطور للإنسان.

لقد دفعت حقيقة عدمتمكن الفعل من تقديم الضمانات للإنسان العالم للتوجه إلى فلسفة الردع واعتبارها الأسلوب الأنفع في تقديم الحماية. رأت الدول الكبرى أن لا حماية حقيقة إلا في ظل القوة والتهديد بالانتقام. وهنا اختلف التفكير في استعمال الأسلحة والتكتيكات، وانقلب الأدوار ليبدأ سباق التسلح والإنهاك المتبادل من جديد، ولكن في إطار مفهوم آخر لم تفقد فيه تكتيكات استهداف المدن أو استهداف القوى أو الملاقة والاعتراض أدوارها، بل ترسخت وأخذت مضامين أشمل وأوسع قدرة على لعب الدورين الإيجابي

والسلبي معاً على حد سواء (فعل وردع)، وفي اتجاهات متباعدة متعاكسة. أصبحت قيمة الردع وفعاليته تدور حول التسابق على تأمين البقاء وترتكز على ماهية القوة الباقيّة بعد الصدمة الأولى أو أية ضربة استياق إجهاضية للقيام بالضربة الثانية، وليس على القوة الضاربة الأساسية.

وقيمة القوة الباقيّة قد تكون مادية فعلية حيناً أو معنوية حيناً آخر. هذا الأمر يعتمد عناصر أساسية من النظر إلى الموضوع هي : المعرفة والتتخمين والشكل والعقلانية.

إن المعرفة والتتخمين عنصران متعاضدان أحياناً ومتضادان أحياناً أخرى، فمعرفة الطاقة الذاتية مع معرفة طاقة العدو لدى الدول الضعيفة نسبياً حيال الدول الكبرى يشكل عاملأً رادعاً وأكيداً لصالح الدولة القوية، لأنّ وضوح ميزان القوى عند الضعيف يعمل لکبح جماح اندفاعاته، ويساعد على اتزان خطواته وتصرفاته. ولا يكتفي عنصر المعرفة في لعب دوره كرادع للضعيف بل يتعداه إلى حرم القوي أيضاً، حيث تساعده المعرفة على درس خطواته في محاكمة منطقية ترتكز على مبدأ تناسب الغايات والوسائل، كما في الصراع بين الصين والاتحاد السوفيتي. هذا الأمر صالح أيضاً في عملية صراع الأقوباء حيث نلاحظ أن الجبارين يحاولان أحياناً الإعلان عن حيازة بعض الأسلحة أو إنجاز بعض الاختراقات، كقضية القنبلة النيوترونية أو الصواريخ المتعددة الرؤوس، والأقمار الصناعية القانصة، وذلك من باب نقل العلم إلى الخصم لترسيخ القيمة الرادعة لقوة عدوه لديه.

أما التتخمين فهو العنصر الذي يعمل حيث يتوقف عامل المعرفة فيكمله تارة، ويحد من فعاليته أو يحجمه طوراً، ويضخم دوره أحياناً أخرى، ويفتح باب التكهن والخيال الواسع كونه ينطلق من ضبابية المعرفة أو غيابها. وبقدر ما تتشكل معرفة فعالية سلاح ضخم رهبة في نفس الخصم بقدر ما تتغذى هذه الرهبة وتشعب في معاير الخيال المتعددة إذا غابت المعرفة الحقيقة لحدود إمكاناته وطاقاته، لأن هذا الغياب يؤدي حكمأً إلى استحالة تحديد التدابير الوقائية فتسهل على عامل الخوف من المجهول الرهيب لعب دوره الرادع المؤثر. إن الخوف من الشقاء النwoي وصقيعه يقلق الآن كلّاً من الولايات المتحدة الأميركيّة والاتحاد السوفيتي، وهو عنصر مجهول يقع في حقل التتخمين، وينبئ بأن استعمال الأسلحة النووية بكثافة قد يلف الكورة الأرضية بالغبار والغيوم التي تحجب نور الشمس وتؤدي إلى وقوع الأرض كلها في صقيع قاتل قد لا يعيق ولا يذر ويطال الجميع غير مفرق بين رادع ومردوع ومستعمل للسلاح وهدف له.

بعد المعرفة والتتخمين يلعب عنصر الشك دوره، وهو عامل رادع يكبر حجم تأثيره أو يتضاءل حسب الظروف، يستمد فعاليته من التنوع والمجهول، وأعني بالمجهول سرية نوايا

العدو واحتجاب مخططاته، فلا يمكن قراءة الغيب واحتراق الصدور لفحص مكنونات الضمير، كما إن السياج الذي يسور به العقل التفكير لا يمكن تخطيـه، وإن كانت بعض المؤشرات أو المقدمات تنبئ بالخواتـم.

إن معرفة المخططات تدخل في نطاق حرب الاستعلام وصراعاته حيث لا أراضٍ صلبة ولا حدود ظاهرة، فكل شيء متـحرك. المعارف النسبية تقرأ بـفاهيم مختلفة وتوجهات متـعددة يحكمها المنظار وزاوية المشاهدة، وتتوقف في النهاية حائرة عاجزة أمام جدار النوايا عند محاولة الانتقال من معرفة المخططات الموضوعة إلى المخططات المضمرة. هنا يلعب الخوف من المجهول دوره ويستـحيل تحديد الأسـاليـب والوسائل الوقـائية من خطر غير مـحدـد مجـنـحـ الخيـالـ في ظـلـ طـاقـةـ عـدوـ أـكـيدـ الـقـدرـةـ.

أما التنوع فهو مجال إرباك واستنزاف واسع النطـاقـ، خاصة في الظروف العالمية الحاضرة حيث اتجـهـتـ مـسـارـحـ العمـليـاتـ إلىـ الشـمـولـيـةـ الفـضـائـيـةـ، بعدـماـ لـفتـ فيـ الـخـمـسـينـاتـ الـكـرـةـ الـأـرـضـيـةـ، وهـيـ تقـفـ الآـنـ عـلـىـ مشـارـفـ النـطـاقـ الـكـوـفـيـ. إنـ هـذـاـ التـطـورـ الـهـائـلـ فيـ الـقـدـرـاتـ منـ عـلـمـيـةـ إـلـىـ تـكـنـوـلـوـجـيـةـ أـخـذـ يـعـملـ نـاشـطـاـ فيـ تعـطـيلـ دـورـ الـمـسـافـاتـ وـالـأـحـجـامـ وـالـزـمـنـ وـخـلـقـ غـاذـجـ غـيرـ مـحـدـودـةـ مـنـ إـلـمـكـانـاتـ، مـنـ قـوـىـ بـرـيـةـ مـنـشـرـةـ عـلـىـ سـطـحـ الـكـرـةـ الـأـرـضـيـةـ إـلـىـ سـفـنـ وـغـواـصـاتـ تـجـوبـ الـبـحـارـ إـلـىـ طـائـراتـ دـائـمـةـ التـحـرـكـ فيـ الـجـوـ إـلـىـ أـسـلـحةـ مـتـأـهـةـ دـائـيـاـ فيـ مـرـابـضـهـ وـمـدـارـاتـهـ الـفـضـائـيـةـ. أـفـرـزـ كـلـ ذـلـكـ وـضـعـاـ زـئـبـيـاـ يـسـتـحـيلـ حـصـرـهـ فيـ قـوـالـبـ مـعـرـوفـةـ، فـأـصـبـحـتـ الـخـيـارـاتـ غـيرـ مـتـنـاهـيـةـ، وـدـخـلـتـ فيـ دـوـامـةـ الشـكـ الرـادـعـ وـالـخـوـفـ مـنـ الـخـطـرـ الـلـامـدـوـدـ.

يبقى عنصر العقلانية واللاعقلانية الذي يلعب دوراً مهماً في عملية الضياع وتغذية الشـكـ. إنـ إـدـارـةـ كـلـ تـخـطـيـطـ أوـ عـمـلـ عـسـكـريـ تعـتمـدـ عـلـىـ أـسـلـوبـ مـحاـكـمـةـ قـوـامـهـ التـحلـيلـ وـالـمـقـارـنـةـ وـالـتـركـيبـ وـالـاستـشـفـافـ وـالـحـدـسـ، فيـ إـطـارـ مـعـادـلـةـ قـوـامـهـ عـنـصـرـانـ؛ـ مـادـيـ يـهـتمـ بـمـقـارـنـةـ الـغـايـاتـ وـالـوـسـائـلـ وـمـدـىـ مـلـاعـمـتـهـاـ، مـرـكـزاـ عـلـىـ الطـاقـاتـ الـمـعـرـوفـةـ وـالـتـخـمـيـنـيـةـ، وـمـعـنـوـيـ يـسـتـنـدـ إـلـىـ الطـاقـاتـ الـنـفـسـيـةـ كـعـاـمـلـ صـمـودـ وـتـهـوـيلـ وـدـافـعـ يـهـدـدـ بـالتـصـعـيدـ إـلـىـ الـخـدـ الأـقـصـىـ.ـ هـنـاـ يـظـهـرـ أـمـامـناـ مـسـلـكـانـ هـامـانـ:ـ الـأـوـلـ هوـ الـطـرـيقـ الـعـقـلـانـيـ الـذـيـ يـقـيـسـ بـعـيـداـ عـنـ الـعـاطـفـةـ نـسـبـةـ التـضـحـيـاتـ لـلـمـكـاـبـ،ـ وـيـتـخـذـ الـقـرـارـ فيـ ضـوءـ الـمـرـدـودـ وـالـمـحـصـلـةـ الـمـحـسـوـبـينـ أوـ الـؤـمـلـينـ.ـ تـدـخـلـ فيـ اـتـخـاذـ هـذـاـ الـقـرـارـ نـظـرـيـةـ الـاحـتمـالـ الـمـعـقـولـ لـلـخـسـائـرـ لـتـبـعـدـ الـمـعـادـلـةـ عـنـ قـالـبـ الـجـمـودـ الـحـسـابـيـ وـتـصـبـهـاـ فيـ قـالـبـ الـمـواـزنـةـ الـعـقـلـانـيـ الـإـنـسـانـيـةـ.ـ فـلـاـ يـكـفـيـ رـجـحـانـ كـفـةـ الـأـرـيـاحـ عـلـىـ الـخـسـائـرـ فيـ الـمـحـاكـمـةـ لـاـتـخـاذـ قـرـارـ الـفـعلـ،ـ لـأـنـ الـإـنـسـانـ هوـ الـأـسـاسـ،ـ الـقـطـبـ وـالـمحـورـ،ـ الـغاـيـةـ وـالـوـسـيـلـةـ الـرـئـيـسـيـتـيـنـ.ـ وـالـتـضـحـيـةـ لـيـسـتـ بـالـأـمـرـ السـهـلـ وـلـوـ جـاءـ الـأـمـرـ فيـ ظـلـ مـبـادـلـةـ مـادـيـةـ رـابـحةـ.

يُخدم هذا المفهوم في مستويين للردع: مستوى توازن الرعب لدى الكبار حيث يؤدي التعادل إلى العدم الذري، وفتح ثغرات الصراع في المجالات الأخرى من حروب باردة إلى حروب محدودة وما شاكل. أما مستوى معادلة الردع بين القوي والضعف فهي تقوم على عناصر مقارنة التضحيات بالتكاليف ونظرية الاحتمال المعقول للتضحيات، فضلاً عن العوامل المعنوية التي لا تقاد بمقاييس مادية باردة بل بمفاهيم نفسية وعواطف وطنية تتخطى قواعد العقلانية أحياناً غير عابئة بالموازين والمقارنات المادية للمكاسب والأرباح، فيختفي الرضوخ والاستسلام لتحول محاكمة مادية معقولة أمام الشراسة العاطفية والعنفوان القومي والإنساني. هذا ما تعلق عليه القوى النووية الصغرى كفرنسا مثلاً آماها العراض وتجعله أساس مفهومها الرادع لأسلحتها الذرية الباهظة التكاليف.

أما المسلك غير العقلاني فهو يرتكز بجمله على العواطف والتيارات النفسية، فلا ينفع معها التهديد أو التهويل العقلاني كأدلة إقناع منطقية، خاصة إذا اخترق الضعف الحاجز الفاصل بين اتزان العقلانية وتهور العواطف النفسية. هنا يصح قول الجنرال بوفر بأن لا ندفع الجنون بعيداً في خنادقه لئلا نخرج منه، لأن الإخراج يؤدي إلى الإخراج. إن من اخترق الحاجز الفاصل بين العقلانية والجنون يصبح كالأسد الجريح أو العقرب الممسوّع لا يبقي ولا يذر. وما على الضعف إذا حتى يستفيد من هذا الواقع، إلا أن يتمكن من إقناع خصمه بأنه يملك إرادة تمزيق هذا الحجاب الفاصل بين العقلانية والتهور. هذا ما فعلته إيران في قضية أسرى السفارة مع الولايات المتحدة الأميركيّة فأحرجتها وأربكتها زهاء أربعين يوم. هذا النهج يعيد إلى الشك دوره اللامع ويذكي نار التهويل بارد العاطفة النفسي الجنون.

انطلاقاً من هذا المفهوم يمكن اعتبار مؤشرات الحد من انتشار الأسلحة النووية واتفاقات نزع السلاح وضبطه عوامل لا تخدم استراتيجية الردع بصورة مباشرة، بل ربما تخدمها بصورة غير مباشرة، إذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية كونه استدرج الضعف للقوى لکبح جماح اندفاعه في التفوق والعمل الحيث للحاق به لتحقيق التوازن الأكيد، وبالتالي الوصول إلى معادلة العدم الذري.

إن العناصر الأساسية لاستراتيجية الردع من المعرفة والتخمين والشك والعقلانية واللاعقلانية وقبول التضحيات، تتمظهر جميعها في إطار سباق التسلح والخيارات والتكتيكات وأخصها أسلوباً ضرب القوى (معاكس القوى) وضرب الشعب (معاكس المدن)، اللذين تكلمنا عنها في مرحلة الحديث عن الفعل وللذين يقولون فيها الجنرال بوفر: «ولكن يلاحظ أننا إذا لم نهزم - أي أننا لم ندم - أساس طاقة الضرب المعادية، فإننا سنخضع لعقاب

رهيب عندما نقوم بأي تدمير، وبالتالي نصل إلى تدمير متبادل شامل. قد يكون هذا التدمير غير متكافئ وينقلب ضدنا وبذلك نتعرض للردع بقدر ما تعرض له العدو. فضلاً عن ذلك فليس هناك بالإلزام تناظر في الردع. فالمدن الأمريكية الكبرى أكثر تأثراً بالتدمير الذي من المدن السوفياتية. وهذا يفسر اختيار الأميركيان لكتيك معاكس القوى واختيار السوفيات تكتيك معاكس المدن. ويفصح هذا الاختيار عن نوايا هامة جداً: فالذي يختار معاكس المدن يؤمن بالقيمة المطلقة للردع الذي يتحقق، وفي حالة النزاع لا يجد أمامه منفذ إلا في الانتحار المتبادل. أما الذي يختار معاكس القوى فهو الذي يشك بقيمتها ويقبل احتمال نزاع ذري يشتمل على استخدام شبه كامل للقوى الضاربة الاستراتيجية الأمر الذي يزيد من قدرته الرادعة».

هذا وهناك واقع من الخوف وتوازن الرعب في الدول النووية اليوم فرض عليها نظاماً من الأولويات في تحديد الأهداف الممكنة والتعامل يرتكز على عنصري الأمن والأمانة اللذين نوهنا بها في بداية دراستنا حول الصراع البشري. لقد أصبحت في نظر الجبارين سائر الدول والشعوب وسائل ومواد مستهلكة في سبيل خير أحدهما وحمايته، وبالتالي أهدافاً يمكن التضحية بها أو ضربيها أو تقديمها قرباناً وفدية على مذبح توازن الرعب والمصالح المشتركة. ابتعد شبح الانتقام الشامل والضرب الإفجائي المتبادل على قاعدة «أهن فلوسك ولا تهن نفوسك»، والفلوس هنا هي الدول والشعوب الضعيفة، فهي بيادق للتضحية في سبيل شاهي رقعة الشطرنج العالمية.

الاستراتيجية الألكترونية. هي مولود جديد أنجبه التطور التكنولوجي في حقل الألكترونات. لم تكتمل معالله بعد، أو أن اكتتماها في بعض الدول لم يرافقه اختبار كافٍ للطاقات والأبعاد، والحدود وعقد التلاقي والتشابك مع الاستراتيجيات الأخرى ضمن إطار الاستراتيجية الشاملة. ولو افترضنا جدلاً أن هذه الاستراتيجية قد أصبحت واضحة راسخة الأركان في الدول المتغيرة فهي بالتأكيد غير مختبرة بصورة كافية عالمياً. إن جل ما يهمنا في هذا المجال هو أنها استراتيجية ذات وجهين: وجه هجومي يتصف إما بالسلبية ويهتم بقضايا الاستماع والاعتراض وتحديد المكان، أو بالإيجابية ويهتم بالتشويش أو الاختراق والتدخل والتضليل والظهور. أما الوجه الدفاعي ففيه تدابير وقائية ضد إجراءات الهجوم السلبية من أعمال ضبطٍ وسيطرة وتأمين وانضباط وإجراءات تقنية فنية. وفيه تدابير وقائية أخرى ضد إجراءات الهجوم الإيجابية كالحماية ضد التشويش والاختراق.

إن إغفال باب تعدادنا لاستراتيجيات الأسلحة لا يعني أن الاستراتيجية الألكترونية هي

آخر حَبَّات العَقد ونِهايَة المَطَاف، فهُنَاك عَدَة استِراتِيجِيات أَسْلَحة آخَذَة في الْإِكْتِمَال وأُخْرَى آخَذَة في التَّكْوُن، كَاسْتِراتِيجِية الأَقْمَار الْأَصْطَنَاعِيَّة أو اسْتِراتِيجِية الْاعْتَرَاض الصَّارُوخِي بما في ذَلِك أَعْمَال الدِّفَاع الجَوِي. ولَن تَوقُف عمَليَّات الولادة هَذِه مَا دَامَ العَقْل البَشَري دائمَ الحَرْكَة في مَجَالِ الْخَلْق والإِبْدَاع والْتَطْوُر، وَرِبَما نَحْنُ الآنُ عَلَى مَشارِفِ ولَادَة اسْتِراتِيجِية كُونِيَّة لها مَعَالِم مُخْتَلِفة قد تَقْلِبُ المَوازِين وتَغْيِيرَ الأَبعَاد.

### قواعد الاستراتيجية :

بعد أن بحثنا في تقسيم الاستراتيجية العسكريَّة ورأينا أنها تقسم من حيث المستوى إلى استراتيجية شاملة واستراتيجية عامة ثم استراتيجية عملياتية، وتقسم من حيث أسلوب العمل إلى استراتيجية مباشرة واستراتيجية غير مباشرة، أما من حيث حقول العمل والاختصاص فقد تناولنا بالبحث الاستراتيجيات البرية والبحريَّة والجوية والنووية والألكترونية، ونوهنا بمفهوم عدم الخصريَّة والمحدودية مشيرين إلى ولادة استراتيجيات أسلحة جديدة، في جو يبشر بإمكان ظهور استراتيجية كونية قد تصبح الاستراتيجية الشاملة حجرًا في صرح بنائهما. بعد كل ذلك لا بد من دراسة القواعد العامة للاستراتيجية التي تبنِّاها المفكرون والمنظرون العسكريون، والتي تعتبر الحجر الفلسفِي والمادة الأساسية في بناء الاستراتيجية الشاملة ومختلف الاستراتيجيات من عامة وعملياتية و مباشرة واستراتيجيات اختصاص وحقول عمل.

أخذت هذه القواعد تتبلور عبر العصور انطلاقاً من عمق التاريخ وصولاً إلى يومنا الحاضر، فكانت امتداد خط تفكير متواصل فيه من القمم والوهاد والازدهار والانحطاط العدد الوفير الذي يصعب علينا حصره، سبيلاً وأننا لسنا في صدد التاريخ الذي يخرج عن إطار موضوع دراستنا. لهذا السبب سنكتفي بالالتفات إلى بعض القمم الفكرية المميزة التي طبعت حقباً معينة من التاريخ العسكري بطبعها، وأصبحت قواعد يعتمدها القادة في وضع الاستراتيجيات الدوليَّة ومفاتيح شِيفَرَة حلّ طلاسم وعقد الصراعات العالميَّة. أما القواعد التي اخترناها فهي :

قواعد صنٌّ تزو (٥٠٠) سنة قبل الميلاد). تظهر قواعد صنٌّ تزو من خلال مبادئه التي حددتها للحرب والتي تدور حول مفهوم الاستراتيجية غير المباشرة وتطبق في مختلف مستويات الاستراتيجية وهي تلخص فيما يأقِي :

• الحرب القصيرة هي الحرب المفيدة. ليس في التاريخ أمثلة تدل على استفادة الدول من الحرب الطويلة الأمد. هذا ما يراه تزو وهو صحيح إلى حد بعيد، إلا في مجال الحرب

الثورية التي قد يصبح فيها امتداد أمد الحرب أداة في يد القوات الثائرة للتأثير على إرادة الخصم في مناورة إعياء تقنعه بعدم جدوى الاستمرار في حربه.

● تحقيق النصر عن الطريق غير المباشرة. يقول تزو أنه يمكننا أن نلجم في الحرب إلى الطريق المباشرة للسير نحو المعركة، ولكن الطريق غير المباشرة ضرورية للحصول على النصر. هذا المفهوم يرمي للتقارب غير المباشر في المعركة ويفضله على المواجهة المباشرة التي تستفز جميع قوى العدو وتشركها في المعركة بينما تختال المناورة غير المباشرة وتستدرج العدو ليضع أقل ما يمكن من قواته في المواجهة.

● السرعة روح الحرب. يقول تزو السرعة روح الحرب. استفيدوا من عدم استعداد العدو واستخدموها طرقاً غير متوقعة وهاجموا الواقع غير المحروسة. اظهروا في بعض النقاط ليسرع العدو للدفاع عنها، ثم سيروا بسرعة إلى نقاط لا ينتظركم فيها. يمكنكم التقدم دون مقاومة تذكر إذا سرتم نحو نقاط العدو الضعيفة، كما يمكنكم أن تبقوا بآمن من ملاحقة إذا كتمتم أسرع منه حركة.

● الحيلة والخداع أساس فن الحرب. يرى تزو «أن الحيلة أساس فن الحرب، لذا ينبغي التظاهر بالعجز عندما تتوفر القدرة على الهجوم، والتظاهر بعدم العمل عند الرغبة في استخدام الجيوش، وإقناع العدو بأننا بعيدون عندما نكون على مقربة منه، وبأننا قريبون ونحن بعيدون عنه. استخدموها الفخ لجذب العدو وتظاهرها بالفوضى ثم اسحقوه. إن من أتقن فن الخداع سينتصر لأنه فن المناورة». هذا المفهوم هو الذي يعتمد في مبادئ الحرب وهو مبدأ أساسى في كل مناورة ناجحة.

● تحطيم مقاومة العدو قبل مواجهته. يقول صن تزو «إن أفضل الأعمال هي تحطيم مقاومة العدو دون قتال». هذه عقيدة هامة في الحرب تهدف إلى عدم الدخول في معركة الجسم إلا بعد تفتت جبهة العدو فيصبح التفتيت طريق الجسم بينما ترى أساليب العمل المباشرة بأن الجسم هو طريق التفتيت.

● العمل على جعل الهزيمة والفرار بمثابة أمل خلاص للعدو. يعبر تزو عن ذلك بقوله: «إتركوا لجيش العدو بعد حصاره مخرجاً حراً ولا تشدوا الضغط على عدو يائس». إن إحكام الطوق على المحاصر يزيده شراسة واستماتة في الدفاع لأن لا خيار له لإنقاذ حياته غير ذلك، ولكن أمل النجاة الذي يزيشه الانسحاب يساعد على الانهزم السريع.

● العمل من القوي ضد الضعيف. يعبر تزو عن رأيه في هذا المجال فيقول إن التكتيك العسكري كالماء. يخضع الماء لمحارة الطبيعي، إذ يتسرّب منحدراً من الأماكن العالية نحو المنخفضات. والأمر مشابه في الحرب، إذ نتجنب الموقع القوي بالهجوم على الموقع الضعيف.

احترام تناسب الغايات والوسائل. يقول صن تزو: «كيف الماء مجرأه حسب الأرض التي ينساب عليها، ويؤمن العسكري النصر بطرق تتلاءم مع قوة العدو الذي يواجهه». وهذا مبدأ آخر من مبادئ الحرب الثابتة أبداً والتي تصلح لكل زمان ومكان.

قواعد نابليون بونابرت. وهي:

- التحرك، بقوى متفرقة والقتال بقوى مجتمعة.
- التوفيق بين الغايات والوسائل.
- التركيز على أهمية المناورة على المؤخرات.
- استعمال النار بأسلوب التركيز.
- الاهتمام بالتنظيم والمساندة الإدارية واللوجستية.
- الاستفادة من الحركة لتحقيق المفاجأة.

قواعد كلاوزفيتز. أما القواعد التي نادى بها كلاوزفيتز في إطار الاستراتيجية المباشرة فهي:

- الحشد وتجميع القوى.
- عمل القوي ضد الضعيف.
- الخل الحاسم عن طريق المعركة في الحقل الرئيسي قدر الإمكان وبأسلوب المعركة الداعية الهجومية. وهذا ينفذ في إطار الاستراتيجية العامة واستراتيجية العمليات.

قواعد ليدل هارت. وهي قواعد مستوحاة من سياسة إنكلترا التقليدية التي تؤمن بالنفس الطويل، العمل غير المباشر.

- إجبار الخصم على بعثرة قواته بواسطة التقرب غير المباشر.
- المفاجأة بالقيام بعمل غير متوقع.
- عمل القوي ضد الضعيف.
- البحث عن الخل الحاسم في حقول عمليات ثانوية ما أمكن، وذلك على مستوى الاستراتيجيات العامة واستراتيجية العمليات.

قواعد المدرسة الفرنسية التقليدية. وهي تنحصر في قاعدتين تنبثقان عن الأفكار التي نادى بها فوش ضمن مفهوم المرونة والتعيم بحيث يمكن استعمال القاعدة على الدوام وفي مختلف القطاعات والمستويات. إن هذا النهج يمزج بين القاعدة والمبدأ العسكري و يجعلهما في حالة تشابك على الدوام. وأما القاعدتان فهما:

- الاقتصاد بالقوى.

- حرية العمل التي تتلازم مع امتلاك زمام المبادرة.

قواعد ما وتسى تونغ. وهي تنطبق على مستوى الاستراتيجية العامة واستراتيجية العمليات وتتلخص في الآتي:

● الانسحاب أمام عدو متقدم بتحركات متوجهة نحو المركز (أي تجميع القوى). ويتأثر صدق هذه القاعدة بمساحة مسرح العمليات، أورقة الأرض التي تجري عليها المناورات والنزاعات. فكلما كبر المسرح ورقة المناورة، كلما ازدادت صحة هذه القاعدة، بينما يتسرّب الشك إلى صحتها كلما ضاقت رقة المناورة و مجال العمل.

- ملاحقة العدو المتراجع وإزعاجه.

- استراتيجية واحد ضد خمسة. (اقتصاد بالقوى).

● تكتيك خمسة ضد واحد (حشد وتركيز). وهذا قد يتأمن بفضل الانسحاب نحو المركز أي بالحشد أثناء التوجه.

- التموين من توينات العدو نفسه. (مفهوم حروب جانكيز خان).

- ضرورة تأمين التلامم التام بين الجيش والشعب.

قواعد لينين وستالين. وهي تدور في فلك الاستراتيجية الشاملة وتتلخص فيما يأتي:

- ضرورة تأمين التلامم المعنوي بين الشعب والجيش في حرب شاملة.

- التركيز على الأهمية الخامسة للمؤحرات (كحروب الأنصار في الحرب العالمية الثانية).

- ضرورة الإعداد النفسي قبل التدخل العنيف.

● شعار تفتیت القوى في سبيل الإعداد للمعركة، وليس المعركة في سبيل تفتیت القوى.

- التضحية بالغير في سبيل الذات (عامل الأنانية).

قواعد الاستراتيجية الأمريكية الحديثة. وهي تدور في فلك الاستراتيجية الشاملة وتنحصر في ثلات قواعد هي:

- الردع المتردج.

- الرد المرن.

- التضحية بالغير في سبيل الذات.

إن إمعان النظر في القواعد العسكرية يقودنا إلى تصنيفها في المرتبة الثانية بعد مبادئ الحرب من حيث الثبات والاستقرار. لقد لاحظنا أن بعضها قد اخالط بالمبادئ وبعضها

الآخر قد بعد عنها. وهي بقدر ما تلامس المبادئ تؤمن ديمومتها بصورة أطول، بينما تقل الديمومة كلما ابتعدت عنها. إن لكل دولة عريقة في الحرب مبادئ وقواعد تنّمط أسلوب عملها وتفرز عقائد أو مذاهب عسكرية تتلازم مع تنظيم الجيوش. إن تعريف العقيدة أو المذهب العسكري يمكن أن يكون بوصفها كأسلوب ممارسة ونحوه عمل في إطار استخدام القوات المسلحة. إن العقائد العسكرية الحالية متباينة في وجه العموم بين الشرق والغرب إن في مجالات الدفاع أو الهجوم أو في أسلوب الإمداد وهي قد تختلف اختلافاً جزئياً في ظل المدرستين الكبيرتين. إن كثرة العقائد وتنوعها يجعل من غير الممكن حصرها وإبرازها، لذلك توضيحاً للمفاهيم التي أوجزناها سنعطي عدة أمثلة عليها من عقائد عالمية فنكون بذلك قد وفياتها الحد الأدنى من العناية لتوضيح القصد واستقامة التوجه والتمهيد لدرس ذلك في المناورة الاستراتيجية.

عقيدة التفوق المطلق للدفاع. لقد آمن بيtan بطل الحرب العالمية الأولى بتفوق الدفاع المطلق على الهجوم، لذلك أمر بإقامة خط ماجينو الذي كان حدث العصر في ذلك الزمان. لقد أثبتت الأيام فيما بعد عدم صحة هذا المذهب بصورة مطلقة التعميم، وطالب ديجول بإنشاء جيش عصري متحرك وكبير تنتفي بوجوده الحاجة إلى التحصينات، لأن الأحداث أثبتت أن ما من تحصين يستعصي على الاقتحام. هكذا أثبتت تجربة ماجينو وسيغيفرييد في الماضي وهكذا أثبتت تجربة بارليف في الحاضر.

العقيدة الأميركية الجديدة في أوروبا. وهي تدور حول النقاط الآتية:

- معركة رئيسية ضد أي هجوم روسي في وسط أوروبا.
- إحراز النصر في المعركة الأولى ضروري وحيوي لضمان نجاح حلف الأطلسي.
- الردع النووي الموسع والصلب.

العقيدة السوفياتية في العبور.

- عبور المشاة والمشاة المحمولة (الأآلية) بدعم من الدبابات أولاً.
- عبور القوات المدرعة ثانياً.
- تنفيذ العملية تحت غطاء مدفعي كثيف.
- إطلاق أريك شارون لمذهب عدم التخلي عن الجرحى بعد أن جرح في اللطرون ونجا عام ١٩٤٨ لأن الجندي الذي يثق بأن رفاقه سيخلصونه لو عرضوا حياتهم للخطر لا يتتردد في القتال أبداً.

- مذهب إسحق رابين في البلماخ بالتركيز على خلق المحارب المفكر وليس المحارب الآلي.

العقائد التي دارت حول خط بارليف.

- مذهب حاييم بارليف. وهو يأخذ بمفهوم الدفاع عن الأرض أي القتال حول الحواجز، واعتبار الأرض العامل الأهم الذي يجب الدفاع عنه.
- مذهب شارون. وهو يناقض مذهب بارليف ويقول بالسيطرة من بعيد، أي باعتماد أسلوب الإنذار والدفاع المتحرك.

- مذهب الجنرال طل. وهو يقول بمذهب الخط المتحرك، أي الموافقة على الدفاع عن القناة مباشرة ولكن ليس على خط بارليف مع اعتماد خطوط دفاع متغيرة وتكتيف استعمال الدبابات.

- مذهب الجنرال بييلد. وهو يركز على فكرة الزمن المتناقض بين الحدود القرية والحدود البعيدة. ففي الحدود القرية يعتمد الهجوم وفي الحدود البعيدة يعتمد الدفاع، مع التركيز على استثمار حراكية الجيش وروحه الهجومية وعدم تبذيد المال في التحصينات ورفض الاتكال على الغير.

العقيدة الإسرائيلية بوجه عام. لقد تطورت العقيدة الإسرائيلية مع الزمن. فكانت قبل عام ١٩٦٧ تعتمد المبادئ التالية:

- التفوق والردع.
- الحرب القصيرة.
- الحرب الخاطفة.
- الهجوم المعاكس المسبق.
- الاعتماد على القوة الذاتية.

بعد حرب ١٩٦٧ تطورت العقيدة الإسرائيلية بسبب تأمين عمق استراتيجي للدولة ودخلت عليها الأمور الآتية:

- مبدأ الحدود الآمنة. شرحه إيغال آلون عام ١٩٦٩ بقوله إن حدوداً آمنة دون سلام أفضل من السلام دون حدود آمنة. أما آبا إيفيان فشرح الحدود الآمنة بأنها حدود يمكن الدفاع عنها دون أن تبادر إلى ضربة مسبقة. لكن إسرائيل طل قال أنه بعد احتلال الأرض تبنينا لأول مرة في تاريخنا فكرة أنها لستا مجردين على خوض حرب هجومية. إذ يمكننا أن نتصرف كشعب عادي والاستناد إلى مفهوم الدفاع الثابت.

- قبول فكرة تلقي الضربة الأولى من العرب.
- اعتماد أسلوب الإنذار المبكر.
- توفير الطيران والتحصينات للوقت بغية تأمين استدعاء الاحتياط.

لقد أثر الوضع الجغرافي والوضع البشري والوضع الاقتصادي والوضع الاجتماعي على بناء القوات الإسرائيلية وعلى عقidiتها القتالية وتحكمت العوامل التالية في صياغة العقيدة:

- القلة تقابل الكثرة، وذلك في كل نواحي القوة البشرية ومساحة الأرض والمورد الطبيعية.

- إن الحرب هي حرب للبقاء (حياة أو موت).
- لا طاقة لإسرائيل على حرب الاستنزاف وعليها الجسم بسرعة دائمةً.
- وجوبأخذ الصعوبات الجغرافية بعين الاعتبار، لأن العرب يحيطون بإسرائيل إحاطة السوار بالعصم، بالإضافة إلى رقعة أرض إسرائيل. إن هذا الأمر يفرض:
  - القيام بالضربة الأولى.
  - نقل المعركة إلى خارج الحدود.
  - استئثار الزمن وحسم المعركة بأسرع ما يمكن خلال ثلاثة أسابيع وذلك باعتماد الطرق التالية:

- قتال المواجهة العنيفة والسريعة.
- التفوق الفردي (النوعي).
- تأمين تدخل الأمم المتحدة.

جميع هذه المعطيات طورت العقيدة الإسرائيلية لترتكز على ثلاثة عوامل هي:

- التفوق النوعي.

- الأسلحة الجماعية هي العامل الخامس.
- تأمين قوة نظامية قليلة وقوة احتياطية كبيرة.  
إن تطبيق هذه العوامل يتأنى بالأمور التالية:
- استخدام قوات غير نظامية (مستعمرات).
- قوات نظامية متفرغة قليلة.
- احتياط كبير سريع التعبئة.
- استخدام الهجوم الوقائي.
- نقل المعركة إلى أرض العدو بسرعة.
- الحرب الخاطفة بعمليات سريعة ومتلاحقة.

- التفوق التكنولوجي بالأولوية: جو، دروع، أسلحة أخرى.
- إتقان الحرب النفسية.
- محاولة الاكتفاء الذاتي.
- اعتماد مناورة اللامعقول.
- التركيز على كفاءة الفرد وتفوقه.
- أفضلية الهجوم على الدفاع.

## المناورة الاستراتيجية

بعد دراستنا لأنواع الاستراتيجية إن من حيث المستوى أو من حيث أسلوب العمل أو من حيث الاختصاص، وعرضنا بعض القواعد الاستراتيجية المميزة البارزة عبر التاريخ والافتاتنا للعقيدة العسكرية، لا بد لنا من التوجه الآن إلى المناورة الاستراتيجية بحد ذاتها كونها أسلوب العمل والطريق المؤدية إلى الهدف المنشود. إن نجاح المناورة يعني تحقيق الهدف والنجاح وفشلها يعني عدم تحقيقه وبالتالي الفشل التام أو الجزئي أو التأجيل. والمناورة كمنهج تفكير وأسلوب عمل قد تلزم باعتماد عقائد معينة وباختيار أساليب متباعدة لتنفيذ الحلول بوجه عام، والحلول الحاسمة بوجه خاص. وحري بنا إذاً أن نلمّ بكلّ العقائد والحلول لنكون منها مع قواعد الاستراتيجية بوصلة توجّه ودليل هداية في مجالات إدارة الصراعات على شتى المستويات العالمية.

### عقائد المناورة:

لقد أسلفنا أن العقائد العسكرية كثيرة ومتعددة وهي قد تزدهر حيناً وينبو بريتها حيناً آخر، لذلك لن نهتم في باب المناورة إلا بالعقائد الأساسية الراسخة القدم والتي عاشت فترات طويلة.

العقيدة الهندسية. وهي تعود في تاريخها إلى العصور القديمة، حيث كان لترتيب صفوف القوى، وطريقة وضع الأسلحة من سيافة أو رماحة وخيانة أهمية كبرى في إدارة المناورة. لقد تطورت هذه العقيدة عبر العصور وبشكل بارز أيام هنري السادس البارعة إن على القوس أو على الوتر للتشكيلات النصف دائيرية، وكذلك في عهد المربيات الرومانية، ووصلت ذروتها على يد ملك بروسيا فريدريك الثاني (١٧١٢ - ١٧٨٦) الذي بلور هذه العقيدة بنظامه المائل الشهير في السير نحو المعركة، والذي يحتمل مركز الثقل فيه على الأجنحة، فتخاض المعركة على قاعدة الالتفاف أو الاختراق والتطويق كخطوة مطرقة شليفن. تعتمد هذه المناورة على سرعة الحركة والترتيب الهندسي بشكل أساسي، أما العوامل الأخرى من مفاجأة معنوية وحيطة وسرية فيأتي الاهتمام بها في الدرجة الثانية.

لهذا السبب وفي عصرنا الحاضر حيث سيطر العلم والتكنولوجيا في خدمة الاستعلام فقد أصبحت المفاجأة الهندسية في ذمة التاريخ، وانقضى أوان العقيدة الهندسية لأن اتباعها يؤدي حتى إلى صدام مباشر باهظ التكاليف، بعد أن كانت تستفيد في الماضي من صيغتها غير المباشرة المتأنية من الخدعة الهندسية. لذلك يحسن بنا أن ننظر إليها الآن كجزء ذاتي أو ملتحم بعوائد أخرى وليس كعقيدة مستقلة الحدود والمعلم. إن العقيدة الهندسية لم تفقد قيمتها في المطلق ولكنها أصبحت جزءاً متاماً لكل عقيدة عسكرية أخرى، لأن الترتيب الهندسي لا بد منه في كل مناورة أكانت صغيرة أم كبيرة، وهو يتmaterial في توضيع القوى على الأرض وفي تناسق عملها مع بعضها البعض.

العقيدة الجغرافية. طور هذه العقيدة وأعطاتها أبعادها ومعالمها الواضحة الجنرال السويسري جوميني (١٧٧٩ - ١٨٦٩) بعد دراسته لمعارك نابليون وانتصاراته، فاهتم بالنقاط الاستراتيجية الهامة والطرق ومحاور المرور والمقربات وطبيعة الأرض. درس حسنت أسلوب تحرك الفرق النابليونية متفرقة والقتال مجتمعة، مستغلة شبكات الطرق وطبقات الأرض التي تقاتل عليها من مادية وبشرية. تأثر بالأرض كونه من سويسرا الإيطالية فكان همه النهائي كيفية القتال دفاعاً عن الأرض السويسرية. لقد بحث جوميني بعمق أساليب المناورات على الخطوط الداخلية والخارجية واهتم بتأثير الأرض على أسلوب المناورة مركزاً على المقربات وطرق الواصلات والمحاجز.

إن التفكير بتركيز المناورة على الجغرافيا وما تقدمه الأرض بشكل أساسي من حسنت قد تعدد الزمن، لأنه تبسيط أو واجهة خلفيات ومشاكل أكبر وأعمق من ذلك كثيراً. إن هذا القول لا يعني سقوط أهمية دراسة الأرض واستثمار تقديماتها بل يعني أن الاهتمام بالأرض أصبح جزءاً واحداً من كلٍ متنوع، يبقى لعقيدة جوميني فيه المركز السامي من ناحية الحصول على المردود الأقصى للوسائل بالتفاعل مع الأرض، وهذا يظهر جلياً إن في المناورات في الأراضي الشاسعة أو في استراتيجيات البلدان الصغرى التي تفتقر إلى العمق الاستراتيجي كسويسرا وإسرائيل ولبنان، وغير ذلك من الدول التي يصبح فيها لشبر الأرض معنى كبير وكبير جداً وقدره لا يعوض.

وكما قلنا في العقيدة الهندسية نقول في العقيدة الجغرافية، بأنها انتهت كعقيدة مستقلة، ولكنها دخلت كجزء مهم في العوائد الحية الأخرى.

عقيدة الارجوع. وهي ظاهرة على المستوى الشامل والقومي أكثر من ظهورها على المستويات المتوسطة حيث تعود إلى الظهور مجدداً على مستوى الفرد والجماعات الصغيرة.

والمقصود بعقيدة الارجوع هو اختيار طريق اللاعودة ودفع كل الطاقات إلى المعركة واستعمال كل الأوراق في اتجاه الجسم الذي قد لا يكون مصلحة من اختار هذه الطريق. إن هذه العقيدة أقرب ما تكون إلى الموقف النفسي والمعنوي منها إلى الموقف العقلاني، فاختيار الشهادة في سبيل قضية معينة أمر لا يضبطه العقل والمادة بل تحكمه القيم والأخلاق والمبادئ، وهي طاقات لا مقاييس تحكمها ولا معايير تسبر أبعاها. إن اختيار الحسين للمواجهة في كربلاء كان اختياراً لعقيدة الارجوع، كما أن اختيار الحركة الوطنية اللبنانية الموحدة مواجهة الحال السوري المدعوم دولياً في لبنان عام ١٩٧٦ كان خيار اللاعودة والمراهنة على كامل الرصيد دون تحكيم المقاييس العقلية والحلول المنطقية والبراغماتيكية. إن أفضل وصف لهذا الموقف ما جاء على لسان قائد الحركة الوطنية الأستاذ كمال جنبلاط آنذاك في خطابه الشهير في مزبد حيت قال: لقد وضعت القضية في كفة وهذا الرأس في كفة (مشيراً إلى رأسه) فيما أن تنتصر القضية وإما أن يطير هذا الرأس. لم تنتصر القضية حينها كون المعطيات لم تكن لصالح الانتصار ولا اختيار عقيدة الارجوع في مناورته في الظرف غير المناسب، ولكن القضية لم تمت.

وكما نجد الأمثلة على الصعيد الصغير نجدها على الصعيد الدولي، فحرب هتلر كانت من هذا النوع، وضربه لبيرل هاربر – عبر حليفه اليابان – كان قمة الانعطاف والخيار. إن اختيارنا لأمثلة باء أصحابها بالفشل لا يعني أن هذه العقيدة فاشلة أصلاً، فهي عقيدة الأنبياء والأولياء ومطوري العالم بدءاً بالسيد المسيح عليه السلام مروراً بالنبي محمد صلعم، وغاندي رجل اللاعنف، وربما كان خيار الإمام الخميني في هذا المسلك. والذي يمكن إيجازه في موضوع هذه العقيدة هو أنها تركز على المبدأ والقيمة كأداة استقطاب وقوة، وعلى الوسائل المعنوية، أي على الهدف والطريق الأخلاقي ولا تهتم بالأساليب والوسائل المادية كثيراً.

عقيدة العنف الديناميكي العاقل. ويسمىها الجرزال بوفر العقيدة الديناميكية العقلانية. إن تسميتها بالعنف الديناميكي العاقل هو تركيز على إظهار المنحى العنيف المتضاد في سبيل تحقيق الجسم. لقد حدد كلاوزفيتز معلم وأبعاد هذه العقيدة وخاصة في كتابه الشهير «الوجيز في فن الحرب»، وبين أن الحلول الدامية هي الحلول الحقيقة، كما أن الصيغة المباشرة هي الصيغة الفضلية. أما مفهومه للمناورة فهو يقوم على الآتي:

- تقدير القوى وإجراء المقارنة فيما بينها.
- البحث عن الحال الذي يتلاءم مع المردود الأقصى للوسائل من قوى بشرية ومادية.

- اعتماد أسلوب الحشد وتجميع القوى.
- البحث عن الخل الحاسم في حقل المعركة الرئيس.
- الحسم عن طريق العمل بأسلوب القوي ضد القوي.

العقيدة التوافقية. وهي العقيدة الانكليزية المفضلة التي تتجنب المواجهة العنيفة في الحقل الرئيسي لتهب الحقول الجانبية والثانوية، كتحرك لورنس في الجزيرة العربية ضد الأتراك خلال الحرب العالمية الأولى. إن هذه العقيدة هي دخول البيت من النافذة والمداورة في العمل مع التركيز على تأمين التوافق بين الغايات والوسائل، والتركيز على ميزان القوى والتنسيق التوفيقى بين مختلف المناورات لاستغلال نقطة الضعف والنفاذ من خلاها. إن هذه العقيدة تعود بجذورها إلى أفكار صن تزو وقواعد الاستراتيجية فهى تهتم بالأساليب والطرق غير المباشرة في التقرب والممارسة والصدام.

هذا وتهتم هذه العقيدة بتوريط الفريق الثالث واستخدام الآخرين غالباً، لتوسيع رقة انشغال الخصم وإرباكه. لقد شرح ليدل هارت هذه العقيدة في كتابه الشهير «حول تاريخ الاستراتيجية في العالم»، وشدد على أن الاستراتيجية غير المباشرة هي الأسلوب الناجح دائمًا. إن النقاط المأمة في هذه العقيدة تدور حول أمرتين:

- الخل عن طريق غير مباشر بـ:
  - نشر القوى لإجبار الخصم على بعثرة قواه.
  - المخاتلة بشكل يعرقل توقعات الخصم ويبلبل أفكاره.
  - المماطلة الصبوره المرنة لتحطيم آمال الخصم وإعيائه.
- البحث عن النصر عن طريق عمل القوي ضد الضعيف في الحقول الثانوية والبعيدة.
- إعطاء العامل المعنوي للفعل أهمية كبرى.

عقيدة الخل المحدود. أخذت هذه العقيدة تبلور في العصر الحديث تحت مظلة الردع وتوازن الرعب والتعقيدات الدولية، أسوة بعده عقائد أخرى سُنّت على ذكرها. لقد اختار كيسنجر هذا الأسلوب من العمل ورأى بأن الحلول المحدودة غير المقبولة بحماس في مراحلها الأولى تتكرس مع الزمن وتصبح أمراً واقعاً مقبولاً وحقيقة ناجزة حتمية. وتنمي هذه العقيدة بالواقعية والالتزام بحدود المرات و مجالات المناورة الضيقة داخل خارطة المعادلة الدولية. وعلى ما يظهر فإن هذه العقيدة وشقيقاتها المستحدثات قد تخل نهائياً مكان العقائد التي كانت تحكم الفكر العسكري قبل تطور السلاح الذري. أما اعتمادها فيظهر أنه وارد

على صعيد الدول الكبرى، كما على صعيد الدول الصغرى، في الحروب المحدودة أو العمليات المحصورة وحروب التحرير، كمثل الحرب الهندية الباكستانية وولادة بنغلادش، وحرب العرب وإسرائيل عام ١٩٧٣ (رمضان)، والعملية الصينية في الأرض الفيتنامية. إن معالم هذه العقيدة وعلى الرغم من أنها لم تبلور بعد يمكن تلخيصها فيما يأتي:

● جو المناورة.

- مسرح عمليات محدود (محدودية المكان).
- مجال ضيق من الوقت (محدودية الزمان).
- إطار مناورة دولي محدود ومعقد.
- هدف محدود أو متواضع.
- ضراوة وسرعة في التنفيذ لفرض أمر واقع جديد.

عقيدة القضم والمضم (المراحل). وهي تطوير لعقيدة الخل المحدود أو سلسلة من الحلول المحدودة، تتم على مراحل، آخذة الظروف بعين الاعتبار. نادى بهذه العقيدة عربياً الرئيس التونسي الحبيب أبو رقية كسياسة لتحرير فلسطين، كما اعتمدتها لتحرير بلاده من الحاكم الفرنسي، وكان آخر موطن قدم فرنسي استعاده بهذه السياسة قاعدة بنزرت. إن هذه العقيدة، إضافة لمعالم الحلول المحدودة الوارد ذكرها آنفاً، تتميز بالأتي:

- اعتماد الوقت كعامل أساسى ومساعد في الحلول.
- ثبات في التوجه والمدف ومرؤنة في التحرك والتعامل.
- تقسيم المدف إلى أهداف مرحلية تسمح الظروف الدولية والموضوعية بتحقيقها واستيعابها دون التورط في مهامه قاتلة، وتحين الفرص لتحقيق المدف تلو الآخر بعد هضم المكاسب السابقة مع الاهتمام دائمًا باحتواء كافة المضاعفات الخطيرة أو تعطيلها.

عقيدة إبقاء القضايا حية. يقول محمد حسين هيكل بأن الرئيس ديجول رئيس الجمهورية الفرنسية أرسل إلى الرئيس جمال عبد الناصر في ذروة محنته إثر نكبة ١٩٦٧ كتاباً يشهد على قدرة ديجول الفذة على استشاف المستقبل والرؤية التاريخية يقول فيه: «ليس في وسعك أن أقول لك ما يجب أن تفعله أو لا تفعله، لكن لدى نصيحة صديق أضعها أمامك وهي: لا تدع الأزمة منها كان الثمن تصل إلى المنطقة المائعة بين اللاحرب واللاسلم. لا بد أن تكون أزمعكم بكل الوسائل ساخنة باستمرار. ولا بد أن تكون موجودة طول الوقت أمام العالم كمصدر لا يهدأ كأنها قبلة فوق مائدة مجلس حولها الآخرون».

إن اقتباس أفكار ديجول خير تلخيص لمضمون هذه العقيدة ولتحرير معالمها. لقد عمل

العرب بهذا الأسلوب حيناً وتخلوا عنه أحياناً وعادوا إليه أحياناً أخرى ولكن بنمط لا يتصف بالاستمرار. وهذه العقيدة هي المنهج الأساسي الذي يعتمد الثوار في حروب التحرير لأنها تركز على بقاء المعضلة حية وتشعر دعایتها في الإطار العالمي، وتلعب على الصبر والإعياء كعامل تحفيز وتفاعل للقضية.

### أساليب المناورة:

رأينا في درسنا للاستراتيجية من حيث أسلوب العمل أنها يمكن أن تقسم إلى قسمين: استراتيجية مباشرة حيث يطغى العمل العسكري في تحقيق الهدف ويتم الجسم عن طريق الحرب أو المعركة، واستراتيجية غير مباشرة حيث يلعب العمل العسكري دوراً ثانوياً، ويتم الجسم عبر طرق ووسائل أخرى لا تتميز بالعنف الدموي دائمًا.

إن العودة إلى التذكير بهذا التقسيم يساعدنا في تحليل أساليب المناورة الاستراتيجية، سيم إذا ذكرنا بأن مفتاح الجسم الاستراتيجي يكمن في أمرتين هما: حسن اختيار النقطة الحساسة الخامسة في الخصم، وحسن اختيار المناورة الرامية إلى بلوغ تلك النقطة.

إن ما يهمنا الآن هو حسن اختيار المناورة أي أسلوب العمل والخل ليأتي ملائماً لطبيعة الهدف والظروف والوسائل. هناك خطان عامان للاستراتيجية من ناحية أسلوب العمل تدرج تحتهما حلول متعددة ومتباعدة يصعب إحصاؤها. فقد تأتي بسيطة أو مركبة كما تأتي متتابعة متباعدة في الزمان أو متقاربة. نراها تارة حلوأ خاصة بأسلوب معين من الاستراتيجية لا تصلح لسواء، بينما نلاحظ تارة أخرى أنها تصلح للعمل في الحقول المباشر وغير المباشر على السواء.

إن هذا الواقع لا يمنعنا من إيجاز بعض الحلول الرئيسية في اللعبة الاستراتيجية مع العودة للاستدراك بأن هذا التعداد ليس على سبيل الحصر، بل للتركيز على المفاصل الكبرى الهامة مع التنويه بما للقواعد الاستراتيجية التي جئنا على ذكرها آنفًا من أهمية في صوغ الحلول الملائمة للمناورة. أما الحلول الرئيسية فهي التالية:

#### في حقل الاستراتيجية المباشرة.

- **الخل الهجومي بالاقتراب المباشر.** هو الذي يتوجه مباشرة نحو الجسم العدو بأقصر السبل وأسرع وقت، بالعمل بأسلوب الحشد الأقصى للقوى والوسائل وضرب قوة العدو الرئيسية. إن اختيار هذا الخل يتطلب تأمين التفوق بالوسائل من عديد وعتاد فضلاً عن التفوق الفني والقدرة الهجومية الأكيدة التي تكفي لتحقيق الجسم السريع عن طريق العمل المباشر مع ضمان الاقتصاد وتأمين القدر الأدنى أو الأوفر في الخسائر.

● **الحل بالإنهاك الدفاعي الهجومي النشيط.** وهو عبارة عن عمليات كرّ وفرّ تتشابك مع مواقف دفاعية وهجمات ردية وإغارات وكمائن إنهاك وعمليات كبح، ترتكز على تكبيد العدو أكبر قدر من الخسائر المادية والبشرية، مع اعتماد سياسة المرونة والتكييف وعدم التورط الحاسم باندفاع يأخذ طابع الارجوع الميت.

إن اعتماد هذا الحل مبني على دراسة المعطيات من وسائل وظروف. فإذا أظهرت دراسة ميزان القوى الشك في التفوق الأكيد، أو إذا ثبت أن التضحيات ستكون باهظة الثمن وأن الصراع لن يحسم في الاتجاه المرغوب في حال اعتماد الخل الهجومي بالتقرب المباشر، يصبح عندها اللجوء إلى طريقة الإنهاك النشيط دفاعياً وهجومياً أحد الحلول الملائمة.

إن حروب الاستزاف الثابت والمحرك مشتقة من هذه الفكرة، بحيث توجه الجهد إلى إيقاع أكبر قدر من الخسائر في العدو مع تفادي التورط والدخول في صدام مواجهة ندفع فيه غالباً إن في العديد أو العتاد.

● **الحل المباشر بالتقرب غير المباشر.** إن عوامل اعتماد هذا الخل هي إلى حد كبير نفس العوامل التي تدفعنا لاختيار الخل بالإنهاك الدفاعي الهجومي، فعامل الشك في التفوق وقلة فاعلية الوسائل المتوفرة، تدفعنا للجوء إلى المداورة والتضليل، وما هذا الخل إلا التطبيق لهذه الفكرة، فهو يعتمد على تضليل الخصم بهجوم خداع في مكان بعيد عن المركز الهام الذي تقرر الحسم فيه يجبره على توزيع قواه، ومن ثم مباغنته بهجوم حقيقي في مكان حساس آخر يؤدي إلى تحطيمه. إن هذا الأسلوب في الحقيقة هو تطبيق لمبدأين هما: المداورة لتحقيق المفاجأة وتحقيق التفوق الآني والموضعي، أي العمل على تأمين الخل وعدم التوازن في جهاز العدو.

لقد أطلق الجنرال بوفر على هذا الخل تسمية الاستراتيجية المباشرة للتقرب غير المباشر، كما صنفه ليدل هارت في خانة الاستراتيجية غير المباشرة. إن اختياري لاسم الخل هو لاعتقادي بأن هذا الأسلوب جائز التطبيق على مختلف المستويات العليا والمتوسطة والدنيا، أي في النطاقين الاستراتيجي والعملياتي، فضلاً عن المستوى التكتي، مع جواز اعتماده في الاستراتيجية غير المباشرة كما سيظهر فيما بعد. إن عدم الاعتماد بتصنيف ليدل هارت يعود أولاً إلى مضمون التعريف الذي اعتمدناه للاستراتيجيتين المباشرة وغير المباشرة في أبواب سابقة، حيث أخذنا بالاجتهاد القائل بأن الحدث يزداد اقتراباً من الاستراتيجية غير المباشرة، كلما قلت أهمية العمل العسكري فيه وزادت أهمية الأعمال الأخرى، والعكس بالطبع صحيح بالنسبة للاستراتيجية المباشرة. وثانياً للقناعة بأن مفهوم الاستراتيجية غير المباشرة هو أوسع وأشمل من نطاق المناورة الضيق الذي لا يجوز أن يكون أداة الحكم الوحيدة للتصنيف.

هذا وجلـي أن هناك بقعة تشابك وتقاطع بين الاستراتيجيتين المباشرة وغير المباشرة في منطقة الحدود، حيث يتم الانتقال من قطاع إلى آخر، فتمتزج الأعمال المباشرة بالأعمال غير المباشرة.

في حقل الاستراتيجية غير المباشرة. في الواقع إن الاستراتيجية غير المباشرة ليست ابتكاراً حديثاً أو مولوداً عصرياً، ولكنها منحى إنساني قديم قدم البشرية. أخذت مفاهيمه التراكمية تتبلور عبر العصور، وتأخذ أبعادها شيئاً فشيئاً، فتارة تسكن في أعماق التصرفات الدولية وطوراً تستبطن الموقف وتعمل كمرشد خفي يستلهم القدرات للإيحاء بالخيارات والتحركات، وطوراً آخر تبرز كعامل أولي وأساسي في مسألة الجسم. لذلك فقد كانت فاعليتها تخبو أو تسرع حسب الظروف والأحداث عبر التاريخ فيظهر لمعان آثارها حيناً في التقارب غير المباشر الذي اعتمدته سيفون الأفريقي في مهاجمته لقرطاجة، أو التحركات التي اتبعها الإسكندر المقدوني في غزو الشرق الأوسط، أو في فتوحات العرب المسلمين المراحلية التي اهتمت بنشر الدعوة واستقطاب الشعوب، ومن ثم استيعابها. كذلك لا يغرب عن البال الموجات القدية لتعريب الشعوب المجاورة للجزيرة العربية، وهذا ما يمكن تصنيفه في خانة الاستراتيجية الاجتماعية حيث ترسخ مفهوم تقسيم العرب إلى بائدة وعربية ومستعربة، أي الفئات المنقرضة والعربية الأصلية ثم الحديثة في العروبة. إن ما يهمنا في هذا المجال هو العناصر المستعربة أي الداخلة على مراحل إلى حرم العروبة بأسلوب امتصاص مراحي صبور هادئ متفاعل لم يجر الجسم فيه عن طريق العنف، بل جاء عبر أقنـية شـتـى من التفاعل البشري والحضاري والاقتصادي، وإن لم يـحل ذلك دون حدوث بعض المـحطـات الدامـية المـميـزة.

لذلك فالتمازج والترابط بين الاستراتيجية المباشرة والاستراتيجية غير المباشرة أمر واقع وأصيل يحكم التصرف البشري عامـة والدولـي خـاصـة كـأـسـلـوب عمل متـواـصـل متـكـامل غـير قـابل للتقسيـم المصـطـنـع الـذـي يـؤـدي إـلـى الفـرـاغ، أو التـقـطـيع غـير المـمـكـن لأنـ الاستـمـارـ سـمة التـصـرـف البـشـري الـذـي يـرـعـي حـرـكة التـارـيخ بـعـزلـ عنـ الـاتـجـاه أوـ غـطـ السـرـعة. انـطـلاـقاً منـ هـذـا المـفـهـوم قـلـنا بـأنـ دـلـيـلـنا لـلتـعـرـف عـلـى الـعـمـل الـمـاـشـرـ أوـ غـيرـ الـمـاـشـرـ فيـ الـمـجـال الـعـسـكـريـ هوـ مؤـشـرـ الـعـنـفـ وـالـصـدـامـ الـدـامـيـ، فـكـلـمـا زـادـتـ هيـمـنـةـ الـصـرـاعـ الـدـامـيـ عـلـىـ المشـكـلةـ ليـأـيـ الحـسـمـ عـنـ طـرـيقـ الـعـنـفـ كـلـمـا اـقـرـبـ الـعـمـلـ مـنـ الـاسـتـرـاتـيجـيـةـ الـمـاـشـرـةـ. أـمـاـ كـلـمـا طـغـتـ الـأـعـمـالـ الـسـيـاسـيـةـ وـالـاـقـتـصـادـيـةـ وـالـنـفـسـيـةـ وـمـاـ شـاـكـلـ لـيـأـيـ الـحـسـمـ عـنـ غـيرـ طـرـيقـ الـعـنـفـ، كـلـمـا اـقـرـبـ الـعـمـلـ مـنـ الـاسـتـرـاتـيجـيـةـ غـيرـ الـمـاـشـرـةـ. إـنـ التـكـرـارـ وـالـتـركـيزـ عـلـىـ هـذـاـ الـمـفـهـومـ أـمـرـ هـامـ

لأنه أشبه شيء بالبوصلة. فصاحب الرصيد يمكنه تقسيم رصيده بين مختلف العملات بشكل يسمح له بالاستفادة من أعلى معدل للفائدة وأفضل حقل للتوظيف. والمضارب الناجحة هو من أحسن التصرف في تحويل أمواله باختيار الوقت ونوع العملة التي يحول إليها، و المجال التوظيف المناسب. من هنا تظهر أهمية المرونة والдинاميكية في اختيار الاستراتيجيات وتوظيف الطاقات، وضرورة التناوب أو التشابك والتكامل والتواصل بين مستويات وأنماط مختلفة من أساليب الاستراتيجية المباشرة والاستراتيجية غير المباشرة، خدمة للهدف المنشود وضماناً لتحقيقه بأفضل السبل وأوفر التضحيات وأقصر المهل. ومن هنا يمكن وصف الاستراتيجية غير المباشرة بأنها أسلوب عمل انتقائي يتصرف بالمرونة في التصرف والثبات في التوجه نحو هدف محدد مع احترام هوماش موازين الزمان والمكان والطاقات والظروف، الأمر الذي يظهر تنامي أهمية وفعالية هذا الأسلوب في رحاب الاستراتيجية الشاملة الحديثة، حيث فرض الردع النووي خطوطاً حمراء رهيبة يصعب تخفيتها بأسلوب العنف الدامي المطلق، الأمر الذي أسهم في ولادة مفاهيم استراتيجية جديدة كالحروب المحدودة والإقليمية وحروب التدخل والتحرير وال الحرب الباردة والإرهاب الدولي، فضلاً عن الأحلاف والمحاور والمعسكرات وسياسة الحظر الاقتصادي، وترسيخ أدوار المنظمات الدولية والإقليمية وأساليب المفاوضات المباشرة وغير المباشرة، رغم ضالة جدواها، وذلك لأنها تعمل كمتفسس أو ضابط مهدىء يتحكم بتأجيج نار الصراع وينعها من الإنزلاق في أتون الرحمة النووية، ليفسح المجال أمام عامل الزمن والظروف المواتية لتوفير الحل الملائم، وهنا تصدق الحكمة القائلة بأن الزمن حلّل المشاكل.

هذا ولقد جاء في كتاب «مدخل إلى الاستراتيجية العسكرية» للجنرال أندريله بوف سرد تاريخي يعزز هذه الفكرة بقوله «إنه منذ عام ١٩٣٥ والاستراتيجية غير المباشرة هي الاستراتيجية السائدة المستخدمة بصورة دائمة ومستمرة وهي تحقق الانتصار تلو الانتصار. فمع هتلر، ومن عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٩ اتخذت هذه الاستراتيجية الطابع الذي أسميناها مناوراة الخرشوفة. وبعد مرحلة الاستراتيجية المباشرة في عام ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ استعادت الاستراتيجية غير المباشرة انطلاقها ودفعها الأولى تحت زخم السوفيت ودفعهم». ثم يضيف: «ويعود هذا الانتشار المستمر المتزايد لهذه الاستراتيجية إلى شروط الحرب الحديثة، فمنذ كارثة هiroشيميا والكل مقتنع بسوء استعمال الحرب الشاملة، ويؤدي الجميع تجنب مثل هذه الحرب».

من هنا يصح القول بأن أسلوب الاستراتيجية غير المباشرة هو الفن شبه الوحيد للانتقال عبر الهوماش، وأن الأمثلة العملية تؤكد ذلك في جميع الحروب التحريرية والإقليمية، التي

حفل بها هذا العصر، من الهند الصينية إلى الجزائر فالفيتنام، فالحرب الهندية الباكستانية، والحروب العربية الإسرائيلية، وأخيراً حرب العراق وإيران. ورغم اختلاف أهدافها وظروفها فهي تثبت بما لا يقبل الشك بأنها تدور في مسار تحكمه ثلاثة هوامش هي: هامش الردع وهامش الطاقة وهامش تطور الفكر الحضاري التاريخي. ومع ذلك فقد كان للأساليب الفنية والحكيمة في إدارة بعض هذه الحروب الفضل الكبير في تحقيق أهداف هامة، رغم ضيق الهوامش أحياناً أو حتى سدود العدم الذري. صحيح أن هذه الحروب وجهها المباشر الصارخ على المستوى المحلي ولكنها تبقى في الإطار غير المباشر على المستوى العالمي الذي يحكم الآن جميع المستويات الأخرى.

لقد عرف الجنرال بوفر الاستراتيجية غير المباشرة بأنها فن معرفة أفضل استخدام هامش حرية العمل الضيق الذي أفلت من الردع بالأسلحة الذرية. والحصول بواسطته على نجاحات حاسمة هامة أمر يمكن رغم التحديد، والتحديد القاسي أحياناً، للوسائل العسكرية التي يمكن استخدامها.

بعد هذه الجولة نأتي إلى أقسام المناورة وأساليب مجابتها.

● **أقسام المناورة.** يستلزم اتباع الاستراتيجية غير المباشرة اللجوء لمناورة ذات فرعين: فرع يتوجه للمحيط الخارجي وفرع يعني بال نطاق الداخلي. ولا ينطبق هذا الأمر فقط على الاستراتيجية غير المباشرة بل ينطبق على غيرها أيضاً، وما من مناورة في العصر الحديث إلا وعليها سلوك هذا السبيل لتأمين مقومات النجاح. إن التطور البشري والتقدم العلمي المذهل في حقول المواصلات والاتصالات الألكترونية، فضلاً عن النجاح الباهر الذي حققه الجباران في غزو الفضاء الخارجي والهبوط على سطح القمر، وتطوير السفن المدارية، وما أنجزه الروس في حقل تطوير الأقمار الاصطناعية القانصة، بالإضافة إلى نجاح تجربة المكوك الفضائي الأميركي، كل ذلك قد عزز الروابط بين الدول وقرب المسافات فغدت الاهتمامات الاقتصادية والثقافية والسياسية متتشابكة متراقبة، كما أصبحت القضايا الأمنية في أية بقعة من العالم منها صغر شأنها عالمية التأثير، وإن بحسب متفاوتة، لأن العالم يتمحور فعلاً حول معاكسرين كبارين متعارضي المصالح في الغالب يضبطان مسيرة الشعوب، ولم تنجح حتى الآن تجارب قيام معسكر ثالث له من التأثير والسيطرة والفعالية والحضور العالمي ما للجبارين. هذا يعني أن هناك سيطرة ثنائية على العالم تحكم بقمة الهرم الدولي، وتأثير دول عدم الانحياز والعالم الثالث محدود ولا تزال مجموعاته في طور الطفولة تحتاج للمساعدة، أما التنظيمات الإقليمية والاقتصادية والكونونولث فشبه عاجزة، والمارد الأصغر لم تتمكنه قدراته المادية والتكنولوجية رغم تطورها حتى الآن من لعب دور الكابح المؤثر والموازن الفعال. لكن

هذه التعددية الدولية والمصالح الإقليمية ومستويات الأهمية المختلفة لكل مشكلة بالنسبة لمختلف الأطراف قد حافظت على غم مراكز للقوى مختلفة التأثير، وعلى أنواع متغيرة من هوامش حرية التصرف، فمن أحسن استعمالها تمكن من تحقيق أهداف ومكاسب هامة. لذلك ينطويء من يظن أنه قادر على عزل قضاياه عن محیطه الإقليمي، أو عن مراكز الجذب والاستقطاب الدولي، وأكثر ما ينطبق هذا على الدول الضعيفة النامية وشعوب العالم الثالث، وخاصة الدول ذات الواقع الاستراتيجية الهامة أو التي تحكم بعنصري الطاقة الدولية. لقد عبر عن ذلك جمال عبدالناصر عام ١٩٥٢ خير تعبر، فكتب في «فلسفة الثورة» قائلاً: «لم يعد مفر أمام كل دولة أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وما هو مجدها الحيوي وميدان نشاطها ودورها الإيجابي في هذا العالم المضطرب؟ استعرض ظروفنا وأخرج بجموعة من الدوائر لا مفر لنا من أن يدور علينا نشاطنا، وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقاتنا... إن القدر لا يهزل وليس هناك أحداث من صنع الصدفة، ولا وجود يصنعه الهباء... ولن نستطيع أن ننظر إلى خارطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخارطة ودورنا بحكم هذا المكان... أيمكن أن نتجاهل أن هناك قارة إفريقية شاء القدر لنا أن تكون فيها...؟ وشاء أيضاً أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها... وهو صراع تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أم لم نرد».

هذا فيما يتعلق بالجيو الخارجي أي النطاقين الإقليمي والدولي، أما فرع المناورة الذي يهتم بال نطاق الداخلي فهو الذي توجه جهوده مباشرة للمعضلة بحد ذاتها. إن في حُسن تكامل الجهدتين الداخلي والخارجي وتنسيقهما والعناية باختيار الوسائل والأساليب والزمان والمكان والأهداف يكمن نجاح المناورة، وهو حليف من يمتلك جوائز الحرب وأوراقها، ويحافظ على هذه الأوراق عند انتهاء الصراع أو الصدام.

في هذا النوع من الاستراتيجية لم يعد مفهوم كلاوزفيتز لهدف الحرب بأنه اللجوء إلى السلاح للقهر التام أو المطلق لإرادة العدو ولمجتمعه وفرض المشيئة عليه هو المفهوم الصحيح، بل أصبح تحقيق الأغراض المرحلية أو الآنية والمحافظة على حرية العمل هو الهدف بغض النظر عن الانتصار أو الانكسار في الميدان العسكري الضيق. إن العملية هي محصلة عدة نشاطات في حقول متنوعة، وميزان الأرباح والخسائر في المردود العام هو المهم. لقد عبر هنري كيسنجر بأسلوبه الخاص في حل مشكلة الشرق الأوسط عن مفهومه للحرب المحدودة بأنها: عمل سياسي شامل يلجمـا إلى القوة المسلحة في مرحلة من مراحله لتحقيق هدف معين لا يستدعي بالضرورة كسر إرادة الخصم أو فرض مشيئة المنتصر عليه كاملة. وعلى هدي هذا المفهوم فالعدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ كانت انتصاراً

باهرأً وربما كاملاً لمصر، هذا إذا ما نظرنا إليه من زاوية تحقيق الأغراض. أما إذا كانت نظرتنا ضيقة محدودة ينحصرها العمق ومحصورة في نطاق المعارك الميدانية، فربما اهتز عندها هذا المفهوم. ودليل التقييم الذي لا يخطئ في هذا المجال هو التوجه مباشرة إلى الأغراض المحققة. لقد خرجت مصر بعد انتهاء مشكلة السويس بنتائج جمة هي :

— السيطرة على القناة.

— السيطرة على سيناء وحماية مضائق تيران من السيطرة الخارجية وعلى الأخص الإسرائيلية منها.

— تحقيق مركز دولي فاعل ودور عربي قيادي عزيز، تحكمت آثاره لسنوات عديدة بمسار نشاط دول عدم الانحياز، وبصناعة تاريخ الشرق الأوسط من الوحدة بين مصر وسوريا إلى حرب اليمن، إلى أحداث ١٩٥٨ في لبنان، إلى الانفصال السوري، إلى حروب المنطقة بين إسرائيل والعرب التي لا تزال ذيولها وتفاعلاتها تعصف في مصير الشرق الأوسط.

أما إسرائيل فقد عجزت عن تحقيق ما تتبعه، فلم تتمكن من إسقاط نظام جمال عبد الناصر ولا تمكنت من احتلال الأرض والسيطرة على الممرات المائية. دخلت الحرب ضد عدو عادي تتقدّم عليه عسكرياً، وتتقدمه بأشواط في مجال الخضور الدولي، وخرجت أمام عدو فاز بمعانٍ الحرب وتنامت قيمة حضوره الدولي وفاعليته العربية والإقليمية، وتعاظمت إرادة الصراع عنده، فكانت العنصر الفعال والعامل المحرك لإذكاء روح الصراع في أمته.

أما بريطانيا فقد خرجت من الحرب خاسرة قناة السويس لتنكمش وتنظم في إطار الصدف الثاني من دول العالم، بينما اضطررت فرنسا على يد منقذها ديغول إلى الدفع غالياً ثمناً للمحافظة على مركز مرموق باضطرارها لتطوير سلاحها النووي الرادع المستقل الأمر الذي غذى التناقض بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية وأدى أخيراً إلى تنحي ديغول عن سدة الحكم. وأما روسيا فقد كانت الرابح الأكبر ودخلت المنطقة بزخم وأخذت تتحكم بسياسة سوق الشرق الأوسط بنسبة تفوق كثيراً تقدّماتها هذه السوق. وأما رئيس أركان الولايات المتحدة الأمريكية الجنرال ماكسويل تايلور فقد أعلن بأن مشكلة السويس كانت الدافع لولادة استراتيجية الردع المتدرج والرد المرن. هذا فضلاً عن مراجعة الدول العظمى لحساباتها ومفاهيمها السياسية وإعادة النظر باستراتيجياتها، لتبعد من جديد الأحلاف العسكرية والأسواق الاقتصادية لدرجة سمحت لمحمد حسين هيكل القول بأن مشكلة السويس هي آخر المواجهات العسكرية في عصر العمالة.

● أركان المناورة في المحيط الخارجي. (المناورة الخارجية) تهدف المناورة في النطاق الخارجي إلى تأليب الرأي العام العالمي لنصرة القضية وعزل الخصم، وهي ترتكز على

الإعلام الذكي والدعاية المدرسة وتناغمصالح وغزل المقايسات. وصراع المناورات الخارجية يؤدي إلى فرز القوى الدولية إلى منحازة ومحايدة. إن المناورة الناجحة هي التي تكسب أكبر عدد من الدول المنحازة إلى جانبها وتمنع العدو من اكتساب المناصرين لمناورته. وأضعف الأيمان هو التحييد، أي تعطيل الطاقات الدولية. هذا وقد يتدرج الانحياز في حدته من الدعم الإعلامي إلى المساعدات الاقتصادية والمالية أو التسهيلات في المواصلات حتى الأحلاف العسكرية والانجراف في تيار الحرب، كتضامن بعض الدول العربية في مواجهة إسرائيل، أو أحلاف الحرين العالميين الأولى والثانية، مع الاستدراك بأن مجال هاتين الحرين كان الأستراتيجية المباشرة وليس الأستراتيجية غير المباشرة موضوع معالجتنا الآن.

أما أركان المناورة الخارجية فهي :

الطرح الدولي. وهو اختيار الخط السياسي الملائم المقبول، والمبني على وضوح المهد والذى يكسب أفضل عطف دولي وشعبي وإنساني، ويركز على المبادئ والأعراف العقلانية والحضارية الأخلاقية، ويستلهم المواقف من أفكار الدفاع عن القضايا العادلة ومبادئ حقوق الإنسان، وهيبة المؤسسات الدولية، مع التركيز على المنطق والواقعية وعدم المغالاة أو التصلب، ومراعاة الاتجاهات النفسية بحيث تأتي المواقف وكأنها رد اضطراري على تعتن الخصم غير المنطقي وغير المقبول أخلاقياً وإنسانياً وحضارياً...، إلخ. هذا فضلاً عن التركيز على إشراك مصالح أكبر قدر من الدول الأخرى في دوامة الصراع وتوظيفها بشكل إيجابي يخدم الغرض المستهدف.

التحكم والقيادة. وهذا يتم بالسيطرة على المناورة والضبط والربط فيها، وقيادتها بأسلوب ذكي من متطور سريع يلبي المستجدات ويتكيف مع الإمكانيات والطاقات والاتجاهات الضغط العالمي وزخمها، كما يتدرج في توسيع دائرة الأحلاف وتحييد الأخصام بالضرب على أوتار المصالح، وخلق التناقضات بين الخصم وبقية الدول والشعوب.

استثمار الصيغ الدولية. وهو طريقة استكمال شبكة المواصلات الدولية القائمة والجاهزة، إذا جاز التشبيه بأسلوب عالي الكفاءة يستغل الأعراف القائمة والمنهجيات المستقرة في القانون الدولي، والأطر التنظيمية المتوفرة من منظمات إقليمية كجامعة الدول العربية أو المجلس الأوروبي، أو الأحلاف العسكرية المنتشرة حول العالم، أو المعاهدات الثنائية المكفولة من أطراف أخرى أو غير مكفولة، فضلاً عن منظمة الأمم المتحدة، وذلك تفادياً لهدر الطاقات والوقوع في ورطة استنباط صيغ تعامل جديدة غير مجربة أو مضمونة النتائج، يصعب تحريرها عبر التناقض العالمي، وقد لا يستسيغها المجتمع الدولي أو تركن بحدوها وفاعليتها الشعوب.

● المناورة في النطاق الداخلي. (المناورة الداخلية) وهي التي تعني بالتعامل المباشر بين الخصمين، أي علاقة الصراع الصدامية على الساحة المحلية. لهذه المناورة عناصر وأركان وأساليب ومناهج متشعبة ومتشاربة إذا حَسُن التعامل معها حَسِنَ النتائج، وإن ساء التعامل ساءت تلك النتائج.

عناصر المناورة الداخلية. تتألف عجينة المناورة الداخلية أولاً من الطاقة المادية التي تؤثر في ميزان القوى، وقوامها العديد والعتاد والتدريب. وهي تدخل المعركة بصورة قدرة قتالية ذات شدة وزخم واستمرارية ذات حدود معينة. وثانياً من القوى المعنوية التي تتعاضد مع القوى المادية لتعمل على تحقيق الهدف في ظل هوامش وضوابط الزمان والمكان والظروف الدولية. ومن الطبيعي أن العمل في ظل محدودية الإمكانيات المادية يجب ارتفاعاً وتعاظماً في الطاقات المعنوية للتعويض عن هذا النقص. كما أن أهمية عامل الزمان تتนาม في مناخ الخطوط الحمر والضوابط. فظروف ضيق الهوامش، وقيام السدود الرادعة في العصر الحاضر لا تسمح باستعمال جميع الطاقات المادية، بل تفرض أسلوباً انتقائياً حذراً في استخدام الوسائل محفوفاً بالعراقبيل والموانع. إن أفضل مثل على ذلك هو طرائق تسليح وتصرفات القوات الدولية أو الإقليمية المختلفة التعقيد في القيام بأدوارها في كوريا وسيناء والجلolan وقبرص ولبنان.

أركان المناورة الداخلية. كما للمناورة الخارجية أركان كذلك للمناورة الداخلية، وهي تتطلب عنابة فائقة وتحيطاً دقيقاً في مواجهتها لتأي النتائج على قدر الأهداف. أما أركان المناورة الداخلية فهي :

— وضوح الهدف وواقعية. وهو انتهاج خط سياسي واقعي بعيد عن التهور، واضح المعالم يحدد أبعاد الهدف النهائي والأهداف المرحلية القابلة للتحقيق مع احترام الإمكانيات والظروف وقابلية التكيف.

— العمل النفسي. وهو شُقٌّ هام من المناورة الداخلية يرتكز على الإعلام والتوجيه. ولا يخفى ما لتطور وسائل الإعلام اليوم من أهمية في تكوين التفاعلات وغسل الأدمغة وتحريك العواطف والجماهير. فالدعائية في هذا العصر عنصر هام في الاقتصاد والتجارة والثقافة وتوجيه الرأي العام بالخبر المدروس. وقد قيل عن الخبر الموجه الهدف والناتج بأنه مزيج ، فيه شيء من الواقعية وشيء من الأماني الخيالية الحالة وشيء من الإثارة العاطفية وشيء من المبالغة وشيء من الألوهية. إن العمل النفسي في مجال المناورة الداخلية يجب أن يوجه إلى فئتين: لشعب العدو نفسه وللجماهير الوطنية.

إن ضرب العدو من الداخل يأتي بالتوجه إلى الشعب المعاديإعلامياً وذلك بأسلوب

دعائي ذكي يلعب على أوتار عاطفة الشعب مستغلًا تطلعاته وأمانيه القومية وقناعاته التراثية التراكمية، من دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية وأخلاقية وحضارية، وذلك لخلق التناقض بينه وبين حكومته التي تقود العداء، وتنمية هذا التناقض مع ترغيبه بالسلام العادل الدائم، وتزيين الاقتراحات التي نقدمها تغطية لأهدافنا بحيث يعتبرها الترياق أو الحل المقبول ارتكازاً على مبدأ تحديد الخسائر، إذا ما قورنت بضخامة التضحيات التي تطلبها منه حكومته لتحقيق مشاريعها وأهدافها. هذا يقتضي أن يتضمن الطرح دائمًا حلولاً ماكرة متقلبة متفلة ومرنة، تصلح للاستثمار في ضرب العدو من الداخل ولا تقطع عليه طريق الآمال السرابية الزائفة.

بعد الضرب للعدو تأتي عملية الاستئناس الذاتي، وهي إجراء نفسي موجه إلى الجماهير الوطنية لرص الصفو والطاقات وراء الحكم في خدمة أهداف الصراع، ومتى تتحقق اللحمة الوطنية بين القوى المسلحة والشعب لخلق الجبهة الداخلية الصلبة والعنيفة في تحمل نتائج الصراع، وفي مواجهة ضغوط العدو النفسية وتفشيل دعايته السامة وإعلامه المغرض، وخلق المناخ النفسي قادر على تحمل النكسات والتضحيات، والصبر على المكاره.

هذا من جهة ومن جهة أخرى يجب التركيز على استئناس القيم التراثية والأخلاقية والضرب على أوتار العواطف بمجيد البطولات التاريخية والتضاحية، والتركيز على إثارة القناعات الأخلاقية كالنخوة والمرءة والحفظ على الحق والكرامة والكبراء والاستعلاء، وما إلى ذلك من طاقات معنوية كامنة في حنايا النفس، فضلاً عن تزيين الأهداف بشكل يجعل التضاحية حيالها سهلة، إذا ما قيست بمقاييس الربح والخسارة. يضاف إلى ذلك تغذية الآمال بصورة دائمة لإبعاد شبح اليأس القاتل.

**أساليب المناورة الداخلية.** للمناورة الداخلية ثلاثة أساليب ممكنة هي: أسلوب المراحلية وأسلوب الإعياء وأسلوب المركب.

— المراحلية. وهي تعني تحقيق الأهداف على مراحل أو وثبات إذا جاز التعبير، معتمدة القضم والهضم ومتكللة على عامل الزمن والظروف لتمرير الحلول المحدودة، ولاحتواء مضاعفاتها، بخلق أمور واقعة متتالية لا تصل تفاعلاتها إلى حدود الانفجار الكامل الذي يقود إلى عدم السيطرة على خيوط لعبة الحرب المرتبطة حكماً باللعبة الدولية.

لقد أطلق الجنرال بوفر على هذا الأسلوب من العمل إسم مناورة الخرشوفة لأنه يرمز بذلك إلى طريقة أكل الخرشوفة (الأرضي شوكبي) ورقة بعد ورقة. وهو تشبيه ناجح يغطي معظم خصائص المناورة من اختيار هدف بسيط محدود أولاً، ثم أكله قبل المباشرة بالتعامل مع هدف آخر شبيه به إلى احتمال التوقف عن الأكل أو الشبع في أية لحظة.

هذا وحريّ بنا في الشرق العربي أن نهتم كثيراً بهذا النوع من المناورات ونستوعب مضامينه وأبعاده لأنه أسلوب إسرائيلي في التعامل معنا، وقد نجح أكثر من مرة منذ عام ١٩٤٨ حتى يومنا هذا. قبل العرب واليهود بالهدنة عام ١٩٤٨ فكان مرد قبول العرب إلى قصر نظرهم وعدم إدراكهم أبعاد الواقع في الشرك، وغرورهم المستند إلى عامل الكم العربي وجهلهم لدى السرعة التي يمكن فيها قلب موازين القوى لصالح النوعية على الكمّية، سبيلاً في جو العطف الدولي على إسرائيل من المعسكرين الشرقي والغربي في أن واحد، فضلاً عن نشاط مناورة إسرائيل في المحيط الخارجي (الدولي).

وما تمت الدول العربية في غرورها الصلف بعد اتفاقات رودس، فلم تتمكن من استيعاب دروس الهزيمة بسرعة، وتجاوزت الأمور الواقع المادي بعوائق عاطفية رافضة مشروع التقسيم الذي قبلت به إسرائيل رغم أنه يضرب طموحاتها، قبلته ليقينها أن العرب لن يقبلوا به فربحت بذلك إلى حد ما الرأي العالمي مسجلة نقطتين ضد الفريق العربي : نقطة انتصار في مجال المناورة الداخلية ونقطة انتصار أخرى في مجال المناورة في المحيط الخارجي. والأمر الذي زاد هول المأساة هو تقاعس الحكماء العرب عن الدعم الجدي لقرارهم الرافض فاكتفوا بسلاح الموقف ضمانة، ولم يطوروا ذلك السلاح ليتحول إلى قوة مادية جدية فاعلة تخدم هذا الموقف الذي بقي ضعيفاً ينقصه التنظير بقدر ما ينقصه التطبيق الجدي. أما إسرائيل فقبلت بالتقسيم ظاهراً وعملت فعلاً على تطوير قدراتها تمهيداً للتوسيع. هنا تظهر سخرية التناقضات، فالذى قبل بسلام الأمم المتحدة، أخذ يبني بجدية للحرب والذي رفض سلامها سلك الطريق المعاكس.

وجاءت حرب ٥ حزيران عام ١٩٦٧ ليحصد كل فريق غلة ما زرع في الحقولين الداخلي والدولي. وبعد أن كنا ننادي بتحرير كامل تراب فلسطين أخذنا ننسى فلسطين ١٩٤٨، وتوجهت الأنظار إلى تحرير الأراضي المحتلة، ومفهومها الضمني يعني الأراضي التي احتلت في حرب ١٩٦٧.

وجاءت حرب رمضان ١٩٧٣، ورغم اختلاف الصيغ وجري الحرب وتحقيق النجاحات العربية المحدودة سقط العرب في فخ حرب التحرير بدل حرب التسوية أو التحرير، وجاءت اتفاقات كامب دايفد لتزيد من بلية تشرذم العرب لأنهم فقدوا سلاح الوحدة المبنية على الكم البشري والنوع والكم الاقتصادي هذا السلاح المميز والأمضى في صراعهم مع عدوهم. أما إسرائيل فقد حققت نجاحاتها المراحلية مستخدمة الظروف المواتية بمناورات خارجية بارعة تعتمد على فكرة الدفاع المشروع والهجوم الوقائي الاستباقي أو إجهاز المخططات، ومستندة في كل مرة إلى إشراك دولة كبرى معها في رغبة الهجوم كما حصل أثناء

حملة السويس عام ١٩٥٦ عندما قامت فرنسا وإنكلترا وإسرائيل بالعدوان الثلاثي المشهور. هذا فضلاً عن الإعداد الدقيق والتحضير الدؤوب لتأيي الضربة عنيفة مفاجئة تتحقق الأمر الواقع المنشود في فترة زمنية قصيرة تسقى عجلة ردة الفعل والتحرك الدولي. لقد وقعت إسرائيل في الفخ أخيراً عندما تخلى عن المراحلية في الحرب اللبنانية، أرادت أن تتحقق كل شيء دفعه واحدة، ولكن المقاومة اللبنانية أجهضت لها منجزاتها وأجبرتها على التراجع في ظل المناخ الدولي الذي لم تأبه له إسرائيل كثيراً هذه المرة.

إن مناورات المراحلية يجب أن تأتي مدروسة غير مرتجلة، تحترم الإمكانيات والظروف، وتنطلق من تخطيط دقيق على صورة إغارة كبيرة يلفها العنف والдинاميكية لتحقيق في وقت قصير أمراً واقعاً محدوداً في ظاهره ليأتي مقبولاً أو جائزاً في الرأي العام العالمي، على أن تتبعه مفاوضات تهدف إلى تبريد ثائرة هذا الرأي العام، وتشديد القبضة على المكاسب أو على أجزاء منها، أو فتح مجال الأخذ والرد بشأنها، والتمهيد لإرساء قاعدة انطلاق لعملية مستقبلية مكتومة شرط أن تظهر بأنها العمل الأخير أو الداعي الذي فرضته الظروف القاهرة ليأتي تقبل الرأي العام الدولي لها ناجحاً وسهلاً.

— الإعياء. مناوراة الإعياء هي مناوراة النفس الطويل وسبيل الضعفاء إلى تحقيق أهدافهم حيال الأقوياء. وهي كعض الأصابع يقع الرهان فيها على من يصبر على آلامه أكثر ليجبر خصميه على الجهر بالآلامه أولاً. أثبتت هذه المناورة بأنها أسلوب العصر الأكثر نجاحاً في مواجهة الأقوياء وإجبارهم على القبول بشروط قاسية فيها كسب للضعف وتحقيق لتطلعاته ورغباته دون الوصول إلى حائط المواجهة العالمي الشامل. وهي تلعب على التحولات الفكرية والعاطفية لدى الخصوم، ولكن في اتجاهين متعاكسين، فهي تثبط همة القوي وتدفعه للعمل على التخلص من ورطة الحرب بأي ثمن، بينما تشحد همة الضعف وتؤجج سعير قواه المعنوية وترسخ تصميمه لمتابعة مطالبه.

إن الأمثلة على هذا النوع من المناورة لا تزال طرية حية في الأذهان لم يغمرها النسيان، فبالأمس كانت قضية الهند الصينية وقضية التحرير الجزائرية، وفي الأمس الأقرب، كانت قضية فيتنام وقضية تحرير قبرص ثم جاءت قضية إيران. واليوم أمامنا عدة قضايا هامة منها حركة تحرير فلسطين والصراع في أفغانستان وصدامات نيكاراغوا، هذا فضلاً عن حركات التحرر المختلفة والمنسية أحياناً كاللومو وحركة تحرير أريتريا وثورة ظفار...، إلخ.

إن اللجوء للإعياء يستلزم بالضرورة قيادة مناورة خارجية بارعة تركز على استعماله. الرأي العام العالمي والتأثير الجدي على أفكار الخصم وإرادته ومعنياته مع التركيز على الاستنهاض المعنوي الذاتي. وكلما قلت الإمكانيات المادية وجب تعويضها بتحقيق التفوق

المعني والتميز الفني المنضبط في الأداء العسكري.

هذا وقد يكون للتفوق البشري أهمية في مناورة الإعياء، حينما يكون التفوق العددي كبيراً جداً، كما كانت الحال عند ما وتسى توونغ في الصين الشعبية، وكما هي الحال بين العرب وإسرائيل. من هنا تظهر أهمية قول ياسر عرفات بأن شلالات الدم هي التي تحمي المقاومة الفلسطينية، لأن اختيار المقاومة الفلسطينية للإنسان كهدف مباشر في المواجهة مع إسرائيل هو الاختيار الأسلم كما أن تقديم الدم كدرع واقية للثورة أسلوب سليم أيضاً، خاصة إذا كانت الدرع درعاً عربية شاملة، وليس درعاً فلسطينية محصورة، لأن الفارق الكمي بين الشعبين الإسرائيلي والعربي يعمل لصالح هذه المقوله ويبقى اختيار الأسلوب الملائم لتوظيفه. إن لمناورة الإعياء مقومات ذاتية يجب الارتكاز عليها لتأيي العملية ناجحة وهذه المركبات هي الإيمان والأمل والصبر.

إن الإعيان بهدف واضح المعالم يشكل دفعاً للتحرك، وهو فائق الأهمية لدى الضعف بالمقارنة معه عند خصميه القوي. إن الإيمان هو الذي يولد القناعة الراسخة والإرادة الصلبة وبدونه لا تتجدد الرغبة في المواجهة والاستمرار. إن الإيمان هو قناعة بأحقية القضية وعدالتها ووجوب نجاحها وهذا هو مفتاح كل نجاح لأنه يشكل الحافز والدافع للنضال.

والأمل هو القبس الذي يبشر بتحقيق المهد، لأنه يرفع الهمة ويشدد العزمية ويعزّي النشاط. إن من فقد الأمل وقع في اليأس القاتل وانتهى وجود الدافع أو الحافز المحرض عنده، فتكلّ عندها إرادته وتنهي عزيمته، وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل.

أما الصبر فهو الأنثفية الثالثة في مقومات المناورة الذاتية وعليه يرتكز الحمل الأكبر في تحقيق التحولات الفكرية والسياسية لدى العدو، بالإضافة إلى خلق المناخات الدولية الملائمة بفضل عامل الزمن. بيد أنه لا يمكن الركون إلى عامل الزمن الحر غير المضبوط ركوناً تماماً وتسليميه زمام الأمور باتكال من سلم نفسه لقدرته بنوع من الإيمان الإلهي أو الإيمان الأيديولوجي بحتمية تاريخية، بل يجب استثمار هذا العامل بأسلوب علمي مدروس لتفادي العثرات والانفلات. لقد كان إيمان العرب التام بأن الزمن يعمل لصالحهم إيماناً خادعاً، وتأكد أن نظرة إسرائيل لعامل الزمن كانت أسلام، إذ اعتبرته عاملًا محايداً إلى حد بعيد يمكن توظيفه في أي اتجاه شرط العمل بخطة مدروسة ومنظمة. وفي اعتقادي أن عوامل الزمن والمساحة والعديد هي عوامل ذات مفاعيل كامنة، فإذا توفرت لأحد المتصارعين وأحسن إدارتها وتوجيهها أعطت ثمارها، وإنما كانت أشبه شيء بالقدرة في المجال الفلسفى، فوجودها يتسم بوجهين هما القدرة بالقوة والقدرة بالفعل. لهذا فالصبر المنظم المدروس الذي تعززه الخطة هو الصبر المقصود والمطلوب.

— الأسلوب المركب. وهو خليط بين المراحلية والإعفاء ينفذ حسب الظروف وتدخل فيه جميع أساليب المناورة الداخلية والخارجية والمواجهات المباشرة المحدودة. إنه الأسلوب العملي للمناورة حيث يأتي فيه التصرف ملائماً للموقف و تستغل فيه جميع الفرص لتحقيق الهدف المنشود. إن الأسلوب المركب هو النهج الواقعي للعمل يلبس لكل حالة لبوسها ويعطي لكل ظرف مقتضياته.

## الأعياء حرب الضعفاء

إن المقصود بحرب الضعفاء هو مواجهة الضعيف للقوى في أعمال عسكرية تفتقر إلى التناوب في ميزان القوى والوسائل. إن هذا النوع من الحرب قد يبدو عقلاً من الناحية النظرية، ولكن الممارسة العملية أثبتت جواز حصوله ونجاحه في أماكن مختلفة من العالم. في حروب الضعفاء تختلف أساليب خوض الصراع عن الحروب التقليدية وتأخذ طابع الإرهاب وحرب العصابات وعمليات الأنصار وحرب الغوار والتحركات الشعبية وحرب التحرير.

إن الإرهاب هو المدخل الأول إلى حرم حرب الضعفاء، وهو تعبير خفي عن رفض هيمنة القوى بأسلوب عنيف خاطف يعتمد التفجير والاغتيال والقلق وسيلة للتنفيذ. إن التطور الكبير للمتفجرات ووسائل التفجير والأسلحة النارية الكاتمة للصوت جعلت من الإرهاب أداة خطيرة في يد متبوعه ووسيلة تعبئة للرأي العام وألة تأثير على معنويات الخصم وإرادته. إن الممارسة العملية للإرهاب أثبتت أنه قادر على إيقاع الخسائر المادية والبشرية الفادحة وعلى الترويع وخلق القلق والتوتر العام، لأن المنفذ مكتوم غير منظور لا يمكن تحديده بسهولة، فهو كالماء أو الزئبق يصعب ضبطه باليد.

والإرهاب ليس فقط مدخلاً لحرب الضعفاء بل هو وسيلة أداء في مختلف مراحل تلك الحرب يحضر الأجواء ويتحقق الأهداف المحددة. إن الإرهاب مختلف وجوه الأعمال العسكرية في حرب الضعفاء من كمائن وإغارات تدميرية تقع كلها في نطاق مناورة الإعياء التي تحكمها الاستراتيجية غير المباشرة. لهذا السبب فضلت بحث موضوع حرب الضعفاء في إطاره الإعيائي والتركيز على الصفة غير المباشرة فيه، لأن الكثيرين قد تناولوا الموضوع وبحثوه من زوايا عدة ولا حاجة لإعادة بحثه بالطرق نفسها.

لقد جاءت ترجمة مناورة الإعياء في مضمون حرب الضعفاء على الصعيد العملي وبعد معالجتها من قبل منظرين مختلفين من عدة زوايا واتجاهات وفي عدة أطروحات ومفاهيم، جاءت لتنتظم عملياً وفي وجه العموم في ثلاثة مستويات من حيث تطورها الزمني وشدة تأثيرها. فالمستوى الأول هو التفاعل. الكامن الذي يسميه الأميركيون (تحت الأرض) وهو يعتمد على التحضير النفسي والعقائدي وإبراز معالم الهدف أو القضية أو حتى تكوينها وخلقها أحياناً، بأعمال

دعائية وإعلامية وتحريضية. يرافق هذا الطور بعض الأعمال العنيفة والضربات الإرهابية المدروسة الهدافـة إلى تصليـب المواقـف وتركيـز القناعـات وحـسم التـردد من جـراء الخـضـات الـتي يـسبـبـها الفـعل وردـات الفـعل عـادة. وتـكـبرـ القـضـيـة كـثـرةـ الثـلـج لـتـنـتـقـلـ إـلـىـ الطـورـ الثـانـيـ،ـ والـخـرـوجـ مـنـ السـكـونـ الإـلـاعـامـيـ إـلـىـ نـطـاقـ الفـعلـ بـتـكـيـفـ الأـعـمـالـ الإـرـهـابـيـةـ وـخـلـقـ الـأـضـطـرـابـاتـ وـتـسـمـيمـ الـأـجـوـاءـ وـزـرـعـ الـفـزـعـ فـيـ النـفـوسـ،ـ وـضـربـ الـأـمـنـ وـالـأـمـانـ ثـمـ التـحرـكـ بـحـربـ عـصـابـاتـ مـنـظـمةـ تـضـربـ الـمـصالـحـ وـالـأـهـدـافـ الـاسـتـراتـيـجـيـةـ وـتـتـوـجـهـ إـلـىـ الـإـنـسـانـ أـكـانـ مـنـ الـشـعـبـ الـعـادـيـ أـوـ الـجـيـشـ لـتـقـضـ عـلـيـهـ مـضـجـعـهـ وـتـبـقـيـهـ فـيـ دـوـامـةـ مـنـ الـقـلـقـ وـالـخـوفـ.ـ يـواـكـبـ تـصـاعـدـ الـعـمـلـ الدـاخـلـيـ تـصـاعـدـ فـيـ الـمـناـورـةـ الـخـارـجـيـةـ بـالـتـوـجـهـ إـلـىـ الـمـنـابـرـ وـالـمـؤـسـسـاتـ الـدـولـيـةـ خـلـقـ الـأـنـطـبـاعـاتـ الـمـلـائـمـةـ وـالـمـنـاخـ الـمـوـاـقـيـ.ـ وـتـكـبـرـ كـرـةـ الثـلـجـ مـعـتـمـدـةـ عـلـىـ الـإـيمـانـ وـالـأـمـلـ وـالـصـبـرـ لـتـنـتـقـلـ حـربـ الـعـصـابـاتـ الـتـيـ بـدـأـتـ بـالـكـرـ وـالـفـرـ إـلـىـ نـوـعـ مـنـ الـمـواـجـهـةـ الـثـابـتـةـ نـسـبـيـاـ،ـ بـحـيثـ تـصـبـحـ حـربـ حـربـ تـحـركـ تـشـرـكـ فـيـهـ الـفـصـائـلـ وـالـسـرـايـاـ وـالـكـتـائـبـ بـشـكـلـ يـقـرـبـ شـيـئـاـ فـشـيـئـاـ مـنـ الـحـربـ الـكـلاـسيـكـيـةـ الـنـظـامـيـةـ فـيـ الـطـرـيقـ لـتـحـقـيقـ الـحـسـمـ.

إنـ هـذـاـ مـسـارـ لـلـحـربـ هـوـ مـسـارـ نـظـريـ مـنـهـجـيـ مـنـ حـيـثـ تـرـكـيـزـهـ عـلـىـ تـطـورـ الـقـدـراتـ،ـ وـالـانتـقـالـ مـنـ حـالـةـ تـفـادـيـ الـمـواـجـهـةـ إـلـىـ حـالـةـ طـلـبـهـاـ تـبـعـاـ لـتـطـورـ الـإـمـكـانـاتـ وـلـجـوـ الـمـنـاخـ الـدـولـيـ وـالـوـضـعـ الـنـفـسـيـ الـدـاخـلـيـ.ـ غـيرـ أـنـهـ لـيـسـ مـنـ الـحـتـمـ أـنـ تـأـخـذـ الـعـمـلـيـاتـ كـامـلـ هـذـاـ النـمـطـ أـوـ الـمـسـارـ،ـ فـرـجـاـ تـحـقـقـتـ أـهـدـافـ الـحـربـ قـبـلـ الـوـصـولـ إـلـىـ حلـ كـلـاـوـزـقـيـتـزـيـ،ـ وـذـلـكـ عـنـ طـرـيقـ الـمـفاـوضـاتـ الـتـيـ تـعـتـبـرـ تـبـاشـيرـ ثـمـرـاتـ مـناـورـةـ الـإـعـيـاءـ وـأـهـدـافـهـاـ الـمـرـحلـيـةـ.ـ لـقـدـ أـثـبـتـ الـتـجـارـبـ أـنـ أـفـضـلـ جـوـ لـلـمـفـاـوضـاتـ هـوـ جـوـ التـصـعـيدـ الـعـسـكـريـ،ـ وـضـربـ الـحـدـيدـ الـحـامـيـ قـبـلـ أـنـ يـبـرـدـ.ـ مـارـسـتـ أـمـيرـكـاـ هـذـاـ أـسـلـوبـ فـيـ مـفـاـوضـاتـهـاـ مـعـ فـيـتـنـامـ الشـمـالـيـ بـقـصـفـهـاـ الـإـسـتـراتـيـجـيـ لـلـمـرـافـقـ الـحـيـويـةـ فـيـ الـعـقـمـ الـفـيـتـنـاميـ بـوـاسـطـةـ طـائـرـاتـ الـ(ـBـ(ـ٥ـ٢ـ)ـ)ـ أـكـثـرـ مـنـ مـرـةـ،ـ حـتـىـ أـنـ كـيـسـنـجـرـ اـعـتـبـرـ جـوـ التـصـعـيدـ أـفـضـلـ مـنـاخـ لـلـقـيـامـ بـالـمـفـاـوضـاتـ الـتـيـ تـحـقـقـ الـأـمـالـ.

هـذـاـ فـيـهـاـ يـتـعـلـقـ بـمـسـتـوـيـاتـ شـدـةـ الـتـحـرـكـ الـعـسـكـريـ،ـ أـمـاـ مـنـ نـاحـيـةـ الـمـنهـجـيـةـ الـفـكـرـيـةـ فـيـ التـصـرـفـ،ـ فـالـتـكـيـفـ حـسـبـ الـظـرـوفـ لـاستـمـرـارـ الـبقاءـ وـتـطـوـيرـهـ هـوـ الـمـفـاتـحـ السـحـريـ لـمـناـورـةـ الـإـعـيـاءـ.ـ وـمـاـ مـنـ شـكـ فـيـ أـنـ الـبقاءـ هـوـ عـتـبةـ الـاـنتـصـارـ حـتـىـ لـاـ بـالـغـ وـنـتـبـيـ مـقـوـلـةـ رـيـمـونـ آـرـونـ بـأـنـ الـبقاءـ هـوـ الـاـنتـصـارـ عـيـنهـ.ـ إـنـ هـذـهـ الـمـقـوـلـةـ تـبـقـيـ صـادـقـةـ تـامـ.ـ الصـدـقـ فـيـ مـراـحـلـ التـرـاجـعـ وـالـنـكـسـةـ وـفـيـ الـمـراـحـلـ الـأـوـلـىـ لـلـتـحـرـكـ عـنـدـمـاـ تـكـوـنـ الـإـمـكـانـاتـ ضـعـيفـةـ وـالـقـنـاعـاتـ فـيـ طـورـ الـتـكـوـينـ،ـ وـمـنـ ثـمـ تـأـخـذـ شـمـولـيـتـهاـ بـالـتـقـلـصـ مـعـ تـطـورـ الـقـدـراتـ وـالـاقـرـابـ مـنـ حـربـ الـتـحـرـكـ.ـ وـخـيرـ مـثـالـ عـلـىـ ذـلـكـ هـوـ مـوقـفـ الـحـرـكةـ الـوـطـنـيـةـ الـلـبـنـانـيـةـ الـمـرـنـ فـيـ عـامـ ١٩٧٦ـ بـعـدـ دـخـولـ الـقـوـاتـ السـوـرـيـةـ إـلـىـ لـبـانـ وـإـنـشـاءـ قـوـاتـ الرـدـعـ الـعـرـبـيـةـ بـنـاءـ مـؤـمـنـيـ الـرـيـاضـ وـالـقـاهـرـةـ.

لقد فقدت الحركة الوطنية حينها كل شيء تقريباً وأصبح همها الأوحد المحافظة على الوجود. تحطمـت علاقـاتـها مع سـورـيا وـانـقلـبتـ من صـدـاقـةـ وـتـحـالـفـ إـلـىـ عـدـاءـ. كذلك تـزـعـزـعتـ الثـقـةـ بينـهاـ وـبـيـنـ المـقاـوـمـةـ الـفـلـسـطـينـيـةـ لـاـخـتـلـافـ الـمـصالـحـ وـتـضـارـبـهاـ. وـعـتـ الـحـرـكـةـ الـوـطـنـيـةـ وـاقـعـهـاـ جـيدـاـ وـلـمـ تـجـدـ سـبـيـلاـ لـلـتـصـرـفـ إـلـاـ مـرـونـةـ لـتـحـقـيقـ الـبقاءـ، فـتـخـلـتـ عنـ بـرـنـامـجـهاـ الـمـرـحـلـيـ وـقـبـلـتـ بـالـأـمـرـ الـوـاقـعـ وـطـرـحـتـ شـعـارـاـ جـديـداـ ضـمـنـ لهاـ حـمـاـيـتهاـ وـأـمـنـ لهاـ الـاسـتـمـارـيـةـ وـاجـتـياـزـ مـرـحلـةـ الـخـطـرـ. كانـ مـضـمـونـ هـذـاـ الشـعـارـ دـعـمـ الشـرـعـيـةـ لـمـعـ تـقـسـيمـ لـبـنـانـ وـالـمـحـافـظـةـ عـلـىـ وـحدـتـهـ وـعـروـبـتـهـ. وـرـغـمـ بـسـاطـةـ هـذـاـ الشـعـارـ وـبـرـاءـتـهـ الـظـاهـرـيـةـ فـقـدـ أـمـنـ بـذـكـاءـ مـعـ ماـ اـنـبـشـقـ عـنـهـ مـنـ موـاـفـقـ التـقـرـبـ مـنـ الـحـكـمـ وـسـورـياـ وـبـرـدـ التـوـرـ القـائـمـ مـعـهاـ وـجـدـ التـنـاقـضـاتـ مـعـ المـقاـوـمـةـ الـفـلـسـطـينـيـةـ وـحـقـقـ الـهـدـنـةـ الـمـشـوـدـةـ لـالـتـقـاطـ الـأـنـفـاسـ وـالـتـفـتـيـشـ عـنـ مـسـالـكـ وـأـسـالـيـبـ جـديـدةـ لـلـمـنـاـوـرـةـ وـالـعـودـةـ إـلـىـ السـاحـةـ بـقـوـةـ. وـلـعـلـ كـتـابـ الـجـنـرـالـ دـيـغـولـ إـلـىـ الرـئـيـسـ جـمـالـ عـبـدـالـناـصـرـ بـعـدـ حـربـ الـأـيـامـ الـستـةـ بـيـنـ الـعـرـبـ وـإـسـرـائـيلـ عـامـ ١٩٦٧ـ، فـيـهـ الـكـثـيرـ مـنـ الـعـقـمـ وـالـصـدـقـ وـالـوـاقـعـيـةـ الـتـيـ تـرـاعـيـ ظـرـوفـ الـعـصـرـ، وـالـتـيـ تـنـطـبـقـ عـلـىـ مـفـهـومـ الـإـعـيـاءـ، حـيـثـ يـوـحـيـ بـإـيـقـاءـ الـقـضـيـةـ حـيـةـ سـاخـنـةـ وـحـاضـرـةـ بـشـكـلـ دـائـمـ عـلـىـ طـاوـلـاتـ الـمـفـاـوضـاتـ وـالـمـنـاقـشـاتـ الـدـولـيـةـ، وـتـفـادـيـ اـنـزـلـاقـهـاـ إـلـىـ هـافـيـةـ النـسـيـانـ. هـنـاـ تـبـرـزـ أـهـمـيـةـ الصـبـرـ وـالـإـرـادـةـ، فـلـيـسـ الـمـهـمـ فـيـ مـنـاـوـرـةـ الـإـعـيـاءـ كـسـبـ الـأـرـضـ أوـ خـسـارـتـهـ، وـلـكـنـ الـأـهـمـ هوـ مـدىـ ماـ اـحـتـلـ مـاـ اـحـتـلـ مـاـ اـحـتـلـ لـأـنـ الـمـحـورـ الـذـيـ تـدـورـ حـولـهـ الـأـحـدـاثـ، وـجـمـيعـ الـمـنـاـوـرـاتـ تـسـتـهـدـفـ بـالـتـالـيـ الـنـيلـ مـنـهـاـ وـتـرـوـيـضـهـاـ، هـذـاـ لـاـ يـعـنيـ أـنـ اـحـتـلـ الـأـرـضـ لـيـسـ بـذـيـ قـيـمةـ فـالـعـكـسـ هوـ الصـحـيـحـ، لـأـنـ رـقـعـةـ عـمـلـيـاتـ الـحـربـ كـلـمـاـ اـتـسـعـتـ زـادـتـ أـهـمـيـةـ الـحـربـ وـقـيـمةـ تـأـثـيرـهـاـ. إـنـ حـربـ الـضـعـفـاءـ كـوـنـهـاـ حـربـ دـفـاعـيـةـ تـنـمـوـ وـتـتـطـوـرـ كـلـمـاـ اـتـسـعـتـ رـقـعـةـ الـأـرـضـ الـتـيـ تـخـاصـشـ عـلـيـهـاـ، وـبـهـذـاـ يـصـدـقـ قـوـلـ مـصـطـفـىـ كـمـالـ أـتـاتـورـكـ بـأـنـهـ لـيـسـ هـنـاكـ مـاـ يـسـمـىـ خـطـ دـفـاعـ بـلـ مـيـدانـ دـفـاعـ، وـهـذـاـ الـمـيـدانـ يـشـمـلـ الـبـلـادـ بـأـسـرـهـاـ وـلـيـسـ جـزـءـاـ مـعـيـنـاـ مـنـهـاـ.

إنـ هـذـاـ الـوـاقـعـ يـرـفـعـ أـهـمـيـةـ الـعـمـلـ الـنـفـسـيـ إـلـىـ درـجـةـ عـالـيـةـ جـدـاـ لـأـنـ الـشـعـبـ هوـ الـذـيـ يـخـوضـ الـحـربـ بـمـاـ لـدـيـهـ مـنـ قـيـمـ وـتـوجـهـاتـ، وـكـلـمـاـ تـطـابـقـتـ الـأـهـدـافـ وـالـقـيـمـ اـزـدـهـرـتـ الـنـضـالـاتـ وـتـكـاثـرـتـ الـتـضـحـيـاتـ، وـفـيـ ذـلـكـ يـقـولـ كـمـالـ أـتـاتـورـكـ: إـنـ أـيـةـ حـرـكـةـ كـبـرـىـ فـيـ الـتـارـيـخـ يـجـبـ أـنـ تـسـتـمـدـ جـذـورـهـاـ مـنـ أـعـمـاـقـ الـشـعـبـ الـذـيـ هوـ الـمـنـبعـ الرـئـيـسيـ لـكـلـ قـوـةـ وـكـلـ عـظـمـةـ. إـنـ الـاـهـتـمـامـ بـالـعـمـلـ الـنـفـسـيـ وـالـعـودـةـ إـلـىـ الـذـاتـ فـضـلـاـ عـنـ وـجـوـبـهـاـ، لـأـنـ الـشـعـبـ هوـ الـذـيـ يـقـودـ الـحـربـ فـهـيـ وـاجـبـةـ لـأـنـ مـلـجـأـ الـضـعـيفـ هوـ قـنـاعـاتـهـ الـأـيـديـوـلـوـجـيـةـ وـالـعـقـائـدـيـةـ الـتـيـ تـؤـثـرـ عـلـىـ إـرـادـتـهـ تـأـثـيرـاـ مـباـشـرـاـ وـتـعزـزـ فـيـ نـفـسـهـ الـأـمـالـ وـتـذـكـيـ الرـغـبـاتـ وـتـزوـدـهـ بـالـقـوـةـ الـتـيـ يـفـتـقـدـهـاـ وـيـسـعـيـ جـاهـدـاـ مـنـ خـلـالـ اـنـدـفـاعـ شـبـهـ غـرـيـزـيـ لـلـلـوـاـذـ إـلـيـهـاـ. فـالـمـؤـمـنـ يـلـجـأـ إـلـىـ رـبـهـ عـنـدـ

الشدة، والمقتنع بحتميات معينة يدفعه الخطر إلى اللجوء إلى حتمياته أكانت تاريخية جدلية أو اعتقاداً تراثياً مقدساً كالإيمان بالقضاء والقدر والرؤى التنبؤية والإيماءات الدينية، فيختلف ذلك عنده نوعاً من القدر المتفائل الذي ينمّي الإرادة الهادفة ويبثّ دعائمها. وتلعب الأساطير الخيالية دوراً بارزاً في هذا المضمار، سيما إذا وجهت إلى العامة وكانت ذكية تضرب على وتر الإيمان العاطفي، كإشاعة باستدارة تمثال سيدة زحلة مثلاً خلال الأحداث اللبنانية عام ١٩٧٥ لحماية البقاع، أو انقلاب التربة المجاورة لعمل الصابون في سن الفيل إلى بخور بعد جلاء الأغراب وساكني الأكواخ عن ذلك المكان، أو إشاعة ظهور الخضر عليه السلام إبان المعارك على بعض مقاتلي فصائل الصف الإسلامي، كلّ هذا يحرك الإيمان الكامن في اللاوعي لتعزيز القناعة بعدالة القضية وشدّ أزر إرادة المضي في الصراع. هذا ولا يزال للإعتقادات الدينية ومسلماتها دور كبير في كثير من المجتمعات هذا العصر، فإيمان المجتمع اليهودي مثلاً في أرض الميعاد وشعب الله المختار كان أكبر محرض لهرتزل ومن جاء بعده من قادة ومن مؤمنين يهود للعمل على بناء دولة إسرائيل ومن ثم السعي الدائب لتوسيع رقعة الدولة على حساب أراضي الدول العربية وشعوبها، كما أن الإيمان برسالة المسيح هو الذي دفع مبشرى المسيحية الأوائل إلى تحمل المخاطر وشطف العيش في سبيل نشر الدين. أما الإسلام فهو الذي جعل من ابن الصحراء فاتحاً وصانع حضارة يضرب في مشارق الأرض ومغاربها عملاً دون كلل لإعلاء شأن رسالة آمن بها، ولا عجب عندها أن يقول خالد بن الوليد عند تبلغه رسالة عزله عن قيادة الجيوش في الشام وتولية أبي عبيدة عامر بن الجراح مكانه، على أثر موت الخليفة أبي بكر الصديق والمناداة بعمرو بن الخطاب خليفة مكانه، أن يقول: إني لا أحارب من أجل عمر وإنما من أجل ربّ عمر. كذلك لا عجب أيضاً من أن يلعب على هذا الوتر قائد عربي كالفريق سعد الدين الشاذلي عندما يقول في كتابه «حرب أكتوبر ٧٣» «إذ قاتل الجندي المصري كما لم يقاتل من قبل في تاريخه الحديث، قاتل بشجاعة وروح معنوية عالية وأعاد إلى الأذهان قول رسول الله (صلعم)، إذا فتح الله عليكم بمصر فاتخذوا منها جُندًا كثيفاً فإنّ بها خير أجناد الأرض».

إن الأمثل كثيرة في هذا الشأن، ولكنني أرى من المفيد الالتفات لموقف خاص يتعلق بالصراع العربي الإسرائيلي، وهو تصرف مناحيم بيغن رئيس وزراء إسرائيل أثناء توقيع اتفاقية كامب دايفد أمام العالم الذي شاهده على شاشة التلفزيون، من لبوسه للقلنسوة الدينية السوداء إلى صلواته وكل تصرفاته التي تربط لحظة الحاضر بالماضي التراثي السحيق لإسرائيل مستغلًا الفرصة للتاكيد على صحة العقيدة الصهيونية، وبالتالي تصليب الإرادة الإسرائيلية والإرادة اليهودية العالمية، وضرب القناعات الأخرى وعلى الأخص القناعات

العربية ومن ورائها الإرادة العربية.

إن العمل النفسي يسهل في حال وجود قائد تاريخي يوجهه ويدبر نشاطاته لأن البشر بطبيعتهم يبحثون عن القائد ويلتفون حوله. إن وجود الطلائعي المحرّض والقائد العالي الهمة يخدم كثيراً في مجال التوجيه النفسي وفي تعبئة الشعب وإذكاء فناعاته، وأصدق قول على ذلك هو قول الإمام علي كرم الله وجهه «رَبُّ هِمَةٍ أَنْقَذَتْ أُمَّةً». لأنّ الرجل في أمّة قد يحوّلها إلى أمّة في رجل.

هذا وفي إطار العمل النفسي تظهر أهمية الشعارات التي تدغدغ الأحلام والعواطف وتلامس العقائد والقناعات وتلعب على أوتار الأخلاقيات كالكرامة والأنفة وعزّة النفس، وما إلى ذلك من قيم معنوية. إن هذه القيم تمثل رصيداً هائلاً من الإرادة والصمود والعناد إذا حسّنَ أسلوب التوجّه إليها واستثمارها بصورة صحيحة. إن الشعار هو الترجمة البسطة أو المرحلية للأهداف المبتغاة والتي قد تكون غامضة معقدة بأسلوب محبب قريب إلى القلب والنفس يلامس الأماني ويتوّدّ إلى القيم. وإلى عائلة الشعارات يمكن نسب الأناشيد الحماسية والعقائد والمداائح والصيحات، وهي تلعب دورين مهمين: دوراً في رفع مستوى الحماس الذاتي وأخر في تحريض الآخرين وإذكاء حماسهم.

لقد وعى الإنسان أهمية هذا الأمر منذ أقدم العصور، وربما جاء تركيبه الفيسيولوجي والنفسي، لحكمة ربانية، يخدم هذا المنحى. فصرخات الغضب عند الإنسان الأول التي كانت عامل تأهّب وتوّب وسدّ فراغ مادي، تحولت مع الزمن إلى صيحات حرب عند القبائل البدائية، ولا تزال آثارها ماثلة للعيان في أفريقيا وعند الهنود الحمر في القارة الأميركيّة. ونظراً لصدق جدواها في رفع الروح المعنوية ودفع الإنسان إلى نوع من الاستعلاء الممزوج بالنشوة والإقدام على التضحية، نرى الجيوش الحديثة تعتمد الصيحات الحربية، وتدرّب عناصرها على التألف معها، وخاصة في قوى الصاعقة والماواير. كذلك نلاحظ أن اللجوء إلى الأناشيد أثناء التنقلات البعيدة وتمارين السير الشاقة تخفّف كثيراً عن كاهل العسكريين وتسلّيهم وتساعدهم على الصبر ومواجهة العناء من وطأة بطيء مرور الوقت. كذلك لا يخفى عنibal أهمية الموسيقى في الإثارة والحماس، وقد استعملت خلال العصور الماضية وحتى القرون الوسطى كأدّاء تحريض وإلهاب للمشاعر فكانت الطبول والأبواق تلعب الدور الكبير في رفع المعنويات وفي نقل الأوامر وتحقيق الاتصالات التنسيقية داخل كل جيش إلى درجة أن أسماءها تلزّمت إلى حد بعيد مع اسم الحرب وشاعت تعبير: كدقّ طبول الحرب، أو دقّ النفير، للدلالة على خطورة الجو العسكري واتجاهه الصدامي. إن أحدث مثال على استخدام الصيحات الحربية هو اختيار الفريق سعد الدين الشاذلي لصيحة (الله

أكبر) كدافع إيمان وعزيمة للإيذان ببدء عبور قناة السويس، يطلقها المهاجم المؤمن عصر العاشر من رمضان يوم ذكرى بدءه. لقد دوت هذه العبارة على طول القناة تتناغم مع هزيم المدافع، فكان لها أطيب الأثر وأفعله في النفوس لما تمثل من قيم ولما ترمز إليه العبارة من عمق إيمان.

لقد أدرك العرب منذ الجاهلية أهمية الكلمة واللحن في إثارة الهمم فكان لحداثهم وأرجازهم القصيرة العبارية والملائمة لخبيث الخيل كان لها الدور البارز في المعركة، وهنا يحضرني مثال على ذلك يظهر ربط هذه الأرجاز بالقيم ولعبها على وتر الأخلاقيات والاعتداد بالأهل والتشويق. فقد كانت النساء في إحدى المعارك تسير خلف الرجال وتحثهم على القتال بالإنشاد التالي:

نَحْنُ بَنَاتُ طَارِقٍ نَّمْشِي عَلَى النَّمَارِقِ  
مَشِيَ القَطِيِّ الْبَارِقِ وَالْمَسْكُ فِي الْمَفَارِقِ  
أَنْ تُقْدِمُوا نَعَانِقَ أوْ تُذْبِرُوا نَفَارِقَ  
فَرَاقَ غَيْرِ وَامْقَ عَرْسَ الْمَوْلَى طَالِقَ  
وَالْعَارَ مِنْهُ لَاحِقَ

وتطور هذا الأسلوب مع تطور اللغة العربية ومع اللجوء إلى استخدام اللغة الإقليمية المحكية فازدهرت الأرجال الحماسية تواكب الأعمال العسكرية وتحرك العوامل النفسية الشعبية بشكل تلقائي استجابة للكوامن. وإذا التفتنا إلى النضال العربي خلال مسيرته التاريخية للإطلاع على بعض الشواهد يمكننا اختيار ثلاثة نماذج لمجموعات معينة من الشعب لارتباطها المباشر وغير المباشر في تكوين البنية اللبنانية.

أول هذه النماذج زجلية ابن القلاعي الشهيرة التي تعتبر أحد أهم المصادر لدراسة التاريخ الماروني. وبالرغم من عدم دقتها فإنها بتمجيد التراث تعطي الجرعة المعنوية المتواحة، كما أن صياغتها الشعرية تسهل حفظها وروايتها. والنموذج الثاني هو الأشعار التي تدور حول التراث الشيعي في الجنوب اللبناني وكلها تذكر الواقع وتتجدد بطولات القادة كناصيف النصار وحمد البك. أما النموذج الثالث فهو القصائد والأرجال التي تدور حول أفعال الدروز في لبنان وسوريا على لسان كل من شibli الأطرش والشيخ نايف تلحوق وغيرهم من نظموا أشعاراً لا يزال الدروز يرددونها أباً عن جد.

لقد طال بنا الحديث عن الشعارات والموسيقى والأشعار الحماسية في إطار التأثير النفسي، ولكن القناعة بتعاظم أهمية هذا العمل وتأثيره الفاعل في مجرى المعركة خصوصاً في إطار الحرث الشعيبة والعمليات التي يخوضها الضعفاء هو الذي دفعني للإسهاب سيراً وإننا

في الشرق العربي عموماً وفي لبنان خاصة سبقى إلى أمد بعيد وربما إلى الأبد في صفوف الضعفاء.

### أسلوب إدارة مناورة الإعياء:

ننتقل الآن إلى أسلوب إدارة مناورة الإعياء لنركز على المفاصل الهامة ومن ثم نعرض محصلة للاستنتاجات التي توصل إليها بعض من خاض غمار مناورات الإعياء من القادة العالميين.

يكتسي الأسلوب أهمية كبرى. في مناورة الإعياء وعليه يرتكز إلى حد كبير أمر تحقيق حرية العمل والمبادرة، سيما وأن النكسة أو الكبوة التي يتعرض لها الضعف قد تأتي طاغية قاتلة تصعب معالجتها ذيولها. لهذا فأسلوب المناورة يجب أن يتسم بمعروفة الطاقات حق المعرفة، ومن ثم المرونة الفائقة وسرعة التكيف والتنوع والتتجديد الخيريالي الخلاق وبعد عن التحجر وعدم التقيد بالصيغة المسبقة، وذلك لإبقاء تقديرات الخصم في دوامة ضبابية عاجزة عن تقديم التنبؤات الصحيحة والتصور المستقبلي الملائم.

هذا من ناحية الطابع العام، أما من ناحية منهجية العمل فيجب التركيز على أربعة مفاهيم هامة هي تأمين الحماية والأمن أولاً ثم توسيع التهديد ثانياً وتحقيق الاتصال والانفصال الدائمين مع العدو في نفس الوقت ثالثاً، ثم تأمين القاعدة الملجأ رابعاً.

تأمين الحماية والأمن. إن تأمين الحماية والأمن هو مفهوم إنساني طبيعي، تطور مع الزمن وأخذ أشكالاً تقنية وتكافية مختلفة حسب ظروف الصراع وال الحرب تمثل بالتمويل والتخصين وظهور بالدرع والمجنح والتخصينات، كما تطبع بالسرية والتكلتم. ومع بروز تبشير مناورة الإعياء وقبل اكتمال صورها وأبعادها تبلور مفهومان أمنيان على يد الإيرلنديين ثم السوفيات والإسبان والصينيين والفيتناميين، يركزان على سلامة المحيط ويعملان على أمن المقاتل في مجتمعه.

● **المفهوم الأول.** هو الانسجام التلامي بانصهار المقاتل في محیطه، وتوافق أعماله وتصرفاته مع أمان مجتمعه وتطلعاته، ومع منهجية هذا المجتمع الأخلاقية، فيكون كالسمكة التي تسبح في مائها، وموتها محتم بانفصالها عنه. بهذا المفهوم يقول اللواء مصطفى طلاس «بأنه ينبغي أن يكون المغادر ناسكاً»، أي فيه من القدسية والترفع ما يبعد التناقض بينه وبين محیطه. كذلك فالعلاقات المادية مهمة بين المقاتل ومحیطه، فالاغتصاب وأخذ مال الغير والسيطرة بالسلاح والتهديد توسيع الشقة بدل تقريبها رغم حاجة القضية أحياناً لهذا المال. لقد اقترح الجنرال بايو الإسباني حلّاً للاضطرار لاستعمال مال الغير أثناء الثورات يقوم على

الإقرار بالدين مع تأجيل التسديد بما يسمى (بسداد الأمل). كذلك فما وتسى تونغ شد على ضرورة إقامة علاقات طيبة مع الشعب وأوصى بعدم أخذ أموال العمال وال فلاحين ، والتتكلم بأدب والإيفاء بالدين ، وحسن المعاملة ودفع ثمن المشتريات وأجرة الخدمات . أما الجنرال جياب فيقول في هذا الصدد بأنه يجب مراعاة ثلاثة أمور هي : احترام الشعب ، ومساعدة الشعب ، والدفاع عن الشعب .

• المفهوم الثاني . هو الأمن بالإرهاب النهجي المنظم ، وهو يركز على فرض التكتم والسرية بالردع والقمع المنظم ، وقطع السنة الثرثاريين وضرب العمالاء من خلال تحطيط منهجي مدروس يسمح بتحميل المستهدف وزر أعماله وإظهاره عظمه من يدفع ثمن سوء تصرفه وتورطه .

توسيع التهديد . بعد مفهوم الأمن ننتقل إلى توسيع التهديد الماسحي ، كدوائر نقل الحركة والصوت والانتشار بالتسرب كبقعة الزيت التي تتغلغل عبر المسام وذلك لشل العدو وإرباكه . لقد وردت جذور هذه الفكرة فعلاً عند كلاوزفيتز في كلامه عن العصابات وحرب الشعب ، حيث قال بوجوب امتداد مسرح العمليات إلى مساحة واسعة ، وهذا ما أيدته مصطفى كمال أتاتورك في نظرته إلى الدفاع عن الوطن . إن أفضل مثل على ذلك هو تحركات لورانس خلال الحرب العالمية الأولى في الثورة العربية الكبرى ، حيث عملت عناصره ضد القوات التركية على بقعة واسعة في الجزيرة العربية والشام ، تعیث في البلاد تخريباً ، دون أن يتمكن العدو من ضربها .

تحقيق الاتصال والانفصال الدائم مع العدو . وهذا يعني التوفيق بين متناقضين هما الاتصال الدائم بالعدو والابتعاد الدائم عنه في نفس الوقت . هذا ينبع بالفعل عن تزاوج المفهومين الأولين : الأمن الذاتي وتهديد الخصم في آن واحد . يقول الجنرال جياب في الاتصال الدائم « يجب التذكر بأنه لا يوجد هناك خط فاصل بيننا وبين العدو ، إذ حيث يوجد العدو تكون الجبهة ». أما لورانس فيعطي الصورة الصحيحة لمعنى الانفصال ، فهو العمل الرئيسي والتحرك كالأشباح بصورة تربك الخصم وتجبره على نشر أكبر قدر من طاقاته كما تخلق له مشكلة حماية تزداد صعوبتها تدريجياً . والأمر المهم في ذلك هو حسن التملص وعدم تقديم الهدف المناسب ، بحيث تأتي إجراءات العدو العسكرية كضربة السيف في الهواء وكالقابض على الريح . هذا ما ينطبق فعلاً على مفهوم حرب الإنهاك المتحرك الذي طوره الفرنسيون كأسلوب مناورة استراتيجية يمكن تطبيقه على الأرض الألمانية ، في حال وقوع الصدام مع الاتحاد السوفيافي . وبعد أن كان مفهوم القتال التأخيري يعتمد على مقاييسه

الأرض بالوقت، جاء مفهوم قتال الإنهاك المتحرك ليقايض الأرض بالقوى، أي العمل على ضرب قدرات العدو القتالية وإنزال أكبر قدر من الخسائر به مقابل الأرض التي سيربعها. طبعاً إن الأرض الألمانية بالنسبة للفرنسيين يمكن اعتبارها مادة مساومة خلافاً للأرض الفرنسية.

تأمين القاعدة الملجأ. إن وجود القاعدة الملجأ في الواقع أمر ضروري لكل ثائر أو مغاور، فهي تقدم له الملاذ الآمن للراحة، واستعادة النشاط وشحذ الهمة وإذكاء المعنويات ورفع مستوى التدريب، والتصرف بتقنيات العتاد المستجد والسماح بهضم واستيعاب العبر وتخمير الدروس المستقة. كذلك يمكن في حال وجود القاعدة تأمين المناوبة في بقاع العمل بحيث تتوفر للمغاورين الراحة، بينما يبقى العدو واقعاً تحت ضغط نفسي وعسكري مستمرتين، هذا وبالإضافة إلى ذلك فالقاعدة الملاذ تجسد الأمل للمغاور، ذلك الأمل الذي يحتاجه كل من وقع تحت ضغط أoshiّدة، ومن دون هذا الأمل يشلّ اليأس الإنسان ولا فائدة أو هدف لتصرفاته.

في الماضي وفي ظروف الحرب البدائية كانت القواعد الداخلية القرية تفي بالغرض إذا سيطر الضبط والربط والسرية في كتم أمكتتها عن العدو، وفي حال بقيت أحجامها غير كبيرة. أما في الظروف الحاضرة فيجب أن تكون القواعد محمية إن بقوتها الذاتية أو بقوة غيرها وبعيدة عن مدى الأسلحة المنحنية لأن وسائلها كشفها تطورت وأصبح من المتعذر إخفاؤها، كما أن سبل الوصول إليها بسرعة أصبحت متوفرة، وهذا نرى أن ثورة الجزائر لم تصل إلى أهدافها لو لا تأمين القواعد لها على الأرض التونسية، كما أن ثورة فيتنام الجنوبية لم تعط ثمارها لو لا دعم فيتنام الشمالية، وهذا ما أدى إلى إطلاق العبارة المشهورة القائلة (لا بد لكل ثورة من وجود هانوي).

### محصلة الأفكار والقواعد للمفكرين العسكريين:

إذا حاولنا البحث عن الأفكار التي تدور حول حروب التحرير ومناورات الإعياء نجد أنها لم تبلور في مفهومها الكامل إلا في العصر الحديث، حيث تبين أن طابع حرب التحرير تصاعدي متتطور ينطلق من الإمكانيات المادية المحدودة التي تتمحور حول فكرة أو قضية معينة ومن ثم تكبر القضية مع الزمن، وتكبر إمكاناتها، فيتدرج الصراع من الإرهاب السري وحرب العصابات الصغرى إلى حرب العصابات المنظمة والمعلنة عن غاياتها وهويتها التي تكسبها شرعيتها في بعض الأوساط العالمية فضلاً عن مجدها الشعبي الحيوي. وبعد اشتداد ساعد الثورة تنتقل الحرب إلى نوع من حرب التحرك، أو الغارات الكبرى لإجلاء

العدو والسيطرة على الأرض، أي لتحرير الأرض. من هنا اكتسبت الحرب اسمها أي حرب التحرير الشعبية، لأن الشعب هو الذي يخوضها. لكن الشيء المهم والمليغ للنظر هو أن مسيرة الثورة منذ انطلاقتها حتى انتقالها إلى نوع من الحرب النظامية تبقى بحاجة إلى أعمال العصابات وقتل المجموعات الصغيرة من إغارات وكماين وتخريب وعمل خلف خطوط الأعداء وفي عمق أماكنه الآمنة كوسيلة إرباك واستنزاف وتشييط لهم والمعنيات. من هنا نلاحظ أن الأفكار والقواعد المستقة من حروب التحرير تدور في بدايتها حول حرب العصابات ثم تتطور مع الزمن لتتجه إلى المفهوم الحاضر لحروب التحرير.

### أفكار كلاوزفيتز.

يؤمن كلاوزفيتز بالأفكار التالية:

- إن حرب العصابات هي حرب الشعب، فكلما زاد الاحتكاك بالعدو واتسعت رقعته زاد التسلح وتنامت الاستجابة الشعبية للنضال لتعمل كالنار المتدرجة البطيئة التي تتدلى لتتلف قواعد العدو وتقضى مضاجعه. وهذا يجب أن يوضع في الحسبان عند التخطيط لهذا النوع من الحرب العمل على كسب مساندة الشعب.
- يجب اعتماد التكتيك الانتقامي والصاعق في الأعمال العسكرية من إغارات وكماين بالكر والفر وعدم التورط بمقاتلة الأهداف الرئيسية، وتفادي المجاهاط الصامدة، لأنه لا يمكن الاعتماد على معركة واحدة بسبب استحالة الوصول إلى الذروة والجسم العسكري.
- يجب أن تكون البلاد صعبة التضاريس كثيرة الأحاجة، فقيرة المسالك وذلك لشل قدرات العدو ولتعطيل ميزان تفوقه المادي والتقني.
- يجب العمل على توسيع مسرح العمليات إلى أكبر مدى لإجبار العدو على توزيع طاقاته وقواته، وبالتالي إفقاده ميزة الحشد.
- يجب أن تدار العمليات من الداخل لتسهل ضبط الأمور، وللإطلاع المستمر عن كثب على الأوضاع ولتلبية متطلبات المعركة في الوقت المناسب.

لقد أثبتت الأحداث في العصر الحاضر بأن هذا المبدأ فقد الكثير من صفاته المميزة وأصبح من الأفضل في غالب الأحيان إدارة الحرب من الخارج على الصعيد العالمي مع إبقاء القيادات الوسيطة في الداخل وذلك بعد تطور وسائل الاتصال والإعلام والاستعلام والتحديد، كون المسافات لم تعد العقبة الكبادء في طريق إدارة المعركة، كما أن الإدارة من الخارج تؤمن حماية أكبر للقيادة وتتوفر لها سهولة التحرك للقيام بالمناورة الخارجية.

آراء بونتش بروفيتشن عن الثورة الروسية.

● ضرورة وحتمية الصراع الطبقي.

● في ظروف الثورة لا يعرف المرء كل أصدقائه وأعدائه ويجهل نوايا أجهزة السلطة العليا لذلك يصعب وضع خطة محددة للعمليات العسكرية كما يصعب تنفيذها.

● إن الثورة بسبب التقلبات المفاجئة في الحالة المعنوية للجماهير الشعبية وأمزجتها قد أدخلت الكثير من العناصر الجديدة إلى الفن العسكري ، فالتناسب العددي لقوات الجانبيين المتحاربين قد لا يكون العامل المحدد لتفوق هذا الجيش أو ذاك.

● إن ظهور قائد لامع قد يجبر جيشاً بكماله على التقهقر.

● يعتبر العامل السياسي إحدى القوى الرئيسية التي يجب على القيادةأخذها بعين الاعتبار في وقت الحرب.

● يجب التركيز على أهمية الطابع الطبقي للجيوش المتحاربة وعلى أهمية قضايا العمال.

● يجب عدم إعطاء قوانين الحرب الخاصة طابعاً أبداً لا يتغير.

رأي إنجلز في حرب المارxis في المدن.

● إن مؤسسات الدولة التي يحكمها البورجوازيون تعطي الفرصة للعمال لمحاربة المؤسسات نفسها.

● إن الناشر قادر على الدفاع عن متراص فقط ولكن أمله في المدن هو استقطاب الجنود. وأعظم معارك المارxis بطولة انتهت بهزيمة عندما تخلى القادة عن المنح السياسي واتبعوا المنح العسكري فقط.

● التركيز على أهمية التلاحم مع الشعب، فعندما عارض الحرس الشعبي الثوار في باريس أخذت الثورة.

● للمتراص أثره المعنوي والأخلاقي أكثر من أثره المادي.

● لقد مضى عهد قيام قلة من الوعيين بثورة على رأس جاهير غير واعية ، والصعوبة في الثورة تكمن في التمكّن من التفاف طبقات الشعب حول بعضها.

● إن سبب انتصار الثورة الروسية يعود إلى رفض الجنود طاعة الأوامر ولفقد الضباط سلطتهم على اتخاذ القرارات لأن أيديهم كانت مكبّلة.

● إن كل أمة شنت حرب عصابات ضد الغزاة انتصرت.

آراء ماركس وإنجلز في تجربة الألمان عام ١٨٤٨.

● لا تحاول القيام بعصيان مسلح إلا إذا كنت مستعداً تماماً لمواجهة عوائق عملك.

- على التأثر أن يظهر تصميماً عظيماً في ثورته وأن يأخذ طابع الهجوم لأن الدفاع هو موت لكل انتفاضة أو ثورة مسلحة.
  - يجب مفاجأة قوات العدو المبعثرة دائمًا.
  - يجب تحقيق انتصارات يومية منها كانت صغيرة.
  - ضرورة المحافظة على تصاعد المعنويات.
  - وجوب العمل لاستقطاب جميع القوى.
  - يجب محاولة إجبار الخصم على التراجع قبل جمع قواه.
- آراء لينين في الثورة في رسالة إلى اللجنة المركزية للحزب.
- ينبغي للثورة الاعتماد على طبقة طلابية وليس على مؤامرة أو على حزب.
  - ينبغي للانتفاضة أن تعتمد على النهوض الشوري عند الشعب.
  - على الانتفاضة الاعتماد على انعطاف حاسم في تاريخ الثورة الصاعدة حين يبلغ نشاط الصفوف المتقدمة في الشعب ذروته، وحين تبلغ الترددات في صفوف أصدقاء الثورة الضعفاء الحائرین غير المخاطرين أشدّها.
  - من المهم الظهور بـ ظهر الدفاع.
  - يجب التشديد على اللحمة دون الخشية من قلة العدد فالمترددون في صفوف الخصم يخدمون الثورة أكثر من وجودهم في صفوف الثوار.
  - إن الخطر ونيران الحرب الأهلية تصهر الكل في بوتقة واحدة.
  - لم يعد في الإمكان قيام حروب وطنية كون العالم قد قسم بين حفنة من الدول الأمبريالية الكبرى، فكل حرب وإن كانت في البدء وطنية تتحول إلى حرب أمبريالية، لأنها تمس مصالح إحدى الدول الكبرى.
  - إن المبدأ الأساسي في الدياليكتيك الماركسي يتلخص في كون جميع الحدود في الطبيعة وفي المجتمع هي اصطلاحية ومتحركة وأنه لا توجد ظاهرة من الظاهرات إلا ويمكنها إذا توفرت ظروف معينة أن تنقلب إلى ضدتها، فالحرب الوطنية يمكن أن تنقلب إلى أمبريالية والعكس صحيح.
  - إن الحرب شبه حتمية ومنطقية لأنها امتداد للسياسة بوسائل أخرى.
  - هناك تراجعات وقفزات إلى الوراء في المسار التاريخي أحياناً.
  - لا يمكن رفض مبدأ الإرهاب أبداً لأنه شكل من أشكال العمليات الحربية التي يمكن تطبيقها بنجاح.

- إن النزاع الثوري البطيء يساعد على تحقيق التحولات، فحرب التحرير الشعبية هي راقد ثانوي للتحول الطويل الأمد.
  - إن بحث القتال والتحليل خارج قوة التاريخ يؤدي إلى إساءة فهم الموقف المادي الابتدائي، كذلك فالتطور والتعديل أمر حتمي في مجال الصراعات.
  - إن قبول المعركة في وقت لصالح العدو جريمة.
- آراء لينين في اتفاضة موسكو ١٩٠٥ - ١٩٠٦.
- إن الإضراب العام كشكل صراع سائد ومستقل ليس عصرياً. ومن المحتمل أن تقتصر الأمور على إضراب سلمي لأن الإضرابات السياسية غير واقعية ولكن يجب تصعيد الأمور وخوض حرب إبادة دموية.
  - يجب مواجهة التحجر والتحيز والقولبة.
  - يجب تغذية العنف الجماهيري الهدف، والاستفادة من خبرات الماضي التراكمية.
  - يجب أن يكون هناك دور قيادي لفئة معينة.
  - لا بد أن ينتقل الصراع إلى الكفاح المسلح بتوسيع دائرة الانتفاضة والتصعيد.
  - إن نظرية ماركس بأن الثورة تنجح عندما تحدث ثورة مضادة قوية ومتحددة هي صحيحة لأنها توقيظ الأطراف الأخرى الجديدة.
  - إن التطبيق يسير دائماً أمام النظرية.
- إن كسب القوات المسلحة سياسياً وأيديولوجياً أمر واجب ولكن لا بد من الاعتراف بأن تردد الجنود أمر حتمي ولا بد إذاً من قتال حقيقي معهم من أجل استمالة المترددرين وفرط صفوفهم.
  - إن تحبيش الجماهير واستخدامها أمر مهم.
- إن فن تنظيم القوى العسكرية يعتمد على مستوى التقنية العسكرية ومن هنا ولدت فكرة حرب العصابات التي تعد تطويراً لأفكار إنجلز عن المدارس واستخدام الوحدات الصغيرة.
  - إن الماركسي يبني نفسه على أساس الصراع الطبيعي وليس على أساس السلام الاجتماعي.
  - إن حرب العصابات وإرهاب الجماهير يساعد الجماهير على تعلم الأساليب الصحيحة للثورة عن طريق الممارسة والتطبيق.
  - يجب التذكر أن صراعاً كبيراً يقترب وهو متنوع جداً وعليه فشعار الجماهير يجب أن يكون الهجوم وليس الدفاع.

- إن الماركسية لا ترفض أي شكل من أشكال النضال وهي لا تقيد نفسها تحت أية ظروف بأشكال النضال الممكنة والموجودة في اللحظة الحالية مدركة أن الأشكال الجديدة تنبثق حتماً عندما يتغير الوضع الاجتماعي.
- عندما تكون الحركة قد وصلت إلى مرحلة العصيان وعندما تحصل فواصل زمنية كبيرة بين المعارك الكبرى في الحرب الأهلية. فإن حرب العصابات هي شكل حتمي من أشكال الصراع.

آراء تيتو في حرب التحرير اليوغوسلافية.

- إن الإيمان بالقضاء والقدر وعدم المساواة الاجتماعية لم تخلق البطولة اليوغوسلافية بل الإرادة الوعية الاجتماعي العميق والكره للمستعمر والحس التقليدي للحرية والاستقلال وحب الحياة.

● المهم في العمل الثوري هو الطابع التنظيمي والإرشاد الصحيح.

- لا يمكن أن يكون عدم المساواة بين الشعب القوة الدافعة للثورة بل كان أداء استعملها المحتلون لاستبعاد الشعوب اليوغوسلافية.

- إن المهم في العمل الثوري الصبر والقناعة، ثم إن القضية القومية عامل مهم في الثورة.

- كانت الحرب اليوغوسلافية حرب أمة بكمالها وبُني الجيش الشعبي كتيبة كتيبة حيث أبرز النضال هذه الكتائب وضباطها الذين تقدموا من صفوف الشعب واكتسبوا خبراتهم خلال القتال.

● لقد تم خوض الحرب بقيادة مركزية وعمليات موجهة كحرب نظامية.

- إن الدولة الجديدة هي التي حلّت مسألة الوحدة الوطنية بشكل صحيح. فَنَجَّرْهُ الماضي وتنمية النفس بالتغيير وحلول الجديد مكان الماضي الذي لن يعود هي الأشياء التي ساعدت على التجديد وحل المسألة.

- لقد كانت لجان التحرير الشعبية نواة الدولة التي برزت تدريجياً مع الحرب، وقد لاقت صعوبات في إثبات وجودها.

● النجاح في استئثار جميع القوى والطاقات.

- إن إهمال الجانب السياسي يؤدي إلى جعل المقاتلين عسكريين بصورة بحتة، وهذا يمكن أن يؤدي إلى نتائج سلبية في ظروف معينة كالفشل في القتال أو الإرهاق أو النقص في الطعام أو الوقوع في أشراث دعاية مضرة.

أفكار لورانس.

- نشر الفوضى والتخييب على أكبر رقعة ممكنة، وهذا تأكيد لفكرة كلاوزفيتز حول توسيع مسرح العمليات والاحتكاك بال العدو.
- تأمين الانفصال الدائم عن العدو، وهذا يهدف للتملص وعدم توفير أي هدف قابل للضرب، والعمل بأسلوب الشبح الخفي غير المنظور.
- التركيز على ضرب الطاقة المادية للعدو لأن تدمير العتاد أسهل مناً واستعواضه يكلف الكثير من الوقت والمال، كما أن ضربه يصيب الأجهزة بالشلل.  
هذا ويعتبر التركيز على العتاد تدبيراً ناجعاً جداً في حال اللجوء إلى حرب العصابات كرديف للحرب النظامية، كما كانت الحال بالنسبة للثورة العربية الكبرى أثناء الحرب العالمية الأولى، التي لعب فيها لورانس دوراً بارزاً. غير أن هذا الأمر قد يختلف ويأخذ التركيز على الإنسان المكان الأول عند قلة عديد العدو، وهذا ما ينطبق على الوضع القائم بين العرب وإسرائيل، فبينما يفضل العرب ضرب الإنسان الإسرائيلي ولا يخشون الخسائر البشرية كثيراً للفرق الهائل في ميزان العدد بينهما، نلاحظ أن إسرائيل لا تركز على ضرب الإنسان العربي كثيراً، بل تركز على ضرب الطاقات، والتأمين المستمر لفارق النوعي بالوسائل حماية للطاقة البشرية القليلة، وهذا نظراً لسهولة امتلاكها للعتاد المتتطور واستيعابه بالمقارنة مع الدول العربية.
- ضرورة الاستعلام عن جميع تحركات العدو ونواياه ومصادر طاقته. وتزداد سهولة هذا الأمر كلما اتسع نطاق التأييد الشعبي للثورة، وكلما كثر أصدقاؤها. هذا وتوظف المعلومات في خدمة العمل الثوري لانتقاء الأهداف ووضع خطة ضربها من جهة، كما تخدم قيادات الحرب النظامية بتوضيحها صورة الموقف من جهة أخرى.

آراء أنريكو ليستر في حرب العصابات في إسبانيا.

- لا يمكن عزل أعمال الفدائين عن باقي تحركات الشعب الأخرى.
- لا يمكن شن حرب العصابات إلا في ظروف معينة ولأسباب محددة، أما الأساليب فتمليها الظروف الموضوعية.  
● إن حرب العصابات تشنّ ضد جيش احتل جزءاً من الوطن.
- تشن الحرب ضد عدو يشنّ حرباً غير عادلة على جيش وطني تمت هزيمته، حيث تقوم بقايا الجيش المهزوم بالعمل الثوري.
- تشن حرب العصابات لمتابعة كفاح الشعب الذي هزمه رجعيو بلاده.

- تشن حرب العصابات لدفع الناس للثورة ضد نظام رجعي .
  - يجب التفريق بين عطف الناس وتأييدهم . فالعاطف والمشاعر لا تكفي ولكن التأييد هو الأهم .
  - يجب أن تتوافق عمليات الفدائين مع مشاعر وتطلعات الناس ، وفي حال عدم وجود التوافق يصبح الأمر إرهاباً وانتقاماً وليس عملاً ثورياً .
  - إن العامل السياسي في الحرب الثورية عامل حاسم وأساسي .
  - يجب أن يفهم الناس الحرب ويؤيدوها كما يجب أن تشكل جزءاً من معركتهم ضد عدو مشترك .
  - من الصعب في بلد متقدم شن حرب عصابات دون تحويلها إلى حرب ثورية جماهيرية .
  - من الصعب في بلد تملك حكومته قوة قمع كبيرة وخطوط مواصلات سهلة تمكنها من نقل وتوزيع قواتها ، من الصعب شن حرب عصابات لوقت طويل إذا كانت الحالة الثورية العامة ضعيفة أو غير موجودة .
  - إن حرب العصابات يمكن أن تخلق حرباً ثورية في الظروف المواتية ، لكن العقيدة марكسية والتجربة تدحض فكرة قدرة تحويل أي موقع لنفسه إلى حالة ثورية .  
أفكار فرناند غريغوري عن حرب الأنصار الفرنسية (الحرب العالمية الثانية) .
  - ضرورة تنظيم العصابات في زمرة وجماعات وسراسير وكتائب .
  - تتالف الزمرة من سبعة عناصر فيها رئيس ومساعد استعلام ومساعد معدات .
  - يجب اعتماد أسلوب الفوائل بحيث لا تعرف الزمرة رفيقتها كما لا يعرف الثائر إلا شخصين في سلسلة التراتبية فقط رئيسه ومرؤوسه .
- أفكار ماو تسي تونغ .

- الشعب أمل النصر وهو الماء الذي يسبح فيه سمك العصابات ، وطبيعي أنه لا يمكن فصل السمك عن مائه . وباعتبار أن تعداد الشعب الصيني ضخم جداً فقد ركز ماو تسي تونغ على العديد ليخلق منه بحراً كبيراً من البشر يغرق العدو في خضمّه وتصبح الأهمية للعدد وليس للعدة .
- الدعاية دعامة أساسية في حرب التحرير لتأمين مساندة الشعب للمغاورين ، وذلك بإظهار الثائر بصورة المدافع عن حقوق الشعب وقضاياه والنادر لذاته والمضحي بنفسه في سبيل مواطنه . ومن هنا تأتي ضرورة التلامم بين الثورة والشعب . إن للدعاية أهمية قصوى

في استقطاب الأهالي، والقيام بها بشكل مدروس برفع الشعارات المكتوبة والملصقات والصور ويعاملة الجرحى والأسرى بالحسنى ومساعدة المحتجين يسهل أمر الاستقطاب ويجمع الشعب حول المغاورين.

- استراتيجية واحد ضد خمسة. أي إشغال قوات العدو الكبيرة بعدد قليل من الثوار.
- تكتيك خمسة ضد واحد. أي حشد أكبر عدد ممكن من القوى لضرب هدف ضعيف وذلك تحقيقاً للانتصار المحلي على العدو وإنزال أكبر قدر من الخسائر في صفوفه في أقصر فرصة ممكنة وبأقل خسائر في صفوف الثوار. هذا يعطي جرعة معنوية عالية للمغاورين ويشكل دعاية كبيرة لهم في صفوف الشعب، كما يوهن عزيمة الأعداء بصورة أكيدة.
- التملص أمام عدو قوي متقدم بانسحابه نحو المركز يؤمن حشد القوى الثائرة، مع المحافظة على سياسة استمرار إنهاك العدو وإزعاجه بالهجمات الرديمة المحدودة وعمليات الكبح.

هذا ويلعب الانسحاب نحو المركز دور تشتيت لقوات العدو وإبعادها عن قواعد انطلاقها ومراكز تموينها إذا كانت أرض المعركة فسيحة كبلاد الصين الأمر الذي يساهم في إيهان عزائمها وخفض مستوى إنتاجها القتالي.

- التموم من أرض العدو واستعمال أجهزته واستخدام إمداداته التي تقع غنية في يد الثوار، وهذا يوفر إلى حد بعيد طاقات مضمونة ويسهل عمل العصابات لكنه يحتاج إلى نوع من الحذر والروية المدروسة والتبصر خوفاً من الوقع في أخطار أشرك العدو التخريبية من تسميم للمأكولات أو تفخيخ للأعتدة.

لقد نجح الفيتนามيون إلى حد بعيد في هذا المضمار حتى أنهم توصلوا إلى استعمال سُعاة بريد الحكومة في نقل رسائلهم وأوامرهم.

- ممارسة الديمقراطية في الجيش كما في الشعب لأن الجيش يحتاج لديمقراطية أيضاً.
- المساواة في تقسيم المغانم والمغارم بين جميع المغاورين.
- غسل دماغ الأسرى واستقطابهم وإعادة استخدامهم.
- الإيمان بالحاجة التاريخية للحرب لإنجاح الثورة.
- اعتماد فلسفة وحدة الأصدقاء المأخوذة عن ينانيغ التي تقول بالعمليات المتبادلة التي لا تنتهي بين الأصدقاء ومنها يستشف أن كل قوة تخفي ضعفاً. إن مفتاح النظرية هو الوقت ضد المساحة، فالوقت هو غذاء الثائر وفوق كل شيء، ومن هنا تتبلور عملية الثورة في ثلاثة مراحل، هي:
  - مرحلة أولى. دفع استراتيجي بالصمود وكسب الوقت والانسحاب.

— مرحلة ثانية. الركود وفيها يكون البقاء المهدف الأساسي للحرب ويرافق ذلك ضربات سريعة وانسحابات سريعة.

— مرحلة ثلاثة. الهجوم الاستراتيجي ويتم ذلك حين يقوى جيش التحرير وتصبح حرب العصابات ثانوية.

● يجب تسييس القوات المناضلة وعدم فصل العمل السياسي عن العمل العسكري.

● يجب تصفية جميع الخونة والمتآمرين.

● يجب عدم التكبر عند الانتصار والاكتتاب عند الهزيمة.

● يجب ترك الأنانية والمصلحة الضيقية.

● يجب العمل على عدم تنامي الروح الانهزامية والاستنكاف عن النضال بسبب الموازين التقليدية للقوى.

● يجب أخذ الشروط والظروف الذاتية والموضوعية للعمل العسكري في الحسبان وعدم إهانة قوى الشعب وقدراته.

● ملاحقة العدو المتراجع لإبقاءه تحت تأثير الضغط النفسي وحرمانه من أسباب الراحة وهذا يعني إبقاء الاتصال الدائم معه ولكن بصورة مدرورة.

● علينا احتقار العدو استراتيجياً واحترامه تكتيكياً.

● إن الشيء الذي في طور النمو والتكون هو الوحدة الذي لا يقهر.

● إن الثورة هي القابلة القانونية لكل مجتمع قديم يحمل في أحشائه مجتمعاً جديداً. من فوهة البنادق تنبع السلطة السياسية، والاستيلاء على السلطة بقوة السلاح ووضع حد للنزاع بواسطة الحرب هي المهمة الأساسية للثورة.

### أفكار الجنرال جياب.

انطلق الجنرال جياب من أفكار ماوتسي تونغ وأفكار هوشي منه ليخوض الحرب ضد فرنسا ثم ضد الولايات المتحدة الأمريكية وليضيف إلى ما أورده ماو خبرته التي كسبها في حربه الطويلة. أخذ عن هوشي منه أن الوحدة والوحدة العريضة هي النجاح والنجاح العظيم، كما أخذ عنه شعار الأرض لمن يفلحها. أما آراؤه فتدور حول المواجهات الآتية:

● إن حرب العصابات هي حرب الجماهير العريضة في بلد متختلف ضد عدو قوي التجهيزات والتدريب. ولذا يجب مراعاته ثلاثة أمور في العلاقة مع المواطنين هي: احترام الشعب ومساعدة الشعب والدفاع عن الشعب.

● لا حدود فاصلة بين الثائر وأعدائه فحيث يكون العدو تكون الجبهة.

- يجب تفادي العدو القوي ومجابهه العدو الضعيف.
- المحافظة على المرونة والسرعة في الأداء لتحقيق المفاجأة إن في الهجوم أو في الانسحاب.
- على التأثر البحث عن تجهيزاته في ميدان القتال كما عليه قتل العدو بسلاحه.
- إن القانون العام للحرب الثورية الطويلة الأمد غالباً ما يمر في ثلاث مراحل هي دفاع فتوazen فهجوم. إن تطوير حرب العصابات إلى حرب تحرك لتحقيق مبتغاها النهائي أمر واجب لكن يلزمته تحقيق ثلاثة شروط هي :
  - تفوق قوات الثورة وخاصة في المجال المعنوي بعد إعداد الجيش وتنظيمه على أحدث الأساليب.
  - ضعف ملحوظ في عزيمة العدو ومعنوياته وخاصة قيادته الأمر الذي يساعد القيادة الثورية الحازمة على التحرك نحو أهدافها الهامة.
  - وضع عالمي مناسب يساعد دولياً على المباشرة بحرب التحرك.
- الظروف الموضوعية مهمة من تحرير ثوري إلى موقف عالمي ووضع نفسي داخلي وتلامس مع الشعب بالإضافة إلى استثمار تفكك العدو.
- إذا كان العصيان المسلح فناً فإن المضمون الرئيسي لهذا الفن هو معرفة كيفية إعطاء النضال أشكالاً مناسبة للموقف السياسي في كل مرحلة مع إبقاء العلاقة الصحيحة بين النضال السياسي والنضال المسلح.
- من الضروري إحراز آلاف الانتصارات الصغيرة لتحويلها إلى نصر كبير وبهذا يتغير ميزان القوى عن طريق تحول الضعف إلى قوة.
- يجب اعتماد أسلوب بناء القوات المسلحة أثناء المعركة.
- أهمية ضبط الجبهة الداخلية وتماسكها.
- يجب التركيز على أن يكون للجيش المحارب قضية لأن الجيش الذي لا يملك قضية لا يحارب. وهذا يتحقق بالوعي السياسي والأيديولوجي الأمر الذي يخلق التضحية والتصميم.
- الهدف الرئيسي من الحرب هو تدمير القوى البشرية للعدو مع تجنب الخسارة بالرجال حتى ولو على حساب الأرض لأن الأرض يمكن استعادتها ولكن الشعب لا يمكن استعواضه.
- من الضروري استمرار التحول التقدمي للجيش الشعبي لتحويله إلى جيش نظامي .
- ينبغي لمسيرة الحرب الشعبية أن تحافظ على تناسب صحيح بين أشكال القتال سيناً عند الانتقال من مرحلة إلى مرحلة.

- يجب التركيز على أهمية المفوضين السياسيين داخل الجيش لإنماء الوعي السياسي.
- إن المهم في حرب العصابات هو السرية وضرب قوى الطلاعش المعادية.

إن أفكار جياب قريبة بعض الشيء من أفكار لورانس وبعيدة عن أفكار ماو تسي تونغ وهذا أمر طبيعي لأن عديد الشعب الفيتلنامي يعتبر محدوداً إذا ما قورن بعديد الشعب الصيني أو بعديد الشعب الأميركي الذي خاضت فيتنام الحرب ضده. هذا وتبني المقاومة الفلسطينية جانباً من هذه النظرة لوقاية شعبها من الأخطار الإسرائيلية وذلك باستعمال مقاتلين من شعوب أخرى كالباكستانيين أو اليابانيين انطلاقاً من مبدأ الحفاظ على الدم الفلسطيني، وبذلك تتحقق الحماية البشرية من جهة ويتسع الدعم العالمي للثورة من جهة أخرى.

أفكار بنغ تي هواي.

وهي امتداد لأفكار ماو تسي تونغ، وقد أصبح هواي فيما بعد القائد العام للمتطوعين الصينيين في كوريا.

- يجب التركيز على المفاجأة والخداع في الحرب الشعبية.
- يجب تأمين ولاء السكان للمغاوريين.
- استخدام السكان كجهاز استعلام سري متكمال يصعب عيون العدو ويبقيه تحت المجهر.

أفكار تشي غيفارا.

انطلق تشي غيفارا من أفكار ماو تسي تونغ كأساس لنظرياته وساعدته التميز النوعي في طبيعة البلاد في إضافة بعض الأفكار ذات الطابع الفلسفى على نظريات ماو، لكنها في المجال العام تبقى في نفس الإطار مع معايير خاصة بالريف والاتصال بالشعب. إن أهم ما قال به غيفارا هو الأفكار التالية:

- أهمية وشمولية الثورة الشعبية، وهذا السبب انتقل من كوبا إلى بوليفيا لمتابعة نضاله، وهذا ما ينطبق بالطبع على صميم عقيدته الماركسية.
- وجوب العودة في الأعمال الثورية إلى اليقابع التي هي الجماهير الشعبية. فالثورة ملكها ويجب أن تلبي تطلعاتها وتخدم مصالحها وتسير بتوجيهاتها.
- التركيز على أهمية التخريب في المدن بانتشار الخلايا الإرهابية داخل المجتمعات السكنية والاقتصادية والصناعية، مع ارتباطها الوثيق بالقيادة العليا للثورة بغية ضبط تحركاتها وتوجيهها للأهداف لتأتي أعمالها بالفاعلية المتوازنة.
- الاقتناع بأن القوى الشعبية قادرة على ربع الحرب ضد الجيش النظامي، وأنه ليس

من الضرورة الانتظار حتى توفر الظروف الملائمة للثورة لأن الانتفاضة نفسها تستطيع خلق الظروف.

- إن الريف في المناطق المتخلفة اقتصادياً هو المنطقة الأساسية للكفاح المسلح ، والتأثير السياسي للنضال المسلح غير قابل للتحقيق إلا في الريف ولا وجوب لحرب تحرير شعبية في المدن كشكل نظامي للنضال الثوري .
- يجب استغلال جميع احتمالات النضال السلمي أولاً قبل المباشرة بالنضال المسلح .
- الفدائي هو مصلح اجتماعي والشعب هو قاعدة الجماهير وأرضها الصلبة. إن جميع العصابات وقطاع الطرق قد ضعفت أمام القوى الحكومية لأنها تفتقر إلى الدعم الشعبي .
- كل الخطوات الثورية الخامسة بدأت وكان يجب أن تبدأ—من منطلق خاطئ لأن خطوط الانطلاق هي تلك الموروثة عن الأسلام دون وعي ذلك.
- على رجل العصابات ممارسة السرية وتجنب الاحتكاك بالشعب لسبعين هما حماية نفسه وسلامة الفلاح الذي تصب الدولة جام غضبها عليه بسبب علاقته مع رجل العصابات .
- إن العسكريين يخدمون السياسيين في الحرب الثورية ولكن العكس غير صحيح (مسألة قابلة للجدل) وهذا ما قاله جياب عندما أعلن بأن الحزب لم يقد الجيش الشعبي ولكن الجيش الشعبي هو الذي قاد الحزب. لهذا السبب من الأفضل توحيد القيادتين السياسية والعسكرية أو التنسيق بينهما على أقل تقدير.
- يجب الاهتمام بالتنظيم المسبق والاعتماد على المخابرات والسرية التامة على الأقل في المرحلة الأولى من العمل الثوري .
- الإصرار على العودة إلى القواعد الثابتة للراحة والتدريب والتنظيم خلافاً لرأي ما وجياب اللذان يؤمنان بالقواعد الثابتة ولكن يعتبران القواعد الشعبية هي التي تمتص العناصر وتخفيفها. أما تشي غيفارا فيرى أن القواعد الشعبية هي ضرورة معنوية واستعلامية .
- إن وجود حزب طليعي ليس شرطاً أساسياً لبدء النضال المسلح رغم ضرورته .
- إن النضال المسلح هو فن لا معنى له إلا في إطار سياسة مفهومة وعلمية، ولا يمكن طرح النضال كشعار أو عرضه كعلاج دون طرح الخطة والتفاصيل المادية .
- التأكيد على قول لينين أن الإرهاب لا يمكن أن يستخدم كشكل نظامي دائم للعمل السياسي ولكن عند الهجمة النهائية فقط .
- إن التنظيم السياسي العسكري العسكري واجب البناء ولا يمكن أن يترك بناؤه للنضال وظروف تطوره، كما يجب عدم انفصال الجهاز العسكري عن الجهاز السياسي .
- في دول العالم الثالث حيث الهيمنة للريف لا يمكن نشر الأيديولوجية الثورية بين

الجماهير إلا انطلاقاً من بؤرة ثورية. إن البؤرة الثورية هي المفجّر أو الصاعق للتمرد. إن اعتماد نظرية البؤرة الخميرة التي يجب أن لا يتجاوز عديدها عن الثلاثين عنصراً من الثورين المحترفين الذين يعملون بالتفاعل مع الشعب يؤدي إلى دفع الجماهير في اتجاه تحقيق الأهداف. ولا تتطلع البؤرة الثورية إلى نصر عسكري خاطف أو إلى الجسم عن طريق الصدام المسلح الذي يوصلها إلى مركز الصدارة في السلطة بل تعمل على دفع الجماهير لتصبح قادرة على تسلم مقدرات السلطة من تلقاء نفسها. إن ميزة البؤرة الثورية باختصار هي عدم التطلع لاستلام السلطة عن طريق الحرب بل عن طريق وضع الجماهير في حال تؤهلها لاستلامها، كما أن البؤرة الثورية لا تفتقر على نصر خاطف أو مخرج سريع للأزمة بل تبحث عن النصر الجماهيري الذي يت弟兄 من خلال البؤر.

• وفي الخلاصة إن الثورة قدّمت خمسة مبادئ أساسية لحرب التحرير الشعبية هي :

- قدرة القوى الشعبية على ربح الحرب ضد جيش نظامي .
- وجوب عدم انتظار اكتمال جميع شروط الثورة للقيام بها .
- النضال المسلح هو الردف الدائم والأول لنضال البلدان النامية .
- أهمية الريف في النضال المسلح في البلدان النامية .
- ابعاد التأثير عن الشعب لحمايته وحماية الأنصار .

أفكار من الحرب الجزائرية .

هذه الأفكار مأخوذة عن فرحات عباس وبن بلة وبشير الحاج علي ، وهي :

• عدم التطلع إلى إحراز نصر عسكري على الفرنسيين لأن الأمة الكبرى قادرة على إبادة الشعب الصغير ولكن الغاية كانت إبقاء المعركة مفتوحة طالما أن الأهداف السياسية لم تتحقق .

- إن المحتوى السياسي والجانب النفسي دائمًا في صالح الحروب الثورية العادلة .
- أهمية توحيد جميع القوى في جبهة وطنية ديموقراطية .
- يجب معاقبة الخونة ومدّ يد العون للشعب .
- إن الأهم في نuo الثورة هو تعاظمها في الريف ومن ثم امتدادها للمدن أما التركيز على المدن فأمر خاطئ .
- اعتماد تكتيك المجموعات الفدائية الصغيرة في المدن كما حدث في روسيا عام ١٩٠٥ .
- إن الحركة الثورية في العالم الثالث وحدة يجب أن تتكامل وأن تحارب فكرة الإقليمية .

- الإحساس بالانتهاء لمجموعة يعتبرها الأوروبيون منحطة بخلق الحافز للثورة.
- يجب جعل الشعب برّمته يلتّف حول حركة أقلية نشطة مع الاتكال على ردة فعل الخصم الخاطئة.
- العمل على تشتيت قوى العدو في رقعة واسعة قد تتعدي حدود الدولة الواحدة.
- يجب إعارة الاهتمام الكافي للمقاتلين أكثر من الاهتمام للإعلام والتنظير السياسي.
- هنالك قوى كثيرة غير القوة العسكرية يجب استخدامها كالرأي العام والوضع الدولي ومطامح الجماهير.
- على الثوري عدم اليأس من نصره والانتحار لأنّه يعبر عن أعمق رغبات الشعب برّمته. وعليه أن يعيش أطول فترة ممكنة لفت انتباه الرأي العام وإلقاء السلطات والتأثير على قراراتهم:
- وجوب وجود منهاج مرحلي للثورة ومذهب أو أيديولوجية، وهذه إحدى نقاط الضعف في الثورة الجزائرية التي كانت تفتقر لذلك.
- أهمية العودة للأرض والقضاء على البطالة.
- تكوين قيادة مركزية واحدة مع السماح بقدر من اللامركزية.
- ربط الكفاح المسلح ربطاً وثيقاً بالضال الجماهيري السياسي.
- دعم الحرب بالنضال في المدن مع المحافظة على أمن المدن كقواعد خلفية للكفاح المسلح.
- العمل السياسي الدؤوب بين الجماهير وفي أواسط جيش العدو وشعبه والرأي العام العالمي.
- التقدم باستمرار باقتراحات عملية لإنهاء الحرب وغير متناقضة مع بعضها، مع ربط المطالب دائماً بالهدف الرئيسي.
- استغلال التناقضات بين العدو وحلفائه وتقوية روابط الشعب مع حلفائه الطبيعيين في الخارج.

أفكار من المقاومة اليونانية ضد الاحتلال النازي.

- الإسراع في تنظيم المقاومة قبل أن يرسخ الاحتلال أقدامه.
- درس العمليات بشكل لا يؤذى الشعب ويضعهم في مأمن من ردات فعل العدو.
- اعتماد أساليب اللجوء إلى السلبية الجماعية.
- استخدام الإضرابات كعامل محرض وكأداة لتحسين الأوضاع المعيشية.

- تفادي القيام بأعمال تفيد الاقتصاد المعادي، كالعمل في الورش والمصانع.
- تحديد برنامج لجبهة التحرير يلتف حوله الشعب.
- تموين الشعب سراً وخاصة الفقراء مع العمل على الأخذ من الأغنياء.

أفكار أميلكار كابرال أمين سر حركة التحرير في غينيا.

- أصعب أنواع النضال وأعلاه هو النضال ضد النفس.

● إن التحرير الوطني والثورة الاجتماعية ليست بضاعة للتصدير بل نتاجاً محلياً ووطنياً يتأثر بالعوامل الخارجية، ولكن تقررها أساساً الحقيقة التاريخية لكل شعب. وهذا يتناقض مع رأي أحمد بن بلة وتشي غيفارا.

- التركيز على أهمية الطبيعة الموحدة التي تعي تماماً معنى وهدف النضال الذي توجهه.

● إن الشيء المهم في الحرب الثورية هو تقرير أشكال العنف الواجب استعماله لتحقيق المدف.

- إن اكتساب الضمير الثوري هو البعد عن البورجوازية والاندماج في الطبقة العاملة.

أفكار كوامي نيكروما (غانـا)

● إن الشعب هو صانع التاريخ وهو وحده في التحليل الأخير من يكسب الحرب أو يخسرها.

● لا فرق أساساً بين الكفاح المسلح والعمل الثوري المنظم ذي الطابع المدني، والتنوع تفرضه الظروف فقط.

● إن آفات النضال الثوري هي الانتهازية التي تؤدي إلى انخفاض المستوى الأيديولوجي والقناعات، والأنانية وحب الاستئثار والانعزal، والوقوع في حبائل الشكليات والصيغ الجامدة.

● إن الكفاح المسلح الشعبي هو أعلى أشكال العمل السياسي والعامل الثوري المساعد في ظروف الاستعمار الجديد.

● إن توسيع رقعة العمل هو أساس في العمل الثوري.

● إن الحرب تؤدي إلى فرز الشعب وتظهر عادات وقناعات وطاقات جديدة.

● إذا لم تكن الميليشيات منظمة جيداً فالجماهير لا تستطيع استخدام كامل قوتها في النضال ضد العدو.

● يجب تذويب الجيوش المحترفة تدريجياً للاعتماد على ميليشيا الشعب فيما بعد.

● يجب إنشاء أجهزة إثنائية واقتصادية ودعائية ردية للقوات المسلحة.

- إن اللجوء إلى التخريب في قلب الدول الأخرى حل متتطور جريء.
- إن كل القضايا العسكرية هي قضايا سياسية وكل القضايا السياسية هي قضايا اقتصادية.
- إن الاستعمار الجديد هو السيطرة المقنعة غير المباشرة من خلال الحكومات العميلة والشركات المالية المسيطرة والاحتکارات العالمية. والكافح ضد الاستعمار الجديد يجب أن يوجه إلى رأس الحية، أي أن الطريق الوحيد أمام الجماهير هو حركة ثورية تواجه مباشرة الأمبرياليين وتستمد قوتها من المحرومين.
- إن الاستقلال مرحلة أولى وليس هدفاً بحد ذاته وهو المرحلة الأولى من النضال الثوري الذي يخوضه الشعب.
- الكفاحسلح من أجل الحرية ليس أخلاقياً ولا أخلاقياً، إنه ضرورة علمية تاريخية مختومة.
- إن المناطق الأفريقية تقسم إلى محررة وتحت السيطرة الأجنبية ومناطق حامية حيث يصطدموعي الشعب وتحركه بالإرادة الأجنبية وأدواتها.

### أفكار من حرب الغوار في كوريا.

- إن التنظير وحده لا يكفي بل يحتاج للتنفيذ والخطط العملية.
- يجب الاهتمام في قواعد اللوازد للمغاورين في حياة الشعب.
- هناك قواعد ثابتة بعيدة عن مسرح العمليات وهناك قواعد متحركة متطرفة تنتقل حسب ظروف العمليات.
- يجب تنظيم شبكة منظمات سرية داخل الأرض التي يسيطر عليها العدو.
- يجب استعمال تكتيك الظهور والاختفاء السريع والاستدراج.
- يجب تحقيق نوع من الاستقلالية عن مصادر المعنونات الخارجية.
- يجب انسجام البرامج مع مصالح الشعب، وإشراك جميع طاقات الوطن من مال واقتصاد وبشر.
- يجب استثمار جميع القوى المعادية للعدو، مع الانتباه لخصائص السكان في كل منطقة.
- يمكن تنظيم الثوار حسب الأماكن تحت أسماء مختلفة للمنظمات الوطنية والمحلية، كما يجب التمييز بين حركات التوعية القومية والاشتراكية.
- يجب مراعاة الأمان والطمأنيات الفردية عند المغاورين.

- إن العمل التنظيمي وحشد القوى أمر مهم لذلك يمكن الانتفاع من التنظيمات الموجودة وحتى المعادية منها بالدخول فيها وتحويل مسارها.
- يجب الاعتماد على النفس وغرس الإيمان بالنصر والحفاظ على الأسرار لأن أية هفوة بسيطة تفضح السر.
- يجب السير دائمًا نحو العدو والاقتراب منه وعدم البعد عنه.
- يجب التنسيق بين استعمال وحدات الغوار الصغيرة ووحدات الغوار الكبيرة ردًا على حملات التأديب الكبيرة.
- إن إعطاء المثل هو واجب كل ثوري، كما يجب استغلال سبل الدعاية والتحريض لتعبئة الشعب.
- إن الدراسة هي المهمة الأساسية للثوريين.

#### أفكار أبوraham غيلان منظر حركة التوباماروس.

- عندما يفتقر مقاتلو الغرّية إلى تأييد شعبي بعد فشل معين أو بعد عملية لم تتحقق مطلباً شعبياً فعليهم تأمين بنائهم التحتية السرية داخل المنازل والشقق في المدن.
- إن التحرك في الشقق يفقد مقاتلي المدن حركتهم وأمنهم.
- على مقاتلي المدن لتفادي التصفية والتطويق أن يعيشوا متفرقين ويقاتلوا مجتمعين.
- على مقاتلي المدن لكي يحافظوا على الحركة ويضمّنوا سلامتهم أن يتفرقوا بين السكان الموالين لقتليتهم وأن يتزجّوا بهم ويعيشوا كسائر الناس.
- إن الجبهة المتحركة في المدن أفضل من الجبهة الثابتة. ومن الخطير استخدام جبهة ثابتة كمأوى أو مخزن للمؤونة والأدوية والأسلحة.
- يحتاج الثوار في المدن إلى ظروف سياسية ملائمة للتمكن من القيام بالثورة والتحرك وذلك عن طريق إحداث حالة تأزم اجتماعي عبر تخريب النظام العام.
- من الوجهة السياسية لا لزوم في الحرب الشعبية إلى توضيح كل عمل تقوم به الغرّية للشعب، وعلى العمل ذاته أن يكون معبراً ومقنعاً.
- لا قيمة للنصر العسكري إذا لم يكن له مغزى سياسي مقنع.
- إن كل جيش شعبي يلجأ إلى العنف الذي هو بمعنى عنه ولا يجعل من نفسه رمزاً للعدالة والمساواة والحرية والأمن لا يستطيع كسب تأييد الشعب في نضاله ضد الاستعباد الإنساني.
- في أية حالة لا ينبغي أن يكون مقاتلو الغرّية مضطرين لقتل أسير كون الفدية التي

يطالبون بها باهظة الثمن ومرفوضة.

- كل من يستعمل العنف مع مرؤوسه خلال فترة تشييد الدولة المضادة يجب أن يقال من منصب القيادة.
- في حرب الغرية يكتشف الرؤساء أثناء النضال الثوري، وبالرغم من ذلك ومنعاً لفقدان الروح الديموقراطية ينبغي أن لا تطول مدة رئيس واحد في تسلم دفة الأمور حتى ولو كان الأفضل.
- من الأخطاء الشائعة عند مقاتلي الغرية في أميركا الجنوبيه اختلاق الأساطير حول رؤسائهم. كذلك فالاعتقاد بمجيء مخلص يخفى بذور عدم الكفاءة.
- يجب عدم الوقوع في خطأ الاحتراق والتشبت بالروح العسكرية الأمر الذي يعزل المغاور عن الجماهير ويساعد على قيام دويلة داخل الدولة.
- عندما تقود سلسلة من الانتصارات التكتيكية في اتجاه ملاحقة هدف استراتيجي يتعدى بلوغه يؤدي ذلك إلى هزيمة استراتيجية أفدح شأناً.
- إن الحرب الثورية شكل من أشكال الحرب السياسية التي يتم تنفيذها بوسائل عنيفة، ولا كيان مستقلًّا للجانب العسكري عن الجانب السياسي.
- يجب عدم السماح للشعارات الأخلاقية كالحب والإخلاص والمرءة أن تعمل ضد المغاورين بل يجب استثمارها لصالحهم.
- يجب عدم الخوض دون انتشار أعمال الغرية عندما يمكن لتلك الأعمال أن تخلق مضاعفات إقليمية دولية.
- بعض الأحيان تحتاج المجموعات المناضلة للقيام بعملية عسكرية لتحقيق التماسك فيما بينها لأن ذلك يقى غير مؤمن لها رغم وحدة الممارسة النضالية وانسجام الأفكار والتوجهات.

### محاجة الأسلوب غير المباشر:

إذا أردنا أن نوجز جميع الأفكار التي تعالج هذا الموضوع لا نرى أفضل من استعمال المثلين العربين الشهيرين:  
لا يفل الحديد إلا الحديد.

و: لكل شيء آفة من جنسه      حتى الحديد سطا عليه البرد  
في الواقع إن مواجهة الثورة يجب تكون بأفكار وأفعال ثورية على المستوى نفسه إن لم تأت أكثر تطوراً وتقديماً. من هذا المنطلق يمكن تحديد بعض التوجهات في هذا المضمون وهي :

- المرونة في التفكير والعمل وسهولة التكيف.
- الواقعية في الرؤية.
- الابتعاد عن الراديكالية والتصلب المتحجر، واستيعاب المشكلة في إطارها الصحيح وتقدير تطلعات الثورة وأبعادها.
- التحليل بروح الحدس والخيال لاستباق الأحداث.
- حسن التقدير والابتعاد عن روح اللامبالاة والاعتداد بالقوة والغطرسة.
- المعالجة بالعمق بالتوجه إلى صلب المشكلة فمتي انتفى السبب سهلت المداواة. لذلك وجب القيام بمناورتين مضادتين، واحدة داخلية وأخرى خارجية على شاكلة مناورات الثورة نفسها، على أن تأخذ الخطط بعين الاعتبار المراحلية وتصنف بالأولويات خططاً عاجلة وأخرى آجلةً وثالثة بعيدة الأجل. وكما تعمد الثورة إلى توسيع رقعة التهديد كبقعة الزيت تكون المجاوبة بتوسيع رقعة زيت الأمان شيئاً فشيئاً، وكما توجه الثورة بإعلامها للجماهير، على خطة المجاوبة التوجه بإعلامها إلى الجماهير أيضاً بحيث يصبح الصراع بين الثورة ومجابتها صراع استقطاب فيه شيء من الديموقратية ويركز على الأمل على غرار الحملات الانتخابية، فضلاً عن الأعمال العسكرية الرادعة من تهديد إلى ضرب وملaqueة بأسلوب مدروس للترهيب والترغيب والشدة واللين، واتباع طريقة السماح الأمني والعفو في فترات معينة للتأبين.

هذا وقد أظهرت جميع الثورات أن مقاتلاتها داخلية إلى حد بعيد. واستعمال الشعب نفسه للتصدي للثورة أثبتت فاعلية عالية في عديد من الثورات التحريرية من الاستعمار القديم، فتجربة الكوكبات السيارة من قبل الفرنسيين في الثورة السورية الكبرى كانت ناجحة إلى حد بعيد، بينما وأن الفرنسيين قد أتقنوا اللعب على الوتر الطائفي والفتوى والطبيقي فضمنوا ولاء مجموعات كبيرة من الشعب، وجندوها ضد الثورة، وقد عزز هذا الولاء العطاءات والتقديمات الحكومية للمتطوعين فضلاً عن بدائية الفكر الثوري أحياناً وعجزه عن استقطاب الفئات المستنكرة أو الخذلة.

هذا بوجه عام، أما إذا تطلعنا إلى بعض الخصوصيات فيمكن التطلع إلى عدة تجارب في قمع الثورات وذكرها على سبيل الاستئناس بها وهي :

- رأي الجنرال بيرج الإنكليزي في حرب العصابات في ماليزيا.
- عدم فائدة عمليات المسح الواسعة النطاق في الغابات والتفتيش على طرق انسحاب العصابات.

- تفضيل أسلوب تجميع القوى في مناطق هامة واقتصادية ونشرها على تخوم الغابات.
  - المحافظة على الفاعلية الإيجابية مع تخفيف التعرض إلى أقصى حد ممكن.  
آراء ألمانية.
  - إنشاء تنظيم معاكس مؤلف من عمالء المخابرات والعناصر الموثوقة التي يتم اختيارها من الأهالي.
  - إنشاء قيادة وأركان مركزية خاصة للعمل ضد الأنصار.
  - تخويف الأهالي من تدابير القمع التي تقوم بها الحكومة بحيث تكون أكثر من الخوف من تدابير الأنصار الإرهابية.
  - تشكيل مفارز ميليشيا في بعض القرى.
  - عدم ترك أية فرصة للأنصار للشعور بالنصر.
  - أخذ الرهائن من الأهالي، واعتماد فصائل الجوالة.
  - يجب عدم استخدام أسلوب تقليدي واحد في مقاتلة الأنصار بل يمكن استخدام الكمائن والإغارات والهجمات الكبيرة على أن تأتي العمليات سريعة وعاجلة.
  - تشكيل سرايا حماية إقليمية.
  - التركيز على القدرة على اختيار الزمان والمكان كما يفعل الثوار.
  - يجب أن تأتي العمليات بشكل عام على ثلاث مراحل هي الاستطلاع والهجوم التدميري والحماية.
- آراء فرنسية.
- استخدام أسلوب التريع في مكافحة الثوار وخاصة في المدن.
  - استخدام الشعب في مكافحة بعضه باستعمال القوى الإقليمية ومفارز الحراسة الخاصة.
  - نشر الأمن تدريجياً كبقعة الزيت.



## المراجع

المؤلف	المصدر
سايروس فانس	خيارات صعبة .....
رئيس دويريه	نحن التويا ماروس .....
ماركس وأخرون	الماركسيّة وحرب العصابات .....
برنار بدودي	الحرب والسياسة .....
أندريه بوفر	استراتيجية العمل .....
أندريه بوفر	الاستراتيجية العسكرية .....
أحمد الشقيري	من القمة إلى الهزيمة .....
أ. س. كوهان	مقدمة في نظريات الثورة .....
منير شفيق	علم الحرب .....
ب. د. بياديشيف	المجتمع الصناعي الحربي .....
اللواء الركن يوسف كعوش	الاستراتيجية التووية .....
ج. ل. ليدل هارت	الاستراتيجية وتاريخها في العالم .....
صن تزو	فن الحرب .....
أكرم ديري	آراء في الحرب .....
محمد حسين هيكل	حكاية العرب والسوفيت .....
علي الشلقاني	ثورة الجزائر .....
(أربعة أجزاء)	مؤلفات ماو تسي تونغ المختارة .....
ليونيد بريجينيف	مذكرات بريجينيف .....
ريم تشون تشو وأخرون	حرب الغوار في كوزيا ضد اليابان .....
أندريه بوفر	من العدو الثوري إلى الحرب الذرية .....
إيغال آلون	إنشاء وتكون الجيش الإسرائيلي .....
ريتشارد بارنت	حروب التدخل الأميركيّة في العالم .....
صباحي عبدالحميد	نظارات في الحرب الحديثة .....
الملك حسين	حربنا مع إسرائيل .....
صباحي العمري	لورنس كما عرفته .....

المؤلف	المصدر
أندريه بوفر	بناء المستقبل .....
أندريه بوفر	الحرب الثورية .....
آية الله الخميني	الحكومة الإسلامية .....
أبو همام	المقاومة عسكرياً .....
جو ستورك	أزمة الطاقة في الولايات المتحدة .....
شمعون بيريس	حربنا مع العرب .....
كمال سليمان الصليبي	منطلق تاريخ لبنان .....
—	التقصير (المحدال) .....
أتاتورك	أتاتورك .....
مصطففي الزين	البحث عن الذات .....
أنور السادات	جندي في خدمة السلام .....
كارل فون هورن	ديوان شibli الأطرش .....
شibli الأطرش	الطريق إلى رمضان .....
محمد حسين هيكل	الحرب العالمية الثانية (جزءان) .....
غ. ديبو رين	حقائق عن الثورة الجزائرية .....
محمد لبجاوي	معارك العرب .....
محمد الشقيري	السلاح النووي والصراع العربي الإسرائيلي .....
الدكتور سلمان رسيد سلمان	الحرب والسلم في شرعة الإسلام .....
الدكتور مجید خدوری	الجاسوسية الإسرائيلية وحرب الأيام الستة .....
زقى الدوبي وجيتزولد بالنغر	السلاح الناري وأثره في الشرق .....
سمير الخادم	حرب الأيام الستة .....
العميد الركن عزيز الأحباب	اليوم السابع لحرب حزيران (٣ أجزاء) .....
العميد الركن عزيز الأحباب	من ماضِر اجتماعات عبد الناصر .....
عبدالمجيد فريد	مذكرات ضابط عربي في جيش الانتداب الفرنسي .....
سليمان علي الصباغ	حرب أكتوبر .....
الفريق سعد الدين الشاذلي	قصول من تاريخ الشيعة في لبنان .....
علي الزين	الموسوعة العسكرية (٣ أجزاء) .....
—	الشارة طريق النصر .....
مركز الأبحاث في «الصياد»	كتابات عسكرية .....
ماو تسي تونغ	الحرب .....
العقيد صفا	فن الحرب .....
الجنرال اميل وانتي	.

المؤلف	المصدر
الجزال ديجول	مذكرات ديجول (٤ أجزاء) .....
ليدل هارت	مذكرات ليدل هارت .....
العقيد الركن ياسين سويد	التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانيّة .....
الأمير شكيب أرسلان	تاريخ غزوات العرب .....
الجزال فولر	التكنولوجيا وال الحرب الحديثة .....
محمد مهدي شمس الدين	العلمانية .....
مونتغومري	مذكرات المارشال مونتغومري .....
كارل فون كلاوزفيتز	الوجيز في الحرب .....
اللواء محمد عمران	تحبّبي في الثورة .....
الفريق عبدالكريم زهر الدين	مذكريّ عن فترة الانفصال في سوريا .....
منير الرئيس	الكتاب الذهبي .....
جورج طرابيشي	في التنظيم الثوري .....
غبريال بونه	حروب العصبيان والثورة .....
معين أحمد محمود	أسرار العسكرية الإسرائيليّة .....
المقدم ياسين سويد	معارك خالد بن الوليد .....
ولتر ملس	معضلة الحرب .....
اللواء محمد جمال الدين محفوظ	المدخل إلى العقيدة والأستراتيجية العسكرية الإسلاميّة .....
بريان بوند	الفكر العسكري عند ليدل هارت .....
ويلفريد بوزشيت	كيف انتصر الفيتكونغ في فيتنام .....
مونتغومري	السبيل إلى القيادة .....
مؤسسة تشرين للصحافة والنشر	الحرب العربيّة الأولى .....
اللواء الركن محمود شيت خطاب	الوحدة العسكريّة العربيّة .....
مذكرات كلوب باشا	جندي مع العرب .....
عادل وصفي وحسن علي	حرب الجنوب الحرب الخامسة .....
العميد الركن محمد إبراهيم الشاعر	نظرية الاحتمالات في السياسة .....
جان جاك روسو	في العقد الاجتماعي .....
رودولف وونستون تشرشل	حرب الأيام الستة .....
صفوان قدسي	السياسة المسلحة .....
تايلور وأخرون	تشرشل .....
سلطان ناجي	التاريخ العسكري لليمن .....
د. حامد ربيع	الحرب النفسيّة في المنطقة العربيّة .....

المؤلف	المصدر
—	المسح الاستراتيجي للمعهد الدولي ١٩٧٦ .....
بابلو توريس	الثورة والثورة المضادة .....
صالح مهدي عماش	الوحدة العسكرية .....
محمد حسين هيكل	الخل وال الحرب .....
—	يوميات مينا حيم بيعن .....
عبد الله عاصي	صراعنا مع إسرائيل .....
منظمة التحرير الفلسطينية	الحرب العربية الإسرائيلية الرابعة .....
جون ريد	عشرة أيام هزت العالم .....
العميد الأول عزيز الأحدب	دمعة ديان .....
—	يوميات جولدا مائير .....
د. أحمد الشرباصي	شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام .....
—	يوميات موشيه ديان .....
شمعون شيفر	كرة الثلج .....
زئيف شيف وآخرون	لبنان آخر وأطول حروب إسرائيل .....
الجنرال فكتور فرنر	الحرب العالمية الثالثة .....
د. رفعت السعيد	حسن البناء .....
كمال جنبلاط	أصوات على حقيقة القضية .....
—	القومية الاجتماعية السورية .....
د. محمد عمارة	جال الدين الأفغاني .....
الجنرال فولر	إدارة الحرب .....
لورانس	أعمدة الحكم السبعية .....
محمد حسين هيكل	مدافعان آية الله .....
محمد حسين هيكل	قصة السويس آخر معارك عصر العمالة .....
محمد حسين هيكل	حديث المبادرة .....
أحمد بن بلة	مذكرات أحمد بن بلة .....
البطرك الدوهي	أصل الموارنة .....
مذكرات الجنرال يونتش برويفيتشن	ساعة الاختيار .....
هتلر	كافاحي .....
الفريق الأول محمد فوزي	حرب الثلاث سنوات .....
إسحق رابين	من مفكرة إسحق رابين .....
كومامي نيكرومَا	دليل الحرب الثورية .....

المؤلف	المصدر
دينيس إيزنبرغ وآخرون	الموساد .....
الجزال ج. أوبري ديكتسون	حرب العصابات السوفياتية .....
—	مذكرة المارشال جوكوف .....
اللواء حسن البدرى وآخرون	حرب رمضان .....
محمد حسين هيكل	خريف الغضب .....
محمد حسين هيكل	على مفترق الطرق .....
محمد حسين هيكل	زيارة جديدة للتاريخ .....
—	مستندات عسكرية فرنسية .....
—	مستندات عسكرية أميركية .....
—	مستندات عسكرية أردنية .....
—	مستندات عسكرية لبنانية .....
ماكسويل تايلور وآخرون	الاستراتيجية الأميركية العليا في الثمانينات .....
مارفين كالب وبرنارد كالب	كيسنجر .....
ايريك مورنر	مدخل إلى التاريخ العسكري .....
محمد حسين هيكل	آفاق الثمانينات .....
محمد حسين هيكل	السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة .....
د. إسماعيل صبري مقلد	الاستراتيجية والسياسة الدولية .....
عبدالمحسن كامل مرتضى	الفريق مرتضى يروي الحقائق .....



## المحتويات

الصفحة	الموضوع
٧	الإهداء .....
٩	المقدمة .....
١٣	الصراع البشري .....
١٥	نظرة عامة في الصراع .....
٢٨	حل الصراعات .....
٣٩	نظريّة الحرب .....
٤١	الحرب في المنظار النظري .....
٥٧	عدالة الحرب .....
٦٣	مبادئ الحرب .....
٦٥	أفكار تمهيدية .....
٧٤	المبادئ .....
١٠٩	التأثير على المعركة .....
١١١	جو الحرب .....
١١٦	التأثير على العدو .....
١١٨	المؤثرات على القوات الصديقة .....
١٣٥	فن الحرب .....
١٣٧	التطور التاريخي .....
١٤٧	مستويات الفن العسكري .....

الصفحة	الموضوع
١٤٩	الاستراتيجية
١٥١	تمهيد وتعريف . . . . .
١٦٦	الاستراتيجية في المجال العسكري . . . . .
١٧١	مظاهر الاستراتيجية وصفاتها . . . . .
١٧٨	التخطيط الاستراتيجي . . . . .
١٩٧	أنواع الاستراتيجية وقواعدها . . . . .
٢٢٤	المناورة الاستراتيجية . . . . .
٢٤٣	الإعياء حرب الضعفاء . . . . .
٢٧٣	المراجع . . . . .

إخراج وإنتاج فني: عجاج العراوي





طباعة: مركز الطباعة الحديثة — بيروت

## هذا الكتاب

لا مبالغة في القول أن هذا الكتاب فريد من نوعه بالعربية تأليفاً وبحثاً ونقداً. فجل ما نُشر باللغة العربية في موضوع الفكر العسكري لا يعدو أن يكون ترجمة أو اقتباساً، أو تأليفاً لم يرق إلى مرتبة الشمول.

وهو بحث في ثوابت الفكر العسكري تحديداً، كما يشير اسم الكتاب الذي تشمل موضوعاته الصراع البشري منذ أن وجد البشر فتصارعوا، وما يزالون.. وسيظل هذا شأنهم إلى الأبد. ولعل نظرة خاطفة على أهم محتوياته الأساسية تغنى عن التطويل.

فهو يبحث في: - الصراع البشري ، وحل الصراعات - نظرية الحرب وعدالتها - فن الحرب: التطور التاريخي ومستويات الفن العسكري - الاستراتيجية: في المجال العسكري ، مظاهرها وصفاتها، التخطيط الاستراتيجي ، أنواع الاستراتيجية وقواعدها، المعاورة الاستراتيجية ، الإعباء وحرب الضعفاء... الخ .

ولا يكتفي المؤلف بالعرض والشرح ، وإنما ينقد ويفند ويجتهد ، مستنبطاً من خزانة الفكر العسكري ما يراه صالحًا للأمة العربية في صراعها مع أعدائها . إنه مكتبة مصغرة في موضوعه .